مؤسسة النبأ العظيم

بصائر الحكمة

مجالس في تدبر

سُورَةُ البَقَرَةِ

أ.د. محمد بن عبدالله الربيعة

إعادة تشفير: م: أبوطه الليبي

حقوق الطبع محفوظة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ أنزل كتابه المبين وجعله هدىً للمتقين، وأصلي وأسلم علىٰ نبينا محمد الأمين، وعلىٰ آله وأصحابه المكرمين، وسلف الأمة وعلمائها الربانيين، ومن سلك سبيلهم إلىٰ يوم الدين.

أما بعد:

فإن القرآن الذي أنزله الله هدىً للعالمين هو أشرف العلوم وأزكاها، وإن العلم بكتاب الله من أعظم الأعمال، ومن منحه الله العلم بكتابه وتعلمه والعمل به فقد خصه بالفضل والشرف والخير كله، كما جاء عن رسول الهدىٰ ﷺ أنه قال: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**»[1]، وذلك أن العلم بالقرآن والعمل به سبيل لتحقيق الكمال البشري والرفعة والصلاح والسعادة في الدارين، نسأل الله تعالىٰ أن يجعلنا من أهله، ويكرمنا بعلمه والعمل به.

ألا وإن القرآن العظيم هو السبيل الأقوم لإصلاح الأمة وهدايتها وبلوغ كمالها، يدلك علىٰ هذا سورتين عظيمتين، أولاهما سورة الفاتحة التي سماها النبي ﷺ بالكافية، وضمنها الله وجوه كماله وسبيل كمال عباده، وثانيهما سورة البقرة التي هي سنام القرآن وفسطاطه؛ فقد افتتحها الله تعالىٰ بذكر كتابه الكامل ومقصده الأعظم بقوله ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ

(١) أخرجه البخاري ٤/ ١٩١٩ برقم (٤٧٣٩)

﴿فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة ١-٢] واختتمها بإظهار شهادته تعالىٰ لنبيه ﷺ والمؤمنين معه بكمال إيمانهم بما أنزل عليهم بقوله تعالىٰ: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة ٢٨٥]. .

وإن المنهج الصحيح لتلقي كتاب الله تعالىٰ وفهمه والعلم به، هو التدبر الذي أخبر الله تعالىٰ أنه مقصد إنزال هذا القرآن العظيم فقال: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص:٢٩]، وأمر تعالىٰ جميع عباده بتدبر القرآن فقال ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [محمد:٢٤].

وإذا كان الوصول لفهم كتاب الله تعالىٰ هو التدبر، فإن حقيقة التدبر هي طول النظر في كلام الله تعالىٰ ومداومة الفكر فيه لمعرفة مراد الله تعالىٰ والعلم به والعمل بمقتضاه.

قال الزركشي: «وإنما يفهم بعض معانيه، ويطلع في أسراره ومبانيه، من قوي نظره، واتسع مجاله وتدبره»(١).

ولعل أقرب السبل لتدبره العلم بمقاصد هذا الكتاب العظيم، وإمعان النظر في مراد الله في كل موضع، وما تضمنه من التعبير والأسلوب، والمناسبات، والأحوال التي نزل فيها، ومن هنا جاء الكتاب الذي أسميته بصائر الحكمة مجالس تدبر سورة البقرة، وذلك أنني ركزت فيه علىٰ بيان مقاصد المقاطع والآيات وتدبر معانيها وإبراز حكم التعبير والتراكيب في ألفاظها، واستخلاص أبرز الهدايات التدبرية في آياتها .

وقد كان أصل هذا الكتاب رسالة دكتوراه مكثت فيها بحمد الله خمس سنين مصاحباً لهذه السورة معايشاً للآياتها، ولم تمر بي سنين أجمل وأمتع

(١) «البرهان في علوم القرآن» (٢/ ١٩١).

من العيش معها . كيف وهي سنام القرآن، وقد مكث عمر رضي الله عنه اثنا عشر سنة يتعلمها، ولعل السر في ذلك أنه أراد تحقيق مقصدها الأعظم وهو التسليم لأوامر الله تعالىٰ ليبلغ بذلك كمال الإسلام وحق الاستخلاف والإمامة في الدين كما قال الله تعالىٰ فيها عن إبراهيم ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، وقوله تعالىٰ ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، كما أن هذه السورة تعتبر نظاماً أساسياً للدولة كما يؤكده نزلها خلال فترة قيام الدولة المسلمة في المدينة، فلعل عمر رضي الله عنه أراد أن يجعلها دليله وقائده في نظام الدولة فترة خلافته، والله أعلم .

وقد يسر الله لي كتابة الرسالة – بفضل الله – في أكثر من ألف وسبعمائة صفحة، ثم جلست سنين في مراجعتها وتهذيبها فرأيت أن أختصرها بما يناسب حاجة الناس اليوم من الاختصار والتهذيب، فخرجت في هذا الكتاب بثلث المقدار والثلث كثير، والحمد لله علىٰ توفيقه وامتنانه، وأسأل الله أن يكتب لهذا الكتاب القبول والأثر المبارك، ويجعله ذخراً لي عنده يوم ألقاه .

وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين

كتبه

محمد بن عبدالله الربيعة

أستاذ التفسير بجامعة أم القرىٰ

١/ ٩/ ١٤٤٢هـ

تمهيد وتعريف بسورة البقرة

فضل السورة ومجمل ما اشتملت عليه:

سورة البقرة من أعظم سور القرآن، فهي من أوائل مانزل من السور بعد الهجرة، ومكث نزولها عشر سنوات، وكان آخر آيات القرآن نزولاً منها. وهي أطول سور القرآن علىٰ الإطلاق، وقد حوت بنزولها ومضمونها أصول أحكام القرآن. ويدل علىٰ فضلها ماورد من أحاديث تدل علىٰ عظمها وعظم ماتضمنته ومنها:

أولاً: ما أخرجه مسلم وأحمد من حديث النواس بن سمعان قال: **سمعت النبي ﷺ يقول: «يؤتىٰ بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمه سورة البقرة وآل عمران»**[1].

ثانيًا: وأخرج أحمد والدارمي وغيرهما عن بريدة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«تعلموا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة، تعلموا البقرة وآل عمران فإنهما هما الزهراوان يجيئان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان، أو كأنهما فرقان من طير صوافّ تجادلان عن صاحبهما»**[2].

ثالثًا: وأخرج مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة»**[3].

رابعًا: وأخرج الترمذي وأحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

(١) أخرجه مسلم ١/ ٥٥٤ برقم ٨٠٥ وأحمد ٤/ ١٨٣

(٢) رواه أحمد ٥/ ٣٤٨ والدارمي في السنن ٢/ ٥٤٣ برقم ٣٣٩١ وصححه الأرنؤوط في تعليقه علىٰ المسند

(٣) أخرجه مسلم ١/ ٥٣٩ برقم ٧٨٠ والترمذي ٥/ ١٥٧ برقم ٢٨٧٧

«لكل شيء سنام، وإن سنام القرآن سورة البقرة، وفيها آية هي سيدة آي القرآن، آية الكرسي» [(١)].

وكل هذه الفضائل دالة علىٰ عظم مضمونها، وهو أنها اشتملت علىٰ أصول الدين عقيدة وشريعة.

بيان ما اشتملت عليه السورة ومقصدها

بالتأمل الثاقب وطول النظر في السورة نجد أنها جمعت أصلين عظيمين، هما:

أولاً: بيان أصول الإيمان والعلم، وهو يمثل الشطر الأول من السورة. وهو القسم العلمي والنظري.

ثانياً: بيان أصول الشريعة. وهو يمثل الشطر الثاني من السورة، وهو القسم العملي التطبيقي.

وقد جمع ذلك شيخ الإسلام في تقرير صريح فقال: **«وقد ذكرت في مواضع مااشتملت عليه سورة البقرة من تقرير أصول العلم وقواعد الدين»** [(٢)].

وقد انتظم هذان الأصلان في غرض عظيم تجلىٰ في السورة ودل عليه مضمونها ونزولها وهو أنها في إعداد الأمة بعد استخلافها لتلقي أوامر الله وشريعته وتبليغها .

وحين نستعرض السورة بكاملها يمكن لنا أن نقسم السورة إلىٰ قسمين في ضوء هذا السياق والغرض الذي انتظم فيها:

---

(١) رواه الترمذي ٥/ ١٥٧ برقم ٢٨٧٨ و أحمد ٥/ ٢٦ وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم ٤٧٢٥

(٢) «مجموع الفتاوىٰ» (١٤/ ٤١).

القسم الأول: أصول الإيمان والعلم، من أول السورة إلىٰ آية (١٧٦).

وهذا القسم يمثل الأساس أو القاعدة العلمية، وقد تركز الحديث فيه عن القرآن، فافتتح بقوله تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة ١-٢] ثم بيّن أقسام الناس ومواقفهم مع القرآن. وختم القسم بقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾ [البقرة١٧٦]، ونلاحظ أنه ابتدأ بالكلام عن القرآن في تقرير كماله وعلو شأنه وعظم مقصده ثم بين مواقف الناس منه، وختم بالكلام عنه صريحاً بأنه الحق، وأن من خالفه فهو في شقاق بعيد. فظهر بذلك أن المقصد الأعظم في هذا القسم هو بناء قاعدة التشريع بتحقيق كمال القرآن في ذاته ومقصده وأنه الحق لاريب فيه، فبعد أن أسس هذه القاعدة انطلق بعدها في البناء والتشييد من خلال تفصيل التشريع في السورة، وهو مايمثله القسم الثاني.

قد أشار **صاحب النبأ العظيم** إلىٰ هذا القسم في بداية حديثه عن القسم الثاني بقوله: «بعد إرساء الأساس، تكون إقامة البنيان، وبعد الاطمئنان علىٰ سلامة الخارج، يجي دور البناء والإنشاء في الداخل، نعم لقد تم (إصلاح العقيدة) التي هي روح الدين وجوهره، فيبدأ (تفصيل الشريعة) التي هي مظهر الدين وهيكله.. كانت العناية من قبل موجهة إلىٰ بيان (حقائق الإيمان) فلتتوجه الآن إلىٰ بسط (شرائع الإسلام) »[1].

وقد تضمن هذا القسم بإجمال محاور أساسية وهي:

أولاً: وصف القرآن بما هو أهله، ووصف متبعيه ومخالفيه كلاً بما يستحقه، وكل ذلك راجع إلىٰ القرآن. وقد جاء هذا المحور من أول السورة إلىٰ آية ٢٠.

(١) «النبأ العظيم» (ص١٩٥).

ثانيًا: أصول الإيمان التي انطلق منها هذا القرآن وبني عليها، وهي التوحيد والوحي والنبوة والجزاء، وقد تضمنها ردٌّ وتفنيد علىٰ المخالفين. وقد جاء تفصيل هذا المحور من آية ٢١ إلىٰ آية ٢٩.

ثالثًا: أصل الهداية التي تضمنها القرآن و دعا إليها، وأنها راجعة إلىٰ أصل الخليقة وحكمة الله في إيجاد البشر واستخلافهم في الأرض، ابتداءً من آدم عليه السلام. وقد جاء تفصيل هذا المحور من آية ٣٠-٣٩.

رابعًا: بيان موقف أهل الكتاب من الهدىٰ، وقد أطال الحديث عنهم لكونهم أقرب الأمم لأمة الإسلام وهي الأمة المستخلفة قبلهم، وإنما أطال الحديث عنهم لإقامة الحجة عليهم دعوة لهم، وكشفاً لكفرهم وحجودهم، ورداً لافتراءاتهم حول هذا الدين ونبيه الكريم، وأصل اتصاله بإبراهيم، ووراثته قبلته. وتهديدهم علىٰ الكتمان للحق في ذلك كله، وقد جاء تفصيل هذا المحور من آية ٤٠-١٦٢.

خامسًا: بيان أصول التشريع التي تقوم عليها أحكام الدين وتشريعاته التي تضمنها هذا القرآن، وهما أصلان عظيمان:

١- بيان أصل الدين كله التي تقوم عليه الشريعة وهو وحدة المعبود الخالق المشرع في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ...﴾ [البقرة ١٦٣]

٢- بيان أصل التشريع وهو الحل وأن المحرمات محدودة إظهاراً لكمال شريعته وسهولتها وملائمتها للفطرة، مع ذكر أصول المحرمات التي هي وسيلة للشرك في التشريع، وهي أربعة أشياء، أباحها حال الاضطرار.

وقد جاء تفصيل هذا المحور من آية ١٦٣-١٧٦.

القسم الثاني: تقرير وتفصيل أصول الأحكام وقواعد الشريعة. من آية ١٧٧ إلىٰ آخر السورة.

وهذا القسم يمثّل القاعدة العملية، التفصيلية، حيث قد تركز فيه تفصيل تشريعات القرآن[(١)].

وابتدأ ببيان أصول البر بقوله تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ الآية [البقرة ١٧٧]. وتعتبر هذه الآية مقدمة لهذا القسم جامعة لأصول الأيمان والدين فهي حلقة فاصلة بين القسمين، وختم هذا القسم بآخر السورة وهو قوله تعالىٰ: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ الآيتين [البقرة ٢٨٥ ، ٢٨٦]، وهي تمثل الشهادة للمؤمنين بالإيمان بالكتاب وما تضمنه من أحكام وتشريعات. فهي قد تكون ختاماً مناسباً للقسمين.

وقد انتظمت الأحكام التي تضمنها هذا القسم في محورين أساسيين:

الأول: الأحكام التي اتفقت الأديان علىٰ أصولها[(٢)]، وخالف فيها أهل الكتاب، أو شُدّد عليهم فيها، فجاء الإسلام في تمحيصها وتكميلها والتخفيف فيها، وفي ذلك إظهار لكمال شريعة الإسلام ترغيباً بها.

وشاهد ذلك ما ذكره البقاعي في تفسير آيات القصاص: (لما فتح سبحانه وتعالىٰ لنا باب الرحمة بالقصاص منبهاً علىٰ تبكيت أهل الكتاب، وكان ذلك من حكم التوراة لكن علىٰ سبيل الحتم، وكان العفو علىٰ النصارىٰ كذلك؛ أظهر في الفرقان

(١) «النبأ العظيم» (ص١٩٦).

(٢) وهذا -والله أعلم- وجه تخصيصها وجمعها في السورة لتكون أدعىٰ لقبول وإيمان أهل الكتاب والمشركين

زيادة توسعة بوضع هذا الإصر عنا بالتخيير بينهما) أي بين القصاص والعفو [1].

وقال أبو السعود في تفسيره لآيات القصاص: (﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ شروع في بيان بعض الأحكام الشرعية علىٰ وجه التلافي لما فرط من المخلين بما ذكر من أصول الدين وقواعده التي بنىٰ عليها أساس المعاش والمعاد) [2].

وقال الألوسي: «والسورة الكريمة لكونها سنام القرآن ذكر فيها كليات الأحكام الدينية من الصيام والحج والصلاة والجهاد علىٰ نمط عجيب»[3].

ثانيًا: الأحكام التي تركز علىٰ إصلاح المجتمع المسلم في بداية تأسيس الدولة الإسلامية وبناء نظامها الأساسي، وهي الأحكام المتعلقة بحفظ الضرورات الخمس، ورعاية الحقوق، وما يتفرع عنها من أحكام المعاملات الأسرية والأحوال الشخصية، وأحكام المعاملات المالية، ونظام العقود. وقد ركزت في ذلك كله علىٰ رفع المجتمع المسلم وحمايته من صفات العدوانية والشهوانية والأنانية والطبقية التي قام عليها النظام الجاهلي، ولهذا ابتدأ بحكم القصاص الذي هو من أعظم أسباب الحياة واستقرارها.

قال ابن عاشور في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [البقرة ٢١٩]: (هذا من عداد الأحكام التي بينها في هاته السورة مما يرجع إلىٰ إصلاح الأحوال التي كان عليها الناس في الجاهلية، والمشروع في بيانها من قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ [البقرة ١٧٨] إلىٰ آخر السورة، عدا ما تخلل ذلك من الآداب والزواجر والبشائر والمواعظ والأمثال والقصص، علىٰ عادة القرآن في تفنن أساليبه تنشيطًا للمخاطبين) [4].

(١) «نظم الدرر» (٣/ ٢٦).
(٢) «إرشاد العقل السليم» (١/ ٢٣٠).
(٣) «روح المعاني» (١/ ٧٥٥).
(٤) «التحرير والتنوير» (٢/ ٣٣٨).

فالأحكام بإجمال يجمعها محوران:

أولاً: تجديد الأحكام المتفق عليها بين الأديان ووقع فيها الخلل من أهل الكتاب، أو أهل الجاهلية، وإظهار كمال الإسلام فيها.

ثانيـًا: بناء وتأسيس المجتمع المسلم وإصلاح أحواله واستتباب نظامه وأمنه وقيام دولته.

وهنا مسائل مهمة متعلقة بهذا القسم:

المسألة الأولىٰ: بناء أحكام السورة علىٰ التيسير والتخفيف.

وقد تجلىٰ هذا المحور في أحكام السورة من عدة جوانب:

الأول: جانب رعاية التخفيف العام علىٰ الأمة، ومن شواهد ذلك:

١- قوله تعالىٰ: في آيات القصاص ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٢- ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ..﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ..﴾

٣- قوله تعالىٰ: ﴿وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ وقد كانت العرب تأتي البيوت من ظهورها حال إحرامها.

٤- قوله تعالىٰ: في آيات الحج ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ وقد كانت العرب تمنع التمتع، وجعل الهدي شكرانـًا أم جبرانـًا، ثم جعل الصيام بدلاً عن الهدي زيادة في الرخصة والرحمة..

٥- قوله تعالىٰ: في آيات الحج ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾. وفيه إباحة التجارة في الحج.

٦- قوله تعالىٰ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ أي اليسير، وهذا رحمة وتيسير.

٧- قوله تعالىٰ: ﴿لاَّ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِيَ أَيْمَانِكُمْ﴾ وهذا فيه تخفيف ورحمة.

٨- قوله تعالىٰ: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ وقد كانت اليهود تحرم إتيان المرأة في قبلها من دبرها.

٩- قوله تعالىٰ: ﴿إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا﴾ في التخفيف في حكم المكاتبة في البيع

١٠- وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِباً فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾

الثاني: جانب رعاية المحتاج. ومن أمثلة ذلك:

١- قوله تعالىٰ: في آية أصول المحرمات ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾

٢- قوله تعالىٰ: في آيات الصيام ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ وقد تكررت مرتين.

٣- قوله تعالىٰ: في آيات الحج ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾

٤- وقوله تعالىٰ: في آيات الحج ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾

الثالث: جانب رعاية الضعيف.

١- قوله تعالىٰ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ فمن رحمته بالضعفاء أمر بإصلاحهم ومخالطتهم، وهذا خلاف ما عليه أهل الكتاب والمشركون

٢- قوله تعالىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ وقد كان الرجل في الجاهلية يولي من إمرأته ما يشاء.

٣- قوله تعالىٰ: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ﴾ وقد كان الرجل في الجاهلية يطلق ما يشاء من غير عدد فحده الله رحمة بالمرأة الضعيفة ومنعاً من ظلمها..

٤- قوله تعالىٰ: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا﴾ وهو رحمة بالزوجين حال إرادتهما الرجعة بعد البيتوتة.

٥- قوله تعالىٰ: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ رحمة ورعاية بالرضيع الضعيف وحفظاً له

٦- قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ فجعل التشاور حفظاً ورحمة بالضعيف.

٧- قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾ رحمة بالمرأة المطلقة الضعيفة، وتطييباً لخاطرها.

٨- قوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ وهذا رعاية للمرأة المتوفىٰ عنها زوجها في حق السكنىٰ عاماً كاملاً.

٩- وقوله تعالىٰ: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ وهذا رعاية للمرأة المطلقة المتوفىٰ عنها زوجها وهي في عدة الطلاق، حق المتعة، أو المطلقة عموماً.

١٠- قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ رعاية للمعسر الضعيف.

١١- آيات الصدقة، وهي محض الرحمة بالفقراء.

الرابع: جانب التدرج في التشريع. ومثال ذلك:

١- قوله تعالىٰ: في آيات الصيام ﴿أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ الآية، وقد كان الصوم أول الإسلام بالتخيير بينه وبين الإطعام حتىٰ نزل قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾.

٢- قوله تعالىٰ: في آيات الخمر ﴿يسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾. فهذه الآية هي أول آيات تحريم الخمر وهي في بيان منافعه وإثمه دون تحريمه.

المسألة الثانية: بناء الأحكام في السورة وترتيبها.

بالتأمل في أحكام السورة وترتيبها نجد أنها قد جاءت في ترتيب بديع مترابط متناسق، وقد بنيت علىٰ قاعدة مهمة وهي قاعدة حفظ الضرورات الخمس للإنسان والمجتمع، وقد جاء ترتيبها مبني علىٰ أهميتها وضرورتها في بناء الفرد والأسرة والمجتمع

١- ابتدأ أولاً بحفظ الدين، وهو ما تضمنه القسم الأول، وجمعته آية البر، وفصلته بعض الآيات المتعلقة بأركان الدين مما لم يشرع من قبل، وهو الصوم والحج.

٢- حفظ ضرورة النفس والحياة، إزالة لما كان عليه العرب من النزاع والشحناء المؤدي إلىٰ الظلم والتعدي، ضماناً لاستقرار المجتمع وأمنه، ولهذا ابتدأ بأحكام القصاص التي فيها حفظ النفس، ثم بأحكام الوصية التي فيها حفظ الحقوق المالية الواجبة والتي أخل بها العرب.

٣- حفظ العقل والمال، إزالة لما يؤدي إلىٰ الشحناء والتقاطع، وجاء ذلك ببيان المصالح والمفاسد في الخمر والميسر تمهيداً لتحريمه.

٤- حفظ الحقوق الشخصية ونظام الأسرة اتصالاً وانفصالاً، ضماناً للاستقرار، وإزالة للظلم والتعدي الذي كان عليه العرب.

٥- حفظ الحقوق المالية، منعاً للظلم والتعدي بالربا، وقطعاً لأبواب المنازاعات، وضماناً لاستقرار المجتمع مالياً.

وقد ظهر لي من خلال التأمل تداخل الضرورات الخمس وأحكامها في السورة، مما يوحي بتلازمها وترابطها في شريعة الإسلام، وهذا من دلائل كمال الشريعة.

فما أعظم مابنيت عليه الأحكام في السورة وما أعظم ماجاء عليه ترتيبها.

وبتأمل في السورة نجد أن أركان الإيمان تكررت في أول السورة ووسطها وآخرها، ولعل ذلك من باب توثيقها في النفوس إذ أن هذه السورة تجمع أصول الإيمان والتشريع، فكانت هذه الأركان أصل الدين كله، وإليها ترجع الأعمال كلها، وهو علامة الصدق والتقوىٰ. فلما كانت بهذه المنزلة احتاجت إلىٰ تكرار للتأكيد عليها وتوثيقها في نفوس المؤمنين.

المسألة الثالثة: عرض الأحكام في السورة وتقريرها.

من بديع التنزيل ومن عظيم التشريع فيه، أن أحكامه لم تعرض عرضاً جافاً مجرداً، بل جاء عرض الأحكام في أسلوب مشوق ومرغب للانقياد لها حيث صاحبها عوامل الترغيب والترهيب التي تورث قبولها واحترامها والانقياد لها، كما صاحبها التوجيهات التي تهيئ النفوس للأحكام وتعدها.

ولا تجد حكماً من أحكام الشريعة إلا وتراه محاطاً بتلك العوامل المؤثرة والتوجيهات الممهدة. وهذا العرض هو الأمر الذي تميز به القرآن حقاً في تشريعاته عن كل الكتب والأنظمة.

بل من أعظم الدلائل علىٰ كمال هذا التشريع، أنه في جانب العبادات غلّب جانب الترغيب والتخفيف والترخيص، واستجاش خلالها النفوس بإحياء روح الإيمان والتقوىٰ في القلوب، أما في جانب المعاملات فقد غلب جانب الترهيب والتشديد والاحتياط. وذلك لأن جانب العبادات حساب بين العبد وربه، لا تتعلق به مصالح العباد وحقوقهم كأحكام المعاملات التي هي مبنية علىٰ المشاحّة بين الناس. فجانب العبادات يحتاج إلىٰ ترسيخ التقوىٰ والإيمان في القلب، أما جانب المعاملات فيحتاج إلىٰ ترسيخ جانب الاحتياط والدقة والتفصيل، ولهذا أطال في أحكام المعاملات كآيات الطلاق، وآية الدين. فلله ما أعظم هذا التشريع وما أبدع نظامه وما أجمل عرضه.

وسورة البقرة التي نحن في صدد دراستها قد تميزت في هذه العرض تميزاً ظاهراً كيف لا وهي أول السور المدنية، وقد نزلت في بداية الإسلام ومخالطة أهل الكتاب فلا شك أن الأحكام التي ستتضمنها تحتاج إلىٰ عوامل مؤثرة ترغيباً وترهيباً وتوجيهات مصاحبة هي بمثابة الروح تسري في النفوس فتحركها

وتعدها للانقياد والقبول؛ إذ النفوس البشرية تحتاج بطبعها إلىٰ ما يحركها بالتوجيه والترغيب والترهيب، خاصة في بدايات حياتها أو حالات تغيير النظام عليها.

ولو أننا استعرضنا أحكام السورة لتجلىٰ لنا هذا المعنىٰ. وقد أحصيت المواضع التي ورد فيها التذكير بالتقوىٰ في السورة فبلغت خمسة وثلاثين موضعـًا، بصيغ مختلفة

ففي الحكم الأول وهو الحديث عن القصاص في القتلىٰ وتشريعاته ترد إشارة التقوىٰ ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة ١٧٩]

وفي الحديث عن الوصية وأحكامها يأتي التذكير بالتقوىٰ في قوله تعالىٰ: ﴿حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة ١٨٠].

وفي الحديث عن الصيام أيضـًا يأتي التذكير بها بصيغة ﴿لعلكم تتقون﴾

ويأتي التذكير بها أيضـًا في ختام آيات الصيام في قوله تعالىٰ: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة ١٨٧]. وأمثلة كثيرة.

وسر هذا التركيز علىٰ التقوىٰ والتذكير بها وتكرارها هو أن التقوىٰ تفاعل القلب وشعوره بالخوف من الله، وتحرّجه من غضبه وتطلبه لرضاه، وبغير هذا الرباط لا تقوم شريعة، ولا يفلح نظام، ولا يتحرج متحرج، ولا تكفي التنظيمات الخاوية من الروح والحساسية والخوف والطمع في قوة أكبر من قوة الإنسان.. فالتقوىٰ هي الحارس اليقظ في داخل الضمائر، وفي حنايا القلوب، تكفها عن مواضع الحدود، إلىٰ جانب الشريعة النيرة البصيرة بخفايا الفطر ومكنون القلوب .

وربما اختلف التوجيه والترغيب والترهيب في أحكام السورة، فيأتي الترهيب بأساليب متعددة كقوله تعالىٰ: ﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة ١٩٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة ١٨١] وغيرها، ويأتي الترغيب بأساليب متعددة أيضاً كقوله تعالىٰ: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة ١٨٦] وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة ١٧٣] وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلاَ تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة ٢٣٧].

فما أعظم هذا التشريع، وما أكمله، ولعمر الله إنه التشريع الذي يناسب الفطر والطبائع، ويحقق الكمال الإنساني في شتىٰ نواحي الحياة.

المسألة الرابعة: وجه تسمية السورة بالبقرة.

هذه المسألة من المسائل التي تبرز غرض السورة وتؤكده، وذلك أن اسم السورة دال بلا شك علىٰ غرضها وسياقها العام.

وبالنظر في تسمية سورة البقرة بالبقرة، نجد أن هذا التأويل ظاهر فيها، وذلك أنها سميت باسم القصة الواردة فيها وهي قصة البقرة التي ورد فيها تكليف بني إسرائيل بذبح البقرة لإظهار أمر القتيل. وتسمية السورة بهذه القصة له دلالة عظيمة في السورة وارتباط ظاهر بغرضها العام، وذلك أنه لما كانت السورة مبنية علىٰ تقرير التشريع لهذه الأمة وتكليف المؤمنين به حيث كانت أول سورة نزلت في المدينة [1]، وكانت المرحلة المدنية هي مرحلة التشريع، كان مناسباً

(١) انظر: التحرير والتنوير» (١/ ١١٧) قال ابن عاشور: (نزلت سورة البقرة بالمدينة بالاتفاق وهي أول ما نزل في المدينة، وحكىٰ ابن حجر في شرح البخاري الاتفاق عليه).

أن يمهد لذلك بذكر موقف بني إسرائيل من أوامر الله تعالىٰ وتشريعاته، وبيان سوء تلقيهم لأوامر الله تعالىٰ، حيث تلقوا الأمر بذبح البقرة بالتلكؤ والتباطؤ والسؤالات والتشدد فشدد الله عليهم في ذلك؛ تحذيراً للمؤمنين من مشابهتهم في ذلك، وإرشاداً لهم بأن يكون حالهم عكس ماكان عليه بنو إسرائيل، وأن يتلقوا أمر الله بالمبادرة والامتثال لينالوا رحمة الله لهم بالتخفيف والتيسير. وهذا ماكان عليه حال المؤمنين كما نصت عليه الآيات في آخر سورة البقرة في قوله تعالىٰ: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ....﴾ إلىٰ قوله ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾.

وهذا التأويل قد أشار إليه ابن عاشور في سبب ورود القصة في السورة وهي أنها لوصف سوء فهمهم لأمر الله تعالىٰ لهم بذبح البقرة [(١)].

المسألة الخامسة: وجه التفصيل والتطويل في خطاب بني إسرائيل في السورة.

تضمنت السورة الحديث عن بني إسرائيل بشيء من التفصيل والتطويل وهذا مناسب للسياق من وجهين راجعين للغرضين السابقين:

أولاً: أشار صاحب المنار إلىٰ سر دقيق في ذلك وهو أن بني إسرائيل لا يكتفون بالإشارة والعبارة المختصرة لجمود أذهانهم، واعتيادهم علىٰ التأويل والتحريف والمراوغة، فلذلك أطال الحديث في دعوتهم بأساليب مختلفة من التذكير بالنعم التي أنعمها عليهم ترغيباً، والتذكير بجناياتهم وجنايات أسلافهم ترهيباً [(٢)].

---

(١) انظر: التحرير والتنوير» (١/ ١١٧)

(٢) انظر: «تفسير المنار» (١/ ٤٧٦).

ثانيًا: أن التفصيل في ذكر صفاتهم وأحوالهم يناسب مابنيت عليه السورة من تربية المؤمنين وتهيئتهم لتلقي التشريع، ليحذروا من مخالفاتهم ومزالقهم وأخطائهم، وليكونوا علىٰ بيّنة منهم، ذلك أن اليهود أشد أعدائهم في المدينة فناسب أن يكونوا علىٰ معرفة تامة بشأنهم وأحوالهم.

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ
ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن
قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾ (البقرة: ١ – ٥)

جاءت فاتحة السورة في التعريف بشأن القرآن[1]، وتقرير منزلته وكماله وعلو قدره وسمو مقصده وعظم أثره.

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾

◈ غرض الآيتين:

بيان كمال القرآن وسلامته من النقص وكمال مقصده.

البصائر والحكم

- **افتتاح السورة بالأحرف المقطعة** فيه إشارة إلىٰ عظمة المذكور بعدها وهو القرآن، وفيه إيقاظ للأسماع وتنبيه إلىٰ عظم ما بعدها.

- **الإشارة إلىٰ القرآن بإشارة البعد ولام الكمال ﴿ذَٰلِكَ﴾** دال علىٰ بعد منزلته وكمال قدره.

- **وصف القرآن بالكتاب** فيه إشارة إلىٰ أنه هو الكتاب الكامل من بين الكتب السماوية والبشرية . كما يدل عليه تعريفه بالألف واللام، ولذلك جعله الله مهيمناً علىٰ الكتب كلها.

(١) انظر: «البحر المحيط» (١/ ٧٧)، «أنوار التنزيل» (١/ ٢١) «النبأ العظيم» ص٢٠٥.

- **تخصيص وصف التقوىٰ** لأنه الوصف المحقق لكمال الهداية.

- **وصف القرآن بالأوصاف الأربعة** دال علىٰ الكمال من جهة أنها تضمنت أعظم أوصاف الكمال في الكتب، وذلك أنه وصفه أولاً بكمال الإعجاز، ثم وصفه ثانياً بأنه الكتاب الأكمل، ثم وصفه بكمال سلامته من كل ريب ونقص، ثم وصفه بكمال الهداية. فأحاط بذلك علىٰ وجوه الكمال(١).

- التقوىٰ في القلب هو الذي يؤهل العبد للانتفاع بالقرآن كما قال تعالىٰ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ
بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى
مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ٥﴾

◈ غرض الآيات:

بيان صفات المتقين الذين اختصوا بكمال الهداية.

◈ معاني الآيات:

- **المراد بالموصوفين في الآيات:** الآيات كلها في المؤمنين الذين حققوا التقوىٰ؛ لأن السياق في ذكر صفات المتقين الذين اختصوا بكمال هداية القرآن، فهو بيان لأوصاف المتقين المهتدين بالقرآن.

- **المراد بالغيب في الآية:** المراد بالإيمان بالغيب أصله وهو الإيمان الناتج عن معرفة القلب وتفكره واستدلاله بتحقق التقوىٰ والخشية فيه؛ لأنه لما كان

(١) انظر: «روح المعاني» (١/ ١١٠).

المراد بالموصوفين في الآية ابتداءً المؤمنين بغير علم سابق، وهم مؤمنوا العرب كما بيّنت، لزم أن يكون المراد بالغيب أصله ليبين طريق إيمانهم.

- **المراد بالصلاة والإنفاق في الآية:** أصل العمل وهو إقامة الصلاة والإنفاق الدالان علىٰ التقوىٰ، وهذا يشمل كل صلاة وكل إنفاق؛ لأن المقصود هو بيان الدليل علىٰ التقوىٰ، وهو هنا إقامة الصلاة والإنفاق؛ لأن القيام بهما دال علىٰ تحقيق أصل التقوىٰ في القلب.

البصائر والحكم

- **وجه تخصيص وصفي الإيمان في الفريقين:** أنه وصف الفريق الأول؛ وهم المؤمنون من العرب بصفة إيمانهم وتحقيقهم للتقوىٰ وهي إيمانهم بالغيب؛ أي أنهم آمنوا من غير علم سابق، وأنه وصف الفريق الثاني وهم مؤمنو أهل الكتاب، بصفة إيمانهم ووجه تحقيقهم للتقوىٰ وهي إيمانهم بالقرآن مع الإيمان بكتبهم.

- **وجه تخصيص الصلاة والإنفاق، وتقييدهما:** أنهما أعظم الأعمال الدالة علىٰ التقوىٰ، فهما أصل الأعمال البدنية والمالية، وتخصيص الصلاة بالإقامة؛ فيه دلالة علىٰ تحقق وصف التقوىٰ فيهم من حيث أن المقصود القيام بالفعل علىٰ الوجه الصحيح وهذا دليل التقوىٰ، فالتعبير به أصرح في الثناء عليهم، وبيان تحقيقهم للوصف الكامل في الصلاة[1]، وتخصيص الإنفاق بالرزق المضاف إلىٰ الله تعالىٰ، فيه دلالة علىٰ تحقق وصف التقوىٰ فيهم.

- **وجه تخصيص وصف اليقين بالآخرة، وختم الصفات به:** فيه تأكيد إيمانهم بها وزوال ما كانوا عليه من خلل واعتقاد باطل، من أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هوداً أو نصارىٰ، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة واختلافهم

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (١/ ٢٣٢).

في نعيم الجنة ودوامه وانقطاعه، وختم صفات المتقين به لأنه ختْم بالأثر وهو اليقين بالآخرة بعد ذكر الإيمان والعمل.

- وجه التعبير باليقين دون الإيمان في قوله تعالىٰ:﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾: أنه لما كان السياق في بيان كمال أوصاف المتقين، ناسب وصفهم باليقين بعد العلم الذي هو الإيمان، والعمل الذي يمثل الأعمال المذكورة؛ لأن اليقين هو منتهىٰ العلم واستقراره، وأن التعبير به إظهار لمباينتهم وتركهم ماكانوا عليه من اعتقاد باطل أو فاسد في أمر الآخرة.

- وجه ختام الآيات بقوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ والتعبير بالفلاح: أنه لما كان السياق العام في الثناء علىٰ القرآن بإظهار كماله، ومن ذلك كمال أثره ومقصده وهو الهداية، وذكر الوصف المحقق لهذا الكمال وهو تحقيق كمال التقوىٰ ودلل عليها بأكمل أوصافها؛ ختم الكلام بتأكيد استحقاق المتصفين بذلك لكمال الهداية، وكمال أثرها وهو الفلاح التام في الدنيا والآخرة، قال السمرقندي: «أصل الفلاح البقاء في النعمة، ويقال الفلاح: أن يبلغ الإنسان نهاية ما يأمله، ويقال معناه: قد وجدوا ما طلبوا ونجوا من شر ما هربوا منه، وكل ما في القرآن ﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ فتفسيره هكذا»[(١)].

- في قوله: ﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ دلالة علىٰ أهمية الإيمان بالآخرة؛ لأن الإيمان بها يستلزم الاستعداد لها.

- ختمت الصفات بقوله:﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ لأنها الخاتمة التي تربط الدنيا بالآخرة، والمبدأ بالمصير، والعمل بالجزاء.

---

(١) انظر:«تفسير السمرقندي» (١/ ٥٠).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦
خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ
عَظِيمٞ ٧﴾ (البقرة: ٦ – ٧)

سياق الآيتين في ذكر الصنف الأول من المعرضين عن هدي القرآن غير المنتفعين به لانعدام التقوى في قلوبهم، وهم الكفار من المشركين وأهل الكتاب. وبيان جزائهم في ذلك.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦﴾

◈ غرض الآية:

بيان كمال عدم الانتفاع بالقرآن حال الكفر والإعراض.

البصائر والحكم

- التعبير بالكفر دال على أن الموصوفين هم الذين كفروا أي أعرضوا وغطوا آذانهم عن سماع الحق وقبوله، وهذا دال على أن الفعل ناتج منهم قصداً بالإعراض والصد بخلاف حال المتقين المنتفعين بالقرآن.

- قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ﴾: التعبير بحرف الاستعلاء يفيد سبباً من أسباب عدم الانتفاع وهو تمكن الإعراض فيهم.

- قوله تعالى: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ دون ﴿عليك﴾ يؤكد أن عدم الانتفاع ناتج من أنفسهم بإعراضهم وصدودهم، وأن النقص فيهم لا في إنذاره ولا فيمن أنذرهم

بالقرآن.

- التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ بصيغة الاستفهام التي تفيد زيادة توغلهم في الكفر والإصرار[1]. والإتيان بالفعل دون المصدر؛ إذ لم يقل ﴿إنذارك﴾ يفيد الزيادة في إصرارهم وإعراضهم عن القرآن.

- التعبير بالإنذار دون البشارة لأنه أنسب لحالهم من الكفر والإعراض. وفيه دلالة علىٰ إصرارهم وعدم قابليتهم، من حيث أنه لا ينفع معهم حتىٰ الإنذار لشدة إعراضهم، وهذا أبلغ في ذمهم[2].

- التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ مفيد زيادة معنىً في إصرارهم من جهة أن الجملة تأكيد للجملة قبلها تقرير لها، ففيها زيادة معنىً؛ وهو عدم إمكان إيمانهم ماداموا معرضين، وهذا يفيد أنه لا ينتفع بالقرآن من كان معرضاً عنه[3].

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾

◈ غرض الآية:

بيان جزاء المعرضين عن القرآن الكافرين به.

◈ معاني الآية:

- المراد بالموصوفين: المراد هنا المصرون علىٰ كفرهم، المعرضون بأنفسهم، الذين لا ينتفعون بهدي القرآن ولا ينفع معهم الإنذار، لعدم قابليتهم

(١) انظر «نظم الدرر» (١/ ٩٤).

(٢) انظر «مفاتيح الغيب» (١/ ٣٨). «إرشاد العقل السليم» (١/ ٤٦).

(٣) انظر «الكشاف» (١/ ٤٨)، «التحرير والتنوير» (١/ ٢٥١).

لذلك؛ لأن سياق الآيات قبلها وارد في ذكر شأن الكتاب والثناء عليه، وبيان أصناف الناس في الانتفاع فيه وموقفهم منه، فلما ذكر أهله المتقين المنتفعين به الذين كمل انتفاعهم به، ذكر هنا أضدادهم الكافرين.

البصائر والحكم

- التعبير بالختم مناسب للسياق من حيث أن الختم هو السد والتغطية علىٰ الشيء والاستيثاق من ألا يدخله شيء، فهو بمعنىٰ الكفر الذي هو حاصل منهم، فكان جزاؤهم من جنس عملهم [1].

- في التعبير بالختم دلالة علىٰ أن الختم واقع عليهم بعد نهاية كفرهم، وذلك أن الختم يكون لآخر الشيء ونهايته.

- إسناد الختم إلىٰ الله مناسب من جهة أن فيه التبكيت لهم والتغليظ عليهم والتأكيد علىٰ وقوعه عليهم، فهو مقابل لإسناد الهدىٰ إلىٰ الله في جزاء المتقين تشريفًا لهم.

- تقديم القلب علىٰ السمع والبصر؛ لأنه محل العلم والإيمان، وهو ملك الأعضاء وفيه الاعتقاد، وهو مصدر الإعراض والاستكبار، فكان أولىٰ بالختم [2]، وتقديم السمع علىٰ البصر لأن السمع محل البلاغ.

- تكرار الجار في قوله: ﴿وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡ﴾ للدلالة علىٰ شدة الختم في الموضعين [3]، وهو دال علىٰ المبالغة في إظهار عقابهم.

- تخصيص القلوب والسمع في الختم دون الأبصار مناسب من جهة أنهما

---

(١) انظر «الكشاف» (١/ ٤٨) «التحرير والتنوير» (١/ ٢٥٤).

(٢) انظر «مفاتيح الغيب» (١/ ٤٩).

(٣) انظر «الكشاف» (١/ ٥٣)، «أنوار التنزيل» (١/ ٢٣)، «إرشاد العقل السليم» (١/ ٤٦).

يشتركان في الإدراك من جميع الجهات، بخلاف الأبصار فإن إدراكها جهة واحدة، وهي ما أمامها[1].

- تخصيص الأبصار بالغشاوة مناسب من جهة أن أبصارهم كأنها غطىٰ عليها، وحجبت وحيل بينها وبين إدراك الحق[2] فناسب أن يكون جزاؤهم من جنس عملهم.

- **تنكير غشاوة وعذاب الدال علىٰ التفخيم والتهويل**[3]، ووصف العذاب بأنه عظيم الدلالة علىٰ استحقاقهم لأشد العذاب وأعظمه[4].

- **لا بد من تفقد القلب؛** لأنه محل الوعي، ومن لا ينتفع بالموعظة ففيه شبه بالكفار الذين لا ينتفعون بالمواعظ، قال الله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ .....﴾.

(١) انظر «روح المعاني» (١/ ٢٢٢).

(٢) انظر «الكشاف» (١/ ٤٨).

(٣) انظر «معالم الغيب» (١/ ٥٠)، «إرشاد العقل السليم» (١/ ٤٦).

(٤) انظر «البحر المحيط» (١/ ٨٤).

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾
يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩﴾
فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ
﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ﴿١١﴾
أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ
ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا
يَعۡلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ
قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ
يَعۡمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ
وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾ (البقرة: ٨ – ١٦)

جاء سياق هذه الآيات في بيان صنف آخر من أصناف المعرضين عن هدي القرآن، وهم المنافقون الذين يظهرون الإيمان ويسترون الكفر، وهم فريق من الكافرين، وتضمن السياق ذمهم وكشف صفاتهم وإظهار قبح فعالهم، لكونهم مخالطين للمؤمنين مخفين كفرهم.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾﴾

◈ غرض الآية:

بيان وصف المنافقين بإيمانهم الظاهر وكفرهم الباطن، وهو مانع من موانع الانتفاع بالقرآن.

البصائر والحكم

- وجه التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ دون التصريح باسمهم: أنهم صنف تابع للصنف الأول أي الكافرين من حيث كفرهم، فناسب ذلك عطفهم عليهم، وإنما أفردهم بالذكر مع دخولهم فيهم حكماً، فلأن حالهم يختلف عن حال الكافرين؛ لأنهم يضمون إلىٰ الكفر وجوهاً من الصفات التي تزيد علىٰ حال الكافرين [1]، وأن في التعبير بذلك لغرض عدم تصريح بهم معاملة لهم بمثل صنيعهم في عدم التصريح بكفرهم تهكماً بهم وتحقيراً لهم وتقليلاً من شأنهم [2].

- وجه طول الحديث عنهم: السورة نازلة في المدينة وواردة في إعداد المؤمنين وتأسيس دولتهم، فكان لابد من كشف لأعدائهم في المدينة، ولا شك أن من أخطر أعدائهم المنافقين.

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾: الجملة مفيدة كمال إعراضهم، وذمهم من جهة أن الحكم عليهم بذلك دال علىٰ عدم إمكان إيمانهم ماداموا متصفين بوصف النفاق، ولهذا أتىٰ بالباء في الخبر.

- مجرد القول باللسان لا ينفع الإنسان، فلا بد من مطابقة القلب واللسان علىٰ الإيمان.

---

(١) انظر «مفاتيح الغيب» (١/ ٥٥).

(٢) انظر «التحرير والتنوير» (١/ ٢٦٠).

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٩﴾

◈ غرض الآية:

بيان وصف زائد كاشف للمنافقين، وهو مانع من موانع الإيمان والانتفاع بالقرآن، وهو اتصافهم بالمخادعة.

البصائر والحكم

- **التعبير بالمخادعة ومناسبته، ووجه التعبير بـ ﴿يُخَٰدِعُونَ﴾ دون يخدعون:** المخادعة أشد من الخيانة والإخفاء ونحوها، من جهة أنها تكون إخفاء أمر فاسد ومكروه مع اعتقاد جهل المخادَع وإظهار الحيلة عليه[1]، والتعبير بلفظ ﴿يُخَٰدِعُونَ﴾ دون ﴿يخدعون﴾ أبلغ في الذم من جهة أن اللفظ يعني اعتقادهم وظنهم الفاسد أن الله ممن يصح خداعه، وذلك أشد الكفر؛ لأن المخادعة من المفاعلة والمقابلة.

- **وجه كون مخادعتهم لله مع أنها للمؤمنين:** أن المقصود بيان كمال شناعة حالهم، وأن يكون المراد بالمخادَع الرسول ﷺ، وإنما أضافه إلىٰ الله من باب المبالغة في ذمهم، وتفظيعاً لفعلهم، وتنبيهاً علىٰ عظم مقام الرسول والمؤمنين حيث جعل مخادعة المنافقين لهم كالمخادعة لله.

- **وجه قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾:** مفيد بأن جزاءهم من جنس فعلهم، وذلك بجعل خداعهم راجعاً إليهم في الدنيا بدفع ضررهم وفضحهم به، وراجعاً إليهم في الآخرة بمجازاتهم ومعاقبتهم عليه، فكان خداعهم بذلك راجعاً إليهم في الدنيا والآخرة[2].

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (١/ ١٦٢).

(٢) انظر: «مفاتيح الغيب» (٢/ ٥٨).

- وجه نفي الشعور عنهم في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾: الشعور يطلق علىٰ العلم بالأشياء الخفية، فنفيه عنهم دليل علىٰ عدم إدراكهم لحقيقة فعلهم ومآله، وفي ذلك إشارة لبلادتهم وعدم فطنتهم وضعف عقولهم وإدراكهم، فهو ذم لهم وتحقير لشأنهم[١].

- التحفظ من المنافقين؛ لأن الله قال عنهم: ﴿يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا...﴾.

- المكر السيء لا يحيق إلا بأهله، قال الله: ﴿يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾.

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ١٠﴾

◈ غرض الآية:

بيان وصف زائد فيهم مانع للإيمان والانتفاع بالقرآن وهو مرض القلب، والكذب، مع بيان جزائهم عليهما بزيادة المرض والعذاب.

◈ معاني الآية:

- المراد بالمرض في قوله تعالىٰ: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: هو محمول علىٰ المرض المعنوي علىٰ خلاف بينهم في المعنىٰ المراد[٢]؛ لأن السياق في بيان الأوصاف المانعة من الانتفاع بالقرآن لدىٰ المنافقين وهي الخداع والكذب وإبطان الكفر وفساد المعتقد، والنفاق منشؤه القلب وهو فساد واضطراب.

(١) انظر «التحرير والتنوير» (١/ ٢٧٨).

(٢) انظر «جامع التأويل» (١/ ١٥٥)، «البحر المحيط» (١/ ٩٥).

- المراد بالزيادة في قوله تعالىٰ: ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾: علىٰ العموم؛ لأنها جزاء في مقابل المرض الناتج من أنفسهم بالنفاق، ولا شك أن النفاق مشتمل علىٰ أسوأ الأوصاف ومورث لأسوء العواقب.

- القراءات في قوله تعالىٰ: ﴿يَكْذِبُونَ﴾: وردت في الجملة قراءتان؛ الأولىٰ بضم الياء وتشديد الذال، والأخرىٰ بفتح الياء وتخفيف الذال[1].

قراءة التشديد دالة علىٰ كونها صفة مانعة من الإيمان والانتفاع بالقرآن، من جهة أن التكذيب ظاهر في كونه مانعًا من الإيمان والانتفاع بالقرآن، وقراءة التخفيف دالة علىٰ سبب عذابهم وهو اتصافهم بصفة الكذب الذي منه، ادعاؤهم الإيمان ظاهراً وإخفاؤهم الكفر، وذلك أعظم الكذب.

البصائر والحكم

- وجه التعبير بلفظ المرض وتنكيره، ووجه تحديده في القلوب: التعبير بلفظ المرض دال علىٰ الفساد وتغير الطبع، فالمرض وصف نقص وخروج عن الطبيعة والاعتدال، وتحديد كونه في القلوب بيان لمنشأ أعمالهم، وأن ذلك مترسخ في قلوبهم.

- وجه زيادة مرضهم بقوله ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾: عقوبة لهم من جنس فعلهم، وزيادة تنكيل بهم في مقابل تكريم المؤمنين في قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٥].

- وجه تعيين صفة الكذب وترتيب العذاب عليها: أن الكذب هو أبرز صفاتهم القبيحة بل هو الجامع لصفاتهم، فيه إشعار بسبب خاص مانع من انتفاعهم بالقرآن؛ وهو كذبهم.

(١) انظر «كتاب السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص١٤٣)، «البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة» عبد الفتاح القاضي (ص١٩).

- أن أسباب إضلال الله لعبد هي من العبد، قال تعالىٰ: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾

◈ غرض الآيتين:

بيان صفة من صفاتهم الذميمة وهي انعكاس مفاهيمهم، بادعائهم الإصلاح زعماً وكذباً مع كونهم مفسدين، والحكم عليهم بذلك رداً عليهم ومبالغة في ذمهم وتحذيراً منهم.

◈ معاني الآيتين:

- المراد بالإفساد والإصلاح الوارد في الآية: الإفساد: هو مداراة الكافرين ومخالطتهم ومظاهرتهم علىٰ المؤمنين، ودعوتهم في السر إلىٰ الكفر وجحد الإسلام وإلقاء الشبه؛ لأن السياق في بيان أوصاف المنافقين، وبيان كمال تناقضهم.

والإصلاح يراد به العموم، إلا أن أول مايدخل فيه زعمهم الإصلاح بين المؤمنين وأهل الكتاب لأنه من أعظم طرق الإفساد.

البصائر والحكم

- وجه تقييد الفعل بالظرف في قوله ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ دون الإخبار عن قولهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ مباشرة: مبالغة في ذمهم من حيث أنهم يقولون ذلك لمن نهاهم عن الإفساد.

- من البلوىٰ أن يزيَّن الفساد للإنسان حتىٰ يرىٰ أنه إصلاح.
- ليس كل من ادعىٰ شيئا يصدَّق في دعواه.
- العمل السيء يعمي البصيرة، فلا يشعر الإنسان بالأمور الظاهرة.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾

◈ غرض الآية:

بيان كمال بعدهم عن الإيمان باستخفافهم بالمؤمنين، والحكم عليهم بالسفه جزاء ورداً لوصفهم المؤمنين بذلك.

◈ معاني الآية:

- المراد بالناس في قوله تعالىٰ: ﴿ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾: كل من آمن بالنبي ﷺ، وإنما عبّر عنهم بالناس للإشارة إلىٰ كمالهم في الإنسانية، وهو متضمن استنقاص المنافقين من أنهم لم يتصفوا بهذا الوصف بل هم في عداد البهائم في فقد التمييز بين الحق والباطل(١).

البصائر والحكم

- وجه إظهار كفرهم بقولهم ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ وهم منافقون: أن الآيات بيان من الله تعالىٰ حكاية لحالهم، وكشف لصفاتهم الذميمة وتحذير منهم، وأنه لا يلزم أن يكون الجواب مباشراً للأمر، فقد يؤمرون بالإيمان ويحدِّثون أنفسهم بالجواب بذلك، أو يكون فيما بينهم، وهذا هو الأنسب لحالهم ونفاقهم.

(١) انظر: «روح المعاني» (١/ ١٦٢).

- وجه نفي العلم في قوله تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ ونفي الشعور في الآية قبلها في قوله تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾: نفي العلم عنهم هنا مناسب لوصفهم بالسفه لأن السفه جهل، ونفي الشعور عنهم في الآية السابقة مناسب من جهة أنهم يظنون أن ما هم عليه من الإفساد إصلاح، وذلك دليل علىٰ انتكاس فطرهم وعدم شعورهم بحقائق الأمور.

- جميل أن يذكر للمدعو من استجاب من الناس للحق ليكون ذلك مشجعا له، قال تعالىٰ: ﴿ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾.

﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾

◈ غرض الآيتين:

وصف حالهم مع المؤمنين ومع شياطينهم من الكافرين.

◈ معاني الآيتين:

- المراد بالشياطين في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾: رؤساء الكفر من اليهود، ورؤساء المنافقين؛ لأن السياق في بيان حالهم من الكافرين مقابل بيان حالهم من المؤمنين.

- بالاستهزاء في قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾: المراد ما يجُري ويظهر لهم من أحكامه في الدنيا خلاف الذي لهم عنده في الآخرة، كما أظهروا للنبي ﷺ والمؤمنين في الدين ما هم علىٰ خلافه في سرائرهم، وذلك استهزاءً منه تعالىٰ وسخرية ومكراً بهم[1]؛ لأن السياق في بيان جزائهم في مقابل قصدهم وعملهم.

---

(١) انظر «جامع التأويل» (١/ ١٦٥)، «المحرر الوجيز» (٩٧).

- المراد بالمد في قوله تعالىٰ: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ﴾: المد الذي هو المطل والتطويل. ويحتمل معنىٰ الزيادة في نفس الطغيان[1]؛ لأن السياق في المبالغة في عقوبتهم فالأولىٰ شموله للمعنيين.

البصائر والحكم

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ مع أنه ذكر إيمانهم قبل ذلك بقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾: الجملة هنا ليست تكراراً لذكر إيمانهم وإنما هي واردة كما ذكرت لغرض بيان مالهم من وجهين؛ وجه مع المؤمنين، ووجه مع شياطينهم، كشفاً لحقيقة نفاقهم وتحذيراً منهم.

- قولهم ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾ في خطابهم للمؤمنين، وقولهم ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ في خطابهم للشياطين، ظاهر في بيان نفاقهم من جهة أنهم خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية وهي ليست بأقوىٰ وأوكد من الجملة الاسمية التي خاطبوا بها شياطينهم.

- التعبير في خطاب المؤمنين بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا لَقُوا﴾ وفي خطاب الكافرين بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا خَلَوْا﴾ دال علىٰ أن الأول مجرد لقيا، والثاني توثق علاقة؛ لأن الخلوة دالة علىٰ محبة وقرب.

- قولهم ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ توكيد علىٰ ثباتهم علىٰ الكفر، وأن إيمانهم لا حقيقة له ألبتة.

- وجه التعبير عن الكافرين بالشياطين: أنهم يتولون عمل الشيطان في إبعاد الناس عن الإيمان والحث علىٰ الشر وإثارة البغضاء. ولفظ الشيطنة معناها البعد عن الإيمان والخير[2].

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٩٨).

(٢) انظر «جامع البيان» (١/ ١٦٤).

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾: الرد عليهم وعقابهم بمثل قصدهم والمبالغة في ذلك إظهاراً لكمال عقوبتهم والانتقام منهم.

- إضافة الاستهزاء إلىٰ الله، وتقديم اسمه تعالىٰ علىٰ الجملة الفعلية فلم يقل ﴿يستهزئ بهم الله﴾ دال علىٰ كمال رد استهزائهم بالمؤمنين بتولي الله أمر الدفاع عن المؤمنين.

- إيثار صيغة المضارعة ﴿يَسۡتَهۡزِئُ﴾ المفيدة للتجدد والاستمرار، وهي دالة علىٰ كمال عقوبتهم ودوامها[(١)].

- الزيادة في العقوبة بقوله تعالىٰ: ﴿وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ مبالغة ظاهرة في العقوبة، من جهة أن التعبير بلفظ المد الذي يدل علىٰ الزيادة والطول[(٢)].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٦﴾

◈ غرض الآية:

بيان غاية ضلالهم وبعدهم عن الهدىٰ، حيث اختاروا الضلالة وتركوا الهدىٰ، وذلك دليل كمال ضلالهم وبعدهم عن الهدىٰ.

◈ معاني الآية:

- المراد بالشراء في قوله تعالىٰ: ﴿ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾: العموم؛ لأن غرض الآية في بيان كمال ضلالهم وبعدهم عن الهدىٰ.

---

(١) انظر «الكشاف» (٦٣)، «إرشاد العقل السليم» (١/ ٥٧)

(٢) انظر «معجم مقاييس اللغة» (٩٦٣).

البصائر والحكم

- الإتيان بإشارة البعد ﴿أولئك﴾ الدال علىٰ غاية ذمهم.

- وجه التعبير بشراء الضلالة في قوله تعالىٰ: ﴿ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾: إشارة إلىٰ بلوغهم حداً من الرغبة في الضلالة واختياره، والبعد عن الهدىٰ والزهد فيه؛ بحيث جعلوه ثمناً للضلالة.

- التعبير بالضلالة إشارة إلىٰ مخالفتهم التامة للصواب وفقدهم له وتيههم عنه [1].

- وجه ذكر الربح والخسارة والتجارة في تشبيه حقيقتهم: أن أمر التجارة والربح والخسارة أعظم في استحضار النفوس للمعنىٰ، وهو مناسب لحال المنافقين من كون سعيهم مقصوراً علىٰ مصالحهم الدنيوية، فكأنه حكم بخسارتهم فيما يسعون إليه.

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾: بيان لسلبهم المعرفة التامة لسبل وطرق التجارة الرابحة كلها، وذلك لانعكاس فطرهم في اعتقادهم الفاسد، وذلك أسلوب بليغ في ذمهم وتحقير شأنهم [2].

- قد يظن الإنسان أنه أحسن عملا وهو قد أساء، قال تعالىٰ: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾.

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (١/ ١٣٢).

(٢) انظر «الكشاف» (١/ ٧٢).

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ
وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ
كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَـٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ
ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ ۖ
كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ
وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ (البقرة: ١٧ - ٢٠)

لما ذكر الله تعالى حقيقة المنافقين وأوصافهم عقبها بضرب المثل لحالتهم زيادة في الكشف وتتميماً للبيان[(١)].

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ
وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾

◈ غرض الآيتين:

بيان حال المنافقين مع الإيمان. ويظهر فيهما إبراز حصول الظلمة الشديدة المصاحبة للضلال والحيرة في قلوبهم، والتي ضدها النور والهدى.

◈ معاني الآيتين:

- المراد بالإضاءة في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾: ظهور أثر إيمانهم الظاهر، من أمنهم مع المؤمنين، وظفرهم وانتفاعهم بالسلامة والأمن

(١) انظر: «الكشاف» (١/ ٧٢)

الظاهر، وإجرائهم علىٰ أحكام المؤمنين، وذلك لأن الضوء أثر إيقاد النار وإشعالها وهو الفائدة منها.

- المراد بإذهاب النور ووقوع الظلمات في قوله تعالىٰ: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ﴾: ظهور أثر فعلهم في قلوبهم، وهو الظلمة والحيرة والقلق وكل ذلك ناتج عن فعلهم من اعتقاد الكفر وإظهاره لشياطينهم واختيارهم للضلالة وغير ذلك.

- المراد بقوله تعالىٰ: ﴿لَا يَرۡجِعُونَ﴾: لا يؤمنون ماداموا علىٰ هذه الحالة التي وصفهم بها. وليس المراد عدم الإيمان ألبتة؛ لأن السياق في بيان شدة ضلالهم وبعدهم عن الإيمان الدال علىٰ عدم رجوعهم إلىٰ الإيمان ماداموا علىٰ هذا الوصف.

البصائر والحكم

- وجه الشبه في الآيتين: قال ابن عباس وغيره من السلف في بيان وجه الشبه المناسب للسياق: مثل هؤلاء في نفاقهم وإيمانهم الظاهر كمثل رجل كان في ظلمة فاستوقد ناراً من غيره لا من نفسه فاستضاء ورأىٰ ما حوله، فاتقىٰ ما يخاف، فبينما هو كذلك إذ طفئت ناره، فبقي في أشد ظلمة من ظلمته الأولىٰ، وأشد حيرة وأشد ضلالاً. وكذلك المنافقون استوقدوا نوراً من المؤمنين بإيمانهم الظاهر، لكن هذا النور كان نوراً ظاهراً يسيراً لا دوام له بما أظهروه من كلمة الإيمان، وانتفعوا به يسيراً بالأمن علىٰ أنفسهم وأموالهم وأولادهم، ولم يتمكنوا منه في أنفسهم، فإذا ذهبوا إلىٰ أهل الكفر ذهب عنهم ذلك النور وبقيت الظلمة الشديدة التي هي في قلوبهم من ظلمة النفاق والكفر والكذب وما أعقبه النفاق من حيرة واضطراب وقلق، وكذلك أيضـاً فإن بقاء هذا النور هو نصيبهم في الدنيا فإذا ماتوا

قطع الله عنهم هذا النور كله، وبقيت معهم ظلمة النفاق والكفر مع ظلمات القبر والوحشة فيه، وكذلك هم في الآخرة[1].

- التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿مَثَلُهُمۡ﴾: الضمير راجع إلىٰ الموصوفين في الآيات قبلها.

- التعبير بقوله ﴿ٱلَّذِى ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا﴾ بدل ﴿أوقد﴾ وهو يفيد أن أنهم كانوا يستوقدون من المؤمنين هذا النور بإيمانهم الظاهر، وباطنهم بخلاف ذلك، وأن النور لم يثبت في نفوسهم بل هو عارض والظلمة فيهم أصلية[2].

- التعبير بقوله: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ﴾ مناسب من جهة أن إيمانهم لا ينفعهم إلا يسيرا.

- التعبير بـ ﴿ذهب﴾ بدل أذهب، مع الباء في قوله تعالىٰ: ﴿بِنُورِهِمۡ﴾ أبلغ في احتياز المذهوب به بالكلية وإمساكه عن الرجوع.

- إسناد الفعل إلىٰ الله أبلغ في الإذهاب، وهو مقابل قوله تعالىٰ: ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ﴾ في إضافة الزيادة إلىٰ الله.

- في التعبير بلفظ ﴿نورهم﴾ بدل نارهم أو ضوئهم مناسبة للسياق من جهة أن إذهاب النور من النار إذهاب لإشراقها دون إحراقها، ومن جهة أخرىٰ أن إذهاب النور أبلغ من إذهاب الضوء.

- التعبير بلفظ الترك في قوله تعالىٰ: ﴿وَتَرَكَهُمۡ﴾ مما يفيد التحقير والإهانة.

- التعبير بالظلمات وتنكيرها وجمعها وإتباعها بقوله تعالىٰ: ﴿لَّا يُبۡصِرُونَ﴾ دليل علىٰ انتفاء النور بالكلية وبقاء الظلمة الخالصة الشديدة.

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١/ ١٧٧).

(٢) انظر: «مفاتيح الغيب» (١/ ٦٧)، «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ٥٤)، «اجتماع الجيوش الإسلامية» (ص١٣) «بدائع التفسير» (١/ ٢٧٨).

- في جمع ظلمات إشارة إلىٰ أحوال المنافقين وظلماتهم المتعددة وهي ظلمة الكفر وظلمة الكذب وظلمة استهزائهم بالمؤمنين وظلمة النفاق وما يتفرع عنه من المذام والآثار السيئة.

- في قوله تعالىٰ: ﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾ ما يفيد أنهم لن يعودوا إلىٰ الاستنارة بعد ذلك، وذلك أبلغ في عقوبتهم[1].

- جملة ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ تفيد المبالغة في ذمهم، وأنهم من الجهل والبلادة أسوأ حالاً من البهائم وأشبه حالاً من الجمادات التي لاتسمع ولا تتكلم ولا تبصر[2].

- العدول إلىٰ الجملة الإسمية ﴿صُمٌّ بُكْمٌ﴾ وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ ما يفيد الحكم عليهم بالاستمرار علىٰ تلك الحالة، وذلك عقوبة وجزاءً[3].

- أن للإيمان نورا، وله تأثير حتىٰ في قلب المنافق، قال الله: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾.

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (١/ ٣١١) «روح المعاني» (١/ ١٦٧)
(٢) انظر: «البحر المحيط» (١/ ١٣٣).
(٣) انظر: «جامع البيان» (١/ ١٨١)

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾

◈ غرض الآيتين:

بيان حالهم مع القرآن بعد بيان حالهم مع الإيمان في المثل الأول.

◈ معاني الآيتين:

- مناسبة ختام المثلين بقوله تعالىٰ: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ وارتباطه بما قبله: أن الجملتين راجعتان إلىٰ الحديث عن المشبه بهم وهم المنافقون المقصودون في المثل، فهو من المؤخر الذي معناه التقديم، وأن معنىٰ الكلام ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ .... صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ، مَثَلُهُمْ ..﴾ وهو بذلك مرفوع علىٰ الاستئناف، لما فيه من الذم؛ لأن ارتباطه بالمنافقين حقيقة أقوىٰ وأدل علىٰ المقصود وأقرب إلىٰ السياق وهو ذمهم والمبالغة في ضلالهم.

البصائر والحكم

- وجه الشبه في الآيتين: قال ابن عطية: «قال جمهور المفسرين: مثّل الله تعالىٰ القرآن بالصيب لما فيه من الإشكال عليهم، والعمىٰ هو الظلمات، وما فيه من الوعيد والزجر هو الرعد، وما فيه من النور والحجج الباهرة التي تكاد أن تبهرهم هو البرق، وتخوفهم وروعهم وحذرهم هو جعل أصابعهم في آذانهم،

وفضح نفاقهم واشتهار كفرهم وتكاليف الشرع التي يكرهونها في الجهاد والزكاة ونحوه هي الصواعق. وهذا كله صحيح بيّن»[(١)].

- التعبير بلفظ الصيب دون الغيث تعظيم وتفخيم للوصف من جهة مادته الأولىٰ التي هي الصاد المستعلية والياء المشددة والباء الشديدة، ومادته الثانية أي الصوب المنبيء عن شدة الانسكاب، ومن جهة بنائه الدال علىٰ الثبات[(٢)]، ومن جهة معناه الذي يفيد الكثافة والانهمار[(٣)].

- **لم يعبر بالغيث والمطر لأنه مصدر النفع في السحاب**، والذي يناسب المنافقين هو مايتضمنه السحاب من الظلمات والرعد والبرق وهي الوعيد والتهديد والزجر والفضيحة لهم، فهم محرومون من نفعه.

- **كون الصيب من السماء يفيد قوته ودوامه**، وأنهم لاحول لهم في منعه أو تصريفه.

- **التعبير بالظلمات وجمعها واقترانها بالرعد والبرق في قوله تعالىٰ: ﴿فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾** مبالغة في شدته

وتهويل لأمره، ولذلك نكرها للتفخيم والتهويل، كأنه قيل:فيه ظلمات شديدة داجية ورعد قاصف وبرق خاطف[(٤)].

- **قوله تعالىٰ: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة ١٩]** يصور حال المنافقين حال نزول القرآن وشدة رعبهم وخوفهم منه.

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (١/ ١٠٢).

(٢) انظر: «إرشاد العقل السليم» (١/ ٦٤).

(٣) انظر: «النهاية في غريب الحديث» (٣/ ٦٤)

(٤) انظر: «إرشاد العقل السليم» (١/ ٦٤).

- قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فيه من التهديد والمبالغة في القدرة عليهم على أي حال.

- قوله تعالىٰ: ﴿يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ﴾ حال مفيد كمال إيضاح الهيئة المشبه بها وبيان شدتها، وأن الرعد والبرق الواقعين في الهيئة المشبه بها هما رعد وبرق بلغا منتهىٰ قوة جنسيهما[(١)].

- عبّر بلفظ﴿يَكَادُ﴾ الدال علىٰ القرب، ولفظ الخطف الدال علىٰ سرعة الأخذ والنفوذ.

- قوله تعالىٰ: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ﴾ مفيد بيان حالهم في الحرص علىٰ الانتفاع بضوء البرق الذي يمثل الوعد والتبشير في القرآن.

- عبّر بلفظ ﴿كُلَّمَآ﴾ دون ﴿إذا﴾ للدلالة علىٰ شدة حرصهم ومبادرتهم علىٰ المشي عند حصول الإضاءة[(٢)]، وعبّر بلفظ ﴿مَّشَوۡاْ﴾ بدل سعوا أو عدوا إشعار بعدم اطمئنانهم بذلك لما في قلوبهم من الخوف والرعب.

- قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ﴾ يمثل حالهم فيما إذا لم ينزل مايطمئنون له، وهم يتوجسون ويتخوفون نزول الوعيد عليهم.

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ﴾: الجملة واردة في بيان كمال الترهيب والتوعد لهم والتهديد، بأنه الله تعالىٰ قادر علىٰ إذهاب سمعهم وبصرهم، مقابل عماهم وصممهم الحاصل من أنفسهم.

- وجه ختام الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾: تأكيد علىٰ ما تضمنه المثل من التهديد، وإمكان وقوعه عليه، ولذلك جاء بصفة القدرة، فالمقصود

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (١/ ٣٢٢).

(٢) انظر: «نظم الدرر» (١/ ١٢٤).

المبالغة في التهديد تذكيراً لهم وقطعًا لمعذرتهم في الدنيا والآخرة [1].

- **ينبغي للإنسان أن يسأل الله أن يمتعه بسمعه وبصره** لقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ﴾.

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (١/ ٣٢٣).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ
تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا
وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ
بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ
﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ
أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ
جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ
هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ
وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ (البقرة: ٢١ - ٢٥)

سياق هذه الآيات في دعوة الناس جميعاً لأصول الدين، وبيان جزاء الكافرين والمؤمنين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾

◈ غرض الآية:

توجيه الدعوة للناس جميعاً ومنهم الطوائف الثلاث بعبادة الله الذي هو أصل الدين كله وقاعدة التشريع.

◈ معاني الآية:

- **الخطاب في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾**: العموم؛ لأن الخطاب بالناس،

والدعوة محتملة لهم جميعـًا، ويؤكده أيضـًا أنهم مذكورون قبل الخطاب جميعـًا[(١)].

- معنىٰ لعل في قوله تعالىٰ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: يختلف معناها باختلاف موقعها وسياقها، فليست للرجاء علىٰ العموم، ولو تأملنا السياق هنا لوجدنا أنها جاءت في سياق الأمر، فيكون معناها إخباراً بإمكان حصول التقوىٰ منهم إن تم ماعُلِّق عليها؛ وهو العبادة، وذلك تدل عليه قرينة السياق من حيث أنه أراد أن يُقرِّب نفوسهم ويطمعهم ويرغبهم لتحقيق الأمر.

البصائر والحكم

- الالتفات والانتقال من الغيبة للحضور، فيه تلطف معهم، وهو داع لإقبالهم واستجابتهم[(٢)].

- افتتاح الدعوة بحرف النداء مشعر بأهمية مابعده وعظم شأنه[(٣)].

- إيراد الأمر بعنوان الربوبية مع الإضافة إلىٰ الضمير، فيه مزيد تلطف مع إشعار وتأكيد بأحقيته تعالىٰ بالعبادة[(٤)].

- الإشارة إلىٰ إنعامه عليهم بخلقهم وخلق أصولهم في قوله تعالىٰ: ﴿خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وهو أيضـًا دليل علىٰ شمول خلقه تعالىٰ، وأنه وحده الخالق للبشر ولم يشركه أحد في خلقهم جميعـًا.

(١) انظر: «مفاتيح الغيب» (١/ ٧٥)، «البحر المحيط» (١/ ١٥٢)، «نظم الدرر» (١/ ١٣٨).
(٢) انظر: «الكشاف» (١/ ٨٨)، «مفاتيح الغيب» (١/ ٧٥)، «البحر المحيط» (١/ ١٦٣).
(٣) انظر: «إرشاد العقل السليم» (١/ ٧٠).
(٤) انظر: «البحر المحيط» (١/ ١٥٣) «التحرير والتنوير» (١/ ٣٢٦).

- الإتيان بحرف ﴿لعل﴾ في قوله تعالىٰ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فيه إشعار بالإطماع لهم، وهو إطماع من كريم رحيم؛ إذا أطمع فعل[1]، وفي ذلك مزيد تأكيد علىٰ الأمر.

- أول نداء في المصحف يوجه للناس جميعا جاء للأمر بعبادة الله، قال الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا ...﴾.

- التقوىٰ مرتبة عالية لا ينالها إلا من أخلص العبادة لله، قال الله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

◈ غرض الآية:

إتمام الأدلة المتضمنة لإنعام الله تعالىٰ علىٰ الخلق والموجبة لتوحيده تعالىٰ، وترك عبادة غيره.

◈ معاني الآية:

- المراد بالعلم في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: وأنتم من أهل العلم والمعرفة، وتعلمون مابينه وبينها من التفاوت، وتعلمون أنها لاتفعل مثل أفعاله[2]؛ لأن السياق من جهة أن الغرض بيان لزوم تركها بعد معرفتهم لكمال نعمته، وتجردها من الأفعال التي تؤول إليهم.

(١) انظر: «الكشاف» (١/ ٩٣).

(٢) انظر: «الكشاف» (١/ ٩٦)، «إرشاد العقل السليم» (١/ ٧٦).

البصائر والحكم

- التعبير بلفظ ﴿جَعَلَ﴾ الدال علىٰ أنه تعالىٰ خلق الأرض والسماء، وجعلهما علىٰ وصف يناسب مصالحهم تفضلاً عليهم وإنعاماً؛ حيث كانتا رتقًا ففتقهما الله، وجعل فيهما مايحتاجه البشر ولذلك قال ﴿لَكُمُ﴾ فيكون في الآية منتان وعبرتان(١).

- تقديم حال الأرض لما أن احتياجهم إليها وانتفاعهم بها أكثر وأظهر.

- التعبير عن الأرض بلفظ ﴿فِرَٰشًا﴾ إشارة إلىٰ كمال تهيئتها لهم مع التمكن من الاستقرار فيها، وفي ذلك مزيد امتنان(٢).

- في وصف السماء بالبناء من باب أنه تشبيه بالقبة المبنية علىٰ الأرض، وهو أدل علىٰ الإنعام.

- تنكير الماء والرزق في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ وكون ﴿مِنَ﴾ في الموضعين دالة علىٰ التبعيض؛ للدلالة علىٰ أن ذلك هو بعض ما امتن وأنعم به عليهم(٣).

- تخصيص نعمة الماء والثمار من منافع السماء والأرض؛ لأنهما أعظم حاجة ونعمة لهم فيها من المنافع المادية، وأعظم ماتقوم به حياتهم وخلقهم، وأدل علىٰ إقرارهم بنعمة الله.

- جمع الثمرات دال علىٰ اختلاف أنواعها وتعددها، وفي ذلك مزيد امتنان وبيان قدرة(٤).

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (١/ ٣٣٢).

(٢) انظر: «التحرير والتنوير» (١/ ٣٣١).

(٣) انظر: «البحر المحيط» (١/ ١٦٠).

(٤) انظر: «إرشاد العقل السليم» (١/ ٧٥).

- وجه قوله ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: إلزامهم بترك معبوداتهم بعد بيان الأدلة علىٰ كمال إنعامه عليهم.

- أتىٰ بالفاء في قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا﴾ لإفادة ترتب هذه الجملة علىٰ الكلام السابق وهو مترتب علىٰ الأمر بالعبادة، فهو إلزام مباشر لاتردد فيه ولا تراخي(١).

- وجه التعبير بالأنداد: لأنها أدل وأبلغ في النهي والزجر والتنديد بفعلهم.

- وجه قوله ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: زيادة توبيخ وتقريع ومبالغة في التبكيت وإشارة إلىٰ غاية الجهل ونهاية سخافة العقل بناءً علىٰ أن تعاطي القبائح من العالِمين بقبحها أشد قبحا(٢).

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾

◈ غرض الآية:

إظهار التحدي لإثبات نهاية الكمال في سلامة الكتاب.

◈ معاني الآية:

- المراد بالضمير في قوله ﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾: القرآن والكتب المنزلة ومحمد ﷺ؛ لأن الآية واردة في بيان نهاية التحدي وبلوغ غاية الإعجاز في القرآن لكونها آخر الآيات في التحدي وبيان الإعجاز، فالأولىٰ أن يكون عاماً.

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (١/ ٣٣٤).

(٢) انظر: «الكشاف» (١/ ٩٩)، «نظم الدرر» (١/ ١٥٥).

- المراد بالمثل في قوله تعالىٰ: ﴿مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾: تابع لمعنىٰ الضمير من معنىٰ العموم الذي دل عليه السياق.

- المراد بالشهداء في قوله: ﴿وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم﴾: المراد ما ادّعوا فيه الألوهية وهي الأوثان، وأكابرهم أو من يوافقهم في إنكار أمر محمد ﷺ[1]؛ لأن احتمال السياق لهما من جهة أن الخطاب للعموم، ويدخل فيه المشركون وأهل الكتاب والمنافقون، بل كل منهم قد اتخذ آلهة من دون الله.

البصائر والحكم

- الإتيان بأن المفيدة للظن وعدم الجزم، مع تحقق المتكلم من عدم الوقوع، توبيخاً لهم واستضعافاً لريبهم[2].

- التعبير عن اعتقادهم في حقه بالريب؛ إيذان بأن أقصىٰ ما يمكن صدوره عنهم هو الارتياب في شأنه.

- التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن كُنتُمۡ﴾ ولم يقل ﴿وإن كان فيه ريب﴾ للمبالغة في تنزيه ساحة التنزيل عن شائبة وقوع الريب فيه، والإشعار بأن ذلك إن وقع فمن جهتهم لا من جهته العالية[3].

- التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿نَزَّلۡنَا﴾ دون ﴿أنزلنا﴾؛ لأن الأول دال علىٰ التفريق والتدرج، ففيه إرخاء للعنان معهم، وتوسيع لميدان التحدي لهم[4].

---

(١) انظر: «مفاتيح الغيب» (١/ ١١٠).

(٢) انظر: «التحرير والتنوير» (١/ ٣٣٦).

(٣) انظر: «إرشاد العقل السليم» (١/ ٧٧).

(٤) انظر: «مفاتيح الغيب» (١/ ١٠٧)، «إرشاد العقل السليم» (١/ ٩١)، «التحرير والتنوير» (١/ ٣٣٦).

- **الإتيان بـ ﴿نا﴾ المشعرة للتعظيم التام وتفخيم الأمر** في قوله تعالىٰ: ﴿مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾؛ تأكيد لعلو درجة المنزل والمنزل عليه، وتعدي نزّل بعلىٰ إشارة إلىٰ تمكن المنزل من المنزل عليه وأنه قد صار كالملابس له[1].

- **التحدي بالسورة دون بضع آيات لسر النظم القرآني في السورة**؛ بما تتضمنه من افتتاحية وخاتمة ومقاصد، وذلك مما يتضمنه إعجاز القرآن، وفي التنوين فائدة التنكير أي ائتوا بسورة ما، وفي ذلك توسع معهم في التحدي؛ إذ أن من سوره ماهو ثلاث آيات فقط، وهذا غاية التبكيت والتخجيل لهم[2].

- **التعبير بقوله تعالىٰ:** ﴿مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ إذ أن فيه إرخاء لعنان المعارضة لهم وتنازلاً معهم في أن يأتوا بسورة من مثل القرآن أو بسورة من مثل من أنزل عليه القرآن[3]، وهذا غاية التحدي ونهاية الإعجاز[4].

- **التعبير بلفظ ﴿الشهداء﴾** إشعار بتوسيع الدائرة لهم وإرخاء العنان معهم إلىٰ غاية التبكيت والتهكم.

- **التعبير بقوله تعالىٰ:** ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ دلالة علىٰ التحقير والدونية لما يدعونهم مع الله من الأصنام، وفيه توبيخ لهم بأنهم لم يرضوا بشهادته سبحانه، ولم يستجيبوا وينقادوا لأمره[5].

- **ختم الآية بقوله تعالىٰ:** ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ **إثارة لحماسهم**؛ إذ عرّض بعدم صدقهم، فتتوفر دواعيهم علىٰ المعارضة، وفي ذلك مبالغة في التحدي وبيان

(١) انظر: «نظم الدرر» (١/ ١٦١).
(٢) انظر: «روح المعاني» (١/ ١٩٣).
(٣) انظر: «ملاك التأويل» (١/ ١٨٤) «التحرير والتنوير» (١/ ٣٣٨).
(٤) انظر: «البرهان في متشابه القرآن» (١١٧).
(٥) انظر: «نظم الدرر» (١/ ١٦٥).

صدق القرآن وسلامته[1].

- وجه ذكر النبي ﷺ بعنوان العبودية: فيه التشريف والتنويه والتنبيه باتصافه ﷺ بخالص العبودية التي أمرهم بها ودعاهم إليها، ففيه تعريض بهم[2].

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾

◈ غرض الآية:

الحكم بعجزهم وتوعدهم بالعذاب علىٰ كفرهم وتكذيبهم بالكتاب بعد ثبوت إعجازه.

البصائر والحكم

- التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟﴾ فيه زيادة تهكم.

- إيثار كلمة إن المفيدة للشك علىٰ إذا مع تحقق الجزم بعدم فعلهم؛ مجاراة معهم ومزيد تهكم بهم[3].

- التعبير بالفعل في قوله تعالىٰ: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟﴾ دون قوله: ﴿فإن لم تأتوا﴾؛ لأنه أعم وأبلغ، حيث أن فيه نفي الأخص وزيادة، وفيه الإحاطة بالصفات والقيود التي تحداهم بها والتي لايقتضيها الإتيان[4].

---

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (١/ ٣٤٠).

(٢) انظر: «إرشاد العقل السليم» (١/ ٧٨).

(٣) انظر: «إرشاد العقل السليم» (١/ ٨٢) ، «نظم الدرر» (١/ ١٦٩).

(٤) انظر: «الكشاف» (١/ ١٠٠) ،«التحرير والتنوير» (١/ ٣٤٤).

- الإخبار بالغيب من أنهم لن يفعلوا، وذلك غاية الإعجاز[1]، ولذلك أتىٰ بحرف لن الدال علىٰ نفي المستقبل؛ ففيه زيادة تأكيد، وفيه إيضاً مزيد تحد وإثارة لهممهم؛ ليكون أدل وأبلغ وأبدع في إعجازهم[2].

- وجه قوله ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾: أن فيه تهويلاً بالعذاب علىٰ التكذيب بعد إقامة الحجة عليهم واستبانة عجزهم.

- تعريف النار، ووصفها بالموصول بقصد التعظيم وتحقق الوجود[3].

- ذكر الناس وتقديمهم في قوله تعالىٰ: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾؛ لأن النار إنما خلقت للمكذبين منهم؛ ولأنهم الذين يدركون آلامها، وفي ذلك مزيد تخويف وتهديد[4].

- ذكر الحجارة وقرنها بالناس مناسبة ظاهرة من حيث أنهم قرنوا بها أنفسهم في الدنيا حيث جعلوها أصناماً واتخذوها أنداداً كما قال تعالىٰ ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء ٩٨].

- الاستئناف بقوله تعالىٰ: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ مع أن مقتضىٰ الظاهر العطف اعتناءاً بشأنه بجعله مقصوداً بالذات في الإفادة؛ مبالغة في الوعيد[5].

- التنصيص علىٰ الكافرين فيه تعريض بأنها أعدت لهم، ففيه مزيد تهديد وتوعد.

(١) انظر: «البحر المحيط» (١/ ١٧٤) «إرشاد العقل السليم» (١/ ٨٢).
(٢) انظر: «نظم الدرر» (١/ ١٧٠).
(٣) انظر: «التحرير والتنوير» (١/ ٣٤٥).
(٤) انظر: «روح المعاني» (١/ ١٩٩).
(٥) انظر: «روح المعاني» (١/ ١٩٩).

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥﴾

◈ غرض الآية:

مقابلة الوعيد بالوعد والإنذار بالتبشير، تبشيراً وتكريماً للمؤمنين، وترغيباً في الإيمان. وهذا من عادة القرآن في مقابلة الإنذار بالتبشير والوعيد بالوعد[(١)].

◈ معاني الآية:

- **المراد بقوله ﴿مِن قَبۡلُ﴾ في قوله تعالىٰ: ﴿قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُ﴾:** أن ثمر الجنة إذا جنىٰ خلَفَه مثله، فإذا رأوا ماخلف المجني اشتبه عليهم، فقالوا هذا الذي رزقنا من قبل؛ لأن السباق واللحاق دال علىٰ هذا المعنىٰ، وذلك لأن السباق في الآيات قبلها في كمال وصف الجنة، وكذلك اللحاق في تمام الآية والآية بعدها.

- **المراد بالضمير في قوله تعالىٰ: ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗا﴾:** المراد به المرزوق في الجنة، وقد سبق بيان ذلك في اللفظة السابقة.

- **المراد بالتشابه:** حمل التشابه علىٰ المعاني كلها من أنه الخيار الذي لارذل فيه وأنه متشابه اللون والشكل مختلف الطعم واللذة والشهوة، وذلك لاحتمال السياق لها من جهة كون الآية واردة في كمال نعيمهم، ومن جهة أن المعاني غير متناقضة.

- **المراد بالمطهرة في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ﴾:** عموم المعنىٰ؛ أي كمال الطهر بالسلامة من كل مايشينهن؛ لأن السياق في بيان غاية الإكرام والإنعام لأهل الجنة.

---

(١) انظر: «نظم الدرر» (١/ ١٨٩).

البصائر والحكم

- الافتتاح بالتبشير، وفيه مزيد تكريم في مقابل زيادة التبكيت للكافرين.

- الإتيان بقوله: ﴿لَهُمْ﴾ فيه إشعار بأن ذلك مستقر ثابت لهم ينبغي لحاقه بذواتهم ليحصل لهم كمال أمرهم وصلاح حالهم[1].

- جمع الجنات وتنوينها دال علىٰ عظمها وتعددها، وفيه زيادة إكرام لهم.

- التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ إشارة إلىٰ كمال صورتها وحسن منظرها.

- التعبير بلفظ ﴿تَجْرِى﴾ إذ أن أحسن الماء ماكان جاريـًا غير قار؛ لأنه يكون بذلك متجدداً.

- التعبير بلفظ ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ وهو قيد مفيد تصوير حال الأنهار؛ لزيادة تحسين وصف الجنات، وفيه ترغيب للسامعين.

- ذكر الأنهار وتعريفها بأل العهدية؛ تنبيهـًا علىٰ أن الأنهار مستقلة جديرة بأن لايكون التنعم بها تبعـًا للتنعم بالجنات.

- بيان ازدياد لذتهم في أرزاقهم، وتنوعها في قوله: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾.

- التعبير بلفظ ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ﴾ يفيد زيادة تكريم من جهة أنه يؤتىٰ لهم بالرزق من غير تطلب ومشقة.

- في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ﴾ مزيد إكرام من جهة تعدد اللذات وتكاملها، وفي تقديم الجار ﴿لَهُمْ﴾ إشارة إلىٰ استحقاقهم لهذه النعمة ودوامهم عليها في الجنة[2].

---

(١) انظر: «نظم الدرر» (١/ ١٩١).

(٢) انظر: «نظم الدرر» (١/ ١٩٧).

- **التعبير بلفظ ﴿أَزْوَٰجٌ﴾ بدل زوجات:** إشارة إلىٰ اختصاصهن بالأزواج، وذلك لأن المراد بالأزواج: القرناء من النساء اللاتي تختص بالرجل لا يشركه فيها غيره[1]، وفي ذلك مزيد إكرام لهم.

- **التعبير بلفظ ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾** أبلغ وأعم من طاهرة ففيها مزيد إكرام.

- **التعبير بخلودهم في قوله تعالىٰ:** ﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ مزيد إكرام من جهة زوال التنغيص عليهم في تنعمهم وتأنيس لهم وتطمين لنفوسهم بعدم انقطاع نعمتهم.

- **استحباب بشارة المؤمنين،** وتنشيطهم علىٰ الأعمال بذكر جزائها وثمراتها قال الله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ....﴾.

(١) انظر: «البحر المحيط» (١/ ١٨٩).

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي
بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ
بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ
أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا
فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي
خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ
سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٩﴾ ﴾ (البقرة: ٢٦ – ٢٩)

سياق هذه الآيات وارد في تحقيق تنزيه القرآن عن كل ما يشوبه من ريب، وفي بيان حكمة الله العظيمة في ضرب الأمثال، وأنها تزيد المؤمنين هدى، والكافرين ضلالاً، مع تضمنها لتقرير التوحيد والتصديق، مع تفنيد الكفر وإلزام أهله بالحجج والبراهين.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ
مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ
بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾

غرض الآية:

تنزيه القرآن عن ريب خاص، وهو ضرب الأمثال بالأشياء المستحقرة مما يُظن أنه غير لائق بالقرآن.

- سياق الآية يدل علىٰ أنها نزلت في اليهود والمشركين والمنافقين.

البصائر والحكم

١) دلالة السياق في الرد علىٰ شبهتهم ووجهها:

الاستئناف بالرد قبل ذكر الشبهة، والتعبير بلفظ الاستحياء من باب المقابلة، والتأكيد بنصب: ﴿مَثَلًا﴾ وتنكيرها، والتأكيد أيضًا بـ ﴿مَّا﴾ الدالة التحقير، والتعبير بـ ﴿بَعُوضَةً﴾ الدالة علىٰ أحقر الأشياء بقرينة: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ ثم ذكر المؤمنين والمكذبين مظهرًا التباين، فعن المؤمنين قال: ﴿فَيَعْلَمُونَ﴾ ليقينهم، وعن المكذبين قال: ﴿فَيَقُولُونَ﴾ لعنادهم وسوء أدبهم مع الله لما قالوا: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾، والاستفهام إما إنكاري أو تشكيكي.

٢) مجيء الجواب علىٰ سؤالهم ببيان الحكمة مباشرة:

﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيرًا﴾ مع أنه سؤال ليس حقيقيًا؛ إشعار بالتشنيع عليهم، ومزيد تفنيد لهم مع التحذير بالعقوبة؛ إذ قدّم الضلال قرعًا لأسماعهم، وعبّر بالمستقبل ليدل علىٰ التجديد والاستمرار، وبإسناد الإضلال إلىٰ الله تكبيتًا لهم وعقوبة، وبلفظ: ﴿كَثِيرًا﴾ لمزيد إهانتهم، وبوصف: ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ إشعار بجمعهم الفسق مع الضلال، وعكس ذلك للمؤمنين إكرامًا لهم وإحسانًا.

◈ معاني الآية:

١) قوله: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾: أي: في العموم، ويحتمل الصغر والكبر؛ لأنه عبّر بالفوقية، ولم يعبّر بالكبر، فلم يقل ﴿فما أكبر منها﴾ ولفظ فوق يجيء للأقل والأكثر.

٢) قوله: ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾: أي: المثل؛ لأنه الظاهر من سياق الآية وهو أقرب مذكور، وهذا قول جمهور المفسرين[(١)].

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١/ ٢١٧)، «المحرر الوجيز» (١/ ١١٠)، «الكشاف» (١/ ١١٧)، «مفاتيح الغيب» (١/ ١٢٦)، «روح المعاني» (١/ ٢٠٨).

﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ
وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٢٧﴾.

◈ غرض الآية: بيان صفات الفاسقين المكذبين.

البصائر والحكم

وجه دلالة السياق اللفظي علىٰ غرض الآية:

السياق دال علىٰ الغرض وهو التعريض بهم والتعريف بصفاتهم والتغليظ عليهم؛ إذ تدرج في صفاتهم من السيء إلىٰ الأسوء، ثم ختمها بالخسران.

◈ معاني الآية:

١) قوله: ﴿عَهۡدَ ٱللَّهِ﴾ أي: العموم؛ لدلالة السياق عليه.

٢) قوله: ﴿مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾: العموم؛ لدلالة السياق عليه.

٣) قوله: ﴿وَيُفۡسِدُونَ﴾: العموم؛ لدلالة السياق اللفظي عليه.

﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ
يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٨﴾

◈ غرض الآية:

خطاب المكذبين المتمادين في الكفر، توبيخاً لهم واستنكاراً عليهم مقروناً بالاستدلال بالقدرة مع النعمة المستوجبة للإقلاع عن الكفر.

وجه دلالة السياق اللفظي على غرض الآية:

السياق اللفظي دال علىٰ غرض الآية وكونها في توبيخهم علىٰ تماديهم، وإظهار القدرة والإنعام عليهم؛ وذلك بأسلوب الاستفهام، ثم الإتيان بالفعل المضارع: ﴿تَكۡفُرُونَ﴾ المفيد للتجدد، ثم تفخيم الأمر بقوله: ﴿بِٱللَّهِ﴾، ثم تقريرا لهم واعترافا قال: ﴿وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡ﴾ ، ثم بالحال المؤكدة: ﴿وَكُنتُمۡ﴾، ثم بإضافة الإحياء إليه والإماتة: ﴿فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ﴾، ثم تعقيب ذلك بذكر الإحياء الثاني بالبعث والرجوع إليه.

◈ معاني الآية:

١- قوله: ﴿وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا﴾: العدم السابق قبل الخلق.

٢- قوله: ﴿فَأَحۡيَٰكُمۡ﴾: الخلق الأول.

٣- قوله: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ﴾: الموت بعد الخلق.

٤- قوله: ﴿ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ﴾: البعث.

وكل ذلك دل عليه السياق؛ وذلك لأن السياق في بيان القدرة والإلزام بالإقرار وترك الكفر.

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٩﴾

◈ غرض الآية:

هذه الآية واردة في تتمة الاستدلال علىٰ كمال القدرة والنعمة الموجب للإقلاع عن الكفر.

البصائر والحكم

وجه دلالة السياق اللفظي علىٰ غرض الآية:

دلالة السياق علىٰ ماتضمنته الآية من كمال الاستدلال بوجوه القدرة مع تمام النعمة الموجب للإقلاع عن الكفر ظاهرة؛ إذ ابتدأ بـ ﴿هُوَ﴾ الدالة علة الصلة بما قبلها، ثم: ﴿خَلَقَ﴾ الدالة علىٰ القصر المفيد توحيده، ثم: ﴿لَكُم﴾ الدالة علىٰ كمال النعمة بتقديمها علىٰ المفعول، ثم: ﴿فِي﴾ الدالة علىٰ الشمول، ثم: ﴿جَمِيعًا﴾ الدالة علىٰ التأكيد والعموم، ثم تأخير ذكر خلق السماوات والأرض الدال علىٰ كمال قدرته، ثم الختم بأنه العليم بكل شيء.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾

(البقرة: ٣٠ – ٣٣)

السياق العام للآيات هو الاستدلال بأصل خلقهم وتكريم الله تعالى وتفضيله لأبيهم واختصاصه بالخلافة الموجب للإيمان وترك الكفر. فهو استدلال بالتكريم الخاص بعد الاستدلال بالتكريم والإنعام العام.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

◈ غرض الآية:

بيان حكمة خلق الإنسان، وهو الاستخلاف في الأرض لعبادة الله تعالىٰ، استدلالاً بذلك علىٰ لزوم عبادتهم لله والإقلاع عن الكفر.

◈ معاني الآية:

- المراد بالملائكة الذين أخبرهم الله تعالىٰ بأمر الخليفة: جميع الملائكة؛ لأن هذا أعظم في الدلالة علىٰ الغرض الذي هو إظهار تكريم آدم وتفضيله، والامتنان علىٰ بنيه بذلك.

- المراد بالخليفة: أراد من يقوم بالخلافة في الأرض توطئة لخلق آدم عليه السلام، ولهذا لم يعين اسمه هنا فلم يقل ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، وعدم تعيينه أعظم دلالة علىٰ المقصود وهو التعظيم، فالإخبار عن فعل شيء قبل وقوعه، والإخبار عن منزلة عليا من غير تحديد لصاحبها أدعىٰ للاستحضار والترقب والتشويق لصالحب تلك المنزلة وأدل علىٰ فضله وتعظيمه.

- معنىٰ الخليفة: خلافة أمر لله تعالىٰ في الأرض والحكم فيها بين خلقه وإقامة أمره، وتدبير أهل الأرض والنظر في مصالحهم؛ لأن الآيات واردة في سياق الامتنان.

- المراد بالاستفهام في قوله: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا﴾: للتعجب بدلالة بقولهم ﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾.

- طريق علمهم بإفساد الخليفة وسفكه للدماء: الذي يدل عليه السياق هو أن الله تعالىٰ أعلمهم بذلك، وعليه فإن في القصة اختصاراً، اكتفاءً بدلالة الجواب عليه للإيجاز كما هي عادة القرآن.

- معنىٰ قول الملائكة ﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾ والفرق بينهما: الذي يدل عليه السياق في معنىٰ التسبيح أنه التنزيه، وهو الأصل في اللغة، وأما التقديس: فالراجح الذي يدل عليه السياق أن معناه التطهير، وهو أصله في اللغة.

- المراد بقوله ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾: المراد العلم بالحكمة من خلقه، وأن في ذلك الخير الذي لا يعلمونه.

البصائر والحكم

١) وجه دلالة السياق علىٰ غرض الآية:

السياق اللفظي دال علىٰ تضمن الآية للاستدلال بأصل الخلق وتكريمه علىٰ لزوم إيمانهم وترك كفرهم؛ إذا بدأ بالخطاب للنبي وبإخبار الملائكة بأمر الاستخلاف الذي هو ذو شأن، ثم: ﴿جَاعِلٌ﴾الدال علىٰ أنه فاعل لا محالة، ثم التنصيص علىٰ موضوع الاستخلاف قائلا: ﴿خَلِيفَةً﴾.

٢) وجه قول الملائكة: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ ومناسبتها للسياق:

الجملة واقعة علىٰ وجه التعجب والاستغراب من الملائكة من كون هذا الخليفة يحصل منه ذلك مما أخبرهم الله تعالىٰ به، مع أنهم مقيمون علىٰ التسبيح له والسلامة من الآثام، والجملة دالة علىٰ غرض الآية الذي هو بيان تكريم الله لأصل خلقهم، وحكمته تعالىٰ في ذلك لكنها متضمنة التعريض بالمخاطبين في سياق استنكار كفرهم وإفسادهم ومخالفتهم للوظيفة التي كلفهم بها.

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾

◈ غرض الآيتين:

تعيين الخليفة بأنه آدم وتشريفه بفضيلة العلم.

◈ معاني الآية:

- المراد بالأسماء التي علمها الله لآدم: الذي يدل عليه السياق أنه علمه أسماء الموجودات كلها ومسمياتها ومدلولاتها ونعوتها وخواصها.

- المراد بقوله ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾: يحتمل رد زعمهم بعدم أحقية آدم بالخلافة، ويحتمل رد زعمهم أنهم أحق بالخلافة.

البصائر والحكم

وجه دلالة السياق اللفظي علىٰ غرض الآية.

دلالة السياق علىٰ غرض الآية الذي هو تعيين آدم خليفة وتفضيله بالعلم ظاهرة من وجوه:

ذكره اسم ﴿ءَادَمَ﴾ تنويها وتشريفا، ثم نسبة التعليم إليه قائلا: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ﴾ تشريفا، ثم الإتيان بـ ﴿ثُمَّ﴾ الفاضل علىٰ علو رتبته، ثم: ﴿أَنۢبِـُٔونِي﴾ الدالة علىٰ عجزهم، ثم: ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ الدالة علىٰ عجزهم، ثم: ﴿سُبْحَـٰنَكَ﴾ الدال علىٰ يقينهم بأن استخلاف آدم فيه حكمة بالغة، ثم: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ الدال علىٰ نفي العلم عنهم إلا ما علمهم الله، ثم: ﴿إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ الدال علىٰ أن تحصيل العلم لا يكون إلا من الله، ثم الختم بـ ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الحال علىٰ السياق المذكور أعلاه.

﴿قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

◈ غرض الآية:

إظهار نبأ الله تعالىٰ بفضل آدم وعلمه، بإنبائه بأسماء الأشياء.

◈ معاني الآية:

- المراد بالأسماء في قوله ﴿أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾: الذي يرجحه السياق ويدل عليه هو أن المراد بها الأسماء المعروضة والمذكورة من قبل لأنه أكمل في

الغرض المقصود الذي هو إظهار تفضيل آدم.

- المراد بالغيب في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾: المراد به العموم، و الخصوص.

أما العموم: فهو علم الغيب العام الدال علىٰ شمول علم الله وكماله.

وأما الخصوص فهو الغيب المتعلق بأمر آدم والملائكة الدال علىٰ علم الله وحكمته في خلق آدم وجعله خليفة في الأرض، ومنه علمه تعالىٰ بما سيكون من شأنه مع إبليس في الجنة إلىٰ غير ذلك مما هو ظاهر في الآيات.

- المراد بقوله: ﴿وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾: المراد العموم من وجه والخصوص من وجه آخر. كما في الذي قبله ليكون أبلغ في الدلالة وأقوىٰ في تقرير العلم.

البصائر والحكم

وجه دلالة السياق اللفظي علىٰ غرض الآية: ابتدأ النداء باسم: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ﴾ تكريماً له، ثم التعبير بالإنباء بدل الإخبار فيه إيماء بعظم الأمر، ثم: ﴿أَنۢبِئۡهُم﴾ بدل لبيان فضله، ثم الفاء في: ﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم﴾ الدالة علىٰ التحقيق بأسرع ما يكون، ثم: ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ﴾ الدال علىٰ تحقيق دواعي الخلافة في آدم وإيراد ما لا يعلمون للدلالة علىٰ إحطة علمه بكل شيء.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ
وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا
رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا
ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ
فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ
إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى
فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ (البقرة: ٣٤-٣٩)

سياق الآيات في إظهار فضل آدم عليه السلام وتكريمه بأمر الله للملائكة بالسجود له وإسكانه الجنة؛ توطئة لإسناد الخلافة إليه، وإنزال الهدى عليه، وابتلائه وبنيه بالتكليف.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾

◈ غرض الآية:

بيان موضع آخر من مواضع تكريم الله لآدم وتفضيله؛ امتناناً على بني آدم في تفضيل أبيهم، وتحذيراً لهم من عداوة إبليس لهم في الغواية والإضلال.

◈ معاني الآية:

- المراد بالملائكة الذين سجدوا لآدم: جميع الملائكة؛ لأن سياق الآية بالتعريف بالألف واللام.

- المراد بالسجود لآدم وصفته: السجود لآدم نفسه، وأن غرض السجود وهو التواضع لآدم تحية وتعظيمًا له، وذلك لأن السياق وارد في تعظيم آدم، وصفته وكيفيته هي أنه سجود حقيقي لآدم، وهو السجود المعروف بإلصاق الجبهة علىٰ الأرض بدلالة إباء إبليس واستكباره الذي لايظهر إلا بأمر ظاهر، ويدل عليه صراحة سياق القرآن وهو قوله تعالىٰ: في آية الحجر ﴿فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩].

- هل إبليس من الملائكة أم من غيرهم: الراجح الذي يؤيده السياق أنه منهم باعتبار صورته وتكليفه، وليس منهم باعتبار خلقه وأصله.

- **المراد بقوله ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾**.: الراجح الذي يؤيده السياق، والذي هو أحسن الوجوه: أنه بمعنىٰ ﴿وكفر﴾ لعطفه علىٰ ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ ؛ ولأنه أدل علىٰ المعنىٰ المراد.

البصائر والحكم

١) وجه مجيء الأمر بالسجود بعد إظهار شرف آدم:

فيه زيادة تشريف له، إظهار تمام التسليم من الملائكة بفضله.

٢) وجه دلالة السياق اللفظي علىٰ غرض الآية:

العطف بالواو بدل الفاء للدلالة علىٰ الامتنان بتعدد النعم، ثم: ﴿قُلْنَا﴾ الدال علىٰ أن ما بعده نعمة مستحقة، ثم الفاء: ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾ الدالة علىٰ سرعة الامتثال، ثم: ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ الدال علىٰ العناد والاستكبار اللذين منعاه من الامتثال، وتقديم الإباء علىٰ الاستكبار أدل علىٰ السياق مع أنه منه، ثم: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ الدالة علىٰ عظم كبره، ثم الواو في: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ للدالة علىٰ أن كل واحد من الثلاثة ذنب مستقل.

﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا
هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾

◈ غرض الآية:

بيان فضيلة أخرىٰ من فضائل آدم وتكريمه إظهاراً في الامتنان علىٰ بنيه، وهي تفضيل آدم عليه السلام وتكريمه بإسكانه الجنة التي هي دار النعيم.

◈ معاني الآية:

- **المراد بالجنة التي دخلها آدم**: هي دار النعيم والخلد في السماء؛ لأن غرض الآية تكريم آدم، وابتلاؤه.

- **المراد بالنهي في قوله ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾**: التحريم بدلالة النهي الصريح، ودلالة النهي عن القرب وتعقيبه بقوله: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

- المراد بالظلم في قوله: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: الذي يدل عليه السياق أن معنىٰ الظالمين أي ظالمي أنفسهم بارتكاب المعصية وإخراجها من الكرامة والنعيم الذي أكرمهم الله به، ودلالة ذلك من لفظ الظلم الذي هو في اللغة وضع الشيء في غير موضعه.

البصائر والحكم

١) دلالة السياق اللفظي علىٰ غرض الآية:

البدء بالنداء باسمه اهتماما، ثم: ﴿ٱسْكُنْ﴾ الدال علىٰ الاهتمام بآدم خاصة، ولم يقل: ﴿اسكنا﴾، ثم: ﴿وَكُلَا مِنْهَا﴾ الدال علىٰ المبالغة في التكريم، وفي التعبير بالواو دليلا علىٰ تعدد النعم، ثم: ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ الدال علىٰ مزيد تكريم، ثم: ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾ الدال علىٰ أن سكناهما لا يدوم بما أنه فيه حظر لهما منها.

٢) وجه حظر الشجرة علىٰ آدم، ووجه كونه رحمة وتكريمًا لآدم وبنيه:

حظر الشجرة علىٰ آدم تهيئة له ولبنيه، وإشعار لهم بأن التكليف فيه شيء من كف النفس عن المرغوب ابتلاءً وامتحانًا، وهذا من رحمة الله بهم حيث أشعرهم بذلك وأجراه لأبيهم قبل أن يكلفهم.

﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٣٦ ﴾

◈ غرض الآية:

إظهار عداوة إبليس لآدم، بكونه السبب في زلته، وإخراجه من الجنة وإهباطه إلىٰ الأرض.

◈ معاني الآية:

- المراد بالإزلال في قوله ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾: الراجح الذي يؤيده السياق دخول ثلاثة معاني، أما المعنىٰ الأول وهو الوقوع في الزلل فيؤيده التعبير بلفظ ﴿أزل﴾ المحتمل الوقوع في الزلل كما قال الأزهري: «أزلهما الشيطان؛ أي كسبهما الزلة»[1]، وأما المعنىٰ الثاني وهو الإزالة والتنحية فيؤيده قراءة حمزة ﴿فَأَزَالَهُمَا﴾[2] أي نحاهما، وأيضًا قوله بعده ﴿فَأَخۡرَجَهُمَا﴾، وأما المعنىٰ الثالث وهو الإزلال في الرأي فيؤيده مجيء ﴿فَأَخۡرَجَهُمَا﴾ بعده، فكأنه وقع الإخراج بعد الإزلال أي الوسوسة.

- المخاطب بقوله ﴿ٱهۡبِطُواْ﴾: العموم؛ لدلالة السياق عليه.

(١) انظر: «تهذيب اللغة» (١٣/ ١٦٤).

(٢) انظر: «النشر في القراءات العشر» (ص٢١٠)، «إتحاف فضلاء البشر» (١/ ٣٨٨).

- المراد بالمستقر في قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾: الراجح الذي يدل عليه السياق أن المراد به المكان الذي يستقر فيه، ودلالة ذلك من قوله: ﴿وَمَتَاعٌ﴾، ولا يكون ذلك إلا في الحياة دون القبر؛ ولأنه خاطبهم بذلك عند الإهباط، وذلك يقتضي حال الحياة.

- المراد بالحين في قوله ﴿وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾: الموت بدلالة أن المتاع ينقطع بالموت لا بيوم القيامة، وفي ذلك تحذير للمخاطبين عن المخالفة والكفر.

البصائر والحكم

١) دلالة السياق على الغرض:

قوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ دال على غير العمد، وقوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ دال على التلطف معهما على أن الزلة كانت الشيطان، وقوله: ﴿الشَّيْطَانُ﴾ بدل: ﴿إبليس﴾ تقبيحا له، وقوله: ﴿مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ دال على نعيم ما كان فيه، وقوله: ﴿اهْبِطُوا﴾ ولم يكن فيه نداء؛ لأنه من الأعلى إلى الأدنى،

٢) وجه قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾:

الجملة بيان بأن الإهباط محدود بزمن، وهو زمن التكليف، وفي ذلك تخفيف على آدم وذريته، وتحفيز لهم بأن يقوموا بالتكليف على أتم وجه لينالوا رضى الله وجنته بعد ذلك.

﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾

◈ غرض الآية:

إظهار فضيلة آدم بالمبادرة للتوبة بعد المعصية.

◈ معاني الآية:

- المراد بالتلقي من آدم في قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ [البقرة:٣٨]: الذي يدل عليه السياق أنه متضمن لمعنىٰ التعرض للقاء الكلمات واستقبالها وقبولها والعمل بها [1]، ويدل لذلك التعبير بلفظ ﴿تلقىٰ﴾ الدال علىٰ أنه تلقاها من الله تعالىٰ. ويؤكده قوله ﴿مِن رَّبِّهِۦ﴾.

- المراد بالكلمات في الآية: الراجح أنه لم يرد في تحديدها دليل غير مادلت عليه آية الأعراف وهي قوله ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾، والذي يدل عليه السياق أنه مجمل كلمات، وإجمالها فيه معنىٰ مشعر بأن كلمات التوبة متعددة وأسلوبها متنوع، وفي ذلك توسيع لباب التوبة وترغيب فيه، وهو ترغيب للمخاطبين بالتوبة والرجوع.

البصائر والحكم

دلالة السياق اللفظي علىٰ الغرض: الفاء في: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ﴾ دالة علىٰ مبادرة آدم بالتوبة، وتخصيص آدم بالذكر دون حواء مناسب للسياق، وقوله: ﴿مِن رَّبِّهِۦ﴾ إضافة تشريف، ثم: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ دال علىٰ لطف الله بقبول التوبة، ثم: ﴿ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ دال علىٰ عظيم رحمته وعفوه.

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾

◈ غرض الآيتين:

بيان التكليف لآدم وإبليس في الدنيا. والأمر باتباع هدىٰ الله، بيان حال من لم يتبع الهدىٰ.

---

(١) انظر: «مفاتيح الغيب» (١/ ١٨).

◈ معاني الآيتين:

- سبب تكرار الأمر بالهبوط: الراجح الذي يدل عليه السياق: هو أن الأمرين متفقان في أنهما إهباط إلىٰ الأرض بدليل قوله في الموضع الأول ﴿وَلَكُمْ فِى الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾، والثاني موافق له من حيث الموضع، لكنهما مختلفان في الغرض، فالأول مشوب بضرب سخط، مقترن بأن هبوطهم فيه بلاء وعداوة، ولهذا قال فيه ﴿اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، والثاني مشوب بلطف مقترن بالوعد بإيتاء الهدىٰ المؤدي إلىٰ النجاة والعودة إلىٰ الجنة، وبسخط علىٰ إبليس مقترن بالوعيد علىٰ التكذيب والكفر بالعذاب بالنار والخلود فيها[١].

- المراد بالهدىٰ في قوله ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾: الذي يدل عليه السياق وظاهر الآية العموم.

- في وقت نبوة آدم: الذي يدل عليه السياق أن تكريمه بالنبوة كان بعد نزوله إلىٰ الأرض بدلالة قوله ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾.

- **المراد بالكفر والتكذيب والفرق بينهما**: الذي يدل عليه السياق العموم؛ لعموم الخطاب في الآيات.

البصائر والحكم

بدأ بالاستئناف لا العطف، والأمر بالهبوط بعد قبول التوبة إشعار بالانتقال من مرحلة إلىٰ مرحلة من مراحل التكريم لآدم وهي مرحلة ابتداء الخلافة مع التكليف وإيتاء الهدىٰ، ثم: ﴿جَمِيعًا﴾ دال علىٰ دخول الذرية والأتباع معهم، ثم: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ دال علىٰ الحال التي يكونون عليها بعد هبوطهم، ثم نفي الخوف والحزن يدل علىٰ كمال حالهم، ثم دل علىٰ عدم الاتباع بوصف الكفر والتكذيب، ثم: ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ الدال علىٰ استحقاقهم دخولها، ثم ذكر خلودهم فيها لبيان دوام العذاب عليهم.

(١) انظر: «إرشاد العقل السليم» (١/ ١١٤).

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ
وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ
أَوَّلَ كَافِرِۢ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ
بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ
وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ
تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ
إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾

(البقرة: ٤٠ – ٤٦)

هذه الآيات واردة في سياق دعوة بني إسرائيل للإيمان بالقرآن الذي هو مقصود السورة، تذكيراً لهم بنعمة الاستخلاف، وتوثيقاً لهم بالعهد الذي أخذه عليهم. وهذا هو مفتتح الحديث عنهم.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾

◈ **غرض الآية:** التذكير بنعم الله عليهم.

◈ **معاني الآية:**

– المراد بالنعمة في قوله تعالىٰ: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ﴾: نعمة الاستخلاف لهم بعد آدم؛ لأن السياق وارد في خطابهم بعد قصة آدم مباشرة، وهو دليل علىٰ أنه أراد أن يذكرهم تفضيله لهم بالاستخلاف بعد آدم، وهذا أعظم في الامتنان من جهة التخصيص والتفضيل لهم.

- المراد بالعهد في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ﴾: العهد الذي قطعه الله عليهم في التوراة، ومنه الإيمان بالنبي ﷺ وبما أنزل إليه؛ لأن الآية واردة في سياق الأمر بالإيمان بالقرآن والرسول ﷺ فكون العهد متعلقـًا به أولىٰ.

البصائر والحكم

- **إضافتهم إلىٰ إسرائيل وهو يعقوب**: تنبيه إلىٰ أن يكونوا مثل أبيهم في الخير والاستجابة لأمر الله؛ لما في لفظ إسرائيل من معنىٰ العبودية لله؛ إذ أن معناه عبد الله أو صفوة الله [1].

- **إضافة النعمة إليه في قوله: ﴿نِعۡمَتِيَ﴾**: تنبيهًا إلىٰ أنها من عند الله، وأنها تستحق الشكر.

- **قوله: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾**: تذكير العبد بنعمة الله عليه أدعىٰ لقبول الحق.

- **ختم الآية بالأمر بالرهبة**: إشارةٌ إلىٰ ما كان مانعـًا لهم عن الإيفاء بالعهد، وهو رهبتهم من أحبارهم، فأدمج النهي عن رهبة غير الله مع الأمر برهبة الله تعالىٰ وحده في صيغة واحدة [2].

﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ٤١﴾

◈ غرض الآية:

الأمر بالإيمان بالقرآن، والتحذير من الكفر والتكذيب.

---

(١) انظر: «البحر المحيط» (١/ ٣٢٨)، «التحرير والتنوير» (١/ ٤٥٢).

(٢) انظر: «التحرير والتنوير» (١/ ٤٥٤).

◈ معاني الآية:

- مرجع الضمير في قوله تعالىٰ: ﴿أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِۦ﴾: القرآن؛ لأن سياق الآية في الأمر بالإيمان بالقرآن.

- المراد بالآيات وبالثمن في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: المراد بالآيات القرآن، والمراد بالثمن؛ إما الطمع في الرياسة في قومهم والأموال والهدايا التي يأخذونها منهم، خافوا عليها لو آمنوا بالقرآن، وتركوا كتبهم، فاختاروا الرياسة علىٰ الإيمان بالقرآن، وإما الدنيا والعيش فيها مقابل أخذ القرآن والإيمان به؛ لأن السياق في الأمر بالإيمان بالقرآن، والغرض هنا التجرد عما يمنعهم من الإيمان به.

البصائر والحكم

- **أمرهم بالإيمان بالقرآن دون الإيمان بالرسول:** لأن القرآن كلامه وهو منزل منه، فلا سبيل لهم إلىٰ الاعتذار، بخلاف الرسول فقد يتعذرون أنهم مؤمنون برسلهم.

- **قوله:** ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾: فيه استجلاب لقلوبهم، وكأن إيمانهم به إيمان بما أنزل إليهم، وتكذيبهم به يكون تكذيبا بما أنزل إليهم.

- **قوله:** ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِۦ﴾: فيه ترهيب وتحذير لهم بمزيد الإثم والعقوبة، وذلك لأنهم بسبقهم إلىٰ الكفر سيكونون سببًا في كفر من بعدهم فيتحملون أوزارهم؛ لأنهم أول من خوطبوا من أهل الكتاب[1].

- **قوله:** ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: فيه أن جميع ما في الدنيا قليل.

---

(١) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ٧٩).

- ختم الأولىٰ بالأمر بالرهبة، والثانية بالأمر بالتقوىٰ: لأن الأولىٰ في مقام تعداد النعم، والثانية في مقام الأمر الإيمان بالقرآن الذي يناسبه التقوىٰ، ولأن التقوىٰ ثمرة الخوف.

﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾

◈ غرض الآية:

التحذير من الإغواء والإضلال بعد التحذير من الكفر والضلال.

◈ معاني الآية:

- المراد بلبسهم الحق بالباطل: المراد بالحق ما في التوراة من الإخبار بأمر النبي ﷺ، والباطل هو ما بدلوا فيها من ذلك. فلبسهم هو إخفاؤهم وخلطهم ذلك؛ لأن السياق في الأمر بالإيمان بالقرآن والنبي ﷺ وكون المعنىٰ متعلقاً بذلك أولىٰ.

- المراد بكتمانهم الحق في قوله تعالىٰ: ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: أنه خبر عنهم بأن لبسهم الحق بالباطل هو كتمان الحق الذي يعلمونه، فيكون الأول نهياً والثاني خبراً[١].

- معنىٰ ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ومفعوله: وأنتم من ذوي العلم ولا ينبغي للعالم كتمان علمه؛ لأنه أدل علىٰ المقصود وهو الاستنكار عليهم؛ ولأن مطلق العلم شامل لكل جوانب العلم.

(١) انظر: «جامع البيان» (١/ ٢٩٣) «البحر المحيط» (١/ ٢٩٠).

البصائر والحكم

- التعبير بلفظ اللبس يفيد الاختلاط والتغطية: لأنهم يلبسون الباطل ثوبًا من الحق، بالتأويل والتحريف والافتراء.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾

◈ غرض الآية:

الأمر بأصول الأعمال التي هي دليل على الإيمان.

◈ معاني الآية:

- المراد بالركوع في قوله تعالى: ﴿وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾: أراد بالأمر؛ الصلاة مع الجماعة واتباع النبي ﷺ في دينه، وإنما ترجح ذلك لأن السياق في دعوتهم للإيمان واتباعهم للنبي ﷺ واتباع دينه وسنته، ومن ذلك صلاة الجماعة التي لم تكن في ملتهم.

البصائر والحكم

- خص الصلاة والزكاة: لأنهما أعظم العبادات البدنية والمالية، فمن شأنهما استجرار سائر العبادات واستتباعها.

- خص الركوع: إذ أنه شعار الإسلام في الصلاة، وذلك أن صلاة اليهود ليس فيها ركوع، فهو دعوة إلى الدخول في الإسلام، واتباع النبي ﷺ وسنته وشريعته[١].

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (١/ ١٣٦) «التحرير والتنوير» (١/ ٤٧٣).

﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ٤٤ ﴾

◈ غرض الآية:

الاستنكار علىٰ علماء بني إسرائيل وتوبيخهم في تناقضهم بأمرهم الناس بالبر في كتبهم، ونسيان أنفسهم في الإيمان بالقرآن.

◈ معاني الآية:

- المراد بالناس في قوله تعالىٰ:﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ﴾: المراد العامة من اليهود؛ لأن السياق في الحديث عنهم، والخطاب لعلمائهم، والذي هو معتاد تعليمهم لعامتهم دون المسلمين أو المشركين.

- المراد بالبر في قوله تعالىٰ: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ﴾ : لعموم؛ لأن لفظ البر عام؛ ولأنه أبلغ في الاستنكار عليهم.

- المراد بالنسيان في قوله تعالىٰ: ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾: تعمد الترك أو التهاون بما يأمرون به؛ لأن السياق في الاستنكار عليهم.

- المراد بالنهي عن أمر الناس بالبر ونسيان النفس: سياق الآية دال علىٰ ذم الجمع بين أمر الناس بالبر وتركه، لكنه لايدل علىٰ نهي العاصي أن يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر؛ لأن سياق الآية وارد في النهي عن نسيان النفس مع عدم المبالاة بالأمر واتخاذه وظيفة وعملاً لاعقيدة وعبادة؛ ولأن الإخلال بأحد الواجبين لايوجب الإخلال بالآخر[1].

---

(١) انظر: «معالم الغيب» (٢/ ٥٩).

- معنىٰ ﴿تَتْلُونَ﴾ في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: تقرؤون؛ لأنه أدل علىٰ المقصود وهو توبيخهم علىٰ تناقض فعلهم، وإيضاً فإنهم لو كانوا متبعين للكتاب لما وقع منهم هذا التناقض.

البصائر والحكم

- **ختم الآية بنفي التعقل**: إذ أن الفعل المتناقض لا يقبله العقل السليم ولا يستسيغه[1]، ولهذا عبّر بالعقل دون التقوىٰ فلم يقل ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فالمقصود بيان فظاعة الحالة، وليس المقصود نهياً ولا تحريماً.

(١) انظر: «معالم الغيب» (٢/ ٤٤).

﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾

◈ غرض الآيتين:

إرشادهم لما يعينهم علىٰ الإيمان ويقويهم عليه، ومن أعظم ما يعينهم علىٰ ذلك: الصبر والصلاة.

◈ معاني الآيتين:

- المراد بالضمير ﴿وَإِنَّهَا﴾: الصلاة؛ لأن قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾ والخشوع خاص بالصلاة لا الصبر فلا يقال خاشع في صبره، ولو قال إلا علىٰ المؤمنين لظهر ارتباطه بهما جميعـًا؛ لأن الصبر شطر الإيمان.

البصائر والحكم

- **تخصيص الصبر والصلاة:** إذ أن الصبر أعظم ما يعين علىٰ الأمور الشاقة، وأما الصلاة فلأنه يتلىٰ فيها ما يرغب فيما عند الله، ويزهد في جميع أمور الدنيا.

- **تقديم الصبر علىٰ الصلاة:** الصبر معين علىٰ ترك ما لا ينبغي؛ ولذلك قدمه، والصلاة معينة علىٰ حصول ما ينبغي[1].

- **وصف الخاشعين بأنهم يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون:** فيه مزيد بيان لمعنىٰ الخاشعين من جهة بيان منشأ خشوعهم وهو الإيمان بالمصير والبعث.

- **خشوع العبد لله يسهل عليه العبادة،** وكلما كان لله أخشع كان له أطوع، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾.

(١) انظر: «البحر المحيط» (١/ ٢٩٨).

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾
وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا
عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ
ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ
﴿٤٩﴾ وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ
﴿٥٠﴾ وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ
﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى
ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ
ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ
خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ
يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ
﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ
ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا
وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ (البقرة: ٤٧ – ٥٧)

سياق الآيات وارد في تذكير بني إسرائيل بتعداد النعم التي امتن الله بها على أسلافهم وتفصيلها بعد إجمالها، مع تذكيرهم بالعقوبات التي حلت بأسلافهم بسبب ماقابلوا به نعم الله من الكفر والعناد والجحود الذي انطبعت عليه نفوسهم، فانتظم في السياق ترهيب وترغيب، مع تغليب جانب الترغيب[(١)].

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (١/ ٤٨٣).

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧﴾

◈ غرض الآية:

افتتاح تذكيرهم بالإنعامات والمنن التي امتن الله بها عليهم.

◈ معاني الآية:

- المراد بالنعمة في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾: المراد بالنعمة هنا ما أفاضه عليهم وعدده في الآيات، والسياق يؤيده من جهة تعداد النعم بعدها في الآيات، بخلاف الآية الأولىٰ فالمراد بها نعمة الاستخلاف في الأرض كما تبين.

البصائر والحكم

- **وجه إعادة النداء: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾:** التنبيه بتعداد النعم وتفصيلها، وتوكيد الحجة عليهم، وتحذيرهم من ترك الاتباع.

- **نسبة النعم إلىٰ الله،** فهذه النعم علىٰ بني إسرائيل لم تأت بكسبهم ولا بكدّهم، ولا بإرث عن آبائهم، وإنما هي نعمة من الله، قال: ﴿نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾.

﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٤٨﴾

◈ غرض الآية:

تخويفهم بعد تذكيرهم، وإنما عطفها علىٰ التذكير بالنعم والتفضيل، لدفع توهمهم، واعتقادهم أن إنعام الله عليهم وتفضيلهم يجعلهم في أمن من عقابه.

البصائر والحكم

- تقديم نفي الشفاعة علىٰ العدل: لأن الغرض قطع ما تعلقت به نفوسهم، وكان مانعاً لهم من الإيمان، وهو الطمع بشفاعة آبائهم، ولذلك قيد الشفاعة بعدم القبول.

- ختم الآية بعدم النصرة: للدلالة علىٰ انقطاع كل سبيل للنصرة، بعد أن أفادت انقطاع سبيل الشفاعة والافتداء.

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾

◈ غرض الآية:

التذكير بنعمة من أعظم النعم عليهم الموجبة إيمانهم، وهي نعمة إنجائهم من فرعون وقومه.

◈ معاني الآية:

- معنىٰ يسومونكم في قوله تعالىٰ: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾: يكلفونكم ويبلونكم؛ لدلالة السياق عليه أصرح وهي قوله: ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ الدال علىٰ التكليف والإبلاء.

البصائر والحكم

- تقديم نعمة إنجائهم من فرعون وقومه: لأنها سبب البقاء والرخاء بعد الشدة واللأواء.

- التعبير بالمضعف: ﴿نَجَّيْنَٰكُم﴾: للدلالة علىٰ تعدد النعم وتكثيرها.

- تخصيص الاستحياء في الآية: للدلالة علىٰ أنه من النعم العظيمة؛ لأن المقصد منه خبيثاً، وهو الاعتداء عليهن، أو أنه للاستعمال والخدمة في الأعمال الشاقة.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٠﴾

◈ غرض الآية:

تذكيرهم بنعم أخرى من نعم الله عليهم.

البصائر والحكم

- ذكر الآل في قوله: ﴿آلَ فِرْعَوْنَ﴾: لأنه أكمل في الإنعام، فلو أغرق فرعون وحده لما كملت نجاتهم منهم.
- قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾: فيه زيادة في تقرير النعمة وتعظيمها، فإن في إغراق العدو نعمة عظيمة، وتزيدهم إيمانـًا وثباتـًا[1].

﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ۝٥١ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٢﴾

◈ غرض الآيتين:

التذكير بنعمة أخرى، وهي العفو عنهم بعد اتخاذهم العجل إلهـًا.

البصائر والحكم

- تقديم اتخاذهم العجل مع أن الغرض بيان الإنعام عليهم بالعفو: لأنه سبب النعمة، فهو مقدمة لها.
- التفكر في سعة حلم الله، وأنّ المرء مهما بارز ربه بالذنوب، فإن الله حليم به، ويوفقه للتوبة، قال: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (١/ ٤٩٦)

- **ختم الآية بترجي الشكر إثر ذكر العفو**: لأن العفو عن مثل هذه الزلة العظيمة التي هي اتخاذ العجل إلهـًا هو من أعظم إسداء النعم المستوجبة للشكر[1].

﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾

◈ غرض الآية:

التذكير بنعمة إيتائهم التوارة والفرقان الذي به هدايتهم وصلاح أمرهم.

◈ معاني الآية:

- المراد بالفرقان في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ﴾: التوراة؛ لأن السياق في تعدد النعم، فذكر الفرقان من باب تعدد صفات هذا الكتاب، وإنما ذكر صفة كونه فرقانـًا؛ لأن الكتاب لا يفيده، فيكون ذكره لإفادة نعمة زائدة.

البصائر والحكم

- **وجه وصف التوراة بالكتاب والفرقان**: لإظهار كمال الإنعام، وذلك أنه كتاب هداية من الله، وفرقان لهم بين الحق والباطل؛ ولهذا أتىٰ بالألف واللام المستغرقة فيهما للدلالة علىٰ كمال النعمة.

- **ختم الآية بترجي الهداية**: لأن الكتاب به تحصل الهداية، وحصول الهداية لهم من أكبر النعم.

- **من أراد الهداية فليطلبها من الوحي الإلهي**، قال: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

---

(١) انظر: «البحر المحيط» (١/ ٣٢٨)

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾

◈ غرض الآية:

التذكير بنعمة التوبة عليهم في العقوبة بعد اتخاذهم العجل إلهـًا.

البصائر والحكم

- ينبغي للداعي إلىٰ الله أن يستعمل الأسلوب الجاذب لقلوب الناس، قال حكاية عن موسىٰ: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ ، وهذا فيه تودد وتلطف وتحبب.

- التعبير بلفظ: ﴿بَارِئِكُمْ﴾: للتنبيه علىٰ الصانع الذي أوجدكم من العدم، وهو المستحق للعبادة، لا الذي صنعه مصنوع مثله[1].

- ينبغي للداعي إلىٰ الله أن يبين الأسباب فيما يحكم به، قال: ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾.

- ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾: لأن توبته تعالىٰ عليهم كانت بالعفو عن زلة اتخاذهم العجل، وهي زلة عظيمة لا يغفرها إلا الرحيم بهم.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

◈ غرض الآيتين:

التذكير بنعمة البعث بعد أخذ الصاعقة.

---

(١) انظر: «البحر المحيط» (١/ ٣٣٣).

◈ معاني الآيتين:

- المراد بالصاعقة في قوله تعالىٰ: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾: المراد بالصاعقة سبب الموت لا الموت نفسه وهي إما نار أحرقتهم، أو صيحة، أو نحوها ثم كان موتهم بعد ذلك؛ لأن السياق في بيان عظيم الامتنان عليهم، والامتنان بالإحياء بعد الموت أعظم من الامتنان بالإفاقة بعد الغشية.

البصائر والحكم

- **التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ﴾ بدل: ﴿أصابتكم﴾:** فيه أعظم لبيان المنة بالبعث؛ لأن الأخذ أشد من الإصابة؛ إذ أنه متحقق الهلاك.

- **قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾:** فيه تأكيد لتحقق وقوعها، وشدتها، وتعظيم للمنة بالعفو والبعث بعدها.

- **ختم الآية بترجي الشكر:** لأن العفو عنهم ببعثهم بعد زلتهم العظيمة التي هي اشتراطهم رؤية الله جهرة للإيمان، هو من أعظم إسداء النعم المستوجبة للشكر.

- **من سأل ما لا يمكن فهو حري بالعقوبة،** قال: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾.

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾

◈ غرض الآية:

التذكير بنعمة تظليلهم بالغمام وإنزال المنّ والسلوىٰ عليهم من غير أن يبذلوا فيه سبباً وجهداً.

البصائر والحكم

- التعبير بالغمام دون السحاب: فيه دلالة علىٰ عظم النعمة؛ إذ الغمام كما قال مجاهد: «أبرد من السحاب وأرق وأصفىٰ، وهو الذي يأتي الله فيه يوم القيامة»[1].

- التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ﴾: فيه زيادة في الإكرام والإنعام؛ لأن المأكول أنزله عليهم من السماء، وهو رزق جاءهم مهنأ لا تعب فيه ولا نصب.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾

◈ غرض الآية:

التذكير بنعمة أمرهم بدخول بيت المقدس والأكل منها، والعيش في أكمل حال.

◈ معاني الآية:

- المراد بالقرية في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾: بيت المقدس؛ لأن السياق في بيان تكريم الله لهم، وتعداد النعم عليهم، والأمر بدخول القرية نعمة من النعم التي عدها عليهم فنسبها إليه، ولا أشرف نعمة من دخول بيت المقدس فهي محل التكريم لا غيرها.

- المراد بالسجود في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾: الركوع والخضوع؛ لأن السياق دال علىٰ تكريمهم بالأمر بالدخول مصاحبًا للشكر قولاً وعملاً.

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (١/ ١٤٨).

- المراد بالحطة في قوله تعالىٰ: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾: حط عنّا ذنوبنا، أي أُمِروا بقول ما يحط عنهم ذنوبهم التي عوقتهم؛ لأن السياق وارد في أمرهم أن يقولوا مايدل علىٰ حقيقة خضوعهم وتوبتهم، وطلب حط الذنوب أنسب لذلك من طلب حط الرحال.

البصائر والحكم

- قوله تعالىٰ: ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾: فيه زيادة تفضل عليهم وإكرام لهم؛ إذ أباح لهم أن يأكلوا ما يشاؤون منها.

- قدم الدخول والسجود الذي هو أقرب مقرب للحضرة الشريفة في قوله: ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ كما قال البقاعي: «لأنه في سياق عد النعم علىٰ القول المشعر بالذنب، وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾»[1].

- يَنبغي علىٰ مَن نصَرَه الله عزَّ وجلَّ، وفتَح له البلادَ: أن يدخُلَها علىٰ وجه الخضوع، والشُّكر لله سبحانه والاعتراف بالتقصير؛ لقوله تعالىٰ ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾.

- التعبير بجمع الكثرة: ﴿خَطَٰيَٰكُمْ﴾: لأن اللائق بجوده وعفره غفران الكثير.

- التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ﴾ بنون العظمة: إشارة إلىٰ عظيم كرمه، حيث لا يعظم عليه ذنب وإن عظم كاتخاذهم للعجل[2].

- أنَّ الجهادَ مع الخضوع والاستغفارَ سببٌ للمغفرة: لقوله تعالىٰ: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾، وسببٌ للاستزادة أيضًا من الفَضل؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

---

(١) انظر: «نظم الدرر» (١/ ٣٩٣).

(٢) انظر: «نظم الدرر» (١/ ٣٩٤).

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ٥٩﴾

◈ غرض الآية:

ذكر ماقابلوا به النعمة العظيمة، وهي أمرهم بدخول القرية من الكفران والمشاقة والمخالفة، علىٰ ما جرت عليه عادتهم.

البصائر والحكم

- إظهار لفظ الذين ظلموا وتكراره: فيه تقبيح لأمرهم، وإيذان بأن إنزال الرجز عليهم لظلمهم(١).

﴿۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ٦٠﴾

◈ غرض الآية:

التذكير بنعمة عظيمة خصهم بها، وهي نعمة تفجير الماء من الحجر من اثنتي عشرة عيناً علىٰ عدد أسباطهم.

البصائر والحكم

- التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ﴾: تنبيه لهم علىٰ شفقة موسىٰ عليهم رغم مشاقتهم له حيث استسقىٰ لهم، وتذكير لهم بحق نبيهم وما بذله لهم

(١) انظر: «الكشاف» (١/ ١٤٣).

من النصح والحرص.

- التعبير بالمشرب دون العين: إشعار بالنعمة العظيمة التي هي موضع الامتنان وهي الشرب[1].

- ذكر الرزق وإضافته إلىٰ الله في قوله تعالىٰ: ﴿مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾ بيان لعظيم فضل الله عليهم المستوجب لشكره والاعتراف بفضله، وإشارة إلىٰ أن ذلك حصل لهم من غير تعب، ولا تكلف، ولا منة مخلوق.

- السُّقيا كما تكون بالمطر النازِل من السَّماء، تكون بالنابع من الأرض، كما قال سبحانه وتعالىٰ ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾.

(١) انظر: «البحر المحيط» (١/ ٣٧١)، «روح المعاني» (١/ ٣٦٨).

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا
مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ
أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ
لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ
ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ
ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟
وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا
فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾

(البقرة: ٦١ – ٦٢)

سياق هذه الآيات في بيان ما قابلوا به النعم من الكفران والتبديل، وما قوبلوا به من العقوبة الشديدة، وكل ذلك جارٍ في سياق ذكر ما يدعوهم للإيمان ويقربهم إليه.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ
ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ
ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ
عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ
بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾

◈ غرض الآية:

بيان ما قابلوا به النعم من الكفران، وما أورثهم ذلك من العقاب الشديد.

◈ **معاني الآية:**

- المراد بالفوم في قوله تعالىٰ: ﴿وَفُومِهَا﴾: الثوم؛ لأن السياق في توبيخهم في استبدالهم الذي هو أدنىٰ بالذي هو خير، والثوم من أدنىٰ الطعام دون الحنطة والخبز.

- المراد بالأمر في قوله تعالىٰ: ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا﴾: مصرا غير معين؛ لأن السياق في توبيخهم والإنكار عليهم، فلا يناسب أن يكون المراد بالمصر بيت المقدس أو مصراً في بلاد الشام؛ لأنها أرض مباركة وقد أمرهم بدخولها تشريفاً وإكراماً وإنعاماً.

البصائر والحكم

- **النِّعمة علىٰ الآباء، تلحق الأبناء،** والذم الذي يوصف به الآباء يلحق الأبناء إذا كانوا علىٰ طريقتهم، فقولُه تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ﴾: الخطابُ لهم بأفعال غيرِهم، ممَّا يدلُّ علىٰ أنَّ الأُمَّةَ المجتمِعة علىٰ دِين تتكافَل وتتساعد علىٰ مصالحها.

- **مَن اختار الأدْنىٰ علىٰ الأعلىٰ،** ففيه شَبهٌ من اليهود، ومن ذلك: هؤلاء الذين يختارون الشيءَ المحرَّم علىٰ الشيءِ الحلال.

- **مِن علوِّ همَّة المرء:** أن ينظُر للأكملِ والأفضلِ في كلِّ الأمور.

- **التعبير بقوله تعالىٰ:** ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا﴾: فيه إشارة إلىٰ قطع العناية الإلهية عنهم، وإنعامه عليهم، وعدم تكريمه لهم، حيث وكلهم إلىٰ أنفسهم، فأمرهم بالسعي بأنفسهم في قوله تعالىٰ: ﴿ٱهْبِطُواْ﴾؛ لأنهم قابلوا النعمة بالكفر.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٦٢﴾

◈ غرض الآية:

الإشادة بالذين آمنوا من الطوائف الأربع وجزائهم، ترغيباً للاقتداء بهم.

◈ معاني الآية:

- المراد بالذين آمنوا في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ الآية: المراد بهم المؤمنون بمحمد ﷺ؛ لأن الخطاب في الأصل للمؤمنين الذين نزل عليهم القرآن تحذيراً لهم مما كان عليه اليهود، وهم أولىٰ بالتقديم من غيرهم[1].

- المراد بـ ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾: قوم موحدون، وأن دينهم مأخوذ من دين أهل الكتاب؛ لأن السياق في الثناء عليهم بغرض دعوتهم للإسلام، وقد ذكر الله أقرب الطوائف ممن عنده علم من الكتاب، وهم اليهود والنصارىٰ ومن شابههم في دينهم وهم الصابئون.

- معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾: المراد من أحدث من هذه الطوائف إيماناً خالصاً بما ذكر، واتبع دين الإسلام، ودلالة ذلك من السياق ظاهرة، حيث أن السياق في الترغيب في الإسلام، والدعوة إليه، فيبعد أن يكون المراد من آمن منهم من قبل.

(١) انظر: «نظم الدرر» (١/ ٤١٧).

البصائر والحكم

- **ذكر الطوائف وقرنها مع الذين آمنوا:** فيه زيادة ترغيب وحث للمخاطبين، وتأنيسٍ لهم، وفيه إنصاف للصالحين منهم، وتبشير لصالحي الأمم.

- **التعبير بقوله: ﴿هَادُواْ﴾ بدل: ﴿اليهود﴾:** ترغيبا لهم في الإيمان؛ إذ أن معنىٰ ﴿هَادُواْ﴾: تابوا[1]، ففيه مزيد ترغيب لهم.

- **إذا ذُكِر الثناءُ بالشرِّ علىٰ طائفة، وكان منهم أهلُ خير:** فإنَّه ينبغي ذِكرُ أولئك الذين اتَّصفوا بالخير؛ حتىٰ لا يكون قدحًا عامًّا.

- **من ثمرات الإيمان بالله واليومِ الآخِر:** حصولُ الأجْر، وانتفاء الخوف ممَّا يُستقبل، وانتفاء الحزن علىٰ ما مضَىٰ، كما في هذه الآية.

(١) انظر: «جامع البيان» (١/ ٣٥٨).

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟
مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ
وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ
فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا
وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً
قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا
رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ
فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُۥ
يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ
يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ
يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا۟
ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ
فِيهَا وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ
ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ
كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا
يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا
تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ (البقرة: ٦٣ – ٧٤)

سياق هذه الآيات متصل بما قبله في مخاطبة بني إسرائيل، إلا أن السياق هنا انتقل من تعداد النعم عليهم وبيان ما قابلوها به من الكفران، وما عوقبوا به بسبب ذلك، إلى جانب آخر هو ذكر جناياتهم وأفعالهم السيئة وسوء تلقيهم الكتاب الذي أنزل إليهم، تحذيراً لليهود من أن يتصفوا بهذه الصفات فيصيبهم ما أصاب أسلافهم.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾

◈ غرض الآيتين:

افتتاح الحديث عن جناياتهم، وتعدادها.

البصائر والحكم

- الأخذ بالكتاب المنزل يوجِب التقوىٰ: لقوله تعالىٰ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

- التعبير بلفظ ﴿قوة﴾: فيه إشارة إلىٰ شدة التأكيد عليهم بأخذها والتمسك بها؛ لأن القوة من القوىٰ، وهي طاقات الحبل التي يؤمن انقطاعها[1].

- التعبير عن الإسلام بأنه فضل من الله عليهم، والقرآن بأنه رحمة منه لهم، فيه إشعار بإكرامه لهم والشفقة عليهم، كما أن فيه تشويقـًا لهم وتعريضـًا بأسباب إنقاذهم مما هم فيه من العقوبة.

- قوله: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾: فيه امتنان علىٰ المخاطبين، وترغيبهم في الإسلام، وفتح طريق للتوبة رحمة منه وفضلاً؛ وذلك أنه بيّن أنه أخذ علىٰ أسلافهم المواثيق لأخذ الكتاب ثم تولوا عنه، ثم بيّن فضله عليهم بأن هيأ لهم هذا الدين وهذا الكتاب العظيم[2].

- الإنسان لا يستقلُّ بنفسه في التوفيق: لقوله تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾.

---

(١) انظر: «نظم الدرر» (١/ ٤٦١).

(٢) فسّر ابن جرير وغيره الفضل بالإسلام والرحمة بالقرآن وهو أنسب للسياق حيث أن السياق في ترغيبهم في الإسلام، انظر: «جامع البيان» (١/ ٣٧٠).

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

◈ غرض الآيتين:

ذكر جناية من جناياتهم وفعل من أفعالهم السيئة في سوء تلقيهم الكتاب والمواثيق ومخالفتهم لها وهي تحايلهم على الشرع.

◈ معاني الآيتين:

- مرجع الضمير في قوله تعالىٰ: ﴿ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا ﴾: المسخة والعقوبة؛ لأن السياق في التذكير بجناياتهم وعقوباتهم عليها، فكان الأولىٰ عود الضمير إليها؛ إذ هو أبلغ في الوعيد والتهديد.

- المراد بقوله تعالىٰ: ﴿لما بين يديها وما خلفها﴾: المراد بما بين يديها: من بحضرتها من القرىٰ، ويؤيده قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف ٢٧]، والمراد بمن خلفها: من يأتي بعدهم، ويؤيده قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر ٥١]؛ لأن السياق أن الآيات واردة في سياق الوعيد والتهديد لبني إسرائيل المخاطبين علىٰ كفرهم واستمرارهم فيه مع ترغيبهم في الإسلام.

البصائر والحكم

- تحريم الحِيَل: لأنَّ المتحيِّل علىٰ المحارم لا يخرُج عن العدوان؛ لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾.

- العقوبات فيها تنكيلٌ حتىٰ لغيرِ الواقِع في الذَّنب: لقوله: ﴿ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا ﴾.

- **وجه ختام الآية بقوله: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾:** لأن أهل التقوىٰ هم أهل قبول الموعظة وعدم الإعراض.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ
أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ
إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ
لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ
ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ
لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا
شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا
فَٱدَّٰرَْٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ
ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾

◈ غرض الآيات:

ذكر جناية من جناياتهم وهي استخفافهم بالأمر وتباطؤهم في الامتثال، وسوء أدبهم مع نبيهم.

◈ معاني الآيات:

- المراد بقوله تعالىٰ: ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾: مسلمة من العيوب؛ لأن السياق في التشديد عليهم، وكونها سالمة من العيوب أبلغ في ذلك، فإنه وصف زائد، ولو كان المراد سالمة من الشية، لا كتفىٰ بقوله تعالىٰ: ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾.

البصائر والحكم

- **وجه تقديم قصة ذبح البقرة علىٰ قصة قتل القتيل التي هي السبب؛** لأنّ غرض الآيات: تربية المؤمنين وتهيئتهم لتلقي التشريع، فكان الأولىٰ تصدير هذه

القصة لتكون موعظة للمؤمنين وتحذيراً لهم من مشابهة بني إسرائيل، ولهذا سميت السورة باسمها.

- ينبغي للإنسان أن يمهِّدَ للأمر، أو الخبر الذي يعتزم قوله، بما يؤدِّي إلىٰ قَبوله؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗ﴾.

- وجه الأمر بذبح البقرة دون غيرها: لما كان من جناياتهم عبادة العجل، أمرهم بما هو من جنس ما عبدوه ابتلاءً لهم؛ ليزيل مافي نفوسهم من تعظيمها، وليظهر لهم أنه تعالىٰ القادر علىٰ خلق المعجزات منها دون غيره، مما يستوجب تقديسهم له وطاعته وحده.

- جميع الخَلْق محتاجون إلىٰ الالتجاء إلىٰ الله، والاعتصام به؛ فإنَّ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ كان من أُولي العزم من الرُّسُل؛ ومع ذلك فهو محتاجٌ إلىٰ الالتجاء إلىٰ ربِّه؛ لقوله تعالىٰ:﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾: قَالَ أَعُوذُ بالله أَنْ أَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾.

- الاستهزاءَ بالنَّاس من الجَهل والحُمق وقلة العقل؛ لقوله تعالىٰ:﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾.

- مَن شدَّد علىٰ نفسه، شدَّد الله عليه، كما حصَل لبني إسرائيل في هذه القصة.

- الاختلاف والنِّزاع يكشف المكنون، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾.

- الحذر من أن يكتُمَ الإنسان شيئًا لا يرضاه الله؛ لأن الله سيظهره ويبينه، ولا تخفىٰ عليه خافية.

- قوله تعالىٰ: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾: علىٰ المرء أن يتقبل أحكام الله وأوامره وقضاءه بالرضا والتسليم والقبول.

- قوله: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾: فيه دلالة علىٰ عظمة الله، وهي أن البقرة الميتة سبب لحياة آخر؛ إذ لا رابطةَ في المعقول بين أن تُذبَح البقرة، ويُضرَب القتيلُ ببعضها، فيحيا، فلو قِيل بضربِه بجزءٍ مِن بقرة حيةٍ لربما توهَّم متوهمٌ أنَّه استمدَّ الحياةَ مِن حياتها، ولكن أمرهم بضربِه بجزءٍ مِن بقرة ميتة، فعادت له الحياةُ، فهذه آية، والله علىٰ كل شيء قدير.

- **كثرة السؤال الدال علىٰ ضعف الفهم للشريعة،** وعلىٰ تطلب أشياء لا ينبغي أن تطلب من الأمور المذمومة.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾

◈ غرض الآية:

الحكم عليهم بعد هذا التفصيل لتعداد النعم عليهم وكفرهم بها، وتعداد جناياتهم، فهي ليست تعقيباً لقصة البقرة فقط؛ وإنما هي تعقيب لما سبق من تعداد النعم وكفرهم بها وتعداد جناياتهم.

◈ معاني الآية:

- المخاطبون في قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾: أنهم المعاصرون للنبي ﷺ؛ لأنه خطاب مشافهة، فالأولىٰ أن يكون في الحاضرين؛ ولأن السياق في أول الآيات موجه في دعوتهم فيكون هذا في الحكم عليهم بعد كفرهم.

- المراد بالخشية في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾: أي أنها خشية حقيقية ناتجة عن إدراك خَلَقَه اللهُ فيها، وهذا تأويل علماء سلف

الأمة[1]؛ لأن السياق في قياس لين الحجارة وخشيتها لله مع أنها قاسية في الظاهر، بما عليه بنو إسرائيل من الكفر والقسوة عن الإنابة لله.

- معنىٰ ﴿أَوْ﴾ في قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾: إنها بمعنىٰ بل، ويحتمل إنها بمعنىٰ الواو؛ لأن السياق في بيان شدة قسوتهم، وإعراضهم وكفرهم، ويدل عليه أيضًا التمثيل بأحوال الحجارة.

البصائر والحكم

- **وصف أحوال الحجارة وخشيتها لله**، إشعار بأن هذه الجبال وهي جامدة قاسية تخشع لله وتهبط من خشيته إعظامًا له تعالىٰ.

- **قسوة القلب مع إنعام الله علىٰ الإنسان دليل علىٰ لؤمه**، فبنو إسرائيل لم تلن قلوبهم مع نعم الله عليهم، بل قستْ، وما ذلك إلا للؤمهم وفساد قلوبهم.

(١) انظر: «جامع البيان» (١/ ٤٠٩).

﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ
يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ
لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ
وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا
يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ
لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ
﴿٧٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا
فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ
سَيِّئَةً وَأَحَـٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٨١﴾
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ
﴿٨٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى
ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟
ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا
مِيثَـٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ
تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن
دِيَـٰرِهِمْ تَظَـٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَـٰرَىٰ تُفَـٰدُوهُمْ وَهُوَ
مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا
جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ
إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا
بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ البقرة: ٧٥ - ٨٦

سياق الآيات في الحديث عن بني إسرائيل المعاصرين للنبي ﷺ بالتيئيس من إيمانهم، وشرح قبائحهم وجناياتهم التي اشتركوا فيها مع أسلافهم واجترؤوا على اقترافها بأنفسهم.

﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ٧٥﴾

◈ غرض الآية:

التصريح بعدم إيمانهم والتيئيس منهم مع الاستدلال لذلك؛ للتأكيد على عدم الطمع في إيمانهم. وذلك بعد الحكم عليهم بقسوة قلوبهم.

◈ معاني الآية:

- ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾: هم علماء اليهود؛ لأنّ سياق الآية في أولها عن علماء اليهود.

- ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾: أي ماكان في التوراة من الوصف الثابت فيها لرسول الله ﷺ والأمر باتباعه؛ لأن سياق الآية في بداءتها عن الإيمان بمحمد وما أنزل إليه.

البصائر والحكم

- **التعبير بقوله: ﴿يَسْمَعُونَ﴾ دون: ﴿يتلونه﴾**: فيه تأكيد لعلمهم بكلام الله ويقينهم به؛ لأن السمع أقوىٰ من البصر في الفهم والوعي وعقل الشيء.

- **ختم الآية بقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾**: فيه تأكيد علىٰ علمهم بكلام الله، وتعمدهم وسوء قصدهم في تحريفه، وإبطال لما عساه يعتذر لهم به من سوء الفهم أو الخطأ أو نحوه[1].

- **تَسليةُ الله تعالىٰ لرسوله ﷺ بما يُذهب عنه الأسىٰ، والحزن**؛ حيث بيَّن له حال هؤلاء، وأنَّهم قومٌ عُتاةٌ لا مَطمعَ في إيمانهم، كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾.

(١) انظر: «تفسير المنار» (١/ ٣٥٦).

- من كان لا يؤمن بما هو أظهرُ، فإنَّه يبعُد أن يؤمن بما هو أخفَىٰ؛ لأنَّ مَن يَسمع كلام الله، ثم يُحرِّفه، أبْعَدُ قَبولًا للحقِّ ممَّن لم يسمعه، كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

- التَّحريف بعد عقْل المعنىٰ أعظمُ، كما قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾؛ وذلك لأنَّ الجاهل قد يُعذَر بجهله؛ لكن العالم الذي عقَل الشيء يكون عملُه أقبحَ؛ لأنَّه تجرَّأ علىٰ المعصية مع عِلمه بها.

﴿۞ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾

◈ غرض الآية:

بيان نوع من أنواع قبائحهم، وهو تذبذبهم، واضطراب أمرهم واختلافهم ونفاقهم.

◈ معاني الآية:

- قوله: ﴿فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾: المراد بالفتح: أي ما أنزل عليكم من أمر محمد ﷺ ووصفه؛ السياق في عدم إيمانهم وتحريفهم وكتمانهم للحق الذي في كتبهم، ومنه صفة النبي ﷺ.

- قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: الخطاب من اليهود اللائمين لإخوانهم علىٰ إخبار المؤمنين بما فتح الله عليهم؛ لأن السياق في إنكار اليهود علىٰ أصحابهم أن يحدثوا بما فتح الله عليهم.

البصائر والحكم

- التعبير بقوله: ﴿خَلَا﴾: فيه تشنيع عليهم؛ لأنه يفيد كتمانهم للأمر وإخفائهم له.

- التعبير بقوله: ﴿فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾: فيه إشارة إلىٰ أنه أمر عظيم عندهم، وأنه سر مكنون لا يعلن لأحد، والمراد به البشارة بالنبي ﷺ.

- التعبير بقوله: ﴿لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡ﴾: فيه إشارة إلىٰ سخافة عقولهم؛ إذ يحدثونهم بما هو عليهم حجة.

- من سجايا اليهود وطبائعهم الغَدرَ والخيانة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ...﴾؛ لأنَّ في هذا نوعًا من الغَدْر بالمؤمنين.

- العِلم من الفتح؛ لقولهم: ﴿بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ ولا شكَّ أنَّ العِلم فتْحٌ يَفتح الله به علىٰ المرء من أنواع العلوم والمعارف ما يُنير به قلبَه.

- توبيخ الله تعالىٰ لليهود بقوله: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾: فيه دلالةٌ علىٰ أنه يَنبغي للإنسان أن يكون عاقلًا؛ فلا يخطو خُطوةً إلَّا وقد عرَف أين يضع قدمه، ولا يتكلَّم إلَّا وينظر ما سيترتَّب علىٰ كلامه، ولا يفعل شيئًا إلَّا وينظر ما سيؤول إليه فِعلُه.

﴿أَوَلَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ٧٧ وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ٧٨﴾

◈ غرض الآيتين:

بيان نوع من قبائحهم وصنف من أصنافهم، وهم الأميون المتبعون أحبارهم علىٰ الباطل وما يعتقدونه من الأماني الكاذبة، ويظنون أنهم علىٰ الحق.

◈ معاني الآيتين:

- قوله: ﴿أُمِّيُّونَ﴾: أي: جهلة اليهود الذين لايقرؤون التوراة؛ لأن الجملة مسوقة لبيان نوع من قبائحهم.

- قوله: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: التوراة لا الكتابة؛ لدلالة ما بعدها، وهو قوله: ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾؛ لأنّ الأماني لا تتناسب مع الكتابة كما سيأتي في بيان معنىٰ: ﴿أَمَانِيَّ﴾.

- قوله: ﴿أَمَانِيَّ﴾: أكاذيب أخذوها تقليداً من شياطينهم المحرفين؛ لأنّ الآية واردة في سياق ذم الأميين منهم، وأنهم لا يعرفون من دينهم إلا ما أملته عليهم شياطينهم المحرفون، ولدلالة ما بعدها، وهي قوله: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ وهذا الظن لا يقع إلا من الأميين، ظنهم هو أن ذلك من الكتاب، وما هو من الكتاب، أو أنه من عند الله وما هو من عند الله.

البصائر والحكم

- التعبير بقوله: ﴿أُمِّيُّونَ﴾، و﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾، و﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾: فيه إشارة إلىٰ تحقيرهم والمبالغة في بيان جهلهم.

- ذمُّ مَن لا يَعتني بمعرفة معاني كتاب الله عزَّ وجلَّ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾

◈ غرض الآية:

بيان أنواع من قبائحهم مما لم تذكر في الآيات قبلها، وهي كتابتهم التوراة تحريفاً من أنفسهم، وتكسباً للمال بها، والمقصود بذلك أحبارهم.

◈ معاني الآية:

- قوله: ﴿مِّمَّا يَكۡسِبُونَ﴾: أي: مما كسبوه من المال المأخوذ علىٰ التحريف والكتابة؛ لأنّ السياق في إظهار قبائحهم وجناياتهم.

البصائر والحكم

- التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿بِأَيۡدِيهِمۡ﴾: فيه تأكيدٌ لقبح فعلهم، وهو أنهم يلون كتابة الكذب والفرية علىٰ الله بأيديهم، علىٰ علم منهم وعمد، ثم ينسبونه إليه تعالىٰ[(١)].

- إعادة الوعيد بقوله تعالىٰ: ﴿فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ﴾: فيه إشعار بأن كتابتهم لما كتبوه ذنب عظيم بانفراده، وكذلك ما يأخذونه من المال، ولذلك أعاد ذكر الويل في الكسب[(٢)].

﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٠﴾

◈ غرض الآية:

بيان نوع آخر من جناياتهم وقبائحهم وهو زعمهم أن النار لن تمسهم إلا أيامـاً معدودة.

البصائر والحكم

- التعبير بقوله: ﴿وَقَالُواْ﴾: فيه إشعار بكونه من الأكاذيب التي اختلقوها، ولم يكتبوها في الكتاب[(٣)].

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١/ ٤٢٤)، «فتح الرحمن بكشف مايلتبس في القرآن» (ص٣٢).

(٢) انظر: «مفاتيح الغيب» (٣/ ١٢٩).

(٣) انظر: «إرشاد العقل السليم» (١/ ١٤٥).

- **ختم الآية بقوله:** ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: فيه مبالغة في التشنيع والإنكار؛ لإسنادهم إليه ما يعلمون عدم وقوعه.

- **حُسن مجادلة القرآن؛** لأنَّه حصَر هذه الدعوىٰ في واحدٍ من أمرين، وكلاهما منتفٍ: ﴿أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

- **قوله تعالىٰ:** ﴿أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ﴾ فيه: أنَّ الله سبحانه وتعالىٰ لن يُخلِفَ وعده؛ وكونه لا يُخلف الوعد يتضمَّن صفتين عظيمتين، هما: الصِّدق، والقدرة؛ لأنَّ إخلاف الوعد إمَّا لكَذِب، وإمَّا لعجز؛ فكون الله جلَّ وعلا لا يُخلف الميعاد يقتضي كمالَ صِدقه، وكمال قُدرته سبحانه وتعالىٰ.

﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾

◈ غرض الآية:

الرد عليهم في مقابل ما ادّعوه، مفيدة استحقاقهم لدخول النار، وذلك ببيان الوصف الصحيح لمن يستحق الخلود فيها.

◈ معاني الآية:

- **قوله:** ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾: أي: الكفر والشرك، لدلالة قوله: ﴿وَأَحَٰطَتْ﴾، لأن العاصي مؤمن فلم تحط به خطيئته، ولأن الرد كان علىٰ الكفار الذين ادّعوا أن النار لا تمسهم إلا أياماً معدودة فهم المراد بالخلود، ولقوله بعده: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، فالتقسيم لفريقين: أهل الكفر، وأهل الإيمان [1].

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (١/ ١٧١).

البصائر والحكم

- **التعبير بالكسب** في قوله: ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾: فيه إشارة إلىٰ استجلاب الكفر والشرك، وطلبه وتعمده، وفيه مناسبة لفعلهم في قوله تعالىٰ: ﴿كسبت أيديهم﴾، فهو كسب للمال المؤدي لكسب السيئات.

- **التعبير بالإحاطة** في قوله: ﴿وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾: فيه إشارة إلىٰ كثرة الخطايا التي تحيط بالإنسان واشتمالها علىٰ جميع أحواله.

- **التعبير بقوله:** ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ بدل: ﴿إنهم أصحاب النار﴾: فيه تنبيه علىٰ بعد منزلتهم في الكفر، وتهويل لحالهم وعقابهم[1].

- **قوله:** ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾: فيه إشعار بأنهم المستحقون لها؛ لعظم ذنبهم.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨٢﴾

◈ غرض الآية:

هذه الآية واردة علىٰ أسلوب شفع الوعيد بالوعد مراعاة لما تقتضيه الحكمة في الجمع بين الترهيب والترغيب، والتبشير والإنذار[2].

البصائر والحكم

- **الآية فيها ترغيب لهم بالإيمان**، وإشادة بالمؤمنين وبشارتهم بجزائهم ودعوة لثباتهم.

(١) انظر: «إرشاد العقل السليم» (١/ ١٤٦).

(٢) انظر: «مفاتيح الغيب» (٣/ ١٤٨)، «إرشاد العقل السليم» (١/ ١٤٧).

-**الإيمان وحده لا يَكفي لدخول الجنة،** بل لا بدَّ من العمل الصالح،كما أنَّ العَمل وحده لا يكفي، بل لا بدَّ أن يكون صادرًا عن إيمان؛ لقوله تعالىٰ: ﴿ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ ولذلك لم ينفعِ المنافقين عَملُهم؛ لفقدهم الإيمانَ في قلوبهم.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾

غرض الآية:

ذكر نوع آخر من جناياتهم وهي مخالفاتهم لما في كتبهم، ونقضهم للمواثيق التي أخذها الله علىٰ أسلافهم، وذلك كله وارد في سياق قطع الطمع في إيمانهم[1].

البصائر والحكم

- الخطاب في الآية مدمج بين المؤمنين واليهود فهو خطاب لهم جميعاً؛ ولذا جاء التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ دون ﴿مِيثَٰقَ﴾ خطاباً للمؤمنين، ودون ﴿ميثاقكم﴾ خطاباً لليهود، ومناسبة توجيهه للمؤمنين؛ لأن الخطاب السابق في قوله تعالىٰ: ﴿أَفَتَطْمَعُوْنَ﴾ موجه لهم، فناسب أن يوجهه إليهم هنا تأكيداً وتدليلاً.

أما وجه توجهه لليهود فلأن الكلام في الآيات السابقة عنهم في ذكر قبائحهم المباشرة منهم.

(١) انظر: «إرشاد العقل السليم» (١/ ١٤٧).

- **وجه تفصيل ما أخذ عليهم من الميثاق في الآية:** لأنه لما كان السياق في التيئيس من إيمانهم، بيّن هنا أنه قد أخذ عليهم مثل ما أخذ عليكم من الميثاق فتولوا عنه، فمن باب أولىٰ أن يتولوا بعد ذلك عن أخذ الميثاق في دينكم، فلا تطمعوا في إيمانهم، وفيه تحذير المؤمنين من مشابهتهم.

- **وجه قوله:** ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ في تفصيل ما أخذ عليهم من الميثاق: فيه إشعار لهم بأن يقولوا الحق في أمر هذا الدين، ولا يغيروا ما جاء في كتبهم، كما يؤيده ما ذكره ابن جرير عن ابن جريج قال: «قولوا للناس صدقاً في أمر محمد ﷺ ولا تغيروا نعته»[1].

- **قولـه تعالـىٰ:** ﴿لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانًا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ فيه إشارةٌ إلىٰ أنَّ حقَّ ذي القُربىٰ، كالتابع لحقِّ الوالدينِ؛ لأنَّ الإنسان إنما يتَّصل به أقرباؤه بواسطة اتِّصالهم بالوالدينِ، والاتِّصالُ بالوالدين مقدَّم علىٰ الاتِّصال بذي القربىٰ؛ فلهذا أخَّر الله تعالىٰ ذِكرَه عن الوالدينِ.

- **قوله سبحانه وتعالىٰ:** ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانًا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾: جاء الأمْر بالإحسان إلىٰ اليتيم بعدَ الأمر بالإحسان إلىٰ الأقارب؛ لأنَّه لصغره لا يُنتفع به، ولخلوِّه عمَّن يقوم بشؤونه، يَحتاجُ إلىٰ مَن يَنفعه، والإنسان قلَّما يرغب في صُحبة مِثل هذا، ولَمَّا كان هذا التكليفُ شاقًّا علىٰ النفْس، كانت درجتُه عظيمةً في الدِّين.

وأمَّا المساكين فقد تأخَّرت درجتُهم عن اليتامىٰ؛ لأنَّ المسكين قد يُنتفع به في الاستخدام، فكان المَيلُ إلىٰ مُخالطته أكثرَ من الميل إلىٰ مخالطةِ اليتامىٰ، ولأنَّ المسكين يُمكنه الاشتغالُ بتعهُّد نفسه ومصالح معيشته، وليس اليتيم كذلك.

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١/ ٤٣٦)، «الجامع لأحكام القرآن» المجلد الأول (٢/ ١٦).

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٨٤﴾

◈ غرض الآية:

بيان نوع من أنواع قبائحهم مؤكد للذي قبله، وهو نقضهم المباشر للمواثيق بعد ذكر نقض أسلافهم، والغرض هنا التشنيع عليهم، وتقبيح فعلهم، وإظهار تناقضهم في دينهم وخيانتهم فيه، والتأكيد للمؤمنين بقطع الطمع في إيمانهم، أي كيف يرجىٰ منهم إيمان بعد ذلك.

البصائر والحكم

- التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿مِيثَٰقَكُمۡ﴾: متوجه إليهم مباشرة للتوبيخ والتشنيع.

- التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿دِمَآءَكُمۡ﴾، ﴿أَنفُسَكُم﴾: فيه مبالغة في الحمل علىٰ مراعاة حقوق الميثاق.

- التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ﴾: فيه المبالغة في تأكيد الأمر والتشنيع علىٰ المخالفة[1].

- أنَّ الأُمَّة كالنَّفْس الواحدة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم﴾.

---

(١) انظر: «إرشاد العقل السليم» (١/ ١٤٩).

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾

◈ غرض الآيتين:

متممة لما قبلها في بيان وتفصيل أفعالهم المنكرة وكشف صور من نقضهم الميثاق.

البصائر والحكم

- قوله تعالىٰ: ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾: فيه مبالغة في التشنيع عليهم وبيان تناقضهم، حيث عبر عن الغير بالنفس كناية عن أنهم نفس واحدة.

- التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿دِيَٰرِهِمْ﴾ دون ﴿دياركم﴾: للاحتراز عن توهم كون المراد إخراجهم من ديار المخاطبين من حيث هي ديارهم[1]، ففيه مبالغة في الوصف والاستنكار.

- التنصيص علىٰ حرمة الإخراج دون القتل في قوله ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾: لأن مساق الكلام في ذكر جناياتهم وتناقض أفعالهم معًا، وذلك مختص بصورة الإخراج حيث لم ينقل عنهم تدارك القتلىٰ بشيء من دية أو قصاص[2].

(١) انظر: «إرشاد العقل السليم» (١/ ١٥٠).

(٢) انظر: «محاسن التأويل» (١/ ٣٢٣)، «روح المعاني» (١/ ٤٢٥).

- قوله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾: للتنبيه على تناقضهم وكفرهم مع الإيمان، وليس المراد قطعاً الإنكار عليهم بالإيمان ببعض، ووقوع ﴿تؤمنون﴾ في حيز الإنكار مع أن إيمانهم هو الواجب، وكفرهم هو المنكر؛ أبلغ في الإنكار والتشنيع؛ لأنه مفيد شدة التعجب من الجمع بين الأمرين[1].

- التعبير في جزائهم بالخزي في قوله تعالىٰ: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ﴾: لأن الخزي ذل وإهانة فهو مقابل فعلهم، وتنكيره للإيذان بفظاعة شأنه[2].

- إثبات أنَّ صفات الله تعالىٰ ثبوتيَّة، ومنفيَّة، لكنَّ النفي المحضَ لا يُوجَد في صفات الله تعالىٰ، وإنَّما جاء النفيُ الواقع في صفاته؛ لبيان كمال ضدِّ ذلك المنفيِّ، كما قال تبارك وتعالىٰ: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (١/ ٥٩١).

(٢) انظر: «روح المعاني» (١/ ٤٢٧).

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ
ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ
فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا
مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ
يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ
عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ
بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ
وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ
أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ
أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ
ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ
وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا
وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم
بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ
خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ
أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ
حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ
ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ
نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ
﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ
لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ
﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾

(البقرة: ٨٧ – ١٠٠)

سياق الآيات وارد في الحديث عن بني إسرائيل المعاصرين في مواجهتهم، وتيئيس المؤمنين من إيمانهم بذكر نوع آخر من جناياتهم التي اشتركوا فيها مع أسلافهم، وهي تكذيبهم بالكتب المنزلة، وأسباب ذلك وموانعه في أنفسهم. مع التفصيل والبسط في بيان موقفهم من القرآن وإبطال شبهاتهم وحججهم وادعاءاتهم الباطلة حوله؛ إرغاماً لهم على الاعتراف والإقرار به وسداً لباب الافتراء عليه وقطعاً للحجة عليهم.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾

◈ غرض الآية:

بيان موقفهم من القرآن والرسول المنزل عليه هذا القرآن، بذكر سنتهم في التكذيب بما قبله.

◈ معاني الآية:

- قوله: ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾: أي: جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأن السياق في بيان موقف بني إسرائيل من أنبيائهم، وقد ذُكر عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مع أعظم ما اختص به وما ميزه عن غيره، أي أنهم مع ما اختص وتميز عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ به؛ وما له من مكانة ورفعة، إلا أنهم كفروا به واستكبروا.

البصائر والحكم

- التعبير بقوله: ﴿أَفَكُلَّمَا﴾: فيه دلالة علىٰ الاستمرار، والاستنكار الدال علىٰ عادتهم في التكذيب.

- تقديم التوبيخ بقوله: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ ...﴾ علىٰ ذكر مواقفهم مع أنبيائهم في قوله: ﴿ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ ...﴾: فيه مبالغة في التشنيع والتوبيخ،

ومفاجأة للنفوس بقوة الإنكار والتقبيح عليهم خاصة في تكذيبهم بالنبي ﷺ.

- التعبير بقوله: ﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾: فيه إيماء بخبثهم المنطوي في نفوسهم الباعث علىٰ إقدامهم علىٰ قتل محمد ﷺ ففيه كشف لخفايا نفوسهم وفضح لهم، وتحذير للمؤمنين منهم، ومن سوء فعالهم[1].

- مَن بعد موسىٰ مِن الرُّسل مِن بني إسرائيل تبَعٌ له؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾.

- مِن جملة تسخير الملائكة للخلْق: أنَّهم يُؤيِّدون مَن أمَرَهم الله تعالىٰ بتأييده، كما قال تعالىٰ: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾.

﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾

غرض الآية:

بيان لسبب كفرهم واستكبارهم.

البصائر والحكم

- الالتفات من الخطاب إلىٰ الغيبة؛ فيه إغفال لهم وتحقير، وتوجه الخطاب للمؤمنين؛ لأن الغرض الإخبار بعدم إمكان إيمانهم جريـًا علىٰ عادتهم.

- قوله: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾: مفيد شدة بهتهم، وقوة عنادهم، مما يدل علىٰ عدم الطمع في إيمانهم.

- التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾: فيه إشارة إلىٰ أنه لن يؤمن

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (١/ ٥٩٨)، «روح المعاني» (١/ ٤٣٢)، «تفسير المنار» (١/ ٣٧٧).

من اليهود إلا قليل، بدلالة قوله: ﴿فَقَلِيلًا مَّا﴾.

- **القلوب بفِطرتها ليست غلفاءَ**؛ لقوله تعالىٰ: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾، وهذا الإضراب للإبطال، يعني: ليست القلوب غَلفاءَ لا تقبل الحقَّ، لكنْ هناك شيء آخَر هو الذي منَع من وصول الحقِّ؛ وهو لَعْنُ الله إيَّاهم؛ بسبب كُفرِهم.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾

◈ غرض الآية:

بيان موقفهم من القرآن صراحة، بالتكذيب مع كمال الوصف الذي جاءهم عليه بما لا يمكن لهم الشك فيه ولا الارتياب.

◈ معاني الآية:

- **قوله**: ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾: يفتحون أي يعلمون ويخبرون المشركين بأن رسولاً سيبعث، كما يقال فتح علىٰ القارئ أي أعلمه الآية التي نسيها[1]؛ لأن السياق في الإنكار عليهم والتشنيع علىٰ كفرهم، وكونه متضمنًا لمعنىٰ إعلامهم به، واستنصارهم به، وسؤالهم عنه؛ أقوىٰ في الدلالة علىٰ المقصود وهو التشنيع بفعلهم والإنكار عليهم.

(١) انظر: «جامع البيان» (١/ ٤٥٥)، «مفاتيح الغيب» (٣/ ١٦٥)، «البحر المحيط» (١/ ٤٨٦)، «التحرير والتنوير» (١/ ٦٠١)

البصائر والحكم

- وصف الكتاب بقوله تعالىٰ: ﴿مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾: وصف مؤكد لصدقه، وقوله تعالىٰ: ﴿مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ﴾: وصف ثاني مؤكد صدقه، وفي بيان الوصفين زيادة تسجيل عليهم بالمذمة في كفرهم به[(١)].

- قوله تعالىٰ: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: فيه وصف ثالث للكتاب، وهو العلم اليقين بأنهم لم يكونوا في غفلة عنه؛ بل كانوا أعلم الناس به، وقد وطنوا أنفسهم علىٰ تصديقه، ثم كفروا به[(٢)].

- قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾: فيه تأكيد لعلمهم به ومعرفتهم أنه الحق، وأنه الموصوف عندهم، وأنه قد ظهر لهم وصفه كما جاء في كتبهم ولم يحصل لهم التباس فيه[(٣)].

- العلم من أعظم نِعم الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾.

- العقوبات تَتراكم بحسَبِ الذُّنوب؛ جزاءً وفاقًا؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖ﴾.

- المستكبِر يُعاقَب بنقيض حاله؛ لقوله تعالىٰ: ﴿عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾؛ فعُوقِبوا بما يَليق بذنوبهم؛ وعلىٰ هذا جرَتْ سُنَّة الله سبحانه وتعالىٰ في خَلْقه.

---

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (١/ ٦٠١).

(٢) انظر: «نظم الدرر» (٢/ ٣٦).

(٣) انظر: «التحرير والتنوير» (١/ ٦٠٢).

﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾

◈ غرض الآية:

كشف السبب الخفي لموقفهم الشائن في الكفر بالقرآن بعد أن عرفوا أنه الحق، وهو البغي والحسد(١).

◈ معاني الآية:

- قوله: ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾: الغضب الأول: غضبه عليهم لكفرهم بموسىٰ وما كان معهم من التوراة وكفرهم بأنبيائهم وما أُيِّدَ به من البينات، والثاني: غضبه عليهم لكفرهم بالنبي ﷺ وما أنزل معه من القرآن؛ أن الآيات في التشنيع عليهم بتكذيبهم للرسل والبينات ثم كفرهم بالنبي ﷺ وما أنزل إليه.

البصائر والحكم

- تصدير توبيخهم والتعنيف عليهم قبل بيان السبب: فيه مبالغة في التشنيع عليهم.

- الحكم بمضاعفة الغضب عليهم في قوله تعالىٰ: ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾: إنما ضاعف الغضب عليهم لتكرر كفرهم بالأنبياء وقتلهم لهم، فكفروا برسلهم، وكفروا بمحمد ﷺ.

- ختم الآية بقوله: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾: فيه تقريع لهم وتوعد وتهديد لهم، ووصف عذابهم بأنه مهين زيادة في الإهانة لهم والإبعاد لمنزلتهم، ولذا لم يوصف بهذا الوصف سوىٰ عذاب الكافرين.

---

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (١/ ٦٠٣).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾

◈ غرض الآية:

رد شبههم حول الإيمان بالقرآن، ومعاذيرهم ومزاعمهم الباطلة التي تمنعهم من الإيمان به.

◈ معاني الآية:

- قوله: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾: أي: بما وراء القرآن؛ لأن السياق في دعوتهم للإيمان بالقرآن فهو أولىٰ.

البصائر والحكم

- التعبير بالفعل المضارع في قوله تعالىٰ: ﴿نُؤْمِنُ﴾: فيه إشارة إلىٰ أنهم بزعمهم دائمون علىٰ إيمانهم بما أنزل عليهم دون سواه.

- قوله: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾: فيه إشارة إلىٰ أنهم يرون أن الإيمان مقتض للكفر بغيره علىٰ الدوام.

- قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾: زيادة في الرد والتشنيع عليهم.

- قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: فيه مواجهة لهم عنيفة بالحجة والدليل، وفيه رد قاطع عليهم بعدم الإيمان[(١)].

(١) انظر: «روح المعاني» (١/ ٤٤١).

- قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: مع أن القتل قد مضىٰ، وأتىٰ بالمضارع لقصد استحضار صورة هذا الجرم الفظيع، مبالغة في الرد، وإغراقًا في التقريع والتشنيع[1].

- قال تعالىٰ ذامًّا بني إسرائيل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾: فيه دلالةٌ علىٰ وجوب قَبول الحقِّ مِن كلِّ مَن جاء به.

- قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾: فيه أن الله تعالىٰ لَمَّا رفَع مقدار بني إسرائيل بالدُّعاء إلىٰ الإيمان بما أُسنِد إلىٰ هذا الاسم العظيم في قوله: ﴿أَنزَلَ اللَّهُ﴾ قالوا تسفيلًا لأنفسهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ فأَسقطوا اسمَ مَن يُتشرَّف بذِكره، ويُتبرَّك باسمه، وخصُّوا بعضَ ما أنزله سبحانه.

- إفحام الخَصْم بإقامة الحُجَّة عليه مِن فِعله؛ ووجه ذلك: أنَّ الله تعالىٰ أقام علىٰ اليهود الحُجَّةَ عليهم بفِعلهم؛ لأنَّهم قالوا: ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾، لكنَّهم قتلوا أنبياء الله الذين جاؤوهم بالحقِّ من ربِّهم، فعُلم إذًا أنَّ قولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ ليس بصحيح؛ لأنَّهم لو كانوا مؤمنين حقيقةً ما قتَلوا الأنبياء؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (١/ ٦٠٨)، «تفسير المنار» (١/ ٣٨٤).

﴿ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ
وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ
خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى
قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن
كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

◈ غرض الآيتين:

الرد عليهم في زعمهم الإيمان بما أنزل إليهم.

البصائر والحكم

- التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾ المستلزم للعمل والامتثال بخلاف لفظ ﴿واذكروا مافيه﴾ الذي هو أمر بالحفظ والتذكر؛ لأن السياق هنا لبيان تكذيبهم في ادعائهم الإيمان فكان الأنسب الإتيان بلفظ ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾.

- التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿وَأُشْرِبُوا۟﴾: فيه دلالة علىٰ تغلغل حبه في قلوبهم وامتزاجه بها؛ ولذلك أكّده بقوله تعالىٰ: ﴿فِى قُلُوبِهِمُ﴾، وأسند الإشراب إلىٰ ذات العجل دون حبه للمبالغة [(١)].

- قوله تعالىٰ: ﴿فِى قُلُوبِهِمُ﴾: فيه تذييل واعتراض ناشئ عن قوله تعالىٰ: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، وهو خلاصة لإبطال ادعائهم الإيمان بما أنزل إليهم.

- قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: أضيف الإيمان إلىٰ ضميرهم لإظهار أن الإيمان المذموم هو إيمانهم الذي

---

(١) انظر: «البحر المحيط» (١/ ٤٩٥).

ادعوه، وهو ما دخله التحريف والاضطراب بفعلهم، فبطل بذلك كونهم مؤمنين بما أنزل عليهم حقيقة وهو المقصود»[1].

- **وجوب تلقِّي شريعة الله تعالىٰ بقوَّة،** دون كسَلٍ أو فُتور؛ لقوله تعالىٰ: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾.

- **مِن دَلائل النبوَّة والمعجِزات العلميَّة:** إشاراتُ القرآن إلىٰ العِبارات التي نطَق بها موسىٰ عليه السلام في بني إسرائيل، وكُتبت في التوراة؛ فإنَّ الأمر بالسَّماع تكرَّر في مواضع مخاطبات موسىٰ لملأ بني إسرائيل بقوله: اسمَعْ يا إسرائيل، وجاء في القرآن: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْ﴾ البقرة: ٩٣، فهذا من نُكت اختيار هذا اللَّفْظ للدَّلالة علىٰ الامتثال دون غيرِه، وهذا مِثل التعبير بالعهد.

- **الشر لا يُسنده الله تعالىٰ إلىٰ نفْسه،** وإنْ كان هو سبحانه الخالِقَ للخير والشرِّ، بل يَذكُره بصيغة المبنيِّ لِمَا لم يُسمَّ فاعله؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ﴾.

- **قوله تعالىٰ:** ﴿قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾: فيه دلالةٌ علىٰ أنَّ الإيمان الصَّحيح يأمُر صاحبَه بالطاعات لا بالمعاصي.

﴿قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٩٤﴾

◈ غرض الآية:

رد ادعائهم بأنهم سيرثون الجنة خالصة لهم.

---

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (١/ ٦١٢).

◈ معاني الآية:

- ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: سبب الأمر بتمني الموت هو ادعاؤهم وقولهم: ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً﴾ [البقرة ١١١]، وقولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة ١٨]، فقيل لهم: ﴿فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾؛ لأن المقصود هو الرد عليهم، ونفي ادعائهم الذي نصت عليه الآية.

البصائر والحكم

- كرر الأمر في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ﴾ مع قرب العهد بالأمر السابق لما أنه أمر تبكيت لهم وإظهار لكذبهم.

﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدَاً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾

◈ غرض الآية:

هذه الآية مستأنفة غير داخلة تحت الأمر وسيقت من جهته سبحانه لبيان مايكون منهم من شدة الإحجام عن الموت الدال علىٰ كذبهم في دعواهم [(١)].

البصائر والحكم

- الإتيان بـ﴿لن﴾ هنا بدل ﴿لا﴾ كما في سورة الجمعة؛ لأن الدعوىٰ هنا أعظم، فالدعوىٰ هنا في خلوص الجنة لهم، والدعوىٰ هناك في خلوص مرتبة الولاية لهم، والأولىٰ أعظم لأن السعادة القصوىٰ هي الفوز في دار الثواب، والنفي بلن أقوىٰ ألفاظ النفي فناسب النفي بها هنا، للدلالة علىٰ كذبهم في دعواهم [(٢)].

(١) انظر: المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٢) انظر: «محاسن التأويل» (١/ ٣٣٠).

- ختم الآية بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾: فيه تهديد لهم وتنبيه علىٰ أنهم ظالمون في دعواهم، وفيه مزيد تبكيت وتكذيب لهم[1].

- إثبات عِلم الله تعالىٰ للمستقبل؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا﴾؛ فوقع الأمرُ كما أخبَر به.

- جوازُ تخصيص العموم لغرَض؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فخصَّ عِلمه بالظالمين؛ تهديدًا لهم.

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ٩٦﴾

◈ غرض الآية:

هذه الآية مؤكدة لمضمون ماقبلها في تكذيب دعواهم، وفيها إظهار وصفهم بالحرص علىٰ الحياة المتجاوز الحد المعقول.

◈ معاني الآية:

- قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾: أي: المشركون الذين لا ؤمنون بالبعث؛ لأن السياق في بيان شدة حرصهم علىٰ الحياة، فقرنهم بالمشركين الذين لا يؤمنون بالبعث ليدل علىٰ ذلك.

- الواو في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ واو عطف؛ لأن الحديث في اليهود ووصف شدة حرصهم.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (١/ ٧٦).

البصائر والحكم

- وصف حرصهم بأنهم أشد حرصًا من الذين أشركوا، وهم من لا يرجون بعثًا ولا نشوراً ولا نعيماً؛ ليدلل علىٰ أن دعواهم بعيدة كل البعد عن حقيقتهم[١]، وللمبالغة في وصف شدة حرصهم وتوبيخهم.

- تنكير حياة يدل علىٰ أن المراد حياة مخصوصة وهي الحياة الطويلة كما يدل عليها السياق[٢].

- وجه ختم الآية بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾: ختم الآية بوصف البصير، للدلالة علىٰ علمه بخفايا ما في نفوسهم؛ وذلك لأن البصير هو العليم بخفيات الأمور.

- الناس يتفاوتون في الحِرص علىٰ الحَياة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿أَحۡرَصَ﴾؛ وأَحْرَص اسمُ تفضيل.

- طول العُمُر لا يُفيد المرءَ شيئًا إذا كان في معصية الله تعالىٰ؛ لقوله: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾.

- دِقَّة فَهم السَّلف حين كرِهوا أن يُدْعَىٰ للإنسان بالبقاء علىٰ سبيل الإطلاق من غير تقييدٍ بطاعة؛ فإنَّ الإمامَ أحمد كرِه أن يقول للإنسان: (أطال اللهُ بقاءَك)؛ لأنَّ طول البقاء قد ينفع، وقد يضرُّ، والأفضل أن يُقال: (أطال اللهُ بقاءَك علىٰ طاعةِ الله)، أو نحو ذلك.

---

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (١/ ٦١٧).

(٢) انظر: «محاسن التأويل» (١/ ٣٣١).

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾

◈ غرض الآية:

رد دعوىٰ من دعاويهم الباطلة، التي يتعذرون بها عن الإيمان، وهي ادعاؤهم الباطل أن جبريل عدو لهم.

البصائر والحكم

- **السياق دال علىٰ أن سبب نزول الآية** في الرد عليهم في تعذرهم عن الإيمان بسبب نزول جبريل عليه وهو عدو لهم كما يزعمون.
- **قوله تعالىٰ:** ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: أي: أن نزوله بالوحي بإذن الله وأمره، فلا موجب لعداوته، ففيه قطع لحجتهم ورد مفحم لهم.
- **ختم الآية ببيان مقاصد القرآن،** وأنه مصدق لما بين يديه وهدىٰ وبشرىٰ للمؤمنين: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.
- **النبي ﷺ قد وعىٰ القرآنَ وعيًا كاملًا،** لا يتطرَّق إليه شكٌّ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾؛ لأنَّ ما نفذ إلىٰ القلب، حلَّ في القلب؛ وإذا حلَّ في القلب، فهو في حِرز مكين.

﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾

◈ غرض الآية:

مقررة للآية الأولىٰ التي بينت أن من كان عدواً لجبريل كان عدواً لله، فقررت الآية عداوة الله لهم وأنهم من الكافرين.

البصائر والحكم

- **إفراد جبريل وميكائيل في الآية** مناسب من جهة أن السياق في الانتصار لجبريل، وهو سفير بين الله ورسله، وقرن معه ميكائيل في اللفظ؛ لأن اليهود زعموا أنه وليهم، وأن جبريل عدوهم، فأعلمهم أن من عادىٰ واحداً منهما فقد عادىٰ الآخر وعادىٰ الله أيضاً[1].

- **ختم الآية بقوله: ﴿عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ ولم يقل: ﴿لهم﴾**: التصريح بلفظ الكفر مناسب؛ لأنه دال علىٰ الحكم عليهم، فهو كإثبات الحكم علىٰ الدليل، وليدل علىٰ أن الله عاداهم لكفرهم، وأن تلك العداوة كفر[2].

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٩٩﴾

◈ غرض الآية:

رد ادعائهم أنه لم ينزل علىٰ النبي ﷺ شيء يعرفونه، ولا آية بينة يتبعونه عليها.

﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠٠﴾

◈ غرض الآية:

رد ادعائهم أنه لم يؤخذ عليهم ميثاق بالإيمان به ﷺ، وأنه لم يعهد إليهم فيه بعهد[3].

---

(١) انظر: «مفاتيح الغيب» (٣/ ١٨٠)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٤٢).

(٢) انظر: «التحرير والتنوير» (١/ ٦٢٤).

(٣) انظر: «مفاتيح الغيب» (٣/ ١٨٣).

البصائر والحكم

- **التعبير بقوله:** ﴿فَرِيقٌ﴾: لأن المقصود بهم العلماء والأحبار؛ لأنهم هم الذين نبذوا كتاب الله في الأصل، وفيه احتراز من دخول من آمن منهم وصدق.

- **ختم الآية بقوله:** ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: فيه تهديد لهم، وتغليظ عليهم.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ
ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ
(١٠١) وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ
وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى
ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا
نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ
وَزَوۡجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا
يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ
مِنۡ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ
(١٠٢) وَلَوۡ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَمَثُوبَةٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ خَيۡرٞۖ لَّوۡ كَانُواْ
يَعۡلَمُونَ (١٠٣)﴾ (البقرة: ١٠١ – ١٠٣)

سياق الآيات متصل بما قبله في الحديث عن بني إسرائيل، إلا أن هذا المقطع هو خاتمة الحديث في مخاطبتهم ودعوتهم إلى الإيمان، وفيه تقرير نهاية كفرهم، بإعلانهم نبذ كتابهم، واتباعهم لضلالات الشياطين وسحرهم المفترى على ملك سليمان.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ (١٠١)﴾

غرض الآية:

بيان نهاية كفرهم، وغاية ضلالهم بنبذهم الكتاب الذي معهم، والآية مشعرة بأنهم قد خرجوا من دينهم، وأنه لا سبيل لهم، ولا حجة بادعاء الإيمان بما في كتبهم.

◈ معاني الآية:

- قوله: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾: المراد بكتاب الله: التوراة؛ لأن السياق في بيان إنكارهم لما أنزل علىٰ النبي ﷺ وما عندهم في الكتاب من صفته والأمر باتباعه.

البصائر والحكم

- **التعبيرات في الآية مفيدة شدة كراهيتهم للرسول**، وما أنزل إليه واستغنائهم وإعراضهم عنه بالكلية، فالتعبير بقوله تعالىٰ: ﴿نَبَذَ﴾ مفيد طرحه والتخلص منه؛ لكراهيتهم له وقلة اعتدادهم به ورغبتهم عنه[1]. وقوله تعالىٰ: ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ مفيد تركهم وإعراضهم عنه بالكلية.

- **إضافة الوراء إلىٰ الظهر** بأن جعل للظهر وراءً لتأكيد بُعد المتروك بحيث لا يلقاه بعد ذلك[2].

- **ختم الآية بقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾**: تعجب واستنكار، وهو مشعر بأنهم متيقنون في ذلك وإنما يكفرون به مكابرة وعناداً، وفي ذلك زيادة مبالغة في إعراضهم وكفرهم[3].

- **قوله تعالىٰ: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾**: فيه دلالة علىٰ أنَّ مَن ترَك ما ينفعه، ابتُلي بالاشتغال بما يضرُّه؛ فمَن ترَك عبادة الرحمن، ابتُلي بعبادة الأوثان، ومَن ترك محبَّة الله وخوفَه ورجاءَه، ابتُلي بمحبة غير الله

(١) انظر: «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٧٨٨).

(٢) انظر: «إرشاد العقل السليم» (١/ ١٦٢)، «التحرير والتنوير» (١/ ٦٢٦).

(٣) انظر: «محاسن التأويل» (١/ ٣٣٧).

وخوفِه ورجائِه، ومن لم يُنفق مالَه في طاعة الله، أنفقه في طاعة الشَّيطان، ومَن ترَك الذلَّ لربِّه، ابتُلي بالذلِّ للعبيد، ومَن ترَك الحقَّ، ابتُلي بالباطل.

- نبْذ مَن عِندَه كتاب وعِلم أقبحُ ممَّن ليس عنده ذلك؛ كما نبذ في قوله تعالىٰ: ﴿فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ لإظهار شدَّة القُبح من هؤلاء في نبْذِهم.

- هذا النَّبذ الذي كان منهم لا يُرجىٰ بعدَه قَبول؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾؛ لأنَّ النبذ لو كان أمامهم ربَّما يتلقَّونه بعدُ؛ كذلك لو كان عن اليمين والشِّمال، لكن إذا كان وراءَ الظَّهر، فمعناه استبعادُ القَبول منهم.

﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ١٠٢﴾

◈ غرض الآية:

ذم اليهود وذم ما اتبعوه بعد نبذهم للكتاب، وإظهار غاية ضلالهم وشدة كفرهم في ذلك باتباعهم ضلالات الشياطين.

◈ معاني الآية:

- قوله: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾: أي: اليهود المعاصرون للنبي ﷺ؛ لأن السياق يدل علىٰ أن المراد بهم اليهود المعاصرون.

- قوله: ﴿ٱلشَّيَٰطِينُ﴾: أي: شياطين الإنس؛ لأن الغرض في الآية تشنيع حال كفر النابذين لكتاب الله، واتباعهم ضده وهو ما تتلوا الشياطين، فيكون المقصود بالشياطين هنا المضللون الذين يملون خلاف ماأتىٰ به الكتاب.

- قوله: ﴿تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾: أي: تتلوا السحر وأن الشياطين اختلقته ونسبته إلىٰ سليمان؛ لأن السحر مصرح به في: ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ﴾.

- الواو في: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ﴾ واو عطف علىٰ السحر؛ لأن السياق دال علىٰ اتباع اليهود لما تتلوه الشياطين من السحر، لا تعليمه، فالأولىٰ أن يكون الشياطين هم الذين يعلمون الناس السحر.

- ﴿ما﴾ في قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ﴾ موصولة بمعنىٰ (الذي)؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ﴾؛ فدل علىٰ أنهما يعلمان السحر، فثبت بالآية صريحاً أنهما يعلمان ويتعلم الناس منهما السحر.

- قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ﴾: أي: أنزل عليهما السحر؛ لأن سياق الآية في ذم اليهود في تعلم السحر واتباعه، فيكون أولىٰ بذلك، ولو كان غيره لذكره.

- ﴿هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾: هما ملكان مصرحان باسمهما؛ ودلالة ذلك من السياق ظاهرة من قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ﴾ والإنزال لايكون إلا علىٰ الملائكة والرسل، والتصريح بأنهما ملكان دال علىٰ ذلك أيضاً.

البصائر والحكم

- التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾: إشارة إلىٰ تقبيح ما اتبعوه، حيث بيّن أنهم اتبعوا أمراً مختلقاً باطلاً؛ ولهذا عبّر بـ ﴿تَتۡلُواْ﴾ الدالة علىٰ ذلك.

- التعبير بلفظ ﴿ٱلشَّيَٰطِينُ﴾: فيه زيادة تقبيح، فاللفظ دال علىٰ قبح وشر، فالشياطين لا تأتي إلا بالشر.

- التعبير بـ ﴿عَلَىٰ﴾ في: ﴿عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَ﴾: فيه بيان دليل بطلان ما كانت تتلوه الشياطين بأنهم نسبوه إلىٰ نبي من أنبياء بني إسرائيل وهو سليمان عليه السلام واتهموه بالسحر والكفر، ولذلك عبّر بـ «علىٰ» لإفادة معنىٰ الافتراء والتقوّل.

- قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ﴾: بيان أن الله أنزل السحر علىٰ الملكين فتنة للناس، وهذا يفيد شدة التشنيع علىٰ اليهود حيث اتبعوا مافيه فتنة، وما يؤدي إلىٰ الكفر؛ لقوله: ﴿فَلَا تَكۡفُرۡ﴾.

- وجه تعليم الملكين السحر: لأن الله أمرهما بتعليم السحر فتنة للناس ليرىٰ المؤمن من الكافر كما هو معتاد من حكمته في الخلق.

- الروايات الواردة في سبب نزول الملكين وقصتهما كلها ضعيفة ومنكرة، والخلاصة: أنهما ملكان مكرمان مكلفان من الله تعالىٰ بتعليم السحر.

- قوله تعالىٰ: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾: تأكيد زائد في تقبيح فعلهم، وبيان خسارتهم في اتباع السحر، وأنهم يتعلمون مايضرهم ولا ينفعهم، فأي خسارة أعظم من هذه الخسارة.

- أورد بعض المفسرين بعض الإشكالات علىٰ المعنىٰ الصحيح، منها: أنه قيل كيف يعلمان السحر وهما ملكان،وكيف ينزل الله السحر عليهما وقد نهىٰ عنه؟

الجواب: إن الله تعالىٰ يبعث من ملائكته من يفعل الأمر الذي هو شر في ظاهره عند الناس وهو من مقتضىٰ حكمته وعدله، كما يبعث ملائكته بالعذاب

والبلاء والداء فتنة للناس، وكما اقتضت حكمته خلق إبليس وجنده لإضلال الخلق عن الحق،وهو شر لكن ذلك مقتضىٰ حكمته لتمييز المؤمن من العاصي، فاقتضت حكمته سبحانه إنزال هذين الملكين ليكونا فتنة لهم في أمر السحر وتعليمه.

- قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾: بيان لكمال خسارتهم، وأنهم ليس لهم فيه نصيب في الآخرة.

- التعبير بالشراء في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ مناسب للسياق من جهة أنهم لما نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، وأقبلوا علىٰ التمسك بما تتلوا الشياطين فكأنهم قد اشتروا ذلك السحر بكتاب الله [1].

- ختام الآية دال علىٰ أن التولي عن كتاب الله عن علم وقصد يزيد الإنسان ضلالاً وخذلانـاً.

- الله تعالىٰ قد يُيسِّر أسباب المعصية؛ امتحانًا للناس؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾.

- يجب علىٰ الإنسان أن يَبْذُلَ نُصحَه للناس، وإنْ أوجب ذلك إعراضَهم عنه؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾.

- الأسباب وإن عظُمت لا تأثيرَ لها إلّا بإذن الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، فينبغي اللجوءُ إلىٰ الله دائمًا، سواء في جلْب المنافع، أو دفع المضارِّ.

- إثبات الجَزاء، وأنَّه من جِنس العمل؛ فإنَّ الكافر لَمَّا لم يجعلْ لله نصيبًا في

---

(١) انظر: «مفاتيح الغيب» (٣/ ٢٠١).

دُنياه، لم يجعل اللهُ له نصيبًا من نعيم الجَنَّة في أُخراه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

◈ غرض الآية:

بيان شرف الإيمان وما فيه من عظيم المثوبة والخير، ترغيبًا لهم علىٰ الإيمان في نهاية مخاطبتهم، وإشعاراً بشرف المؤمنين وفضلهم.

البصائر والحكم

- قوله ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾: تحريك للنفوس بالعلم والبصيرة الباعثة علىٰ الإيمان. ولا شك أن هذا من كمال دعوة القرآن، حيث لم يترك دعوتهم حتىٰ في آخر مخاطباتهم.

- صاحب العِلم الذي يَنتفِع بعِلمه هو الذي يَحذَر ما يضرُّه؛ لقوله تعالىٰ: ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾، فلو كانوا ذَوي عِلم نافع، لَمَا اشترَوا هذا العِلم الذي يضرُّهم، ولا ينفعُهم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ
وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ
ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ وَٱللَّهُ
يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ۞
مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ
عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ
وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمۡ تُرِيدُونَ
أَن تَسۡـَٔلُواْ رَسُولَكُمۡ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ
بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ
ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ
أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ
بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ
وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ
بَصِيرٞ ﴿١١٠﴾ ﴾ (البقرة: ١٠٤ – ١١٠)

سياق الآيات متوجه إلى المؤمنين مباشرة توجيهاً وتأديباً وتثبيتاً لهم وتقوية ليقينهم بالدين، وتنبيهاً وتحذيراً لهم من أن يشابهوا اليهود في مواقفهم مع أنبيائهم، وكشفاً وتوضيحاً للكيد والمكر والطعن الظاهر والخفي الذي سيواجهونه من أهل الكتاب والمشركين لما يحملونه من حقد وحسد وكراهية للمؤمنين ولدينهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٠٤﴾

◈ غرض الآية:

توجيه المؤمنين ونهيهم عن التشبه باليهود في تعاملهم مع نبيهم وتلقيهم أمر الله تعالىٰ، أو الانخداع بهم فيما هو طعن في دينهم.

البصائر والحكم

- النهي عن قول ﴿رَٰعِنَا﴾، والأمر بقول ﴿ٱنظُرۡنَا﴾: دال علىٰ اشتمال الأولىٰ علىٰ نوع مفسدة ناتجة عن استخدامها في غير معناها المناسب للمقام[(١)]؛ لأنّ اليهود كانوا يقولونها للنبي ﷺ ويقصدون بها الاستهزاء والطعن، وأيضًا لاشتمالها علىٰ معنىٰ الرعونة والحمق في القول والتعنت والجفاء والغلظة والفظاظة، وتدل عليه قراءة: ﴿راعنًا﴾[(٢)]، وتتضمن أيضًا معنىٰ التبرم والاستثقال وعدم الرضىٰ التام بالأمر والامتثال الكامل له، وهي تحمل في مضامينها معنىٰ المخالفة والعصيان، وتدل عليه قراءة: ﴿راعونا﴾ من المراعاة[(٣)].

- لفظ ﴿ٱنظُرۡنَا﴾: يشير إلىٰ معان مناقضة لما أشارت إليه كلمة ﴿رَٰعِنَا﴾، فإنها تحتمل معنىٰ الإمهال للفهم والتبين، وطلب الشفقة والرحمة والرغبة في تحقيق الأمر والحرص عليه.

- ختم الآية بقوله: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾: فيه تعريض باليهود، وفيه أيضـًا دلالة علىٰ أن عملهم سبب للكفر ومؤد إليه، فهو مبالغة في التحذير منه.

(١) انظر: «مفاتيح الغيب» (٣/ ٢٠٣).

(٢) انظر: «جامع البيان» (١/ ٥١٧).

(٣) انظر: «جامع البيان» (١/ ٥١٨).

- **الإيمان مقتضٍ للأخلاق الفاضِلة**؛ لأنَّ مراعاة الأدب في اللَّفظ من الأخلاق الفاضِلة، وقد أمَرَ الله تعالىٰ بها، مخاطبًا بذلك أهلَ الإيمان، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْ﴾.

- **من الأدَب الحِرصُ علىٰ اختيار الألفاظ الحسَنة**، ومِن ذلك تجنُّب الألفاظ التي تُوهِم سبًّا، وشتمًا؛ لقوله تعالىٰ: ﴿لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا﴾.

﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ١٠٥﴾

◈ غرض الآية:

توجيه المؤمنين وإشعارهم بحقيقة عدوهم من أهل الكتاب والمشركين وما يكنونه لهم من حقد وحسد ليحذروهم.

البصائر والحكم

- **ذكر المشركين مع أهل الكتاب** مع أن السياق في أهل الكتاب تنبيه علىٰ أن حسدهم ليس خاصاً بأهل الكتاب، وليكون جمعاً للحكم بين الجميع[(١)].

- **التعبير بقوله: ﴿مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾**: فيه تنبيه للمؤمنين بشرفهم وشرف ما أنزل إليهم وتفضيلهم به، كما يفيده التعبير بلفظ ﴿خَيۡرٖ﴾ الدال علىٰ الخيرية والتفضيل، ولفظ ﴿رَّبِّكُمۡ﴾ وإضافته إلىٰ ضميرهم، وذلك يوجب اعتزازهم بهذا الدين وبما أنزل عليهم من الخير والرحمة وثباتهم عليه.

---

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (١/ ٦٥٣).

- وجه التعبير بقوله: ﴿أَن يُنَزَّلَ﴾ المضعف الدال علىٰ التدرج في النزول دون المخفف: فيه إشعار بالرد علىٰ الكارهين الحاسدين من أهل الكتاب والمشركين من جهة أنهم طعنوا في كون نزول القرآن منجماً وكونه ناسخاً منسوخاً.

- ختم الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾: فيه تنبيه علىٰ حكمته واختياره الذي لا يحق لهم الاعتراض عليه[1]، وإشعار بفضيلة المؤمنين، واختصاصهم بالرحمة والفضل.

- يجب علىٰ المسلم الحذرُ من كلِّ تصرُّف يصدُر عن اليهود والنصارىٰ، والمشركين عمومًا، مع اتِّخاذهم أعداءً؛ ولذا يحرُم علىٰ المسلمين أن يُوَلُّوا الكفَّارَ أيَّ قيادة؛ لأنَّهم ما داموا لا يودُّون للمسلمين الخيرَ، فلن يقودوهم له، مهما كان الأمرُ، كما قال تعالىٰ: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

- عِلم اليهود والنصارىٰ بأنَّ الإسلام مَنقبةٌ عظيمة لمتَّبعه؛ ويدلُّ علىٰ ذلك، قوله تعالىٰ: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، وهذا من الحسد؛ لأنَّ الإنسان لا يُحسد إلَّا علىٰ شيء يكون خيرًا، ومنقبةً عظيمة،

- خير الله تعالىٰ لا يَجلِبه ودُّ وادٍّ، ولا يردُّه كراهةُ كارهٍ؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

(١) انظر: «نظم الدرر» (١/ ٨٨).

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ...﴾ (١٠٦)

◈ غرض الآية:

توجيه المؤمنين وترسخ اليقين في قلوبهم بمصدر تلقيهم من ربهم وهو الوحي ببيان سر من أسراره الذي اختصت به هذه الأمة - رحمة من الله لها وتخفيفًا عليها - وهو النسخ[(١)].

◈ معاني الآية:

- قوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾: نسخ آية من كتاب الله بآية أخرىٰ، أو حكم آية بحكم آية؛ لأن السياق وارد في تثبيت المؤمنين وترسيخ يقينهم بالقرآن، مع إبطال مقالة الطاعنين فيه، ووقع النسخ في القرآن نفسه هو الأمر الذي قد يكون مدخلاً للطعن.

- قوله: ﴿نُنسِهَا﴾، وقراءة ﴿ننسأها﴾: أي: أنه بمعنىٰ النسيان، وهو متضمن لمعنىٰ: الترك، أي نتركها فلا يعمل بها أو نأمر بتركها؛ لأن سياق الآيات في تربية المؤمنين وترسيخ اليقين بالوحي في قلوبهم والامتنان عليهم فيه مع الرد علىٰ الطاعنين بالقرآن بوقوع النسخ والتبديل فيه. ونسيان الآية أو تركها وإبدالها أقرب للطعن وورود الشك عند المؤمنين من التأخير.

البصائر والحكم

- **الآية فيها ذكرُ القرآن وبيانُ عظمته وشرفه** وما اختص به، والذب عن مقامه وتثبيت أهله؛ تمهيداً لهيمنته وتفرده بالفضل والتشريع.

---

(١) انظر: «إرشاد العقل السليم» (١/ ١٧١).

- **أحكام الله سبحانه وتعالىٰ تختلفُ في الخيريَّة من زمانٍ إلىٰ زمان؛** فقد يكون الحُكم خيرًا للعباد في وقت، ويكون غيرُه خيرًا لهم في وقتٍ آخَرَ، كما قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآ﴾.

- **ذِكر ما يَطمئنُّ به الإنسان حين يُخشىٰ أن يُقلِق الأمرُ فِكرَه ويَشغل قلبَه؛** لقوله تعالىٰ: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ﴾.

﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٠٦ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ١٠٧﴾

◈ غرض الآيتين:

تقرير حكمة التنزيل والنسخ، وتأكيدها؛ تثبيتاً للمؤمنين، ورداً علىٰ الطاعنين فيه من اليهود والمشركين.

البصائر والحكم

- **توجه الخطاب للنبي ﷺ** دون الإشارة إلىٰ مقالة الطاعنين ليكون أقوىٰ في تثبيت قلوب المؤمنين، والرد علىٰ الطاعنين في القرآن. ولذلك ضمن الخطاب بيان كمال قدرته الدال علىٰ كمال حكمته.

- **الخطاب وإن كان ظاهره موجهاً للنبي ﷺ** فإنه مقصود به المؤمنون.

- **وجه الفصل والتكرار لقوله: ﴿أَلَمۡ﴾:** لزيادة التقرير والإثبات والتعديد علىٰ المخاطب في الأدلة [1]، والغرض ترسيخ الإيمان في نفوسهم وسد سبيل الاضطراب الوارد عليهم وطريقه.

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (١/ ٦٦٥).

- **وجه ختم الآية:** ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾: لقطع الريبة والشك الوارد عليهم من اليهود والمشركين، والتأكيد علىٰ أن ما أراده واختاره هو الخير لهم علىٰ الدوام؛ وذلك لأنه وليهم ونصيرهم[1].

- **وجه تعقيب حكمة النسخ بالآيتين:** فيه إظهار كمال قدرته وإرادته وتصرفه، وبيان ولايته ونصرته لهم، الباعث علىٰ كمال الإيمان واليقين والقبول والامتثال، وتحذير للمؤمنين من مخالفة أمره واختياره[2].

- **القادر علىٰ تغيير الأمور الحِسيَّة قادرٌ علىٰ تغيير الأمور المعنويَّة كذلك؛** فكما أنَّ الله تعالىٰ قادرٌ علىٰ تغيير الأمور الكونيَّة، فهو كذلك قادرٌ علىٰ تغيير الأمور الشرعيَّة؛ لقوله تعالىٰ بعد ذِكر النَّسخ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾

◈ غرض الآية:

توجيه المؤمنين وتحذيرهم من مشابهة اليهود في تلقيهم لأمر الله، وتعاملهم مع رسولهم، وتعنتهم، ومشاقتهم له فيما يأمرهم، واقتراحهم عليه بما تهواه نفوسهم.

◈ معاني الآية:

- **قوله:** ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ﴾: الخطاب للمؤمنين؛ لأنّ السياق والخطاب في أول الآيات للمؤمنين في تأديبهم، وتوجيههم، وتحذيرهم من اليهود وكيدهم.

---

(١) انظر: «إرشاد العقل السليم» (١/ ١٧٢).

(٢) انظر: «جواهر الأفكار ومعادن الأسرار» (ص٣٠٠).

البصائر والحكم

- وجه التعبير بالاستفهام: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْئَلُوا ﴾: لتحذير المسلمين، وليست واردة لواقعة معينة، وإنما جاءت بهذه الصيغة الاستفهامية مبالغة في التحذير.

- المقصود من التحذير والنهي عن سؤال النبي ﷺ في الآية ليس مجرد السؤال، وإنما هو الاسترسال في السؤال، أو الاقتراح على النبي ﷺ أو التعنت عليه والتشديد عليه والإلحاح، مما يؤدي إلى الكفر والمعاندة والمخالفة.

- تأكيد ذمِّ الأسئلة المتعنِّتة؛ لقوله تعالى: ﴿رَسُولَكُمْ﴾؛ فكأنَّه يعني أنَّه لَمَّا كان رسولكم، فالذي ينبغي منكم تُجاهَه عدمُ إعْناته بالأسئلة.

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ...(١٠٩)﴾

◈ غرض الآية:

توجيه المؤمنين وتحذيرهم من كيد اليهود في سعيهم لصد المؤمنين عن دينهم وردهم إلى الكفر بتشكيكهم في دينهم بما يلقونه من الشبه والطعن فيه.

البصائر والحكم

- التعبير بقوله: ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾: يدل على أن مقصدهم ردُهم إلى الكفر والشرك لا إلى دين اليهود؛ لأن اليهود لا يسعون إلى إخراج المسلمين عن دينهم وإدخالهم في دين اليهود بل يسعون إلى صدهم عن دينهم.

- التعبير بقوله: ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾: فيه إشارة إلى سبب ودهم وحرصهم على رد المسلمين عن دينهم، وهو الحسد المتأصل في نفوسهم؛ ولذلك عبّر بلفظ ﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ الدال على تمكن الحسد فيهم.

- عِلم اليهود والنصارىٰ بأنَّ الإسلام مَنقبةٌ عظيمة لمتَّبعه؛ لقوله تعالىٰ: ﴿حَسَدًا﴾؛ لأنَّ الإنسان لا يُحسد إلَّا علىٰ شيء يكون خيرًا، ومنقبةً عظيمة، ويدلُّ علىٰ ذلك، قوله تعالىٰ: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

- بيان خُبث طويَّة هؤلاء الذين يودُّون وقوعَ المسلمين في الكُفر؛ لقوله تعالىٰ: ﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾، فليس هذا صادرًا من كتاب، ولا مِن إساءة المسلمين إليهم، ولكنَّه من عند أنفسهم؛ فهي أنفُسٌ خبيثة تودُّ الكفرَ للمسلمين حسدًا.

﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾

◈ غرض الآيتين:

توجيه المؤمنين بمفاصلة اليهود ومحاذرتهم، والإعراض عنهم صفحـًا، والإقبال علىٰ إقامة دينهم وما ينفعهم.

البصائر والحكم

- أمر المؤمنين بالعفو والصفح في هذا الموضع خاصة لما أنه حكي عن أهل الكتاب في الآيات من شدة حسدهم وطعنهم في الدين وسعيهم لصد المؤمنين عن دينهم الأمر الذي سيؤدي إلىٰ إثارة غضب المؤمنين عليهم، وهم لا يزالون في بداية الدعوة ونشأة الإسلام ولم يتمكنوا ولم تقو شوكتهم بعد، وخيف أن تقع بينهم مقاتل وحروب أمرهم بذلك، وليس المراد بالعفو والصفح مسامحتهم وموادتهم كلا؛ بل المراد الإعراض عنهم؛ لقوله: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾.

- وجه قوله: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾: تطمين المؤمنين وأمرهم بالصبر، وفيها وعد بالتمكين والنصر علىٰ اليهود.

- ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: التأكيد علىٰ ماتضمنته الآية من العفو والصفح والإعراض عنهم، ببيان أن الأمر لله، وأنه قادر علىٰ نصرهم، والانتقام من أعدائهم؛ لكن حكمته تقتضي من عباده الصبر.

- وجه الأمر بالصلاة والزكاة: لأنهما أصول الأعمال؛ ولأنهما من أعظم مايعين علىٰ الصبر ويوثق الإيمان، سياق السورة في تقرير أصول أحكام الشريعة، وقد فرض الصلاة والزكاة قبل ذلك، أمر بهما هنا للتأكيد عليهما.

- ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: فيه إشعار بعلم الله تعالىٰ واطلاعه علىٰ عمل المؤمنين، وذلك مما يبعثهم علىٰ العمل الذي أمرهم به.

- مراعاةُ الأحوال، حيثُ قال تعالىٰ: ﴿فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾.

- قوله تعالىٰ: ﴿فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ فيه بِشارةٌ للمؤمنين بأنَّ الله سبحانه وتعالىٰ سيغيِّر حالَهم المقتضية للعفو والصَّفح، إلىٰ قوَّةٍ يَستطيعون بها جهادَ العدوِّ.

- إقام الصلاة لا يعني مجرَّد أدائها، وإنما هو القيام بحقوقها الرُّوحيَّة في صورتها العَمليَّة، وذلك بالتوجُّه إلىٰ الله، ومناجاتِه، وإشعار القلْب بعظمته وكبريائه، فبهذا الشُّعور ينمو الإيمان، وتَقوىٰ الثقةُ بالله، وتتنزَّه النَّفسُ عن أن تأتيَ الفواحش والمُنكَرات، وتستنير البصيرةُ؛ فتكون أقوىٰ نفاذًا في الحق، وأشدَّ بُعدًا عن الأهواء.

- إقامة الصَّلاة، وإيتاء الزَّكاة من أسباب النَّصر؛ لأنَّ الله ذكَرها بعد قوله: ﴿فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾، وقد جاء ذلك صريحًا في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾.

﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ
قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ
وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ
ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ
قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ
مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى
ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى
ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ
أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ
أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَـٰبَهَتْ
قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾ (البقرة: ١١١ – ١١٨)

سياق هذه الآيات في كشف زيف المكذبين من اليهود وغيرهم، وإبطال افتراءاتهم والطعن في اعتقاداتهم وبيان مخازيهم وقبائحهم، مقابلة لطعنهم وافتراءاتهم على دين الإسلام تبكيتاً وإخراساً لأفواههم عن السخرية والطعن في دين الله؛ وتمييزاً للحق الذي أرسل به محمد ﷺ وترسيخاً له وتثبيتاً للمؤمنين عليه وتقوية ليقينهم به.

﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ
هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ
لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾

◈ غرض الآيتين:

الطعن في دين اليهود والنصارىٰ، وكشف زيفهم في اعتقاداتهم الباطلة وأمانيهم الكاذبة التي يزعمونها، وتجريدها، وتعريتها من البرهان والحجة وهي هنا زعم كل ملة أنه لن يدخل الجنة إلا من كان منهم.

البصائر والحكم

- **الجمع بين الفريقين في خبر واحد عنهما في الآية**، مع أن كل وحدة منهما تدعي ذلك لنفسها دون الأخرىٰ؛ أبلغ في بيان ضلالهم والرد عليهم جميعاً.

- **التعبير عمن يستحق دخول الجنة** بقوله تعالىٰ: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾: ليبين الوصف الصحيح لمن يستحق دخول الجنة، ولهذا ضمنه الإخلاص والإحسان اللذين يفيدان حقيقة العبودية لله، وليكون رداً عليهم بالدليل، وهو أبلغ في الرد عليهم.

- **قوله تعالىٰ: ﴿وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾**: خص الوجه لأنه مظهر آثار الخضوع الذي هو من أخص خصائص الإخلاص وأعظم دليل عليه، وهو مفيد أيضاً توحد الوجهة له دون سواه، وذلك مالم يتحقق فيهم حيث اتبعوا أهواءهم وما تتلوا الشياطين[1].

- **قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾**: خص الإحسان لأنه مفيد موافقته التامة لأمره وشرعه مع كمال الاستقامة والامتثال، وهو مفيد أيضاً الربط بين العقيدة والعمل وتلازمهما.

---

(١) انظر: «إرشاد العقل السليم» (١/ ١٧٠).

- ختم الآية: ﴿فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾: لما بيّن الله تعالىٰ الوصف الصحيح لأهلها، بيّن بعد ذلك الجزاء المستحق وهو المقصود في الآية؛ لأنه رد علىٰ ادعائهم بأنهم أصحاب الجنة.

- قوله ﴿فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾: وهذا يفيد ضمان الأجر لمن اتصف بالوصف المذكور،ولهذا عطفه بالفاء المقتضية للترتيب، وقدم الجار المفيد لكمال الاستحقاق، وأضافه إلىٰ وصف الربوبية في قوله ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾ المفيد صدق الوعد بذلك.

- مَن اغترَّ بالأماني، وطمِع في المنازل العالية بدون عملٍ لها، ففيه شَبَهٌ من اليهود، والنَّصارىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾.

- عدلُ الله عزَّ وجلَّ في مخاطبة عِبادِه، حيث قال سبحانه: ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ﴾؛ لأنَّ هذا من باب مراعاة الخَصم، وأنَّه إنْ كان لكم بيِّنة فهاتوها؛ وهذا- لا شكَّ- من أبلغِ ما يكون من العدْل، وإلَّا فالحُكم لله العليِّ الكبير، وهؤلاء لا بُرهان لهم علىٰ ما ادَّعَوه بدليل أنَّهم لم يأتوا به.

- انتفاء الخوفِ والحزن لِمَن عبَدَ اللهَ عزَّ وجلَّ بهذين الوصفين؛ وهما الإخلاص والمتابعة، كما قال تبارك وتعالىٰ: ﴿بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾.

- أهل الجنة هم الذين جمَعوا بين وصفينِ؛ الأوَّل: الإخلاص لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ﴾؛ والثاني: اتِّباع شرْعه؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾.

- عِظم الثواب؛ لإضافته إلىٰ الله الوهَّاب، في قوله تعالىٰ: ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾.

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

◈ غرض الآية:

كشف ضلال الفريقين والطعن في ملتهم، حيث بيّن اختلافهم وتناقضهم وتباغضهم[1]، واتهام كل طائفة للأخرىٰ بأنهم ليسوا علىٰ شيء من أمر الله[2] مع أنهم يتلون كتاب الله، وكتب الله يصدق بعضها بعضـاً.

◈ معاني الآية:

- قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾: الأمم المكذبة بالنبي ﷺ غير أهل الكتاب، ويدخل فيه دخولاً أوليـاً مشركو العرب؛ لأن السياق في إبطال دعوىٰ كل من زعم أنه علىٰ الحق من الملل المكذبة؛ لأن كلاً منها زعمت أن غيرها ليست علىٰ الحق.

البصائر والحكم

- وجه قوله: ﴿وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾: الجملة واردة بغرض الطعن فيهم وبيان كذبهم في ادعائهم، أي كيف يفعلون ذلك وهم يتلون الكتاب الذي هو منزل من عند الله؛ لأن كتب الله يصدق بعضها بعضـاً[3].

- وجه نظم الذين لايعلمون مع اليهود والنصارىٰ: زيادة تقبيح لليهود

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٨٦).

(٢) وهذا القول قد وقع منهم صريحـاً كما يدل عليه سبب النزول انظر: «جامع البيان» (١/ ٥٤٢)

(٣) انظر: «جامع البيان» (١/ ٥٤٢).

والنصارىٰ، بإظهار كذب دعواهم لأن قول الذين لايعلمون ظاهر في البطلان، جمعًا للملل المكذبة للنبي ﷺ كلها، وفيه تسلية له وللمؤمنين.

- ختم الآية: ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾: للتهديد والوعيد بالعقاب والعذاب لهم.

- قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ ...﴾: التحذير من التعصب في الدين والترامي بالكفر، وتفريق كلمة المسلمين، والله تعالىٰ قد أمر بالجماعة والائتلاف، ونهىٰ عن الفرقة والاختلاف، وقد امتاز أهل الحق، من هذه الأمة بالسنة والجماعة، عن أهل الباطل الذين يزعمون أنهم يتبعون الكتاب ويعرضون عن سنَّة رسول الله ﷺ، وعما مضىٰ عليه المسلمون.

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١٤﴾

◈ غرض الآية:

الطعن في الملل الزاعمة أنها علىٰ الحق دون سواها وهي اليهود والنصارىٰ ومن شابههم من غير أهل الكتاب من المشركين وغيرهم، فأراد الله سبحانه أن يبين دليل بطلان ما ادَّعوه، وهو منعهم من أراد أن يذكر اسمه تعالىٰ في مساجده وبيوته الخاصة لعبادته.

◈ معاني الآية:

- قوله: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾: هم جميع الطوائف المفترية التي عرضت لها الآية قبلها، أي العموم؛ لأن سياق الآيات في كشف زيف ما

ادّعته الملل المذكورة في الآية السابقة والزاعمة بأنها علىٰ الحق دون سواهم، وأن غيرها ليسوا علىٰ شيء.

- قوله: ﴿خَآئِفِينَ﴾: أي: إلا خائفين هيبة وخوفاً من المسلمين أن يبطشوا بهم أي ماكان حقهم إلا ذلك، وأيضًا توعد لهم بأنهم لن يدخلوها إلا أذلاء خائفين بسبب ماسيلحقهم من الصغار والذل والجزية بعد ذلك؛ لأن السياق في جزائهم علىٰ فعلهم وتخريبهم المساجد، ومنعهم أن يذكر فيها اسمه، فهو توعد وعقاب.

البصائر والحكم

- قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾: أي لا ظلم أعظم من هذا الظلم، وهذا غاية في تعظيم جرمهم، للدلالة علىٰ فساد أمرهم.

- التعبير في قوله تعالىٰ: ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾: صريح في الطعن فيهم، حيث أضاف المساجد إليه، أي كيف تمنعون عبادته في مساجده وبيوته وتزعمون الإيمان به.

- قوله تعالىٰ: ﴿أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾: زيادة في الطعن والتكذيب لإدعائهم؛ إذ التعبير بهذا دون أن يقول أن يعبد فيها، أسلوب قاطع للادعاء ومبالغة في التكذيب.

- قوله تعالىٰ: ﴿وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾: مفيد المبالغة في الرد عليهم؛ إذ أنهم جمعوا بين المنع والتخريب؛ وذلك غاية في الضلال.

- ختم الآية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾: مفيد العقاب والتهديد لهم، وتسلية للمؤمنين، ووعداً لهم بنصرهم وتمكينهم؛ وأنهم سيدخلونها آمنين ويمكنون منها، ووعيد لأولئك بالإذلال وخزي.

- قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾: فيه إشارةٌ إلىٰ أنَّ ذِكر الله تعالىٰ باللِّسان لا بدَّ أن يكون باسمِه، أمَّا ذِكرُه بالضمير

المفرَد فبِدعة، وليس بذِكر، مِثل طريقة بعض الصوفيَّة، الذين يقولون: أفضل الذِّكر أن تقول: (هو، هو، هو).

- قوله سبحانه: ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾: فيه دلالةٌ علىٰ شرَف المساجد؛ لإضافتِها إلىٰ الله تعالىٰ .

- لا يجوز أن يُوضَع في المساجد ما يكون سببًا للشرك؛ لأنَّ مَسَاجِدَ اللهِ معناها: موضع السُّجود له؛ فإذا وُضِع فيها ما يكون سببًا للشرك، فقد خرجَتْ عن موضوعها، مثل أن يُقبَر فيها الموتىٰ، فهذا محرم؛ لأنَّه وسيلةٌ إلىٰ الشِّرك.

- وجوب تطهير المساجد؛ وذلك لإضافتِها إلىٰ الله عزَّ وجلَّ، وهي إضافة تشريف وتعظيم؛ ولذا قال تعالىٰ: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.

- أنَّ الناس في المساجد سواءٌ؛ لأنَّ الله تعالىٰ أضافَها إلىٰ نفْسه: ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾

◈ غرض الآية:

التوسيع علىٰ المؤمنين حال منعهم من المساجد بأن يصلوا حسب ماتيسر لهم، تسلية وتطميناً وتثبيتاً لهم حينما مُنِعوا وضيق عليهم في إقامة دينهم من قبل المشركين بإخراجهم من مكة، ومنعهم من المسجد الحرام، وذمهم عند تحولهم إلىٰ بيت المقدس(١)، وذمهم من قبل اليهود بعد التحول للكعبة(٢).

(١) قال ابن عاشور (والوجه أن يكون مقصد الآية عاماً كماهو الشأن، فتشمل الهجرة من مكة، والانصراف عن استقبال الكعبة) انظر: «التحرير والتنوير» (١/ ٦٨٣).

(٢) هذا علىٰ وجه التثبيت لهم قبل وقوع الأمر. تهيئاً لنفوسهم لئلا يصيبهم شك وارتياب.

◈ معاني الآية:

- **المراد بالآية:** المقصود بها التوسيع علىٰ المسلمين حال منعهم من المساجد بأن يصلوا حيث ماتيسر لهم الحال تخفيفاً عليهم وتسلية لهم، لأن السياق قبلها في ذكر منع المساجد من ذكر الله تعالىٰ والسعي في تخريبها؛ فبيّن هنا للمؤمنين أن ذلك لايمنع من إقامة ذكر الله علىٰ أي حال يستطيعونه [(١)].

البصائر والحكم

- **قوله تعالىٰ:** ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾: مفيدٌ التوسيع علىٰ المؤمنين، والتيسير عليهم في إقامة دينهم حين منعوا وضُيّق عليهم.
- **قوله تعالىٰ:** ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾: التعبير بالوجه واستقباله؛ مفيد كمال رضاه تعالىٰ عن المؤمنين، وفي هذا تشريف لهم وتسلية وتثبيت.
- **ختم الآية بقوله تعالىٰ:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾: يفيد توسيعه علىٰ عباده، وعلمه تعالىٰ بنياتهم في أعمالهم، وإن اختلفت ظواهرهم في القبلة وما شابهها.
- **قوله تعالىٰ:** ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾: فيه إثبات صفة الوجه لله سبحانه وتعالىٰ.

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾

◈ غرض الآيتين:

الطعن في اليهود والنصارىٰ والمشركين وتعداد مخازيهم، وكشف اعتقاداتهم

---

(١) انظر: «البحر المحيط» (١/ ٥٧٦).

الباطلة، وهي هنا في الطعن بتوحيدهم لله وبيان إشراكهم به تعالىٰ واجترائهم عليه بنسبة الولد له.

◈ معاني الآية:

- قوله: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾: أي: اليهود والنصارىٰ والمشركين؛ لأن السياق في الرد علىٰ الطوائف الثلاث وإبطال افتراءاتهم، لتخليص الإسلام بأنه الحق. وكل تلك الطوائف قد اجتمعت علىٰ هذا الافتراء كما دلت الأدلة عليه.

البصائر والحكم

- قوله تعالىٰ: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾: مصدر معناه: تنزيه الله مما قالوه، وهو دليل علىٰ أنهم لم ينزهوه تعالىٰ، ولم يقدروه حق تقديره [(١)].

- قوله تعالىٰ: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: دليل قاطع لرد اعتقادهم، وهو: أن مافي السموات والأرض ملكٌ وخلقٌ له، فكيف يتخذ ولداً من ملكه وخلقه [(٢)].

- قوله تعالىٰ: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ﴾: أي خاضعون وعابدون، وهو دليل آخر في الرد عليهم؛ أي كيف يكون له ولد وهم مقرون له بالعبودية [(٣)].

- قوله تعالىٰ: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾: أي أن كمال ملكه وانفراده بالخلق وإبداع السموات والأرض تنافي حاجته للولد.

- **ليس بين أمْر الله تعالىٰ بتكوين شيءٍ، وتكوُّنه تراخٍ،** بل يكون علىٰ الفوريَّة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَيَكُونُ﴾: بالفاء، والفاء تدلُّ علىٰ التَّرتيب، والتعقيب.

---

(١) انظر: «البحر المحيط» (١/ ٥٨١).

(٢) انظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٢٠١).

(٣) انظر: «محاسن التأويل» (١/ ٣٥١) فقد نقل كلاماً نفيساً عن الراغب الأصفهاني في تقرير المعنىٰ.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ١١٨ ﴾

◈ غرض الآية:

الطعن في ملة اليهود والنصارىٰ والمشركين وتعداد مخازيهم، وهي هنا في بيان قدحهم في النبوة، وكفرهم بها، واجترائهم علىٰ أن يطلبوا لأنفسهم ما اختصه الله برسله، وذلك من أعظم مخازيهم، وأعظم الأدلة علىٰ سفههم وجهلهم وضلالهم.

◈ معاني الآية:

- قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾: أي: المشركون؛ لأنهم هم الذين قالوا ذلك للنبي ﷺ وطلبوه منه، بدليل قوله تعالىٰ: عنهم صريحـًا عنهم ﴿فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء٥].

البصائر والحكم

- قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾: أي: المشركون، وقدم قولهم علىٰ اليهود والنصارىٰ بخلاف الآية الأولىٰ؛ لأنهم ألصق وأشهر بهذا الادعاء من اليهود والنصارىٰ؛ ولذلك عطف عليهم اليهود والنصارىٰ، مع بيان تشابههم في الكفر والتكذيب في نهاية الأمر، وهي أيضًا في الطعن في النبوة، فناسب تقديم المشركين وعطف اليهود والنصارىٰ عليهم تسلية للنبي ﷺ، وتوبيخـًا وتهكمـًا باليهود والنصارىٰ.

- قوله: ﴿تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾: أي: تساوت في التكذيب، وفيه تسلية للنبي ﷺ وللمؤمنين وإخبار لهم بأن قلوب هؤلاء متشابهة في الكذب والتناقض

والظلم والافتراء والتكذيب.

- ختم الآية: ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾: تسلية النبي ﷺ والمؤمنين وتثبيتهم بأنه قد أقام الحجة وأظهر الأدلة علىٰ تكذيب الطاعنين، وتناقضهم وظلمهم وافترائهم وبطلان زعمهم.

-أنَّ المشركين يُقرُّون بأنَّ الله تعالىٰ يتكلَّم بحرفٍ، وصوتٍ مسموعٍ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾.

-أنَّ الأقوال تابعةٌ لِما في القلوب؛ لقوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَـٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ فلتشابُهِ القلوبِ تَشابهت الأقوالُ.

- تَسليةُ الرَّسولِ ﷺ؛ لأنَّ الإنسان المصاب إذا رأىٰ أنَّ غيره أُصيب، فإنَّه يتسلَّىٰ بذلك، وتخفُّ عليه المصيبة؛ فالله تعالىٰ يُسلِّي رسوله ﷺ بأنَّ هذا القول الذي قِيل له قد قِيل لِمَن قبْله، كما قال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَـٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ١١٩
وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ
ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ
وَلَا نَصِيرٍ ١٢٠ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ
بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٢١ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ
أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٢ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ
عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ١٢٣ ﴾

(البقرة: ١١٩ – ١٢٣)

سياق الآيات في إقرار رسالة النبي ﷺ وأنها الحق وبيان الأدلة عليها، تأكيداً للمؤمنين بالثبات عليها والتمسك بها، وإقامة الحجة على المكذبين.

﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ١١٩ ﴾

◈ غرض الآية:

تقرير الرسالة وإثباتها، تسلية للنبي ﷺ وتأييداً له، وتثبيتاً للمؤمنين عليها، وقمعاً للمكذبين بها.

◈ معاني الآية:

- فيها قراءتان: ﴿وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ﴾، وقراءة: ﴿ولا تَسألْ﴾: القراءتان صحيحتان ومعناهما مؤتلف في بيان المعنىٰ.

فقراءة: ﴿تَسألْ﴾: مناسبة لحاله معهم في الدنيا بنهيه عن السؤال عنهم، وقراءة: ﴿تُسْـَٔلُ﴾ مناسبة لحاله معهم في الآخرة، بنفي سؤاله عن إعراضهم، تسلية له وتثبيتًا.

البصائر والحكم

- التعبير بقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾: متضمن تأكيدات ومبالغات لإثبات الرسالة، فلفظ ﴿إِنَّآ﴾ بنون العظمة المؤكدة، ولفظ ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾ بلفظ الرسالة، ونون العظمة والكاف المفيدة للتأييد والتشريف، والباء الدالة على المصاحبة، ولفظ الحق جزمًا به وتصريحًا، كلها صيغ جزم ويقين وتأكيد.

- قوله تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾: بيان لوظيفته، وهي التبشير للمؤمنين، والإنذار للمكذبين.

- قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾: يتضمن التوجيه بالإعراض عنهم؛ لأنه قد وصل بهم الحد إلى الجهل والسفه التام.

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾

◈ غرض الآية:

بيان موقف المكذبين، وأنهم لن يرضوا بهذا الحق بعد إثباته، ولن ينتهوا عن معارضته والسعي لصد المسلمين عنه.

البصائر والحكم

- قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ﴾: التعبير بعدم الرضى دال على سبب كفرهم وسعيهم للصد عن سبيل الله، وهو ما يختلج في نفوسهم من الكره والحسد والحقد.

- قوله تعالىٰ: ﴿ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ﴾: لم يذكر هنا المشركين؛ لأن الخطاب في الأصل عن أهل الكتاب، وكان ذكر المشركين فيما سبق من متممات الحجة علىٰ أهل الكتاب، وذلك أن المقصود فيما سبق إبطال ملة أهل الكتاب مع الملل الأخرىٰ.

- إيراد لا النافية بين المعطوفين في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ﴾: لتأكيد النفي، والإشعار بأن رضا كل منهما مباين لرضىٰ الآخر[1].

- التعبير بقوله: ﴿مِلَّتَهُمۡ﴾: توحيد الملة باعتبار اجتماعهما في الكفر[2]، والغرض هنا التحذير من اتباع ملة الكفر.

- التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰ﴾: مفيد إبطال غرورهم بأنهم علىٰ الهدىٰ، ولذلك عبر عما هم عليه بعده بأنه أهواء.

- قوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾: اللام موطئة للقسم تفيد التوكيد، وفيها تشديد وتخويف وترهيب للمؤمنين من اتباع أهوائهم وإعراضهم عن هدىٰ الله الذي آتاهم، ولذلك جاء الخطاب للنبي ﷺ.

- عبر بالأهواء ليدل علىٰ أن ماهم عليه إنما هو ناشيء من أنفسهم، والجمع يفيد أن جميع ماهم عليه من الباطل، ومنها التكذيب بالنبي وبالقرآن، واعتقاداتهم الباطلة التي عرضت لها الآيات من قبل.

- قوله تعالىٰ: ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾: مفيد زيادة تشديد وتخويف للمؤمنين، وفيه إشعار للمؤمنين بأن تأييدهم من الله ونصره لهم مقرون باتباع الهدىٰ الحق.

---

(١) انظر: «إرشاد العقل السليم» (١/ ١٨٢).

(٢) انظر: «البحر المحيط» (١/ ٥٩٠).

- أنَّ الكُفر مِلَّة واحدة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿مِلَّتَهُمْ﴾، وهو باعتبار مضادَّة الإسلام مِلَّةٌ واحدة، أمَّا باعتبار أنواعه، فإنَّه مِلل.

- أنَّ ما عَدا هُدىٰ الله ضلال؛ قال الله تعالىٰ: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾؛ فكلُّ ما لا يُوافق هُدىٰ الله -كالبِدع- فإنَّه ضلال، وليس ثَمَّة واسطةٌ بين هدىٰ الله، والضَّلال.

- أنَّ المرء إذا اتَّبع غير شريعة الله، فلا أحدَ يحفظه من الله؛ ولا أحدَ يَنصُره من دونه، حتىٰ لو كثُر أعوانه وجُندُه، واشتدَّت قوته؛ لأنَّ النصر والولاية تكون باتِّباع هُدىٰ الله عزَّ وجلَّ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِى جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

- في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِى جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، دلالةٌ علىٰ أنَّه يجب تعلُّق القلب بالله تعالىٰ وحْده؛ خوفًا، ورجاءً؛ لأنَّ المرء متىٰ ما علِم أنَّه ليس له وليٌّ ولا نصيرٌ من دون الله تعالىٰ؛ فلا يتعلَّق إلَّا بالله تعالىٰ وحده.

- أنَّ ما عليه اليهود والنصارىٰ ليس دِينًا، بل هو هوىٰ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿أَهْوَاءَهُم﴾، ولم يقُل: مِلَّتهم كما في الأوَّل، ففي الأوَّل قال تعالىٰ: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾؛ لأنَّهم يعتقدون أنهم علىٰ مِلَّة ودِين، ولكن بيَّن الله تعالىٰ أنَّ هذا ليس بدِين، ولا مِلَّة، بل هو هوىٰ، وهم ليسوا علىٰ هدًىٰ.
- أنَّ مَن اتَّبع الهوىٰ بعد العِلم، فهو أشدُّ ضلالةً؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِى جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ...﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٢١ ﴾

◈ غرض الآية:

الاستدلال علىٰ ثبوت الرسالة بإيمان بعض أهل الكتاب، تثبيتًا للنبي ﷺ وللمؤمنين، وإقامة للحجة علىٰ المكذبين بها من أهل الكتاب.

◈ معاني الآية:

- ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾: هم علماء بني إسرائيل الذين آمنوا بالرسول ﷺ؛ لأن السياق في إثبات رسالة النبي ﷺ ودلالات صدقها، فأتىٰ هنا بما يثبت للمؤمنين والمكذبين صدق الرسالة وهو إيمان بعض علماء بني إسرائيل الذي كان دليل تصديقهم تلاوتهم التوراة حق تلاوتها وتصديق مافيها.

- ﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾: أي: أنها في الذين آمنوا من أهل الكتاب في تلاوتهم التوراة واتباعهم مافيه من أمر الله؛ لأن السياق في المؤمنين من أهل الكتاب.

- قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي يؤمنون بالكتاب وبالرسول ﷺ، أما الكتاب فلأنه أقرب مذكور، وأما الرسول فلأنه الذي يأمرهم به الكتاب.

البصائر والحكم

- قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾: أتىٰ الأسلوب ابتداءً من غير عطف؛ لأنه في سياق الاستدلال علىٰ صدق الرسالة وثبوتها، كما أن الابتداء دال علىٰ كمال تباين الفريقين؛أي المؤمنين والمكذبين منهم.

- قوله تعالىٰ: ﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾: وحق التلاوة هو العلم بما فيها[1]

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (١/ ٦٩٦).

المؤدي للاتباع والامتثال، أو أنهم محقون في التلاوة. وفائدة الجملة بيان تلاوتهم للكتاب من غير تحريف واتباع للأهواء.

- **قوله تعالىٰ:** ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾: تعريض بالمكذبين، وبأنهم لم يتلوا الكتاب حق تلاوته ولم يؤمنوا به، وهو من كفرهم.

- **أنَّ للإيمان علامةً، وعلامتُه العمل؛** لقوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ بعدَ قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾.

- **علوُّ مرتبة مَن يتَّبعون الكتاب حقَّ الاتِّباع؛** للإشارة إليهم بلفظ البعيد: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾.

- **أنَّ الكافر بالقرآن مهما أصاب من الدُّنيا فهو خاسر؛** لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، فيكون خاسرًا، ولو نال من الدُّنيا ما نال من زِينتها وزخرفها.

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ١٢٢﴾

◈ غرض الآية:

هذه الآية واردة في خطاب بني إسرائيل التفاتـاً إليهم بعد بيان الحق كاملاً ووضوحه وإقامة البرهان الواضح علىٰ صدق رسالة النبي ﷺ.

◈ معاني الآية:

- **قوله:** ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ﴾: النعمة هنا عامة، كما يدل عليه إطلاقها وإضافتها إلىٰ الله، ولكننا حين نتأمل موقع الآية مقارنة بالآيات السابقة المماثلة، نرىٰ أنها تتضمن معنىٰ خاصـاً زائداً، وقد وقفت عليه بعد التأمل في مواقع الآيات الثلاث ـ والله أعلم بالصواب ـ فالنعمة هنا هي نعمة البيان الكامل الذي خصهم به في دعوتهم

وخطابهم السابق كله، وظهور الحجة لهم في تقرير صدق رسالة محمد ﷺ، مع ماعندهم من العلم به من البشارة بالنبي ﷺ وبدعوته التي تضمنتها كتبهم.

البصائر والحكم

- **تكرر ندائهم في الآيات السابقة ثلاث مرات،** وكل نداء من النداءات الثلاثة له موقعه ومناسبته.

فأما النداء الأول فهو نداء الافتتاح والتذكير بنعمة الاستخلاف التي أكرمهم بها؛ ولذا جاء فيه قوله تعالىٰ: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة ٤٠] تذكير لهم بعهد الاستخلاف الذي أضاعوه.

وأما النداء الثاني فهو نداء تذكير بالنعم العظيمة التي أفاضها عليهم؛ حيث عددها لهم وأظهر كفرانهم بها.

وجاء النداء الثالث بعد البيان التام للحق الذي دعاهم إليه، وبعد أن جردهم من كل حجة وأبطل كل افتراء، وادعاء وقطع كل أمل أو سبب يتعذرون به عن الكفر والتكذيب، فجاء هذا النداء ليدعوهم ويذكرهم بنعمة بيان الحق لهم وكشفه أمامهم وتجليته بالبرهان والحجة، كما يذكرهم بما من عليهم من نعمة البشارة به من قبل، لعلهم يتذكرون، ويخوفهم لعلهم يتقون.

﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

غرض الآية:

نداء بني إسرائيل في دعوتهم للإيمان برسالة محمد ﷺ وترهيبهم من التكذيب بها، ترهيب بعد ترغيب وتشديد بعد تأكيد، وقطع للحجة وبيان للمحجة.

البصائر والحكم

- وجه تكرار الآية: لأنه تأكيد علىٰ ما تضمنته الآية وهو تفنيد ماتعلقت به نفوسهم، وكان مانعاً لهم من الإيمان، فبيّن لهم أن كل مازعمتموه ستفقدونه يوم القيامة، وأنكم ستتجردون من كل ما تظنون أنه ينفعكم، وأوله آباؤكم الذين تقتدون بهم.

- وجه الاختلاف بين الآيتين:

اختلفت الآيتان في الصيغة مع تشابههما في الألفاظ، فجاء في هذه الآية التعبير بتقديم العدل علىٰ الشفاعة، وتقييد الشفاعة هنا بعدم النفع، وهناك بعدم القبول. والعدل هنا بعدم القبول، وهناك بعدم الأخذ، وقد عبّر في كل آية حسب مايقتضيه السياق فيها.

فالآية الأولىٰ واردة في حق الشافع، والثانية في حق المشفوع له.

فالآيتان متضمنتان نفي النفع والقبول ابتداءً وانتهاء، ليقطع كل نفع وقبول لهم.

- ختم الآية: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾: تأكيد لمضمون الآية من انعدام كل سبل النجاة يوم القيامة، وفي ذلك غاية الوعيد والتهديد لهم.

﴿ ۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ
وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ
وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن
طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ
ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ قَالَ
وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذۡ
يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا
مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا
مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ
ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ
ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ
أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ
يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمۡ
كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ
بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا
وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا
كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ (البقرة: ١٢٤ – ١٣٤)

سياق الآيات وارد في التذكير بالأصل الثاني للمخاطبين من العرب وأهل الكتاب؛ وهو إبراهيم عليه السلام، الذي تنتسب إليه وتجله جميع الطوائف، وبيان ما كان

عليه من الفضائل والمناقب، دعوة للاقتداء به واتباع ملته الحنيفية الصحيحة التي هي أصل الرسالة المحمدية.

﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

◈ غرض الآية:

التذكير بالأصل الإبراهيمي، وهو ما تتفق عليه الأمم وتنتسب إليه، دعوة لاقتفاء أثره، وبيانًا لوصف من يستحق وراثة الإمامة بعده من ذريته، ومن لا يستحقها.

◈ معاني الآية:

- قوله: ﴿بِكَلِمَٰتٍ﴾: أي: كلمات التوحيد ومنها؛ كلمات الذكر، وأخصها كلمة الإخلاص، أي أنه أتم التوحيد والتوجه لله وأخلصه فحقق له الإمامة؛ لأن السياق في تذكير المخاطبين بأصلهم وأبيهم إبراهيم، وبيان ما كان عليه من التوحيد الذي هو أصل دين الإسلام.

- قوله: ﴿عَهْدِى﴾: أي: المراد به الإمامة، ومنها النبوة، وهي تتضمن غيرها؛ لأن سياق الآية في تشريف إبراهيم بالإمامة بعد إتمام الكلمات.

البصائر والحكم

- قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذِ﴾: خطاب متوجه لجميع الملل تذكيراً لهم بما كان عليه إبراهيم ليقتدوا به.

- قوله تعالىٰ: ﴿ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾: يفيد أن الله كلفه بها، تمهيداً لنيل الإمامة وتحمل أعباء الرسالة، وفي هذا توجيه لمن ينتسب لإبراهيم عليه السلام وأخصهم هذه

الأمة إلىٰ ما كان عليه أبوهم من الامتثال لأمر الله وتحمل الابتلاء والتكليف، مما يجب أن يكونوا عليه.

- تقديم إبراهيم وهو المفعول: إشعارٌ بمكانته والعناية به؛ لأنه الأصل الذي ينتسبون إليه، وإظهارٌ لشأنه في الامتثال وإتمام الدين؛ ولذا جاء التعبير بعنوان الربوبية لمزيد التشريف له، ولبيان أن ما ابتلي به تربية من الله له وتهيئة لإمامته(١).

- التعبير بلفظ الكلمات دون التصريح بها في قوله: ﴿بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾؛ لأنّ السياق في بيان أصل الرسالة المحمدية، واتصالها بأصل ملة إبراهيم، وهو التوحيد، وقد ذكَّرهم أولاً بمنقبة من أعظم مناقب إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ التي كانت سبباً لإمامته، وهي إتمامه للتوحيد، أشار لذلك بلفظ الكلمات، دعوةً للمخاطبين، وحثاً وترغيباً وتشويقاً للبحث عنها، ومعرفتها لا تباعها وتحقيقها؛ لأنها سر تحقيق الإمامة.

- التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾: دال علىٰ أن المراد تحقيقه التام لما ابتلي به، كما قال الله تعالىٰ عنه: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم ٣٧].

- قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ﴾: أي بعد إتمام الكلمات، وفيه فائدة بأن الإمامة لا تتحقق إلا بعد إتمام ما أمر الله به، وهو تعريض بالمخاطبين.

- قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾: قال: إماماً، ولم يقل: رسولاً، ليدل علىٰ أن جميع الرسالات ترجع إليه نسباً وملة.

- قوله تعالىٰ: ﴿لِلنَّاسِ﴾: ليشملهم جميعاً، وفي ذلك حجة علىٰ جميع الملل في وجوب الاقتداء به واتباع ما كان عليه من التوحيد والإسلام.

- قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾: بيان لحرص إبراهيم علىٰ صلاح ذريته، وإمامتهم من بعده.

- قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: استجابة مطوية بإيجاز،

(١) انظر: «إرشاد العقل السليم» (١/ ١٨٤).

وبيان للفريق الذي تتحقق فيه دعوة إبراهيم والذي لا تتحقق فيه، وإنما لم يذكر الصنف الذي تتحقق فيه الدعوة توسيعاً لإجابة دعوته فيهم كأنه قال: نعم إلا الظالمين منهم.

- **التعبير بقوله: ﴿لَا يَنَالُ﴾**: فيه دليل علىٰ أن الرسالات بعد إبراهيم امتداد له، وذلك أن النيل هو التناول [1].

- **التعبير بلفظ العهد في قوله تعالىٰ: ﴿عَهْدِى﴾**: دون وعدي، بيان أنه وعد مؤكد، وفيه تعريض باليهود ورد عليهم؛ إذ زعموا أنهم علىٰ عهد إبراهيم.

- **التعبير بالظالمين دون غيرهم**؛ لأن الظلم هو التجاوز، أي المتجاوزين ما عليه إبراهيم، كأنه قال: لاينال عهدي الذين تجاوزوا ما أنت عليه من التوحيد والإسلام.

- **التصريح بوصف الظلم** تنفير لذرية إبراهيم من الظلم وتبغيضه إليهم.

- **فضيلة إبراهيمَ ﷺ**؛ لقوله تعالىٰ: رَبُّهُ؛ حيث أضاف رُبوبيَّته إلىٰ إبراهيم، وهي ربوبيَّة خاصَّة، ولقوله تعالىٰ: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾؛ ولقوله سبحانه: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥﴾

◈ غرض الآية:

ذكر البيت الحرام، وبيان مقاصد إقامته، وما عهد الله به إلىٰ إبراهيم وإسماعيل من تطهيره من الشرك والظلم، وهي منقبة أخرىٰ لإبراهيم عليه السلام مضمنة تشريف ابنه إسماعيل عليه السلام، فهو تحقيق لدعوته السابقة.

(١) انظر: «مفردات ألفاظ القرآن» (١/ ٨٢٩).

◈ معاني الآية:

- قراءة: ﴿وَٱتَّخِذُوا﴾، و﴿واتخَذوا﴾: القراءة الأولىٰ خطاب بصيغة الأمر وهو متوجه للأمة كما يدل عليه الأثر، والقراءة الثانية خطاب بصيغة الخبر متوجه للناس المتبعين لإبراهيم.

- المراد بمقام إبراهيم في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ﴾: هو موضع الحجر الذي قام عليه إبراهيم عَلَيهِ السَّلَامُ وهو مقامه الذي في المسجد الحرام، وقيل: هو البيت الحرام، وكلاهما دال عليهما السياق؛ فالمعنىٰ الأول علىٰ أن السياق في ذكر إبراهيم وشرفه فخُصَّ المقام تشريفاً لإبراهيم وتنويهاً بحقه ووجوب اتباعه، والمعنىٰ الثاني علىٰ أن الآية واردة في ذكر البيت وتعظيمه وشرفه ومقصده.

البصائر والحكم

- قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمۡنًا﴾: تذكير بالغرض الذي من أجله أقيم البيت، وقوله تعالىٰ: ﴿مثابة﴾ أي مأوىٰ، يأمنون فيه، والتعبير بمثابة يفيد انجذاب الأفئدة إليه وهوىٰ القلوب وانعطافها ومحبتها له(١).

- قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ﴾: جاء الخطاب بأسلوب الأمر مخالفاً ما عطف عليه، تنويهاً بأعظم مقصد في البيت، وهو التوجه إليه في الصلاة، وتنويهاً بمنقبة من مناقب إبراهيم وهي الأمر باتخاذ مقامه مصلىٰ، وفي ذلك تشريف له.

- هناك قراءة بفتح الخاء: ﴿وَٱتَّخَذُوا﴾: بمعنىٰ الخبر دالة علىٰ الأمر باتباع

(١) انظر: «محاسن التأويل» (١/ ٣٦٠).

إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ملة وقبلة.

- **تسمية البيت بمقام إبراهيم**، تشريف لإبراهيم ولمقامه الذي بنىٰ البيت عليه.

- **وقوله تعالىٰ:** ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾: فيه تشريف لإبراهيم وإسماعيل بولاية أمر البيت.

- **ذكر إسماعيل وتخصيصه بالعهد مع إبراهيم:** فيه إشعار بأن ذريته أولىٰ بالبيت، وهو إشارة بوراثة هذه الأمة لعهد الأبوين ويدل عليه قوله تعالىٰ: ﴿وعهدنا﴾ الدال علىٰ التخصيص والعناية.

- **قوله تعالىٰ:** ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ﴾: يشمل التطهير الحسي والمعنوي.

- **قوله تعالىٰ:** ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾: بيان لأصناف المتعبدين في البيت.

- **جمع الطائفين والعاكفين** جمع سلامة الدال علىٰ الدوام والتجديد؛ لأنهما أقرب خاصية بالبيت، بخلاف الركوع والسجود فإنه لا يلزم أن يكونا في البيت، ولذا جمعهما جمع تكسير[(١)].

- **الله سبحانه وتعالىٰ يُثيب العاملَ بأكثر من عمله؛** فإبراهيم ﷺ لَمَّا أتمَّ الكلمات، جعَله الله تعالىٰ إمامًا للناس، وأمَرَ الناس أن يتَّخذوا من مقامِه مصلًّىٰ.

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (١/ ٧١٢).

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ١٢٦﴾

◈ غرض الآية:

بيان منقبة أخرىٰ من مناقب إبراهيم، وهي عنايته بالبيت وبلده، وحرصه علىٰ تفضيله وتهيئة العيش والاستقرار لأهله المؤمنين.

◈ معاني الآية:

- المراد بالأمن في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾: كون البيت آمناً بنفسه، لأن الآيات واردة في بيان مناقب البيت وشرفه، ويحتمل أيضًا أن أهله آمنون فيه؛ لأن السياق لغرض الامتنان علىٰ أهله.

- قوله: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ﴾: أي: طهارته من الأوثان والشرك، وذلك لأن السياق في التذكير بشرف البيت ومقاصده.

- المراد بالعاكفين: أهل البلد المقيمون والملازمون للبيت إرادة وجه الله؛ لأن السياق في بيان مناقب البيت ومقاصده، فالأولىٰ أن يكون وصفاً زائداً، ولا أعظم بعد الطواف من الملازمة للبيت والإقامة فيه لوجه الله تعالىٰ.

البصائر والحكم

- قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ﴾: المناداة بلفظ الرب مضافاً إليه، فيه تلطف في السؤال وأحرىٰ للإجابة.

- قوله تعالىٰ: ﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا﴾ المراد به المكان الذي هو فيه قبل بناء البيت

ولهذا قال ﴿بَلَدًا﴾ ولم يقل ﴿البلد﴾، ويؤيد ذلك أن بناء البيت جاء بعد ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾.

- **قوله تعالىٰ:** ﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا﴾ المراد بدعائه هنا تحقق ذلك بتهيئة المكان والأمن فيه للسكنىٰ.

- **قوله تعالىٰ:** ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ دعاء منه لساكني البيت بالرفاهية وسعة المعيشة، حتىٰ لا تطمح نفوسهم للارتحال عنه.

- **قوله تعالىٰ:** ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ جمع الثمرات وتعريفها بأل الدالة علىٰ الاستغراق دال علىٰ ذلك.

- **قوله تعالىٰ:** ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ﴾ تخصيص المؤمنين دال علىٰ أنهم الأحق بالبيت، وفيه إشعار بأسباب البقاء للأمة وشرطه، ولهذا أتبعه بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾.

- **قوله تعالىٰ:** ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾ فيه دليل علىٰ أن الآية خطاب للمشركين وأهل الكتاب؛ لأنه نَصَّ علىٰ الكافرين، كما نص عليهم من قبل في قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

- **أدَبُ إبراهيم ﷺ:** حيث لم يُعمِّم في هذا الدعاء؛ ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ﴾؛ خوفًا من أن يقول الله له: (مَن آمَن فأرْزُقه)، كما قال تعالىٰ حين سأله إبراهيمُ أن يجعل مِن ذُريَّته أئمَّة: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فتأدَّب في طلب الرِّزق: أن يكون للمؤمنين فقط من أهل هذا البَلد، لكن المسألة صارتْ بعكس الأُولىٰ: ففي الأولىٰ خصَّص الله دعاءَه، وهنا عمَّم.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾

◈ غرض الآيات:

التذكير بمنقبة أخرىٰ من مناقب إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، وهي تأسيسهما البيت، وبناؤهما إياه، ودعوتهما لأنفسهما ولذريتهما بالقبول والإسلام، وتعريض بالمشركين الذين خالفوا دعوتهما وهم من ذريتهما، وتمهيدٌ للرد علىٰ اليهود في إنكارهم استقبال المسلمين الكعبة[1].

◈ معاني الآيات:

- **المراد برفع قواعد البيت:** أن الله أسس مكان البيت وهيأه يوم خلق الأرض، فابتدأ إبراهيم بناءه بأمر الله، وذلك هو رفعه إياه؛ لأن سياق الآيات وارد في بيان مناقب إبراهيم وفضله، فناسب أن يكون إبراهيم هو أول من بنىٰ البيت علىٰ أساسه الذي خلقه الله عليه.

- **المراد بالمناسك في:** ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾: مواضع التعبد له وشرائع الدين؛ لأن الغرض في الآية في دعوتهما إتمام الدين لله تعالىٰ والقيام بحقه سبحانه، فيكون الأولىٰ في ذلك عموم شرائع الدين.

- **المراد بالحكمة في:** ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾: العمل، وهو ما يمكن

---

(١) انظر: «مفاتيح الغيب» (٤/ ٥١)، «التحرير والتنوير» (١/ ٧١٧)..

اعتباره بالسنة، فإنها موضحة للقرآن باعثة علىٰ العمل به؛ لأن السياق في التعريف بشأن الرسول ﷺ وصفاته وعليه فيترجح أن يكون المراد بها السنة.

البصائر والحكم

- وجه الإتيان بالمضارع في قوله ﴿يَرْفَعُ﴾ والتعبير بلفظ الرفع دون البناء: الغرض منه استحضار المخاطبين للحالة [1]، فالمقصود: أن يشهدوا تأسيس البيت، ويسمعوا دعوة إبراهيم بالإخلاص له، ولذريتهما بالإسلام.

- وجه تخصيص ﴿ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾ دون البيت فقط: بيان لفضل إبراهيم عليه السلام في تأسيس البيت، وأنه أول من بنىٰ البيت، امتنانًا علىٰ ذريته وإلزامًا لهم باتباع ملته.

- وجه ذكر إسماعيل، والفصل بينه وبين إبراهيم: للتنويه به وتشريفه، والتعريض بذريته، والإشعار بأن ذريته أحق بالبيت، بدليل الدعاء بعده، وتأخيره عن المفعول، ووجود الفصل بينه وبين إبراهيم؛ لبيان أن الأصل في الرفع هو إبراهيم، وإسماعيل تبع له.

- قوله: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾: افتتاح دعائهما بطلب القبول مفيد تحقيق الإخلاص له في بناء البيت، كما أنه مقدمة لدعائهما اللاحق لأنفسهما وذريتهما.

- وجه دعائهما بتحقيق الإسلام في قوله: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾: مفيد طلبهما تحقيق الإسلام له تعالىٰ، وهو الاستسلام والانقياد والطاعة، وهو دعوة لذريتهما بتحقيق دعاء أبويهم والاقتداء بهما واتباع ما كانا عليه.

- وجه تخصيص الإسلام دون الإيمان في: ﴿وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ﴾: إشعار بهذا الدين المحمدي الذي سمي به وكان شعاراً له، وتشريف لهذه الأمة إذ كان دعاء

---

(١) انظر: «إرشاد العقل السليم» (١/ ١٩٠)، «التحرير والتنوير» (١/ ٧١٧).

أبيها باسمها، وأنه هو أول من سماها به إقراراً واعترافاً بها وامتناناً عليها.

- وجه تخصيص الدعاء للذرية في قوله تعالىٰ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسۡلِمَةً لَّكَ﴾: تعريض بالمخاطبين ودعوة لهم وحث علىٰ الإيمان، وتخصيص بعضهم لأن الحكمة الإلهية لا تقتضي إيمان الكل.

- وجه تخصيص الأمة المسلمة في قوله تعالىٰ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسۡلِمَةً لَّكَ﴾: دال علىٰ تعيينهما لهذه الأمة المحمدية؛ لأنها هي الأمة المسلمة من ذريتهما دون غيرها.

- قولهما: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ دال علىٰ طلب إتمام الدين وتوضيح معالمه وشرائعه وتيسيرها؛ إذ النسك في الأصل غاية التعبد[(١)].

- قولهما: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾: في مجي هذا الدعاء بعد الدعاء بأن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة، تنصيص علىٰ طلب كمال دينهما ودين أمة الإسلام وتعريفه وتوضيحه وتيسيره.

- قولهما: ﴿وَتُبۡ عَلَيۡنَآ﴾: مشعر باستتابة ذريتهما، وترغيب للكفرة والعصاة في التوبة والإيمان[(٢)].

- مناسبة الدعاء بالتوبة لما قبله: لأنه تعالىٰ لما أعلم إبراهيم عليه السلام أن في ذريته من يكون ظالماً عاصياً، لا جرم سأل هاهنا أن يجعل بعض ذريته أمة مسلمة، ثم طلب منه أن يوفق أولئك العصاة المذنبين للتوبة.

- قولهما: ﴿وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾: هذا الدعاء متضمن طلب مجيء الرسالة في ذريتهما، لتشريفهم وحرصاً علىٰ تمام هديهم، ولم يبعث من ذريتهما جميعاً غير النبي صلى الله عليه وسلم، فتحقق أن يكون هو المقصود.

---

(١) انظر: «مفردات ألفاظ القرآن» (٨٠٢)، «إرشاد العقل السليم» (١/ ١٩٢).

(٢) انظر: «إرشاد العقل السليم» (١/ ١٩٢).

- وجه وصف الرسول بقوله: ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾: لطلب كمال الرسول وأمته. ومزيد التعريف به والتعيين له، وبيان وظيفته.

- وجه تخصيص الأوصاف المذكورة وترتيب بينها: تخصيص هذه الثلاثة لمزيد بيان فضيلة الرسول وشرفه؛ إذ هو سبيل العلم والتزكية. وهو متضمن الحث والترغيب على الإيمان به، والترتيب بينها: لأن التلاوة أول مراحل التلقي للقرآن، وأما تعليم الكتاب والحكمة فهو لا يكون غالبًا إلا للمؤمنين به وبعد تلاوته، والتزكية نتيجة ذلك كله، فكأنه قدم ما هو سبب على غيره تدريجًا.

- ختم الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾: هاتان الصفتان متناسبتان لما قبلهما؛ لأن إرسال رسول متصف بالأوصاف التي سألها إبراهيم عليه السلام لا تصدر إلا عمن اتصف بالعزة، وبالحكمة التي هي إصابة مواقع الفعل، فيضع الرسالة في أشرف خلقه وأكرمهم عليه[1].

- أهميَّة القَبول، وأنَّ المدار في الحقيقة عليه؛ وليس على مجرَّد العَمل، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾.

- التوسُّل إلى الله سبحانه وتعالى بأسمائِه وصِفاتِه المناسبة لِمَا يدعو به المرء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

- شدَّة افتقار الإنسان إلى ربِّه؛ حيث كرَّر إبراهيمُ وإسماعيلُ عليهما السَّلام كلمة: ﴿رَبَّنَا﴾؛ وأنَّهما بحاجة إلى ربوبيَّة الله الخاصَّة، التي تقتضي عنايةً خاصَّة، وممَّا يفتقر إليه الإنسانُ دائمًا تثبيت الله، وإلَّا هلَك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ﴾؛ فإنَّهما مسلمان بلا شكٍّ، ولكن لا يدوم هذا الإسلامُ إلَّا بتوفيق الله تعالى.

(١) انظر: «البحر المحيط» (١/ ٦٢٨).

- أهميَّة الإخلاص؛ لقوله تعالىٰ حِكايةً عن إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السَّلام: ﴿مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾: فقولهما: لَكَ يدلُّ علىٰ إخلاص الإسلام لله عزَّ وجلَّ

- الأصل في العبادات أنَّها توقيفيَّة، أي: إنَّ الإنسان لا يتعبَّد للهِ بشيءٍ إلَّا بما شرَع؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾.

- قوله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾: جاء الإتيان بصِفتي العِزة والحِكمة في الدعاء ببَعْثِ الرسول؛ لأنَّ ما يجيء به الرسولُ كلُّه حِكمة، وفيه العِزَّة.

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾

◈ غرض الآية:

التوبيخ والتسفيه والتعجب لمن أعرض عن ملة إبراهيم مع ما كان عليه إبراهيم من الفضل التام.

البصائر والحكم

- وجه التعبير بالملة، ومناسبة ذكرها: فيه دلالة علىٰ رسالة النبي محمد ﷺ؛ لأن السياق في إثباتها والدعوة لاتباعها؛ لأن ملة محمد ﷺ امتداد لملة إبراهيم، وفي ذلك إرغام للمكذبين علىٰ الاعتراف والإقرار بها؛ لأنهم مقرون بملة إبراهيم.

- وجه التعبير بالسفه في قوله: ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾: فيه تعريض بالمعرضين، ووصفهم بهذا الوصف، ولهذا جاء وصفهم به صريحاً بعد ذلك بقوله: ﴿سَيَقُولُ

السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ [البقرة ١٤٢]، وعلق السفه بالنفس للمبالغة في السفه[(١)].

- وجه قوله: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: فيه أعظم ترغيب في اتباع دينه والاهتداء بهديه، والذم لمن خالفه[(٢)].

- المخالفون للرُّسُل سفهاء؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾، وقوله في المنافقين: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾؛ فإنَّهم وإن كانوا أذكياءَ، وعندهم علمٌ بالصناعة، والسِّياسة، إلَّا أنَّهم في الحقيقةِ سُفهاء؛ لأنَّ العاقلَ هو الذي يتَّبع ما جاءتْبه الرُّسُلُ فقط.

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾

◈ غرض الآية:

إسلام إبراهيم لربه الذي هو سبب الاصطفاء والصلاح[(٣)].

◈ معاني الآية:

- قوله: ﴿أَسْلَمْتُ﴾: المراد بالإسلام هنا كمال الانقياد والتسليم لله تعالىٰ، وذلك من تمام التوحيد الذي حققه وأتمه من قبل؛ لأن السياق في بيان ما كان عليه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من التوحيد وما يستلزمه من الاستسلام لله.

---

(١) انظر: «مفاتيح الغيب» (٤/ ٦٤).

(٢) انظر: «محاسن التأويل» (١/ ٣٦٨).

(٣) انظر: «التحرير والتنوير» (١/ ٧٢٦).

البصائر والحكم

- الإتيان بالظرف ﴿إِذْ﴾: لقصد التخلص إلىٰ بيان سبب الاصطفاء والصلاح، وهو الإسلام.

- قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: مشعر بمبادرته بالفور دون تريث كما اقتضاه وقوعه جواباً.

- قال ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: دون أن يقول أسلمت لك، ليكون اعترافاً تاماً بربوبيته علىٰ الخلق كلهم. واستسلاماً كاملاً له.

- قوله تعالىٰ حِكايةً عن إبراهيمَ عليه السَّلام: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: فيه مناسبةٌ بين أَسْلَمْتُ وربِّ، وكأنَّ ذِكر الربوبيَّة هنا عِلَّةٌ لقوله تعالىٰ: أَسْلَمْتُ؛ فإنَّ الربَّ هو وحده الذي يستحقُّ أن يُسْلَم له.

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾

◈ غرض الآية:

بيان حرصه عَلَيْهِ السَّلَامُ علىٰ تكميل ذريته إثر بيان كماله في نفسه[(١)].

◈ معاني الآية:

- قوله: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ﴾: المراد بها الملة، وذلك لأنها المقصود أولاً، فالسياق في دعوتهم لاتباع الملة التي هي التوحيد، كما أن التوحيد يدخل معه الاستسلام تبعاً.

(١) انظر: «إرشاد العقل السليم» (١/ ١٩٤).

البصائر والحكم

- **التعبير بالتوصية دون الأمر في قوله: ﴿وَوَصَّىٰ﴾**: مناسب من جهة أن الغرض التأكيد عليهم باتباع الدين والبقاء عليه؛ إذ التوصية هي التقدم إلىٰ الغير بما فيه خير وصلاح له، وهي آكد من مطلق الأمر والنهي.

- **الفصل بين إبراهيم ويعقوب ببنيه في قوله: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾**: فيه دلالة علىٰ دخول أبناء إبراهيم من غير يعقوب كإسماعيل وبنيه، وهو تعريض بالعرب.

- **التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿ٱصْطَفَىٰ﴾** فيه إشارة إلىٰ أنه اختاره من بين الأديان وفضله عليها، وأن ذلك من تفضيلهم به.

- **الإتيان بصيغة النهي لا بالأمر في قوله: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾**: أقوىٰ في الدلالة، وأشد تأكيداً علىٰ التزام الأمر المقصود.

- **قوله: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾**: إنما قيده بالموت؛ لأن الإنسان لا يدري متىٰ يفاجئه الموت، فوصاهم بذلك عند تلك الحالة ليكونوا أشد تذكراً وحرصاً علىٰ المبادرة.

- **أنَّه يَنبغي التلطُّفُ في الخِطاب؛** لقول إبراهيمَ ويعقوبَ عليهما السَّلام لأبنائهما: ﴿يَٰبَنِيَّ﴾؛ فإنَّ نداءهم بالبُنوَّة أدْعىٰ لقَبولِ ما يُلقىٰ إليهم.

- **أنَّه يَنبغي للإنسان أن يتعاهَدَ نفسه دائمًا حتىٰ لا يأتيَه الموتُ وهو غافل؛** لقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

- **الأعمال بالخواتيم؛** لقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾

◈ غرض الآية:

خطاب مباشر لمن كان في حضرة النبي ﷺ من اليهود والنصارىٰ، وخاصة أحبارهم ورؤساؤهم، تقريعـاً وتوبيخـاً وتكذيبـاً لهـم[1].

◈ معاني الآية:

- الخطاب في قوله تعالىٰ: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ﴾: أنه متوجه لليهود استنكاراً عليهم زعمهم أن يعقوب أوصىٰ باليهودية؛ لأن الاستفهام هنا غير حقيقي لظهور عدم إمكان شهودهم احتضار يعقوب، وهذا يمنع أن يكون الخطاب الواقع فيه خطاباً للمسلمين.

البصائر والحكم

- الاستفهام في قوله تعالىٰ: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ﴾ للتقريع والتوبيخ، وهو بمعنىٰ النفي، أي نفي شهودهم الوصية، والمقصود منه الاستدراج في إبطال الدعوىٰ بإدخال الشك علىٰ مدعيها[2].

- قوله تعالىٰ: ﴿إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ﴾ دال علىٰ الإنكار عليهم وتأكيد نفي شهودهم للوصية ببيان حقيقة ما أوصىٰ به.

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١/ ٦١٢)، «المحرر الوجيز» (١/ ٢١٢)، «البحر المحيط» (١/ ٦٣٨).

(٢) انظر: «التحرير والتنوير» (١/ ٧٣١).

- قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ﴾ دال علىٰ تأكيد الحجة عليهم من جهة بيان وصية يعقوب لبنيه بالإسلام عند موته، وتقريره لهم وأخذ الميثاق عليهم.

- تخصيص وصيته عند الموت تأكيداً عليها؛ لأن حالة حضور الموت مستدعية تمام الانتباه، وهي أرسخ في نفس السامع.

- أتىٰ بأسلوب الاستفهام التقريري في قوله تعالىٰ: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾ ليؤكد ثباتهم علىٰ الدين حيث سبق وصية أبيهم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من قبل.

- الإتيان بلفظ إلهك في قوله تعالىٰ: ﴿قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ﴾ ولم يقولوا نعبد الله، إشعار بأنهم يعبدونه بمثل ما عبده به يعقوب وآباؤهم من قبله.

- وجه تكرار الإله في آبائهم في: ﴿وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا﴾ لأنهم قبل يعقوب؛ ولمزيد تأكيد، وفي تعداد الآباء تنويه بأسماء أسلافهم واعتراف بفضلهم الموجب لاتباع ماكانوا عليه [(١)].

- ذكر إسماعيل مع آبائهم مع أنه ليس أباهم مباشراً؛ بقصد بيان وحدة ديانة الأنبياء وهي الملة الحنيفية.

- التعبير بالجملة الاسمية في قوله تعالىٰ: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ مفيد ثبات الوصف لهم ودوامهم عليه.

- تكرار لفظ (الإسلام) في هذه الآيات يراد به تقرير حقيقة الدين.

- قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ﴾، فيه إشارةٌ إلىٰ الوصية عند حضور الأجَل، ويُشترَط أن يكون الموصِي علىٰ وعيٍ بما يقول.

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (١/ ٧٣٤).

- جواز إطلاق اسم الأبِ على العمِّ تغليبًا؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ﴾، وإسماعيل هو عمُّ يعقوب عليهما السلام.

﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٤﴾

غرض الآية:

إبطال اعتقادهم أو ظنهم أن سلفهم من الآنبياء سينفعونهم ويشفعون لهم لمجرد انتسابهم لهم.

البصائر والحكم

- التعبير بقوله: ﴿قَدۡ خَلَتۡ﴾ وصف زائد لقصد المبالغة، كناية عن انقطاع الانتفاع بأعمالهم الصالحة.

- ذكر حال الطرفين في قوله ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡ﴾ مع أن المذكور أولاً الأمة، لقلب اعتقاد المخاطبين، فإنهم لغرورهم يزعمون أن ما كان لأسلافهم من الفضائل يزيل ما ارتكبوه هم من المعاصي أو يحمله عنهم أسلافهم[1].

- قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ بيانٌ لكمال قطع صلتهم بأعمال سلفهم وتأكيد علىٰ قطع طمعهم.

- بيانُ عدْل الله سبحانه وتعالىٰ، وأنَّه لا يُؤاخِذ أحدًا بما لم يعملْه؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (١/ ٧٣٥).

﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا
كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ
إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ
وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ
﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى
شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ
أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ
وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾
أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ
كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً
عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ
لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾

(البقرة: ١٣٥ – ١٤١)

سياق الآيات وارد في محاجة أهل الكتاب على لسان النبي ﷺ والمؤمنين، مع إعلان الحق والجهر به، وتضمينه الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، ترغيباً في الإيمان بالله الذي هو الأصل المتفق عليه، وترهيباً من الإعراض والتولي عنه، ووعداً للمؤمنين، ووعيداً للمكذبين.

﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٣٥﴾

◈ غرض الآية:

بيان زعم اليهود والنصارىٰ أن دينهم الحق، وأنه مصدر الهداية، ومحاجتهم بملة إبراهيم الحنيفية، وبيان أن إبراهيم لا ينتسب لدين وليس من المشركين. وهو ما يناقض ما هم عليه.

◈ معاني الآية:

- قوله: ﴿حَنِيفًا﴾: المائل عن الضلالات والأديان الباطلة؛ لأن السياق في محاجة أهل الكتاب في دينهم، وإبطال دعواهم أن دينهم مصدر الهداية، فكانت الحجة في الرد عليهم بالرجوع إلىٰ ملة إبراهيم، وهذا يدل علىٰ أن إبراهيم مخالف لهم أي أنه علىٰ غير ملتهم.

البصائر والحكم

- قوله: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ﴾: مفيد حصر الهداية في دينهم، وخلاصة زعمهم نفي الهدىٰ عن متبع ملة إبراهيم، وهذا غاية غرورهم[1].

- قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ تلقين من الله تعالىٰ لنبيه البرهانَ القاطع في محاجتهم، وهو بيان بحصر الهدىٰ في دين الإسلام عن طريق السبيل المتفق عليها.

- قوله تعالىٰ: ﴿حَنِيفًا﴾ أي: مائلاً عن الباطل إلىٰ الحق، وإنما كان هذا مدحاً لملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأن الناس يوم ظهور ملة إبراهيم كانوا في ضلالة عمياء فجاء دين إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مائلاً عنهم فلقب بالحنيف.

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (١/ ٧٣٦).

- قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ تعريض بأهل الكتاب وغيرهم؛ لأن كلاً منهم يدعي اتباع إبراهيم، وهو علىٰ الشرك[١].

- أهل الباطل يَدْعون إلىٰ ضلالِهم، ويدَّعون فيه الخير؛ لقوله تعالىٰ حِكاية عن بعضهم أنَّهم يقولون: ﴿كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ وهذه دعوةٌ إلىٰ ضلال، وقولهم: ﴿تَهْتَدُوا۟﴾ فيه ادِّعاء أنَّ ذلك خير، فمَثلًا دعاة التبرُّج والسُّفور يقولون: اتركوا المرأةَ تتحرَّر، أعطوها الحُرية، اتركوها تبتهج في الحياة، لا تُقيِّدوها بالغطاءِ، وتركِ التبرُّج، ونحو ذلك، وكذا كلُّ داعٍ إلىٰ ضلالةٍ يزيِّن هذه الضَّلالة بما يَغرُّ البليد.

- اليهوديَّة والنصرانيَّة المحرَّفتَان نوعٌ من الشِّرك؛ لأنَّ مجيءَ قولِه تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ في مقابل دَعوتهم إلىٰ اليهوديَّة والنصرانيَّة، يدلُّ علىٰ أنَّهما نوعٌ من الشرك.

﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾

◈ غرض الآية:

بيان حجة ثانية في مجادلة أهل الكتاب وتفنيد ما زعموا، وهي مواجهتهم علىٰ لسان المؤمنين أنهم يؤمنون بالله وما أنزل إليهم وهو القرآن، وما أنزل إلىٰ الأنبياء كلهم لايفرقون بينهم مع اتفاقهم معهم في الإسلام، وهذه الحجة برهان للحجة السابقة[٢].

(١) انظر: «الكشاف» (١/ ١٩٥).

(٢) انظر: «البحر المحيط» (١/ ٦٤٨).

◈ معاني الآية:

- الخطاب في قوله تعالىٰ: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾: الآية واردة في مقابل قول أهل الكتاب رداً لزعمهم، وذلك أنهم لما قالوا كونوا هوداً أو نصارىٰ تهتدوا، أمر الله تعالىٰ المؤمنين بأن يقولون لهم ويواجهوهم بما لايمكنهم معارضته،أو المجادلة فيه.

البصائر والحكم

- توجيه الخطاب للمؤمنين في قوله: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ بخلاف توجيه الخطاب للنبي ﷺ في الآية قبلها: مجيء الخطاب في الأولىٰ للنبي ﷺ أولىٰ وأنسب؛ لأن الحجة في بيان المصدر الأول الذي هو أصل رسالته وهو ملة إبراهيم، فهو أخص بذلك، ومجيء الخطاب في الثانية للمؤمنين أولىٰ وأنسب؛ لأنها في بيان تفصيل الإيمان، ومنه الإيمان بالرسل ومنهم النبي ﷺ، والكتب المنزلة ومنها القرآن، ولا يناسب أن يكون الأمر للنبي وهو داخل فيه.

- وجه تحصيص الإيمان بالله: لأن الإيمان بالله أصل الشرائع، ولا يختلف باختلافها[(١)]،

- وجه قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾: أي القرآن؛ لأنه المقصود؛ إذ المخاطبون مدعوون للإيمان به؛ ولأنه المصدق لما قبله المهيمن عليه[(٢)].

- قوله ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾: لأنه الأصل لما بعده، ثم أتبعه بالإيمان بما أنزل علىٰ الأنبياء ومنهم أنبياء بني إسرائيل في قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ لبيان أنهم تبع لإبراهيم[(٣)].

---

(١) انظر: «البحر المحيط» (١/ ٦٥٠)، «التحرير والتنوير» (١/ ٧٣٩).

(٢) انظر: «إرشاد العقل السليم» (١/ ١٩٨).

(٣) انظر: «إرشاد العقل السليم» (١/ ١٩٨).

- **وجه تخصيص موسىٰ وعيسىٰ**، ووجه التعبير بالإيتاء بدل الإنزال: لأن السياق جار في الحديث عن اليهود والنصارىٰ، والنزاع وقع فيهما [1]، وعبّر بالإيتاء؛ لأنه يشمل الكتب وسائر المعجزات.

- **وجه تفصيل الإيمان بالرسل وما أنزل إليهم**: أدلُّ في إقامة الحجة علىٰ أهل الكتاب الزاعمين لأنفسهم الحق، وفيه دلالة علىٰ أن الإسلام لا يعارض ما أنزل علىٰ الرسل بعد ملة إبراهيم؛ لأن الدين واحد، وهو دين التوحيد والإسلام.

- **وجه قولهم** ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾: تأكيد لعدم كفرهم ببعض وإيمانهم ببعض، خلافًا لما عليه اليهود والنصارىٰ، وهذا حجة عليهم وإبطال لزعمهم.

- **وجه ختم الآية بقوله تعالىٰ**: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾: فيه إظهار لكمال هذا الدين حيث تضمن ما عليه الرسل كلهم، وفي ذلك حجة دامغة لأهل الكتاب.

- **الإشارة إلىٰ البداءة بالأهمِّ وإن كان متأخِّرًا**؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ مع أنَّ ما أُنزل إلينا متأخِّرٌ عمَّا سبق.

- **أنَّه ينبغي للمؤمن أن يَشعُرَ أنه وإخوانه كنفْسٍ واحدة**؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾، فأتىٰ بضمير الجمْع: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ...وَنَحْنُ...﴾.

﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ١٣٧﴾

◈ غرض الآية:

بيان قصر الهداية الصحيحة علىٰ الإيمان بما عليه المؤمنون.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (١/ ٩٠).

البصائر والحكم

- قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم﴾: الفاء للترتيب، مفيدة الترغيب لمظنة إيمانهم، وفي الآية إرشاد وبيان لأهل العقل منهم.

- التعبير بالشقاق في قوله تعالىٰ: ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ﴾ مفيد شدة مخالفتهم حال توليهم، وذلك لأن الشقاق شدة المخالفة [1]، ويؤكده مجيء حرف ﴿فِى﴾ الدال علىٰ تمكن الشقاق منهم حتىٰ كأنه محيط بهم.

- قوله تعالىٰ: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ تسلية للنبي ﷺ وتفريج وتبشير المؤمنين بوعد النصر والغلبة وضمان التأييد والإعزاز مقابل شقاق عدوهم.

- قوله تعالىٰ: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ تجريد الخطاب للنبي ﷺ مع أنه كفاية لأمته، لما أنه الأصل والعمدة في ذلك، وهو مرجع المؤمنين، ومطمح نظر كيد الكافرين؛ ولأنه نعمته تعالىٰ عليه في الكفاية والنصرة أتم وأكمل وأعظم.

- ختم الآية بقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ مناسب لسياقها؛ لأنه تعالىٰ يسمع ما ينطقون وما يتفوهون به من الكفر والكيد والمكر بكم، ويعلم ما يضمرونه في قلوبهم من الكفر، وهو يتولاكم.

- أَنّه لا حُجّةَ لِمَن تولّىٰ عن شريعة النبيِّ ﷺ إلّا الشِّقاق، والمجادلة بالباطل؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ﴾.

- وقوع الشِّقاق بين أهل الكِتاب والمسلمين؛ وعليه فلا يمكن أن يتَّفق المسلمون وأهلُ الكتاب؛ فتبطُل دعوة أهلِ الضَّلال الذين يَدْعون إلىٰ توحيدِ الأديان؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ﴾.

---

(١) انظر: «مفردات ألفاظ القرآن» (١/ ٤٦٠).

- في قوله تعالىٰ: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ إشارةٌ إلىٰ التوكُّل علىٰ الله عزَّ وجلَّ في الدَّعوة إليه، وفي سائرِ الأمور؛ لأنَّه إذا كان وحده سبحانه وتعالىٰ هو الكافي، فيجب أن يكونَ التوكُّلُ والاعتمادُ عليه وحده؛ ولهذا قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ أي: كافيه.

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

◈ غرض الآية:

بيان حجة ثالثة في محاجتهم وإبطال زعمهم، وهي أن التحلي بالإسلام والإيمان لله الذي هو صبغة المسلم وحليته التي صبغه الله عليها أعظم صبغة وحلية.

◈ معاني الآية:

- قوله: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾: أصل الدين والملة الحنيفية وهو التوحيد والإسلام، فكنىٰ بالصبغة عنه لأن السياق في محاجة أهل الكتاب بإرجاعهم للأصل المتفق عليه وهو ملة الإسلام والإيمان بالله.

البصائر والحكم

- التعبير بالصبغة في قوله تعالىٰ: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ مقصود به تداخل الإيمان في قلوبهم وظهور آثاره الجميلة عليهم، كما أن شأن الصبغ بالنسبة إلىٰ الثوب كذلك(١).

- قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ الاستفهام للانكار والنفي، أي: لا صبغة أحسن من صبغة الله.

---

(١) انظر: «إرشاد العقل السليم» (١/ ٢٠٠).

- ختم الآية بقوله تعالىٰ: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ مفيد تمام ابتهاجهم وثباتهم عليها.

﴿قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ ١٣٩﴾

◈ غرض الآية:

بيان محاجتهم وإبطال زعمهم واعتقادهم الباطل أن دينهم خير من دين الإسلام، وأن أنبياء الله كانوا منهم، وأنهم مختصون بفضل الله وكرامته وولايته ودينه وجنته دون غيرهم.

البصائر والحكم

- قوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ﴾: الاستفهام للإنكار والتوبيخ، وفيه الإنكار عليهم بما ادعوه من خصوصيتهم بولاية الله وجنته، وحصرهم الهداية في دينهم.

- التعبير بقوله ﴿فِي ٱللَّهِ﴾ ليشمل كل ماله صله بالله من الدين والجزاء والولاية وغيرها.

- قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ﴾ بيان للحجة الأولىٰ التي تضمنتها الآية، وهي أنهم مشتركون في خلقه وربوبيته، وهي نفي لكل زعم باطل في خصوصيتهم بالولاية والفضل.

- قوله تعالىٰ: ﴿وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ بيان للحجة الثانية، وهي أن الكل مأمور بعبادته، وأن كلاً محاسب، وهي نفي لكل زعم باطل في خصوصيتهم

بالثواب والجنة.

- قوله تعالىٰ: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ﴾ بيان للحجة الثالثة، وهي أن المؤمنين مخلصون له العبادة، فلم يشركوا به أحداً؛ بخلاف ماعليه أهل الكتاب، وهي نفي لكل زعم باطل في خصوصيتهم بالدين الصحيح أو الهداية.

- وجوبُ البَراءة من أعمال الكفَّار؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾.

﴿أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٤٠﴾

◈ غرض الآية:

مواجهتهم برد زعمهم انتساب أنبياء الله لدينهم، وأنهم كانوا هوداً أو نصارىٰ، فحجهم برد العلم إلىٰ الله تعالىٰ الذي اصطفاهم، وأن الحجة فيما أخبر تعالىٰ؛ مع توعدهم بكتمان شهادة الله للأنبياء في كتبهم؛ ففيه تضييق عليهم، وقطع تام لادِّعائهم، وفضح لما كتموه من الحق.

البصائر والحكم

- قوله تعالىٰ: ﴿أَمۡ تَقُولُونَ﴾ فيه رد عليهم من جهة عدم وجود الحجة علىٰ قولهم، سوىٰ الافتراء علىٰ الأنبياء؛ ولذلك عبر بقوله ﴿تَقُولُونَ﴾.

- قوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ علىٰ سبيل التهكم بهم والاستهزاء، وفيه من الاستنكار ما يقطع الألسنة دون الجواب عليه.

- قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾: هذا يدل علىٰ أنهم كانوا عالمين بالحق؛ لكنهم كتموه.

- قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾: شهادة الله: ما أخبر به عن إبراهيم والأنبياء أنهم كانوا علىٰ التوحيد، وكون الشهادة من الله تعالىٰ أقوىٰ داعٍ لإقامتها، وأشد زجراً لهم علىٰ كتمانها(١).

- قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾: في إطلاق لفظ كتمان الشهادة، كشف وفضح لأحبارهم الذين كتموا شهادة الله في نبيه ﷺ ولبسوا علىٰ عامتهم.

- عِظَم ذَنب كتْمِ العِلم؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾؛ فإنَّ العالِم بشريعة الله عنده شهادةٌ من الله بهذه الشَّريعة، كما قال الله تعالىٰ: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾؛ فكلُّ إنسان يكتُم علمًا، فقد كتَم شهادةً عنده من الله.

- ثبوت الصِّفات المنفيَّة؛ وهي ما نفاه اللهُ سبحانه وتعالىٰ عن نفْسِه؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾؛ فإنَّ هذه صفةٌ منفيَّة، وليست ثبوتيَّة، والصِّفات المنفيَّة متضمِّنة لإثبات كمال ضدِّها؛ فلكمالِ مُراقبتِه، وعِلمه سبحانه وتعالىٰ، فليس بغافلٍ عمَّا نعمل.

- الردُّ علىٰ الجَبريَّة الذين يزعُمون بأنَّ الإنسان مُجبَرٌ علىٰ عَمَله؛ حيث أضاف سبحانه العملَ إلىٰ العاملِ في قوله تعالىٰ: ﴿عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾.

---

(١) انظر: «إرشاد العقل السليم» (١/ ٢٠٢).

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ﴾

◈ غرض الآية:

التأكيد للآية الأولىٰ، والتي تضمنت قطع صلتهم بالأنبياء وتعلقهم بهم نسبـًا ودينـًا.

البصائر والحكم

- الفرق بين الآيتين:

أن الآية الأولىٰ جاءت لغرض قطع انتسابهم إلىٰ الأنبياء وعدم انتفاعهم بأعمالهم، بعد أن رغبوا عن ملة إبراهيم وأنبيائهم، وكفروا بها، مع زعمهم الانتساب إليهم.

والآية الثانية بعكس ذلك؛ فقد جاءت لقطع انتساب الأنبياء إليهم؛ حيث زعموا أن الأنبياء كانوا هوداً أو نصارىٰ، فنفىٰ ذلك بعد أن أثبت أنهم علىٰ خلاف ما هم عليه وأنهم علىٰ التوحيد.

- الآية علىٰ هذا فصل الخطاب معهم، ونهاية الجدل والمحاجة معهم، وهي الكلمة الأخيرة التي يخاطبهم بها بعد طول الخطاب معهم ومحاجتهم.

﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ١٤٢ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣﴾

(البقرة: ١٤٢ – ١٤٣)

السياق العام للآيتين في التمهيد لتحويل القبلة بالإخبار عن المعارضين والاستدلال على أنه الحق، وأن توجه الأمة إليه إكرامٌ من الله وتشريفٌ لها، تثبيتاً للمؤمنين وتقوية ليقينهم به، ورداً لاستنكار السفهاء على توجيه المسلمين إليه، وقطعاً لحجتهم.

﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ١٤٢﴾

◈ غرض الآية:

الإخبار المسبق لقول السفهاء من المشركين واليهود والمنافقين، واستنكارهم على المؤمنين في أمر تحويل القبلة، والرد عليهم في ذلك.

◈ معاني الآية:

- **المراد بالسفهاء** في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾: المراد اليهود

والمنافقون والمشركون جميعـًا؛ لأن سياق الآية وارد في إخبار الله تعالىٰ للمؤمنين بما سيلاقونه من أعدائهم المكذبين من البلاء والاستهزاء.

- المراد بالقبلة في قوله تعالىٰ: ﴿مَا وَلَّـٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾: المراد بالسفهاء أنهم الطوائف الثلاث، فهي بيت المقدس علىٰ قول اليهود والمنافقين، والبيت الحرام علىٰ قول المشركين؛ لأن إنكار اليهود: كراهتهم للتحول عنها لأنها قبلتهم، وإنكار المنافقين: الاستهزاء بالمسلمين من التحول مرة بعد مرة، وإنكار المشركين: الطعن في دين الإسلام من ترك قبلتهم الأولىٰ.

البصائر والحكم

- التعبير بـ ﴿ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾: السفه: خفة العقل [1]، وفائدة وصفهم بأنهم من الناس مع كونه معلومـًا؛ هو التنبيه علىٰ بلوغهم الحد الأقصىٰ من السفاهة بحيث لا يوجد من الناس سفهاء مثلهم؛ لأن سفههم في الدين[2].

- قوله تعالىٰ: ﴿مَا وَلَّـٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ تحتمل استنكار المشركين علىٰ المسلمين التحول إلىٰ بيت المقدس وترك قبلتهم الأولىٰ، وتحتمل قول اليهود في التحول من بيت المقدس إلىٰ الكعبة، لقولهم: ﴿مَا وَلَّـٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ لأن المقصود بالنسبة لليهود استعظامهم ترك التوجه لبيت المقدس لأنها قبلتهم.

- التعبير بقوله ﴿قِبْلَتِهِمُ﴾ بإضافة القبلة إلىٰ المسلمين فيه مزيد تخطئة من المستهزئين لهم واستهزاء بهم.

(١) انظر: «البحر المحيط» (١/ ٦٠١).

(٢) انظر: «التحرير والتنوير» (٢/ ٨).

- قوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ بيان بأن الجهات كلها له يصرف إليها من يشاء، وهو إشارة إلىٰ وجه صحة التولية إلىٰ الكعبة.

- قوله تعالىٰ: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾: بيان بأن الذي يأمر الله به ويختاره هو الهدىٰ.

- قوله تعالىٰ: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: إشعار بأن ملة الإسلام هي الملة المستقيمة، ومن استقامتها أمرها بالتوجه إلىٰ الكعبة، وفيه دلالة علىٰ أن اتباع هذه الملة والتوجه لقبلتها هو الموصل إلىٰ الخير المبتغىٰ والهدىٰ التام.

- تسلية النبيِّ ﷺ، وأصحابه رضِي الله عنهم، حيث أخبر الله تعالىٰ أنَّه لن يَعترِض عليه في أمر تحويل القبلة إلَّا سفيهٌ؛ لقوله سبحانه: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾.

- قوله تعالىٰ: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ ...﴾: فيه الإخبار بقولهم قبل وقوعه، وفائدته توطين النفس وإعداد ما يبكتهم، فإنَّ مفاجأة المكروه علىٰ النفس أشقُّ وأشدُّ، فالمرء يخبر بما يُتوقَّع حدوثُه؛ ليستعدَّ له.

- قوله تعالىٰ: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾: فيه إثبات عِلم الله تعالىٰ بما سيكون، وتحقُّق وقوع ما أخبر به؛ لأنَّهم قالوا ما أخبر الله تعالىٰ عنهم أنهم سيقولونه.

- فضيلةُ هذه الأمَّة، حيث هداها اللهُ إلىٰ استِقبال بيته الذي هو أوَّل بيت وُضِع للنَّاس.

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدًا ...﴿١٤٣﴾ ﴾

◈ غرض الآية:

الاستدلال علىٰ أن توجيه هذه الأمة إلىٰ البيت الحرام هو الحق وهو الأنسب والأكمل لمكانتها بين الأمم، وفي ذلك من التثبيت للمؤمنين وتقوية يقينهم بالدين ما لا يخفىٰ.

◈ معاني الآية:

- **معنىٰ الشهادة** في: ﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾: أي: شهادة الدنيا والآخرة؛ لأن السياق في بيان فضل الأمة وعلو مكانتها، فشهادة الدنيا متفرعة عن جعل الأمة وسطًا، أما شهادة الآخرة فهي مبنية علىٰ شهادة الدنيا؛ لأن أحوال الآخرة تكون علىٰ وفق أحوال الدنيا.

- **المراد بشهادة النبي ﷺ علىٰ الأمة:** شهادته بالبيان والتبليغ، وذلك لأن شهادته مستلزمة للتبليغ، فيكون هذا من مقاصد الآية[1].

البصائر والحكم

- **توجيه الخطاب إلىٰ المؤمنين** فيه إظهار فضيلة الأمة وبيان مقامها، ولذلك أتىٰ بإشارة البعد: ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ الدالة علىٰ علو درجة الأمة وبعد منزلتها في الفضل وكمال تميزها[2].

---

(١) انظر: «محاسن التأويل» (١/ ٣٨٠).

(٢) انظر: «إرشاد العقل السليم» (١/ ٢٠٤).

- **وجه الإتيان بلفظ الوسطية** في قوله تعالىٰ: ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾: لأن المقصود هو الاحتجاج للمؤمنين علىٰ أن تحويل القبلة إلىٰ البيت الحرام هو الحق، وأنه وجَّههم أعظم قبلة.

- **وجه كون الوسط هو الأفضل:** الوسط مستلزم لمعنىٰ النفاسة والعزة والافتخار؛ لأنه أعظم الأماكن وأفضلها، ويفيد الاعتدال وعدم الميل، وهذا يعني اعتدال الأمة وعدم ميلها وانحرافها.

- **مناسبة قوله تعالىٰ:** ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾: لأنكم بهدايتكم للصراط المستقيم وجعلكم وسطًا خياراً عدولاً فإنكم شهداء وحجة علىٰ الناس.

- **وجه الاكتفاء بكونهم شهداء عليهم دون الشهادة لهم:** إشارة إلىٰ أن أكثر الأمم كانوا معرضين، وهذا سبب من أسباب تفضيل الأمة، وفيه أيضًا تحذير للأمم الحاضرة وخاصة المكذبين من أن يكونوا ممن يشهد عليهم بإعراضهم، كما يدل عليه التعبير بلفظ الناس.

- **وجه ذكر شهادة النبي ﷺ عليهم دون الشهادة لهم:** فيه مزيد تزكية لهم وتشريف من حيث أن رسولهم يشهد علىٰ ما جعلهم الله عليه من الخيرية والعدالة وشهادة الحق، والتأكيد عليها بلزوم هذا الهدىٰ والثبات علىٰ هذا التشريف والتحذير من الزيغ عنه.

- **فضْل هذه الأمَّة علىٰ جميع الأُمم؛** لقوله تعالىٰ: ﴿وَسَطًا﴾.

- **عَدالة هذه الأمَّة؛** لقوله تعالىٰ: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ والشهيد قولُه مقبولٌ.

- **هذه الأمَّة تشهد علىٰ الأُمم يوم القيامة؛** لقوله تعالىٰ: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾.

﴿... وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٤٣﴾

◈ غرض الآية:

الاستدلال علىٰ أن تحويل القبلة للبيت هو الأصل وأنه الموافق لحكمة الله تعالىٰ وشرعه، وأنه الحق والأنسب للأمة.

◈ معاني الآية:

- المراد بقوله تعالىٰ: ﴿جَعَلْنَا﴾: أي شرعنا بدلالة المفعول بعده.

- المراد بالقبلة في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ﴾: قيل: المراد بها بيت المقدس. وقيل: الكعبة قبل بيت المقدس[1]، والآية محتملة بظاهرها للقولين جميعـًا؛ لأن لفظ القبلة وقوله تعالىٰ: ﴿كُنتَ عَلَيْهَآ﴾، يتضمنهما جميعـًا، وقد رجح ذلك بعض المفسرين[2].

- مرجع الضمير في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾: أي: القبلة وما وقع فيها من التحويل، وهو التوجه للكعبة أولاً ثم إلىٰ بيت المقدس ثم التحويل إلىٰ البيت الحرام؛ لأن الآية في الإخبار عن الحكمة من التحويل في القبلة، والحكمة ظاهرة في التحويل كله، وأعظمه التحويل من بيت المقدس إلىٰ البيت الحرام.

- المراد بالإيمان في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾: التصديق

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١/).«المحرر الوجيز» (١/ ٢٢٠)، «مفاتيح الغيب» (٤/ ٩٤)، «البحر المحيط» (١/ ٦٠٦).

(٢) انظر: «الكشاف» (١/ ٢٠٠) «البحر المحيط» (١/ ٦٠٦).«إرشاد العقل السليم» (١/ ٢٠٦).

بأن الله شرعها ورضيها[1] لأن السياق في أمر القبلة وتشريعها واختلاف التحويل فيها، وهو متعلق بالتصديق والاتباع، فالأولىٰ أن تكون الجملة متعلقة به، ومن قال بأن المراد: الصلاة إلىٰ بيت المقدس، فهو يؤيده سبب النزول، لكنه داخل في معنىٰ القول الأول.

البصائر والحكم

- قوله تعالىٰ: ﴿جَعَلۡنَا﴾: دال علىٰ أن الله تعالىٰ هو الذي شرع لنبيه التوجه للقبلة، فلا حجة لأحد في الاستنكار عليه.

- وجه التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ﴾: الجملة تفيد ثبوت أحقيته بها؛ فالآية دالة علىٰ أن ما شرع الله لنبيه فهو أحق به.

- مناسبة قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾: الاستدلال والتمهيد للتوجه للكعبة بدلالة لام التعليل، والمعنىٰ: إلا ليتميز هؤلاء عن هؤلاء.

- وجه قوله: ﴿يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾ دون ﴿يتبعك﴾: للإشعار بعلة الاتباع وهي كونه رسولاً من الله.

- وجه التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾: كناية عن الكفر والردة، وإنما عبر بذلك للتنفير منه وتشنيعه، وفيه تشديد علىٰ من فعل ذلك لأن الرجوع علىٰ العقب أسوأ حالات الراجع في مشيه[2].

- التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿لَكَبِيرَةً﴾: دال علىٰ شدة الابتلاء بها.

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٢/ ٦٥٢).

(٢) انظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٢٢٠).

- مناسبة: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ لما قبلها: أنه لما بين الحكمة وأصناف الناس في الابتلاء، بين هنا العاقبة وهي أن هذه التولية أمر عظيم وشاق على النفوس إلا من هدىٰ الله، والغرض تثبيت المؤمنين.

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾: الإشعار بفضيلة المؤمنين وتشريفهم بالهداية بغرض تثبيتهم وتقوية يقينهم.

- وجه التعبير بالإيمان في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾: لأن الحكمة من التوجيه لبيت المقدس هي ابتلاؤهم في إيمانهم وصدق اتباعهم، فجاء التعبير بما يدل علىٰ تحققه فيهم، ويدخل في ذلك الصلاة، قال ابن عطية: «سمىٰ الصلاة إيمانـًا لما كانت صادرة عن الإيمان والتصديق»[(١)].

- وجه ختام الآية بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾: فيه تحقيق وتقرير للحكم وتعليل له، من جهة أن بيانه للحق رحمة للناس جميعـًا حيث جلىّ لهم الحق والحقيقة في أمر التوجه للبيت فلم يبق عند أحد شك أو ارتياب، وفيه امتنان من الله تعالىٰ علىٰ المؤمنين خاصة من حيث رأفته بهم ورحمته في توفيقهم للهداية.

- الإتيان باسم الرؤوف وتقديمه علىٰ الرحيم: فيه مناسبة يدل عليها السياق، وهي أن الرأفة أدق معنىٰ من الرحمة فالرحمة عامة والرأفة خاصة، وغالب ماتكون الرأفة في دفع المكروه وإزالة الضر، وأما الرحمة فغالب ماتكون في الإفضال والإنعام[(٢)].

- الله سبحانه يمتحِن العبادَ بالأحكام الشرعيَّة، إيجابًا، أو تحريمًا، أو غير ذلك؛ لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾؛ فليتنبَّه المرء لهذا.

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٢٢١).

(٢) انظر: «التحرير والتنوير» (٢/ ٢٥).

- **التقدُّم حقيقةً إنَّما يكون بتطبيق تعاليم الإسلام**، وأنَّ الرجعيَّةَ حقيقةً إنَّما تكون بمخالفتها؛ لقوله تعالىٰ: ﴿مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾؛ فإنَّ هذا حقيقة الرجوع علىٰ غير هدًى؛ لأنَّ الذي ينقلب علىٰ عقبيه كالأعمىٰ لا يُبصِر ما وراءه.

- **امتثال بعض الأوامر الشرعيَّة**، واجتناب بعض النواهي الشرعيَّة فيه مشقَّة علىٰ المكلَّفين، لكن بتمام الإيمان تزول هذه المشقَّة، وتكون سهلةً ويسيرة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾.

- **قوله**: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡ﴾: فيه دلالةٌ علىٰ أنَّ العمل من الإيمان، وهذا مذهب أهل السُّنة والجماعة؛ لأنَّ الله تعالىٰ سمَّىٰ الصَّلاة إيمانًا.

﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ
وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ
وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا
يَعۡمَلُونَ (١٤٤) وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ
وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ
أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ
(١٤٥) ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ
لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ (١٤٦) ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ
(١٤٧) وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ
ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ (١٤٨) وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ
وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا
تَعۡمَلُونَ (١٤٩) وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ
مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا
ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ
تَهۡتَدُونَ (١٥٠) كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ
ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ
تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ (١٥١) فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ (١٥٢)﴾

(البقرة: ١٤٤ – ١٥٢)

سياق هذه الآيات وارد في الأمر الصريح باستقبال البيت الحرام مع التأكيد عليه وتكراره.

﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ١٤٤﴾

◈ غرض الآية:

هذه الآية هي آية التحويل للقبلة، والأمر المباشر به. وقد حف الأمر بمقدمة تضمنت إكرام النبي ﷺ والعناية به.

◈ معاني الآية:

- المراد بالشطر في قوله تعالىٰ: ﴿فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾: الجهة؛ لأن السياق في الأمر بالتوجه للكعبة في القبلة عموماً، وليس الأمر راجع إلىٰ التوجه إلىٰ عينها؛ لأن التوجه للعين غير ممكن علىٰ البعيد.

- المراد بالذين أوتوا الكتاب في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ﴾: علماء اليهود والنصارىٰ وأحبارهم. وذلك لأن سياق الآية وارد في بيان علمهم بأنه الحق، وهذا لا يحصل إلا للعلماء منهم والرؤساء.

- المراد بالضمير في قوله تعالىٰ: ﴿أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ﴾: التوجه إلىٰ البيت الحرام المفهوم من قوله تعالىٰ: ﴿فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.

البصائر والحكم

- مناسبة تحري النبي ﷺ للتوجه للبيت في قوله: ﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، ودلالة السياق عليه: لما نزل قوله ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾ وما بعدها من الآيات إلىٰ هذه الآية، وكانت موطئة للتحويل دالة علىٰ قربه، وليس

قرينة تدل عليه غير ذلك، فعلم ﷺ من ذلك أنه سيوجه إليها فترقب ذلك واشتاق إليه. فكان يتطلع لذلك، وهذا فيما أرىٰ أنسب الوجوه.

- التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿تَقَلُّبَ﴾: مفيد كثرة التردد والنظر والاطلاع الدال علىٰ شدة الرغبة والاشتياق إلىٰ نزول جبريل به، وفيه من كمال الأدب منه مع ربه مالا يخفىٰ، حيث لم ينطق به ولم يستعجل سؤال ربه، وإنما كان تطلعاً وترقباً له.

- قوله: ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾: حيث خص تقلبه بالسماء لأنها جهة نزول الوحي، وهذا فيه إعظام تقلب وجهه؛ لأن السماء مختصة بتعظيم ما أضيف إليها [(١)].

- مجيء قد التي تفيد التحقيق، والتعبير بالمضارع ﴿نَرَىٰ﴾ مع قد للدلالة علىٰ كمال العلم برغبته واشتياقه، وهو من كمال العناية والتشريف له.

- مجيء الوعد قبل الأمر في قوله تعالىٰ: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ لكمال العناية وتأكيد تحقيق الرغبة، ولذا أتىٰ بالفاء المعقبة المفيدة تأكيد الوعد بالصراحة.

- التعبير بقوله ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾ دون نوجهك: مفيد كمال العناية مع كمال التشريف؛ لأن التولية فيها معنىٰ القرب، ومنه الولاء [(٢)]،وفيه إشعار بتولي هذه الأمة أمر البيت وتولي عهده، وأنه سيكون قبلتهم دون غيرهم.

- قوله تعالىٰ: ﴿قِبْلَةً﴾: فيه بشارة للنبي ﷺ بأن أمر قريش قد قارب الزوال لأن ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾ مفيد معنىٰ التمكين.

- التعبير بقوله ﴿تَرْضَىٰهَا﴾ دون تحبها: مشعر بأن رضاه بها ناشئ عن خير ومصلحة؛ لأن الرضىٰ رغبة ومحبة ناشئة عن تعقل، ورضاه بها من جهة أنها قبلة

---

(١) انظر: «البحر المحيط» (١/ ٦١٣).

(٢) انظر: «التحرير والتنوير» (٢/ ٢٨).

أبيه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وقد اتبع ملته؛ ولأن التوجه إليها أدعىٰ للعرب إلىٰ الإيمان؛ لأنها مفخرتهم خاصة.

- تخصيصه بالأمر في قوله تعالىٰ: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ لأن النبي ﷺ المتشوف لأمر التحويل؛ ولأنه الأصل المتَّبَع، وفيه تشريف عظيم وتأكيد.

- تخصيص التولية بالوجه: لما أنه مدار التوجه[(١)]، والتعبير به دال علىٰ التشريف.

- وجه التسمية بالمسجد الحرام دون البيت: ليكون تأسيساً لهذا البيت علىٰ أنه أول مسجد في الإسلام؛ لأنه لم يكن يعرف بالمسجد في الجاهلية[(٢)].

- وجه تشريع التوجه للقبلة والأمر باتخاذها في الصلاة: فيه دلالة علىٰ التوجه إلىٰ الله تعالىٰ واستقباله الذي هو محض الخضوع له والتسليم، وتمييز الأمة المحمدية بقبلة خاصة، وذلك يورث شعوراً داخلياً بالاستقلال والاعتزاز والتفرد.

- وجه الإخبار بعلم أهل الكتاب به في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾: فيه تثبيت للمؤمنين؛ لأن علم أهل الكتاب به حجة عليهم فأراد الله تعالىٰ أن يظهره للمؤمنين.

- وجه التعبير بقوله ﴿أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾، ووجه علمهم به: دال علىٰ علمهم به من جهة الكتاب الذي عندهم والمراد بهم علماؤهم لقوله تعالىٰ: ﴿أُوتُوا۟﴾، وعلمهم به إما لعلمهم بصدق الرسول ﷺ المذكور في كتبهم، أو لعلمهم بأن عادته سبحانه جارية في تخصيص كل شريعة بقبلة[(٣)].

---

(١) انظر: «إرشاد العقل السليم» (١/ ٢٠٧).

(٢) انظر: «التحرير والتنوير» (٢/ ٢٩).

(٣) انظر: «البحر المحيط» (١/ ٦١٥).

- **قوله: ﴿لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾**: تنبيه علىٰ أنه يلزمهم اتباع الحق؛ لأنه وارد من ربهم الذي هو معتن بصلاحهم.

- **وجه ختام الآية بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾**: فيه إشعار لهم بأن الله لا يغفل عن أعمالهم، تحريكاً لهم بأن يعملوا بما علموا من الحق فالمؤمنون علموا من أمر الله لنبيه، وأهل الكتاب علموا من ذلك ومما أوتوه من الكتاب، ومواجهتهم بذلك تقتضي شدة الإنكار عليهم بمخالفته.

- **الآية فيها قراءتان** في قوله تعالىٰ: ﴿يَعْمَلُونَ﴾، فقرئ بالياء، وقرئ بالتاء[1].

والقراءة بالياء مناسبة في خطاب أهل الكتاب.

أما القراءة بالتاء فهي علىٰ أن الخطاب موجه للمؤمنين لأن أصل الخطاب موجه إليهم أول الآية، أو يوجه الخطاب للمنافقين لأنهم معدودون ظاهراً من المؤمنين، ويعلمون أنه الحق لجلوسهم مع علماء أهل الكتاب سراً[2].

- **في قوله تعالىٰ: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾**: إثبات عُلوِّ الله تعالىٰ؛ لأنَّ الرسولَ ﷺ كان يُقلِّب وجهَه في السَّماء؛ لأنَّ الوحي يأتيه من السَّماء.

- **أنَّ النَّظر إلىٰ السَّماء ليس سوءَ أدبٍ مع الله**؛ لقوله تعالىٰ: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، لكن لا يَنبغي للمصلِّي أن يرفع بصرَه إلىٰ السَّماء؛ لورود الوعيد الشَّديد به.

- **مراعاة الشَّريعة اجتماعَ المسلمين علىٰ وِجهةٍ واحدة**؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾؛ فالمسلمون في جميع أنحاء العالم يتَّجهون إلىٰ قِبلة واحدة.

---

(١) انظر: «البحر المحيط» (١/ ٦١٤). «حجة القراءات» (ص١١٦).

(٢) انظر: «تفسير المنار» (٢/ ٢٢).

- وجوب الانقياد للحقِّ إذا ظهرت آياته؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

◈ غرض الآية:

تأكيد عدم متابعة أهل الكتاب والإخبار باستمرار معاندتهم بعد بيان علمهم بأن القبلة حق[(١)].

البصائر والحكم

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ﴾: الإخبار عن سبب عدم اتباع اليهود للنبي ﷺ، وأنه عن مكابرة وعناد مع علمهم بما في كتبهم من نعته أنه علىٰ الحق[(٢)].

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾: مفيدة تنزيه النبي ﷺ والتأكيد عليه بعدم اتباع قبلتهم، وقطع أطماع أهل الكتاب[(٣)].

- وجه إفراد قبلتهم مع تعددها: إفراد القبلة مع أنهما قبلتان قبلة اليهود وقبلة النصارىٰ بدليل قوله بعد ذلك ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ لأنهما تشتركان في البطلان.

---

(١) انظر: «مفاتيح الغيب» (٤/ ١١٢).

(٢) انظر: «الكشاف» (١/ ٢٠٣).

(٣) انظر: «البحر المحيط» (١/ ٦١٨).».

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾: فيه تأنيس النبي ﷺ بأن هذا دأبهم في اختلافهم فيما بينهم، مع أنهم أهل كتاب واحد، مما يدل علىٰ بطلان أمرهم جميعاً[1].

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾: التشديد في عدم اتباع أمرهم بعد ذلك بما يفهم منه الأمر بمفاصلتهم التامة، ومخالفتهم في كل ماهم عليه.

- وجه تخصيص النبي ﷺ بالخطاب في: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ...﴾: كمال العناية به، فإن الله تعالىٰ يحذر نبيه من اتباع الهوىٰ أكثر مما يحذر غيره، تخصيصه أقوىٰ وأشد في تحذير أمته، وذلك لأن من العادة أن يوجه الأمر والنهي إلىٰ من هو أعظم درجة تنبيهاً للغير أو توكيداً.

- وجه الفرق بين هذه الآية وبين قوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾: أن الآية الأولىٰ سياقها في إبطال ملة اليهود والنصارىٰ جميعاً، ولهذا ناسب أن يأتي باسم الموصول الصريح في التعريف، وأما هذه الآية فسياقها في إبطال قبلة اليهود والنصارىٰ، وذلك تشريع فرعي، وأتىٰ بمن الابتدائية في قوله تعالىٰ: ﴿مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ لأن العلم الذي جاء فيها هو جزئي[2].

- التعبير عن ملتهم وقبلتهم بأهواء؛ لأن الهوىٰ اتباع أمر من غير رشد ولا تعقل، ولو حصل به ضرر، وهو دال علىٰ بطلان قبلتهم.

(١) انظر: «الكشاف» (١/ ٢٠٣).

(٢) انظر: «التحرير والتنوير» (٢/ ٣٨).

- في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡ﴾ إشارةٌ إلىٰ أنَّ من عرف الله تعالىٰ حقَّ معرفته، فمن المحال أن يرتدَّ، فإن قيل: فقد يوجد من يحصل له معرفة الله ثم يرتدُّ. قيل: إن الذي يقدَّر أنه معرفة، هو ظنٌّ متصوَّرٌ بصورة العلم، فأمَّا أن يحصل له العلم الحقيقيُّ ثم يعقبه الارتداد- فبعيد.

- أنَّ الظلم، والعدل، وغير ذلك مقْرُونٌ بالأعمال لا بالأشخاص؛ فليس بيْن الله تعالىٰ وبين أحدٍ من الخلق شيءٌ يُحابيه، ويُراعيه به؛ فكلُّ مَن خالفه فهو ظالم؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

- بيان أنَّ العلم حقيقةً هو علمُ الشريعة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾: فأتىٰ بـ﴿أل﴾ المفيدة للكمال، ولا شكَّ أنَّ العلم الكامل الذي هو محلُّ الحمْد والثَّناء هو العِلم بالشَّريعة.

- دلَّ قولُه تعالىٰ: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ علىٰ أنَّ توجُّه الوعيد علىٰ العلماء أشدُّ من توجُّهه علىٰ غيرهم.

- أنَّ الإنسان لا يُؤاخذ بالمخالفة إلَّا بعد قِيام الحُجة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾.

- التلطُّف في الخِطاب للرسول ﷺ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ فلو قُلت لرجل: أنت ظالم، لكان أشدَّ وقعًا من قولك له: أنت من الظالمين

- تحذير الأمَّة من اتِّباع أهواء غير المؤمنين؛ لقوله تعالىٰ ﴿إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فإذا كان الرسولُ ﷺ يُوصَف بالظلم لو اتَّبع أهواءَهم، فمَن دُونه مِن باب أَوْلىٰ.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦﴾

◈ غرض الآية:

بيان أصل علم أهل الكتاب بأمر القبلة وسبب كتمان بعضهم له، وهو معرفتهم للنبي ﷺ ووصفه في كتبهم.

◈ معاني الآية:

- **المراد بقوله تعالىٰ:** ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾: علماؤهم عامة ويدخل فيهم الذين آمنوا منهم؛ لأن السياق في إثبات علم أهل الكتاب ببيان أصل علمهم ومصدره وسبب إنكار بعضهم له، وهذا عام فيهم، ولما قال: ﴿وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ﴾، وذلك دال علىٰ أن فريقًا آخر منهم يقرون بالحق، وهو من آمن منهم.

- **المراد بالضمير** في قوله تعالىٰ: ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾: عائد علىٰ النبي ﷺ؛ لأن السياق في بيان أصل علمهم وسبب كتمان بعضهم للحق، وهو معرفتهم للنبي ﷺ ونعته في كتبهم؛ لأن الإقرار بالنبي ﷺ هو الأصل، وذلك أن مصدر علمهم بالقبلة ناتج عن وصف النبي ﷺ في كتبهم أنه يصلي إلىٰ قبلتين.

البصائر والحكم

- **وجه قوله** ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ﴾: لإثبات معرفتهم للحق وتأكيده، ولذلك صرح بقوله تعالىٰ: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ مع قرب ذكر علمهم في الآية قبلها.

- **وجه التعبير بقوله** ﴿آتينا﴾ **دون** ﴿أوتوا﴾: الإشادة بالذين آمنوا منهم وتشريفهم؛ لأن غالب ما يستعمل فيه اللفظ هو الإكرام والتشريف.

- وجه الالتفات إلىٰ الغيبة في قوله تعالىٰ: ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾ دون قوله ﴿يعرفونك﴾: للإشعار بأن معرفتهم له سابقة من حيث كونه مسطوراً في الكتاب عندهم، منعوتاً فيه بالنعوت التي منها أنه يصلي إلىٰ قبلتين[1]، وفي إضماره تفخيم وإشعار بأنه لشهرته يكفي الإشارة إليه[2].

- وجه قوله ﴿كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾: دال علىٰ يقينهم التام به لجمعهم بين المشاهدة والمسطور. وإنما شبهه بمعرفة الأبناء؛ لأن معرفة الأبناء لا يمكن أن يرد عليها شك، ولا يمكن إنكارهم.

﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١٤٧﴾

◈ غرض الآية:

تقرير الحق للنبي ﷺ والمؤمنين وتأكيده وتحقيقه، وتحذيرهم من الشك فيه بعد ذلك.

البصائر والحكم

- مناسبة قوله ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾: تحقيق اليقين بأنه الحق، تأكيداً وتثبيتاً عليه.

- وجه قوله ﴿مِن رَّبِّكَ﴾: لإظهار كمال العناية واللطف به.

- وجه النهي في قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾: مفيدة زيادة تحقيق للأمر، وأنه بدرجة لا يشك فيه ناظر؛ ولذلك أكد النهي بنون التوكيد المشددة مبالغة في النهي.

---

(١) انظر: «إرشاد العقل السليم» (١/ ٢٠٩).

(٢) انظر: «الكشاف» (١/ ٢٠٤).

- **وجه التعبير بقوله ﴿مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾:** أبلغ من النهي عن كونه ممتريـًا؛ لأن النهي عن كونه ممتريـًا نهي عن التباسه بالامتراء، والنهي عن كونه من الممترين نهي عن كونه متصفـًا بالصفة بعمومها [(١)].

- **وجه التعبير بالامتراء دون الشك:** لأنه أدق من الشك، فالمقصود أدنىٰ أنواع الشك، وهو أنسب للغرض الذي هو كمال اليقين بالحق والتزامه، المؤدي إلىٰ إزالة الشك كله.

- **أنَّ كلَّ شيء خالَف ما جاء عن الله تعالىٰ، فهو باطل؛** لقوله تعالىٰ: ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾.

- **تقوية الرَّسول ﷺ علىٰ ما هو عليه من الحقِّ - وإنْ كتَمه أهل الكتاب-؛** لقوله تعالىٰ: ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾.

-**عِناية الله سبحانه وتعالىٰ بالرَّسول ﷺ بِذِكره بالربوبيَّة الخاصَّة؛** لقوله تعالىٰ: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾.

-**أنَّه قد يُنهَىٰ عن الشيء مع استحالة وقوعه؛** لقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾؛ فإنَّ النبي ﷺ لا يمكن أن يكونَ من الممترين.

- **عِناية الله سبحانه وتعالىٰ بالرَّسول ﷺ بالتثبيت؛** لأنَّ قوله تعالىٰ له: ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ يَقتضي ثباته عليه؛ وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ يَقتضي استمرارَه علىٰ هذا الثَّبات، ولا شكَّ أنَّ في هذا من تأييد الرسول ﷺ، وتثبيتِه ما هو ظاهِر.

---

(١) انظر: «البحر المحيط» (١/ ٦٣٢).

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾

◈ غرض الآية:

تذييل جامع لمعان سامية، طياً لبساط المجادلة مع أهل الكتاب في أمر القبلة، بعد أن بين للمسلمين فضيلة قبلتهم وأثبت أنها الحق، وبين علم أهل الكتاب بها وإعراضهم عنها[١].

◈ معاني الآية:

- الضمير في قوله تعالىٰ: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾: راجع إلىٰ ﴿لكل﴾، لأن السياق في ذكر القبلة وموقف أهل الكتاب منها، والمقصود هو الأمر بتركهم علىٰ ما هم عليه، والتزام أمر القبلة والثبات عليه، فكونه راجع إلىٰ الناس أولىٰ.

البصائر والحكم

- وجه التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿مُوَلِّيهَا﴾: يفيد معنىٰ متوليها من الولاية الدال علىٰ الرضىٰ والاختيار والاتباع، وفي هذا إشعار للمؤمنين بزيادة التمسك بالتوجه للبيت لأنه صار خاصاً بهم.

- مناسبة الأمر بقوله تعالىٰ: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾: لما بيّن أن لكل أمة وجهة يتولونها، وكانت أمة الإسلام متوجهة إلىٰ الكعبة وهي القبلة الحق التي خصهم الله بها، ناسب أن يأمرهم بالاستباق إليها.

- وجه التعبير بالخيرات: للدلالة علىٰ أن ماهم عليه هو الخير كله، وهو سبب لحصول الخيرات لهم وهو ماوقع.

---

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (٢/ ٤٢).

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾: مؤكد ثاني لالتزام الحق، والاستباق إليه.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

◈ غرض الآيتين:

غرض الآية الأولىٰ الأمر بالتوجه للبيت الحرام في جميع الأماكن، وأنها القبلة المعتبرة في كل مكان، وذلك نسخ صريح لغيرها.

غرض الآية الثانية التأكيد علىٰ تعميم الأمر باستقبال القبلة علىٰ أي حال وفي أي مكان قطعاً لشبهة المكذبين.

◈ معاني الآية:

- **المراد بالناس** في قوله تعالىٰ: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾: أي: عموم الناس؛ لعموم اللفظ؛ ولأن الآية واردة في بيان الحكمة من تشريع القبلة وتعميمها والتأكيد عليها وإثبات أنها الحق قطعاً لحجة المعترضين.

- **المراد بالذين ظلموا** في قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ ونوع الاستثناء فيه: الاستثناء هنا متصل، والمعنىٰ فيه ظاهر؛ فإنه استثناء من الناس[1]، وهو الذي يدل عليه السياق ظاهراً.

(١) انظر: «الكشاف» (١/ ٢٠٦).

البصائر والحكم

- وجه تكرار قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾: هذا التكرار والإعادة وارد لمقصد مختلف عما قبله، فالأمر في الآية الأولىٰ لبيان أن تشريع التعميم هو الحق كما أن تشريع التوجه للكعبة قبله هو الحق، والأمر في الآية الثاني أمر بشمول التوجه لجميع الأحوال والأماكن[1].

- وجه انتفاء حجة المعارضين بعد تشريع استقبال القبلة: لأن توجه المسلمين إلىٰ بيت المقدس كان فيه حجة للمشركين واليهود، فأما المشركون فحجتهم أنه ﷺ يدعي ملة إبراهيم ويخالف قبلته، فاستقباله للكعبة قطع لحجتهم، وأما اليهود فحجتهم قولهم: يخالفنا محمدٌ في ديننا ويتّبع قبلتنا[2].

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾: التأكيد علىٰ بطلان احتجاجهم بعد هذا البيان التام، فهو تنبيه بعد بيان، تثبيتًا للمؤمنين ولذلك قال بعدها ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي﴾ أي لا يضيركم كيدهم.

- قوله ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي﴾: إشعار ووعد بانتهاء أمر الظالمين، وتمكن دين الإسلام، وتوجيه للمؤمنين بأن كيد عدوهم لن يضرهم فلا يهمهم أمرهم.

- قوله تعالىٰ: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾: المقصود بإتمام النعمة ابتداءً؛ الهداية للقبلة وتخصيصهم بالبيت، ثم إتمام النعمة بجميع الدين كما تحتمله لام التعليل في قوله تعالىٰ: ﴿لأتم﴾.

- وجه ختم الآيات بقوله ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾: إشارة وبشارة للنبي ﷺ والمؤمنين بفتح مكة بعد إكرامهم بالتوجه إليها في القبلة، وانتصار الإسلام وتمكنه، والامتنان بكمال هدايتهم المتضمن كمال دينهم.

---

(١) انظر: «تفسير المنار» (٢/ ٢٤).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٢/ ٦٨٢).

- **تكرار الأمر الهام؛** لتثبيته والثبات عليه، ودفْع المعارضة فيه، وبيان أهميَّته؛ لأنَّه كلَّما كُرِّر كان مقتضاه أنَّ الأمر ثابتٌ مُحكَم يجب الثبوت عليه؛ وذلك لأنَّ الله تعالىٰ كرَّر الأمر باستقبال القِبلة في عِدَّة آيات.

- **في قوله تعالىٰ:** ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ردٌّ علىٰ الجَبريَّة بإضافة العَمل إلىٰ الإنسان.

- **دفْع ملامة اللائمين ما أمكَن؛** لقوله تعالىٰ: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾.

- **أنَّ الظالم لا يَدفع ملامتَه شيء،** بمعنىٰ: أنَّه سيلوم وإنْ لم يكُن ثمَّة محلٌّ للوم؛ لقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾.

- **أنَّ تنفيذ أوامر الله، وخشيته سببٌ للهداية بنوعيها:** هداية الإرشاد؛ وهداية التوفيق؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

- **في قوله تعالىٰ:** ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إثبات حِكمة الله سبحانه وتعالىٰ.

﴿(١٥٠) كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١)﴾

◈ غرض الآية:

الامتنان علىٰ المؤمنين برسالة النبي ﷺ بعد الامتنان عليهم بالقبلة، لإتمام النعمة عليهم وكمال هدايتهم بهما جميعاً.

◈ معاني الآية:

- **متعلق الكاف في قوله تعالىٰ:** ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ﴾: متعلقة بإتمام النعمة، وأن التشبيه واقع بين تشريع القبلة واختيارها لهم وبين بعث الرسول ﷺ فيهم واختياره منهم بجامع أن ذلك كله لإتمام النعمة عليهم

بكمال دينهم وهدايتهم؛ لأن السياق وارد في شأن القبلة وبيانها وأن ذلك من كمال العناية بالأمة.

البصائر والحكم

- مناسبة قوله تعالىٰ: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ﴾: إظهار الامتنان عليهم بماهو سبيل إتمام نعمة الله عليهم.

- وجه التعبير بقوله: ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ وتعليقه بحرف الظرفية في قوله ﴿فِيكُمۡ﴾:
التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ بنون العظمة مفيد كمال التشريف لهم، وهو من الامتنان، علق الفعل بحرف الظرفية في قوله ﴿فِيكُمۡ﴾ دون حرف ﴿إلىٰ﴾؛ لأن المقام هنا مقام امتنان فناسب أن يذكر ما به تمام المنة وهي أن جعل رسولهم فيهم[(١)].

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ﴾: لزيادة الامتنان؛ لأن كل صفة تتضمن نعمة خاصة، فـ ﴿يتلو عليكم آياتنا﴾ تتضمن النعمة الأولىٰ، وهي الامتنان بنعمة القرآن، وقوله ﴿ويزكيكم﴾ تتضمن النعمة الثانية، والمقصود بها تطهير نفوسهم وتهذيبها من الشرك والضلال والفساد ونحوه.

- وجه تقديم التزكية: لأن السياق في الامتنان عليهم، بيانـًا لكمالهم بهذا الرسول، وفي مجي التزكية بعد التلاوة إشارة إلىٰ أن تلاوة القرآن من أعظم أسباب التزكية، كما يدل عليه قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾ [الأنفال ٢].

- وجه التعبير بالكتاب: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾: المراد بالكتاب القرآن، وسماه أولاً آيات باعتبار كونه معجزاً، وسماه ثانيـًا كتابـًا باعتبار

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (٢/ ٤٨).

كونه كتاب شريعة. فهو متضمن لذلك كله، وهذا من كمال الامتنان عليهم.

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾: لبيان أن العلم لا يحصل إلا عن طريق الوحي.

- أنَّ كون الرَّسول ﷺ مِنَّا يَقتضي أنْ تكون قريش أوَّل مَن يُصدِّق به؛ لأنَّهم يعرفونه، ويَعرِفون نَسبَه، ويَعرِفون أمانته؛ ولهذا وبَّخهم الله تعالىٰ على الكُفر به، ووصْفِه بالضَّلال، والجُنون، فقال جلَّ وعلا: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ النجم: ٢، وقال جلَّ وعلا: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ التكوير: ٢٢.

- أنَّ الرَّسول ﷺ علَّم الأمَّة لفظَ القرآن، ومعناه؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾؛ ولهذا كان الصَّحابةُ رضي الله عنهم إذا استشكلوا شيئًا من المعنىٰ، سألوه، فعلَّمهم، ولكن الغالب أنَّهم لا يَستشكلون؛ لأنَّه نزَل بلُغتهم، وفي عصرهم، يَعرِفون معناه، ومَغزاه، وأسبابه.

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ١٥٢﴾

◈ غرض الآية:

كمال عناية الله تعالىٰ ورعايته لهذه الأمة بأن يذكرهم إذا ذكروه وعرفوا نعمته، وهو تحريض جميل للمؤمنين علىٰ ذكر الله تعالىٰ بالثناء عليه والطاعة له.

◈ معاني الآية:

- المراد بالذكر في قوله تعالىٰ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾: اذكروني علىٰ كل حال وفي كل وقت أذكركم بمثل ذلك؛ لأن السياق في الامتنان علىٰ المؤمنين بتشريع القبلة وتعمييمها إتمامًا لدينهم وكمالاً لهدايتهم، فكان الأولىٰ أن يفسر الذكر هنا بالعموم لمناسبة السياق قبله.

البصائر والحكم

- وجه قوله ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾: بيان وجوب الاعتراف بالنعمة ومنها نعمة ولايتهم البيت وبعثة الرسول إليهم، وذلك باعث علىٰ استدامتها، وهو وعد من الله تعالىٰ بولايته لهم وإكمال دينهم.

- قوله: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ﴾: ذكر نعمته وعظيم منته كما دل عليه الامتنان عليهم في أول الآية، ويدل عليه قوله بعده ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾.

- قوله: ﴿أَذۡكُرۡكُمۡ﴾: ذكره تعالىٰ بولايته لهم ورضاه عنهم وتوفيقهم وجزاؤهم بالحسنىٰ وغير ذلك.

- وجه قوله: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾ ولم يقل: ﴿اشكروني﴾: لأن الأولىٰ أفصح وأبلغ مع الشكر، وهذا ما يقتضيه السياق الذي تضمن كمال الامتنان عليهم.

- قوله: ﴿وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾: أي: كفر النعم بدلالة السياق وإنما قابل الأمر بالشكر بالنهي عن الكفر بقصد التأكيد ودوام ذلك؛ لأن الفعل في سياق النهي يعم.

- وجوبُ الشُّكر؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِي﴾؛ و(الشُّكر)يكون بالقلب، وباللِّسان، وبالجوارح؛ ولا يكون إلَّا في مقابلة نِعمة.

- تحريم كفر النعمة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾ ولهذا إذا أنعم الله علىٰ عبده نعمة، فإنه يحبُّ أن يرىٰ أثر نعمته عليه.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣
وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ ١٥٤
وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ
وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ
١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ
١٥٧ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا
جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٥٨ ﴾

(البقرة: ١٥٣ – ١٥٨)

سياق هذه الآيات وارد في توجيه الأمة لما يستعان به على القيام بالدور العظيم الذي كلفها الله به بعد تشريع القبلة وتشريفها به، وهو الاستعانة بالصبر والصلاة، والاستعداد للتضحيات والابتلاءات التي يتطلبها هذا الدور.. في مقابل رضا الله ورحمته وهدايته، وكل ذلك تهيئة وتمهيد لتلقي التشريع وتكاليفه الذي ستفصله الآيات بعد ذلك.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣ ﴾

◈ غرض الآية:

توجيه المؤمنين وأمرهم بما يكون معيناً علىٰ قيامهم بالحق الذي شرعه لهم، وتهيئة لهم لما سيلاقونه من الشدائد والمصائب والبلاء بسبب دينهم.

البصائر والحكم

- قوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾: ابتداء الأمر بهذا النداء إشعار بعظم الأمر وأهميته والتأكيد عليه، وهو دال على كمال العناية بهم لإرشادهم وتوجيههم لما فيه كمال دينهم وهدايتهم.

- وجه افتتاح الأمر بالاستعانة بالصبر والصلاة: إشعار بأنه سيُعقب بعمل عظيم وبلوىٰ شديدة عليهم، وذلك تهيئة للجهاد؛ ولعل ذلك إعداد لغزوة بدر؛ لأنها كانت بعد التحويل بنحو شهرين[(١)].

- وجه تخصيصهما: لما فيهما من المعونة الظاهرة علىٰ العبادات وتحمل المشقات.

- وجه ختام الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾: لأن المقام في ذكر التكليف بعد التشريف والبلاء بعد النعمة فاحتاج إلىٰ زيادة تأكيد علىٰ الصبر وتعليله[(٢)].

- قرَن الله تعالىٰ بين الصَّبر والصَّلاة في قوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾؛ لأنهما عونانِ علىٰ مصالحِ الدنيا والآخِرة، وذَكَر الصبر ثُم الصلاة؛ لأنَّها تُعين علىٰ الصَّبر .

- أنَّ في جزاء الصَّبر المذكور تنشيطًا علىٰ الأعمال، والثَّبات عليها؛ لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾؛ فإذا آمَن الإنسانُ بأنَّ الله معه، ازداد نشاطًا، وثباتًا.

---

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (٢/ ٥٢).

(٢) انظر: «إرشاد العقل السليم» (١/ ٢١٣).

﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

◈ غرض الآية:

التهيئة للجهاد، وتحفيز المؤمنين إليه، والصبر عليه.

البصائر والحكم

- وجه تخصيص القتل في سبيل الله: لأنه أعظم ما يحتاج إلىٰ الصبر؛ ولأنهم مقبلون عليه بما سيلاقونه من أعدائهم؛ ولأن في ذكر الشهادة أعظم داع ودافع لهم للجهاد.

- مجيء الآية علىٰ صيغة النهي مشعرة بوقوع ذلك منهم، وقد ورد في الآية سبب نزول يفيد وقوع ذلك كما ذكره الواحدي قال: (نزلت في قتلىٰ بدر من المسلمين، وكانوا بضعة عشر رجلاً، وذلك أن الناس كانوا يقولون للرجل يقتل في سبيل الله، مات فلان وذهب عنه نعيم الدنيا ولذتها، فأنزل الله الآية)[1].

- وجه تخصيصهم بالحياة في قوله: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾، مع أن جميع الأموات أحياء في قبورهم: المراد بالحياة: حياة البرزخ لقوله بعدها ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾، وخصهم بالحياة مع أن جميع الناس يحيون في قبورهم؛ لأن المراد هنا حياة خاصة وهي حياة النعيم والرزق[2].

- التَّنبيه علىٰ الإخلاص في القِتال؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

- أنَّ ثوابَ الله سبحانه وتعالىٰ للعامل أجَلُّ وأعلىٰ؛ وذلك لأنَّ الشهيدَ عرَّض نفسه للموت ابتغاءَ ثواب الله، فأثابَه الله تعالىٰ بأنْ جعلَه حيًّا بعد موته حياةً برزخيَّةً أكملَ من حياة الدنيا؛ لقوله تعالىٰ: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾.

---

(١) انظر: «أسباب النزول للواحدي» (ص ٤١).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٢/ ٧٠١).

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ
وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾

◈ غرض الآيتين:

ذكر أنواع المصائب التي سيبتلىٰ الله بها المؤمنين، ولهذا قال: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم ﴾.

◈ معاني الآيتين:

- **الخطاب في قوله: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ ﴾:** الخطاب ابتداءً موجه للصحابة، ثم للأمة بعدهم؛ لأن السياق وارد في أمرهم بالصبر والجهاد بعد آيات تحويل القبلة، استعداداً للجهاد وصبراً علىٰ الدين، تثبيتاً لهم وحثاً علىٰ التضحية في سبيله، وأما توجهه للأمة فظاهر من النداء العام قبل ذلك وهو قوله ﴿ياأيها الذين آمنوا﴾.

- **المراد بالخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات الواردة في الآية:** الآية دالة بظاهرها علىٰ العموم، والعموم محتمل. ولكن الابتلاء في ذلك علىٰ درجات. فالابتلاء بسبب الدين عامة أعظم وأولىٰ، والابتلاء بذلك بسبب الجهاد أعظم من الأمرين وأشد؛ لأن سياق الآيات وارد في الصبر بعد آيات تحويل القبلة، استعداداً لجهاد أعدائهم وصبراً علىٰ ما يصيبهم بسبب ذلك، تثبيتاً لهم وحثاً علىٰ التضحية في سبيله.

البصائر والحكم

- **وجه الإخبار بقوله ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم ﴾:** تهيئة لهم وتثبيتاً لدينهم وتمييزاً للمؤمن من المنافق.

- **وجه قوله: ﴿بِشَيْءٍ﴾:** ليعلموا أن ذلك شيء يسير مقابل ما وقاهم منه، ولهذا قال ﴿بِشَيْءٍ﴾ تهوينٌ له وتحقيرٌ وتقليلٌ.

- **وجه تخصيص هذه الأمور الأربعة: ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ ...﴾:** لكونها متعلقة بالجهاد، فإن أعظم الخوف هو خوف العدو، وما بعده يقع بسبب الانشغال بأمر الجهاد.

- **وجه الترتيب بينها:** علىٰ سبيل الترقي في سبيل ما سيقع لهم في ابتلائهم بسبب دينهم وعداوة الناس لهم، فبدأ بالخوف لأن المقصود خوفهم من عدوهم،وهو مايقع عادة في أول الأمر، ثم الجوع وهو أشد من الخوف؛ لأنه مباشر فيهم، ثم نقص الأموال والأنفس والثمرات بسبب القتال.

- **وجه ختم الآية بقوله ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾:** تحفيز عظيم علىٰ الصبر، ولهذا جاء التبشير علىٰ لسان النبي ﷺ، وعبّر بلفظ التبشير، وأطلق لفظ الصابرين، مبالغة في تحفيز المؤمنين وتعلقهم به، وهذا من لطائف الخطاب القرآني.

- **وجه نعت الصابرين وبيان أوصافهم:** للدلالة علىٰ كمال صبرهم، وللإرشاد إلىٰ فعل ذلك عند المصيبة، وهذا من كمال العناية بهم.

- **مناسبة قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾:** دلالة علىٰ كمال صبرهم ويقينهم؛ ولهذا عقبه بكمال الجزاء لهم.

- **قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾:** ليس المقصود به القول المجرد، وإنما المراد به القول المطابق للاعتقاد؛ إذ الكلام في الصبر، والصبر منشأه القلب.

- **قوله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾:** متضمن إقرارهم بالعبودية وتفويض الأمور إليه والرضا بقضائه فيما يبتليهم به.

- **قوله: ﴿وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾:** متضمن الإقرار بالبعث، وهو مفيدٌ كمال اليقين بالجزاء.

- **إرشادهم لقول ذلك مع الوصية بالصبر فيه فائدة نفيسة،** وهي أن الاعتقاد يقوىٰ بالتصريح؛ لأن استحضار النفس للمدركات المعنوية ضعيف يحتاج إلىٰ

التقوية بشيء من الحس؛ ولأن في ذلك إعلانًا لهذا الاعتقاد[1].

- في قوله تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ... أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞ﴾: أنَّ للعبد من الصلوات والرحمة بقَدْر ما له من تحقيق الصَّبر، وهكذا كلُّ وصْف رُتِّب عليه خيرٌ وأجرٌ وثواب، وكلُّ وصفٍ نَهىٰ الله عنه ورتَّب عليه وعلىٰ الاتِّصافِ به عُقوبةً وشرًّا ونقصًا؛ لأنَّ الحُكم المعلَّق علىٰ وصْف يَزيد بزيادته، ويَنقُص بنُقصانه.

- اشتملتِ الآيتان من قوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ﴾.... إلىٰ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾: علىٰ توطين النُّفوس علىٰ المصائب قَبل وقوعها؛ لتخفَّ وتسهُل إذا وقعَتْ، وبيان ما تُقابَل به، وهو الصَّبر، وبيان ما يُعين علىٰ الصَّبر، وما للصَّابر من الأجْر.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾

◈ غرض الآية:

بيان جزاء الصابرين بعد بيان وصفهم. تحفيزاً وحثًا للمؤمنين علىٰ تحقيق تلك الصفات لتحقيق جزائها.

◈ معاني الآية:

- المراد بالصلوات في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾: المغفرة والثناء الحسن؛ لأن سياق الآية في الجزاء وهو جزاء الصابرين لقوله ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فالأولىٰ أن يشمل المغفرة، ولأن الصلوات اقترنت بالرحمة، واقتران المغفرة بالرحمة في القرآن كثير.

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (٢/ ٥٧).

البصائر والحكم

- وجه الإتيان باسم الإشارة: للتنبيه علىٰ أن ما بعده من الجزاء العظيم مترتب علىٰ الاتصاف بجميع الصفات السابقة، وفي هذا مبالغة في التحفيز والحث علىٰ الاتصاف بها.

- التعبير بقوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ﴾ دون ﴿لهم﴾: إشارة إلىٰ أنهم منغمسون في ذلك، قد غشيتهم وتجللتهم، وهو أبلغ من قوله لهم[1].

- وجه التعبير بالصلوات: مبالغة في كمال الرضىٰ منه سبحانه وحسن منزلتهم وثوابهم عنده، ولهذا اقترنت بالرحمة المؤكدة لذلك.

- تقديم: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ علىٰ ﴿صَلَوَٰتٞ﴾: دال علىٰ خلوص تزكيته لهم وثنائه عليهم، فهو سبحانه خصهم بذلك دون سواهم.

- وجه اقتران الصوات بوصف الربوبية في قوله: ﴿مِّن رَّبِّهِمۡ﴾: لإظهار مزيد العناية بهم، وليدل علىٰ أنها تنشأ وتبتدئ منه سبحانه لا من غيره. وأتىٰ بلفظ الرب لما فيه من دلالة التربية، والنظر البعيد فيما يصلحه ويربيه به[2].

- وجه قوله ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾: بيان كمال اهتدائهم بكمال صبرهم علىٰ ما ذكره؛ لأن الصبر هاد إلىٰ بلوغ المراتب العالية، ولذلك أتىٰ باسم الإشارة للبعيد للدلالة علىٰ بعد منزلتهم، وأعاد اسم الإشارة لإظهار كمال العناية بهم.

(١) انظر: «البحر المحيط» (١/ ٦٤٤).
(٢) انظر: «البحر المحيط» (١/ ٦٤٤).

﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ ﴾

◈ غرض الآية:

هذه الآية مستقلة بنزولها متصلة في سياقها بسياق آيات القبلة وتحويلها. فسياق الآية وارد في رد الاضطراب والشبهة الواردة في شأن الصفا والمروة، بعد رد الاضطراب والشبهة في شأن البيت؛ إتماماً للنعمة علىٰ الأمة بوراثة البيت وما يتعلق به، وقطعاً لحجة الظالمين وتثبيتاً للمؤمنين، وتمهيداً لتشريع الحج.

◈ معاني الآية:

- **حكم السعي بين الصفا والمروة:** هذه المسألة ليست نصاً في الآية، وإنما أوردتها لأن بعض العلماء استدل بها علىٰ عدم وجوب السعي، وهو فرض واجب، والأدلة من السنة علىٰ ذلك كثيرة، والآية تدل صراحة أنهما من شعائر الله تعالىٰ، وتسميتهما بذلك دال علىٰ وجوبهما.

- **المراد بالتطوع** في قوله ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾: أي: ومن تطوع بالحج والعمرة بعد قضاء حجته الواجبة عليه؛ لأن سياق الآية في بيان أمر الصفا والمروة ورفع الحرج الواقع في الطواف بينهما. فالأولىٰ أن يكون المعنىٰ متعلقاً بذلك.

البصائر والحكم

- **وجه كون الصفا والمروة من شعائر الله دون السعي بينهما:** لأنهما الأصل في السعي والعلامة له.

- **وجه تقديم الصفا على المروة:** دال على أنه موضع البدء بالطواف، ولهذا قال ﷺ: «أبدأ بما بدأ الله به»[1].

- **وجه قوله:** ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾: دليل على أن الطواف بهما ليس عبادة مستقلة، وإنما يكون عبادة إذا كان داخلاً في حج وعمرة لقوله: ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ﴾[2]، وهو دال على عدم مشروعية الطواف بهما استقلالاً.

- **وجه التعبير بقوله** ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾: جاء لإفادة إباحة الطواف لمن كان تحرج منه في الجاهلية أو لوجود الأصنام، بل الآية دالة على تشريعه ووجوبه بالإخبار عنهما بأنهما من شعائر الله.

- **التعبير بلفظ الجُناح** فيه معنى لطيف يدل السياق عليه وهو راجع إلى معنى الجناح في اللغة، فالجناح لغة

هو الميل ولهذا قال الله: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١][3]، والسياق في التحرج من السعي بين الصفا والمروة لكونها قبل من شعائر الجاهلية، خوفاً من أن يكون في سعيهم بينهما ميل لأهل الشرك وعملهم فيقعون في الإثم، ويحيدون عن الحق الذي هداهم الله إليه.

- **وجه قوله** ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾: الحث والمبادرة؛ لأن الطوع هو ما ترغب به النفس مما لا يجب[4]، والتعبير بالخير فيه مزيد ترغيب.

---

(١) أخرجه مسلم ٢/ ٨٨٦ برقم ١٢١٨ وأبو داود ١/ ٥٨٥ برقم ١٩٠٥

(٢) انظر: «البحر المحيط» (١/ ٦٥١).

(٣) انظر: «مفاتيح الغيب» (٤/ ١٤٤).

(٤) انظر: «مفاتيح الغيب» (٤/ ١٤٦).

- **وجه ختم الآية بقوله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾، ومناسبة الوصفين للسياق:** الترغيب والحث على الزيادة منه، والإتيان بالوصفين مناسب من جهة أن التطوع بالخير يتضمن الفعل والقصد؛ فناسب ذكر الشكر باعتبار الفعل، وذكر العلم باعتبار القصد [1].

- **وجه مقابلة عملهم بالشكر منه تعالىٰ:** دال علىٰ عظيم منته وكرمه وعنايته بعباده، وهو من تمام نعمته وكمال هدايته.

- **دلَّ تقييدُ التطوُّع بالخير** في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ علىٰ أنَّ مَن تطوَّع بالبِدع، التي لم يَشرَعْها الله ولا رسولُه، أنَّه لا يحصُل له إلَّا العناءُ، وليس في هذا التطوُّع خيرٌ له، بل قد يكون شرًّا له، إنْ كان متعمِّدًا، عالِمًا بعدم مشروعيَّة العمل.

(١) انظر: «البحر المحيط» (٢/ ٦٥٣).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ
لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ
تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ
أَجۡمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾

البقرة: ١٥٩ – ١٦٢

سياق الآيات يدور حول الوعيد والتحذير من كتمان الحق بعد بيانه وتوضيحه، تمكيناً وتحقيقاً للأصول التي أقرها وبيّنها ومنها القبلة، وتمهيداً لبيان التشريع وتفصيله.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي
ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ
وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾

◈ غرض الآيتين:

الوعيد علىٰ الكتمان للحق بعد بيانه وتحقيقه وهداية المؤمنين إليه.

◈ معاني الآيتين:

- من هم الموصوفون في الآية: المقصود ابتداءً اليهود وعيداً، ثم هي عامة، وتشمل المؤمنين تحذيراً؛ لأنه قد سبق في السورة ذكر بني إسرائيل وبيان كتمانهم للكتاب والحق، فكان موقع الآيات مناسباً لذكر عقابهم بعد ذكر حالهم.

- **المراد باللاعنين:** هم الملائكة والمؤمنون؛ لأن الله تعالىٰ قد بيّن في الآية الثانية صريحاً بأن اللعن من الله والملائكة والناس أجمعين، فتكون الآية الثانية مفسرة للأولىٰ، وإنما أجملها في الأولىٰ -والله أعلم- لتكون أبلغ في التغليظ، فيذهب الذهن في احتمال كل أحد.

البصائر والحكم

- **وجه مناسبة اللعن للكتمان:** لأن فعلهم الشنيع بكتمان الحق بعد تبيينه وتوضيحه يستحق الغضب الشديد المؤدي إلىٰ اللعن والطرد عن الرحمة؛ لأن الغضب ضد الرحمة، فاستحقوا بذلك أعظم العقاب [1].

- **التعبير بـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:** تنبيه علىٰ بُعد وصفهم وفعلهم في القبح، وأبرز لفظ الجلالة المفيد للتعظيم والإشعار بشدة العقاب [2].

- **وجه تكرار فعل ﴿يَلۡعَنُهُمُ﴾:** أن في ذلك توكيداً للعقاب وتعظيماً له، ولاختلاف معنىٰ اللعنين، فإن اللعن من الله الإبعاد عن الرحمة، واللعن من البشر الدعاء عليهم بأن يبعدهم الله عن رحمته [3].

- **إتيان ﴿يَلۡعَنُهُمُ﴾ بصيغة المضارع:** إتيانه بصيغة المضارع المقتضي للتَّجدد؛ لتجدد مايقتضيه، وهو قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ﴾ فكتمانهم مستمر؛ فكان الجزاء من جنس العمل.

- **وجه ذكر لعنة اللاعنين مع لعنة الله:** لأن كتمانهم ما أنزل الله تعالىٰ تعدٍ علىٰ الله وعلىٰ المؤمنين، فهو كتمان لما أنزل الله من الحق، وكتمان عن المؤمنين

---

(١) «البحر المحيط» (٢/ ٧٠).

(٢) انظر: «إرشاد العقل السليم» (١/ ٢١٦).

(٣) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٣٧١).

ما يبين لهم الحق والهدىٰ، وبيان أن جميع من يعلم من العوالم العلوية والسفلية يراهم محلاً للعنة الله ومقته[1].

- مناسبة قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ ..﴾: لما كان السياق في الوعيد ناسب أن يتبعه بالوعد، حيث فتح لهم باباً للتوبة بعد الحكم عليهم باللعنة، وفي ذلك ترغيب لهم، وحث علىٰ الإيمان وعدم الكتمان.

- ختم الآية بقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾: مفيد تحقيق مضمون ما قبله والمبالغة في تأنيسهم وترغيبهم، حيث أسند إلىٰ ذاته تعالىٰ فعل التوبة الذي أسنده إليهم.

- وجه اشتراط الإصلاح والبيان بعد التوبة: قال ابن عاشور: «وإنما زاد بعده ﴿وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟﴾ لأن شرط كل توبة أن يتدارك التائب ما يمكن تداركه مما أضاعه بفعله الذي تاب عنه»[2].

- قُبْح هذا الكِتمان الذي سلَكه المذكورون في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾؛ لأنَّه كتمانٌ بعدَ بيان؛ فليس لهم أن يقولوا: (لم نتكلَّم؛ لأنَّ الأمر مشتبهٌ علينا)؛ فالإنسان الذي لا يَتكلَّم بالشيء لاشتباه الأمْر عليه قد يُعذر، لكن الذي لا يَتكلَّم مع أنَّ الله بيَّنه للناس يكون هذا أعظمَ قُبحًا.

---

(١) انظر: «تفسير المنار» (٢/ ٥٣).

(٢) «التحرير والتنوير» (٢/ ٧٢).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٦١ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ١٦٢﴾

◈ غرض الآيتين:

بيان الحكم عليهم بالكفر واللعنة والعذاب يوم القيامة بسبب إصرارهم، مبالغة في التنفير والتحذير من الكتمان.

◈ معاني الآيتين:

- الموصوفون في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ﴾: العموم ظاهر في الآية؛ لأن لفظ الكافرين يعم؛ ولأن الكافرين جميعاً كاتمون للحق مكذبون به؛ إلا أن أولىٰ من يدخل فيهم المصرون من الذين يكتمون ما أنزل الله؛ لأنه سبق وعيدهم في الآية قبلها، وأما تسميتهم كفاراً؛ فلأن إصرارهم علىٰ الكتمان وعدم توبتهم، مستلزم لكفرهم الصريح[(١)].

- المراد بالناس في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾: المراد بهم جميع الناس المؤمنون والكفار، وذلك يوم القيامة[(٢)]، ويشهد لذلك أيضاً قوله تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا﴾ [العنكبوت ٢٥]، فالآية نصت في لعن الكافرين بعضهم لبعض يوم القيامة.

البصائر والحكم

- وجه التعبير بالكفر دون الكتمان: يفيد الحكم عليهم بذلك بعد كتمانهم مع بيان جزائهم، وفيه زيادة وعيد وتهديد لهم وتغليظ عليهم؛ ولذا أعاد اللعنة عليهم وبالغ فيها، بأن جعلها مستعلية عليهم.

---

(١) «البحر المحيط» (٢/ ٧٢).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٢/ ٦٢)، «البحر المحيط» (٢/ ٧٢).

- وجه إعادة اللعنة: في استحقاقهم لها ومضاعفة لها حسب حالهم؛ لأن اللعنة الأولىٰ بسبب كتمانهم، واللعنة الثانية بسبب إصرارهم وكفرهم.

- وجه كون الناس يلعنون الكافر يوم القيامة جميعًا: أبلغ في عقابه والتغليظ عليه، وليكون أعظم في حسرته وألمه، ولينقطع أمله في الرحمة والرأفة.

- وجه التشديد عليهم بقوله تعالىٰ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾: لأنه لما كانت نهايتهم الكفر والإصرار عليه ناسب أن يذكر نهايتهم في العذاب بما يوافق حالهم، وهو الخلود في النار وعدم تخفيف العذاب عليهم، وعدم إنظارهم وتأخيرهم.

- في قوله تعالىٰ: ﴿عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾: جاء ذِكرُ لعنة الملائكة والنَّاس- مع أنَّ لعنة الله وحده كافيةٌ في خزيهم ونكالهم- قد يكون لبيان أنَّ جميع مَن يعلم حالهم من العوالِم العلويَّة والسُّفليَّة يراهم محلًّا للعنة الله ومقْته، فلا يُرجىٰ أن يَرأف بهم رائِف، ولا أن يَشفَع لهم شافِع.

- أنَّ الكافر يلعنه الكافِر؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾؛ وقد أخبَر الله تعالىٰ عن أهل النَّار أنَّه كلَّما دخلتْ أُمَّة لعَنتْ أُختها، وقال تعالىٰ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾؛ فالكافِر- والعياذ بالله- ملعونٌ حتَّىٰ ممَّن شاركه في كُفره .

﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ
وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ
دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ
لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ
ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ
لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ
وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا
كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ
وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ (البقرة: ١٦٣ – ١٦٧)

سياق هذه الآيات في تقرير أصل التشريع، وهو التوحيد وأدلته الكونية والشرعية[1]، إعلاماً به وتجديداً له وتأكيداً عليه، وتمهيداً وتوطئة لإقامة سائر الأحكام التشريعية والنظم الأخلاقية والاجتماعية عليه التي عرضتها السورة بعد ذلك.

﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾

◈ غرض الآية:

تقرير وحدانيته تعالى ورحمته بهم، الموجبة للامتثال له وتلقي أوامره.

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٢٣٢)، «أنوار التنزيل» (١/ ٩٧).

البصائر والحكم

- **وجه العطف في الآية:** لتقريرهم بالتوحيد الذي أقروه علىٰ أنفسهم في قولهم: ﴿قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَـهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة ١٣٣]، ليكون موجبًا عليهم لامتثال التشريع بعد ذلك.

- **وجه إعادة لفظ ﴿إِلَٰهٌ﴾ ووصفه بالوحدة في قوله تعالىٰ:** ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾: إعادة لفظ ﴿إِلَٰهٌ﴾ ووصفه بالوحدة؛ لتقرير معنىٰ الألوهية[(١)]، ووصفه بالوحدة لإفادة أن المعتبر الوحدة في الألوهية والعبادة [(٢)] ولهذا قال بعدها ﴿لا إله إلا هو﴾.

- **وجه ختم الآية باسمي ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾:** لأنهما وصفان دالان علىٰ ألوهيته وكمال شريعته، فالرحمن دال علىٰ اتصافه بالرحمة في ذاته، وهذا دال علىٰ لزوم توحيده وعبادته، والرحيم دال علىٰ اتصافه بالرحمة في أفعاله، وتشريعه من أفعاله، وهذا دال علىٰ لزوم اتباع شرعه.

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (٢/ ٧٤).

(٢) انظر: «روح المعاني» (١/ ٥٨٤).

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ١٦٤﴾

◈ غرض الآية:

الاستدلال علىٰ وحدانية الله تعالىٰ في الألوهية والرحمة وإثبات ماقررته الآية قبلها [1].

البصائر والحكم

- وجه دلالة خلق السموات والأرض علىٰ الوحدانية والرحمة: من جهة ابتداء إنشائهما وابتداعهما مع عظم نظامهما، وعظم ما فيهما من المخلوقات والآيات المشاهدة والحياة، ودلالتهما علىٰ الرحمة من جهة ما في خلقهما ونظامهما وما سخره فيهما من المنافع والمصالح للخلق.

- وجه دلالة اختلاف الليل النهار علىٰ التوحيد والرحمة: من جهة أنه آية بيّنة علىٰ مبدع هذا النظام المطرد، ورحمته بعباده، حيث يظهر فيه الغشيان والتكوير بين الليل والنهار، ودليل علىٰ الرحمة من جهة أنه تعالىٰ راعىٰ فيه أحوالهم وحاجاتهم في اختلافه.

- وجه ذكر آية جريان الفلك في البحر دون البحر نفسه، ودلالتها علىٰ التوحيد والرحمة: ذكر جريان الفلك دون البحر؛ لأن في هذه الآية منفعة عظيمة لهم لا غنىٰ لهم عنها، ودلالتها علىٰ الوحدانية من جهة أنها دالة علىٰ آية خلق

(١) «التحرير والتنوير» (٢/ ٧٧).

البحر الذي تجري فيه الفلك، وما فيه من مخلوقات عظيمة ومشاهد عجيبة في عظمته، وهي دالة علىٰ الرحمة من حيث أن مصلحتها جريانها بما ينفع الناس.

- وجه دلالة إنزال المال وإحياء الأرض به وبث الدواب فيها علىٰ وحدانيته ورحمته: من جهة خلقه وتكوينه وإنشاءه ووحدة نظامه، وأنه سبب في الحياة وظهور النبات [1]، ودلالته علىٰ الرحمة من جهة مافيه من المنافع المختلفة، وأعظمها أنه سبب لحياة الأرض ومن فيها.

- وجه ذكر آية تصريف الرياح بعد آية المطر، ووجه دلالتها علىٰ وحدانيته ورحمته: ذكر آية الرياح بعد آية المطر للتناسب بينهما، من حيث أن الرياح سبب للمطر، وتدل علىٰ التوحيد من جهة إنشائها وتسخيرها وحركتها وسكونها، واختلاف مهابها فكل ذلك آية علىٰ كمال قدرته وخلقه، وتدل علىٰ الرحمة من جهة أن في تصريفها واختلاف هبوبها موضع نعمة ودليل رحمة وتحصيل منافع عظيمة للخلق كتجمع السحاب، ونزول المطر.

- وجه ذكر آية تسخير السحاب بين السماء والأرض، ووجه دلالتها علىٰ وحدانيته ورحمته: ذكر تسخير السحاب هنا بعد ذكر تصريف الرياح؛ لأنها هي التي تثيره وتجمعه، وهي التي تسوقه إلىٰ حيث يمطر وتفرقه أحيانًا بأمر الله فيمتنع المطر، ولم يذكره عند ذكر الماء مع أنه سببه المباشر ليرشدنا إلىٰ أنه في نفسه آية، ويدل علىٰ التوحيد من جهة تكوينه، وعلىٰ الرحمة من جهة مكانه وتعلقه بين السماء والأرض؛ إذ لو كان في الأرض لاختنق الناس به لكونه بخاراً، كما أنه رحمة من جهة مايحمله من المطر الذي هو مصدر الحياة.

- وجه تخصيص هذه الآيات دون غيرها: لأنها أدل من غيرها علىٰ الوحدانية والرحمة من جهة عظم منافعها للخلق وعظم حاجتهم إليها.

---

(١) «تفسير المنار» (٢/ ٦٢).

- **وجه ترتيب الأدلة في الآية:** جاء ترتيبها علىٰ حسب دلالتها علىٰ الوحدانية والرحمة من حيث عظم خلقها وعظم أثرها، وقدم ماهو سبب علىٰ المسبب، فقدم خلق السموات والأرض الذي هو سبب مابعده، ثم المسبب هو اختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر، وهكذا.

- **وجه تخصيص الآيات بالذين يعقلون:** لأنه لا يكمل الانتفاع بهذه الآيات ومعرفة دلالاتها وعبرها وما يظهر فيها من وجوه النعم والمنن إلا عند انفتاح البصائر والأبصار، وسلامة العقول من الانحراف والتقليد والتعصب.

- **كلَّما تدبَّر العاقلُ في هذه المخلوقات،** وتغلغل فِكرُه في بدائع المبتَدَعات، وازداد تأمُّله للصَّنعة، وما أودع فيها مِن لطائف البِرِّ والحِكَم الباهرات- علِم بذلك أنَّها خُلِقت للحقِّ وبالحقِّ، وأنَّها صحائفُ آيات، وكتُب دلالات .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ ﴾

◈ غرض الآية:

بيان حال المخالفين للتوحيد من أهل الكتاب والمشركين، وضلال عقولهم وقبح فعالهم من اتخاذهم أنداداً له ومحبتهم بعد ظهور الآيات القاطعة علىٰ توحيده [1].

(١) «إرشاد العقل السليم» (١/ ٢١٩). وانظر: أيضاً: «المحرر الوجيز» (١/ ٢٣٤) ، «مفاتيح الغيب» (٤/ ١٨٤) «البحر المحيط» (٢/ ٨٤).

◈ معاني الآية:

- المراد بالناس في الآية: العموم، فيشمل أهل الكتاب والمشركين لأن السياق العام للآيات في إثبات وجوب التوحيد والطاعة والعبادة لله ومن ذلك امتثال شرعه، وكلا الفريقين مخالف للتوحيد والطاعة.

- المراد بالأنداد: قيل: هي آلهتهم التي كانوا يعبدون من دون الله، وقيل: إنما هم سادتهم الذين كانوا يطيعونهم ويتبعونهم[(١)]، وكلاهما محتمل؛ لأن سياق الآيات ظاهر في أن المقصود هو العبادة وما دونها من الاتباع والطاعة، وهذا يتحقق في الآلهة والرؤساء.

- المراد بالمحبة في قوله ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾: المراد بمحبتهم لأندادهم، حب التعظيم والطاعة والتقرب والانقياد؛ لأن المقصود هو ذمهم على الانقياد والطاعة لغير الله تعالىٰ.

- المراد بالتشبيه بين حبهم للأنداد وحب الله: أي: يشركون في المحبة والتعظيم؛ لأن الغرض في الآيات ذمهم علىٰ الاتباع والانقياد.

- معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾: والذين آمنوا أشد حبًا لله من محبة المشركين لله؛ فإن محبة المؤمنين خالصة، ومحبة أصحاب الأنداد مشركة، قد صرفت بعضها لأندادهم؛ لأن غرض الآية هو ذم المشركين وتنقصهم في إشراكهم في محبة الله تعالىٰ.

- المراد بالرؤية في الآية: رؤية بصرية؛ لأنها أبلغ في التأثير، وأدل علىٰ المقصود وهو التنفير، وتعلقها بأمر مرئي وهو مشاهد يوم القيامة، وأحوالهم فيها[(٢)].

---

(١) انظر: «البحر المحيط» (٢/ ٨٤).

(٢) «التحرير والتنوير» (٢/ ٩٣).

البصائر والحكم

- وجه قوله ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾: أنه لما كان سياق الآية في ذم متخذي الأنداد وإشراكهم في المحبة مع الله، كان مناسباً أن يذكر حال المؤمنين زيادة في ذم أولئك وتنقصهم في عقولهم وأفعالهم وفساد دينهم.

- وجه كون محبة المؤمنين أشد: لأن المؤمنين قد أخلصوا محبتهم لله علىٰ كل حال، ولأن محبة المؤمنين لربهم صادقة دائمة، ولأن المؤمنين يوحدون ربهم بالمحبة.

- وجه التعبير بأشد دون أحب: لأنه أدل علىٰ إخلاص المحبة من أحب؛ لأن أحب يستعمل في تفضيل أحد المحبوبين علىٰ الآخر، وأما أشد فيفيد تفرد المحبوب بالحب وحده[1]، ولأنه لما ذكر في الآية السابقة الآيات والبراهين علىٰ وحدانيته، عبّر في بيان موقف المؤمنين بما يفيد زيادة إيمانهم ورسوخه وثباته[2].

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾، ومعناها: غرض الجملة هو بيان شناعة حالهم في الآخرة بعد بيان شناعة حالهم وعملهم في الدنيا[3]، ومعناها: لو يرىٰ هؤلاء الذين ارتكبوا الظلم العظيم بشركهم ومحبتهم غير الله، حال أندادهم يوم القيامة وأنها ستكون مسلوبة القوة، وأن القدرة كلها لله علىٰ كل شيء من العقاب والثواب دون أندادهم؛ إذا عاينوا العذاب يوم القيامة، لكان منهم ما لا يوصف من الندم والحسرة والعلم بظلمهم وضلالهم[4].

---

(١) «التحرير والتنوير» (٢/ ٩٣).

(٢) «مفاتيح الغيب» (٤/ ١٨٧).

(٣) «التحرير والتنوير» (٢/ ٩٣).

(٤) انظر: «البحر المحيط» (٢/ ٩٠).

- القراءات في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ يَرَى﴾ ومعناها:

المشهور قراءتان:

الأولىٰ: القراءة بالتاء ﴿وَلَوْ تَرَى﴾.

الثانية: القراءة بالياء ﴿وَلَوْ يَرَى﴾ خطابًا لهم[1].

فأما القراءة الأولىٰ بالتاء، فهي محتملة أن تكون خطابًا للنبي ﷺ، أو لمن يصلح له الخطاب من أمته، أو أنه خطاب عام لكل من يسمع هذا الكلام.

وأما القراءة الثانية، وهي خطاب لهم، فيظهر فيها شدة الترهيب لهم والتخويف؛ لأنه إذا توجه خطاب الترهيب إلىٰ صاحبه مباشرة كان أعظم تأثيراً في نفسه.

- وجه ختم الآية بقوله تعالىٰ: ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾:

مفيد المبالغة في تهويل الخطب، وتفظيع الأمر.

- في قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾، دلالةٌ علىٰ أنّ

محبَّةَ الله مِن العبادة؛ لأنَّ اللهَ جعَل مَن سوَّىٰ غيرَه به فيها مشرِكًا متَّخذًا لله ندًّا؛ فالمحبَّةُ مِن العبادة، بل هي أساس العبادة؛ لأنَّ أساس العبادة مبنيٌّ علىٰ الحبِّ والتَّعظيم.

- أنه كلَّما ازداد إيمانُ العبد ازدادت محبَّتُه لله؛ وذلك لأن اللهَ سبحانه وتعالىٰ رتَّب شدَّةَ المحبَّةِ علىٰ الإيمان فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾، وقد عُلِم أنَّ الحُكْم إذا عُلِّق علىٰ وصفٍ فإنَّه يقوىٰ بقوةِ ذلك الوصف، وينقُصُ بنقصِه؛ فكلما ازداد الإنسانُ إيمانًا بالله عزَّ وجلَّ ازداد حبًّا له.

---

(١) انظر: «البحر المحيط» (٢/ ٩٠).

﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ
١٦٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ
ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ١٦٧﴾

◈ غرض الآيتين:

زيادة الوعيد والتهديد لمتخذي الأنداد، وبيان عاقبة اتخاذهم إياها ومحبتهم لها، وهو أن هذه الأنداد ستتبرأ منهم يوم القيامة، وهذا يفيد انقطاع الرجاء عنهم فيكون زيادة في الألم والحسرة والندامة.

◈ معاني الآيتين:

- **المراد بالذين اتُّبعوا في الآية:** أنهم الأنداد الذين اتخذوهم واتبعوهم؛ لأن الآيات في سياق ذمهم علىٰ اتخاذهم الأنداد ومحبتهم، فالأولىٰ أن تكون الآية في الأنداد أنفسهم.

- **المراد بالأسباب:** أي: عموم الأسباب؛ لأن المقصود هو بيان انقطاع كل الأسباب غير الصحيحة، وامتناع كونها سبيلاً للنجاة، ومن ذلك المودات والصِّلات والأعمال والمنازل التي هي لغير الله تعالىٰ.

البصائر والحكم

- **مجيء الفعل ﴿تَبَرَّأَ﴾ ماضيًا مع أنه مستقبل في المعنىٰ:** فيه إشعار بتحقق الوقوع، ومزيد تأكيد عليه.

- **التعبير بلفظ التبرؤ دال علىٰ غاية التباعد والانقطاع؛** إذ معنىٰ التبرؤ هو التباعد التام، وهو لايكون إلا في الأمر المضاد.

- **جملة ﴿وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾ جملة حالية،** وهي مغنية عن الاستئناف الذي يقتضيه المقام؛ لأن السامع يورد سؤال تعجب واستغراب عن موجب هذا

التبرؤ، فيقال: أنهم رأوا العذاب[1].

- التعبير بالتقطع وهو الانقطاع الشديد، وهو دال علىٰ كمال انقطاع الأسباب بينهم.

- التعبير بتقطع الأسباب مناسب من حيث أنهم اتخذوا تلك الأسباب للارتقاء بها للنجاة، فانقطعت فهووا إلىٰ العذاب وأيسوا من النجاة.

- التعبير في ﴿بِهِمُ﴾ دون عنهم، أبلغ في بيان خسارتهم؛ إذ المعنىٰ تقطعت الأسباب ملتبسة بهم أي فسقطوا[2].

- وجه تمني الأتباع الرجوع للدنيا للتبرؤ منهم، دون تبرئهم في الآخرة: لأن الغرض هو التبرؤ منهم ومن اتخاذهم أنداداً ومن محبتهم وطاعتهم من دون الله، وفيه زيلدة حسرة علىٰ اتخاذهم أنداداً واتباعهم من دون الله.

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ﴾: إظهار شدة ندمهم علىٰ شركهم في الآخرة، وفيه مبالغة في سوء حالهم، حيث أن الحسرة أشد الأسف والحزن علىٰ الفائت الذي يحسر الملتهف أي يقطعه عما تحسر عليه[3].

- التعبير بأداة الاستعلاء ﴿علىٰ﴾ في قوله تعالىٰ: ﴿حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ﴾: يفيد أن الحسرات قد غشيتهم وغطتهم وعلت عليهم.

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾: إظهار خلودهم في العذاب لإدخال مزيد الألم والحسرة في نفوسهم.

---

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (٢/ ٩٦).

(٢) انظر: «التحرير والتنوير» (٢/ ٩٨).

(٣) انظر: «نظم الدرر» (٢/ ٣١٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ
إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى
ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ١٦٩ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا
عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٧٠
وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ
عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٧١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ
وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ
وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ
فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٧٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ
مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًاۙ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا
ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ
١٧٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ
أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ١٧٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ
ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ١٧٦﴾ (البقرة: ١٦٨ – ١٧٦)

سياق الآيات في تقرير وحدة مصدر تلقي التشريع وهو الله تعالى، وبيان ما يوجب اتباعه، والتحذير من منشأ المخالفة وهو الشيطان واتباع خطواته، وبيان ما يوجب اجتنابه، وذكر أصول التشريع من الحلال والحرام بعد ذلك.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾

◈ غرض الآية:

بيان مصدر تلقي التشريع وهو الله وحده تعالىٰ، والتحذير من مصدر المخالفة وهو اتباع الشيطان وخطواته.

◈ معاني الآية:

- **المراد بالحلال والطيب:** ﴿حَلَٰلٗا﴾ موافقة الشرع الصحيح، وقوله تعالىٰ: ﴿طَيِّبٗا﴾ موافقة الفطر السليمة[1]؛ لأن السياق في الدعوة لتوحيد مصدر التشريع وهو الله وحده، ونبذ غيره مما يأمرهم به الشيطان، ويشرعه لهم رؤساؤهم؛ وذلك أن الله تعالىٰ شرع لهم ما سخره لهم وأوجده مما هو نافع لهم.

البصائر والحكم

- **وجه الخطاب بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾:** يفيد غرضـًا عامـًا هو دعوة الناس جميعـًا لاتباع الحلال واجتناب الحرام، بعد خطابهم في التوحيد بقوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾، وتوجيه الخطاب للناس يدل علىٰ أن الكفار مخاطبون بالشريعة[2] كما أنهم مخاطبون بالتوحيد، حيث خاطبهم هنا لاتباع الشريعة كما خاطبهم من قبل بالتوحيد.

---

(١) انظر: «البحر المحيط» (٢/ ١٠٠).

(٢) وهو قول جمهور العلماء، قال النووي: (اعلم أن المختار أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة المأمور به والمنهي عنه، هذا قول المحققين والأكثرين) «شرح النووي علىٰ صحيح مسلم» (١/ ١٩٨).

- **وجه اختيار الحديث عن المطاعم والمكاسب من بين ضروب الحلال والحرام**: لأنه يتصل اتصالاً وثيقًا بعقيدة التوحيد التي قررها قبل ذلك، وأنه يتصل اتصالاً وثيقًا بأمر القبلة والشعائر.

- **وجه التعبير بقوله تعالىٰ:** ﴿حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾: فيه تعريض بذمهم فيما أعنتوا به أنفسهم فحرموا ماأحل الله مما وسع علىٰ عباده ها من الطيبات افتراءً علىٰ الله.

- **وجه الأمر بالأكل مما في الأرض حلالاً طيبًا دون الأمر باتباع الشرع**: لأنه خاطبهم علىٰ وجه الاستدلال الموجب للاتباع، فبعد أن قرر مايوجب التوحيد، قرر مايوجب الاتباع في التشريع، وأنه أراد إظهار كمال شرعه، وما بُني عليه من التوسيع علىٰ الخلق في جهات الانتفاع والاستمتاع، ومراعاة حاجاتهم وطبائعهم بما يصلح نفوسهم[(١)].

- **غرض قوله تعالىٰ:** ﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ **والمراد بالأعمال المذكورة، ووجه ذكرها والترتيب بينها في الآية:** غرض الجملة هو بيان مايقابل ماأمر الله به في قوله تعالىٰ: ﴿حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ وهو مايأمر الشيطان به من الحرام الخبيث، وهو السوء والفحشاء والقول علىٰ الله بغير علم التي هي أصول الحرام.

أما المراد بالأعمال المذكورة فالسوء هو الصغائر، والفحشاء هي الكبائر[(٢)].

أما وجه ذكرها دون غيرها فلأنها أصول المعاصي، وهي أصول عداوة الشيطان وطرق إضلاله.

---

(١) «نظم الدرر» (٢/ ٣٢١).

(٢) انظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٢٣٧).

أما وجه الترتيب فيها فهو علىٰ ما يبيّن خطوات الشيطان وترقيه في إضلال بني آدم من الأدنىٰ إلىٰ الأعلىٰ.

- وجه ذكر القول علىٰ الله بغير علم مع دخوله فيما قبله: لأنه أصل إفساد العقائد، وأعظم ما اقترفه المشركون بعد الشرك بتشريعهم شرائع وعبادات نسبوها إلىٰ الله ما أنزل الله بها من سلطان، فهو مقصود الآية أصلاً.

- وجه تضمن الآية لأصول التشريع: هذه الآية تتضمن الأصول التي بنيت عليها الشريعة، وهذا مبني علىٰ سياق السورة الذي هو (تقرير أصول العلم وقواعد الدين)، وهي: التشريع مبني علىٰ التوحيد، ومصدر الحلال هو الشريعة، ومصدر الحرام هو اتباع خطوات الشيطان،وشرع الله مبني علىٰ موافقة الطبائع البشرية والفطر السليمة، وأن كل ما أمر الله به وشَرَعه فهو حلال طيب، و كل ما أمر به الشيطان فهو حرام خبيث.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ١٧٠﴾

◈ غرض الآية:

بيان موقف المكذبين في التشريع.

◈ معاني الآية:

- وجه العطف في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ والمراد بالضمير: علىٰ قولين:

القول الأول: أن الآية معطوفة علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة ١٦٥] والضمير راجع إلىٰ متخذي الأنداد.

القول الثاني: أن الآية معطوفة علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ﴾ علىٰ معنىٰ مخالفتهم للأمر،واتباعهم للشيطان، والضمير علىٰ هذا راجع إلىٰ الناس في الآية المذكورة(١).

الترجيح

السياق دال علىٰ جميع الاحتمالين، والظاهر أنه لا تناقض بينهما لأن الناس المقصودين في الآية الأولىٰ، وهم متخذو الأنداد، داخلون في الآية الثانية العامة، فعليه يمكن حمل الآية علىٰ الوجهين؛ لأن المقصود واحد، وهو اتباعهم لما يأمرهم به الشيطان وهو مايأمرهم به رؤساؤهم وما عليه آباؤهم، وعدم اتباعهم لما أنزل الله.

البصائر والحكم

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ ..﴾: هو تفنيد مقولتهم وإظهار بطلان قولهم، وبيان غاية الفساد في التزامهم أن يقولوا نتبع آباءنا ولو كانوا لا يعقلون ولا يهتدون(٢)، ووجه ذلك هو مجيء همزة الإنكار والتعجب، وكلمة ﴿لو﴾ المفيدة إنكار مدلول الأمر المذكور قبلها باعتبار مقارنته للحالة المذكورة(٣).

- وجه الجمع بين نفي العقل والهداية عنهم في قوله تعالىٰ: ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾: لأنهما دالان جميعاً علىٰ كمال سلب المعرفة وسبيلها، فإن نفي العقل يفيد نفي العلم بالدين، ونفي الهداية يفيد نفي القدرة علىٰ اكتسابه(٤).

---

(١) انظر:«جامع البيان» (٢/ ٨٣) ، «مفاتيح الغيب» (٥/ ٦) «المحرر الوجيز» (١/ ٢٣٨).

(٢) انظر:«المحرر الوجيز» (١/ ٢٣٨).

(٣) انظر: «إرشاد العقل السليم» (١/ ٢٢٣).

(٤) انظر:«مفاتيح الغيب» (٥/ ٧).

- أنّ مَن تعصَّب لمذهبٍ مع مخالفة الدليل ففيه شَبَهٌ من هؤلاء المذكورين في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾، والواجب أنَّ الإنسان إذا قيل له: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ أنْ يقولَ: (سمِعْنا وأطَعْنا).

- أنّ كلَّ مَن خالَف الحقَّ وما أنزَل اللهُ، فليس بعاقل، وليس عنده هدًى؛ لقوله تعالىٰ: ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾

◈ غرض الآية:

تقرير مدلول ما قبلها بطريق التصوير والتمثيل [1]، فهي مفيدة شدة التنبيه والتقبيح، تنفيراً من اتباع الآباء وسلوك سبيلهم.

◈ معاني الآية:

- المراد بالتشبيه في الآية: تشبيه الكفار في إعراضهم عما أنزل الله، وإقبالهم علىٰ اتباع ما ألفوا عليه آباءهم.

- المراد بقوله تعالىٰ: ﴿دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ ووجه الجمع بينهما: الدعاء اسم الصوت وما تضمنه من معنىٰ، والنداء هو اللفظ ورفع الصوت؛ لأن المقصود أنهم لا يعقلون دعوة الداعي، ولا يهتدون بندائه وصوته. كما أن المنعوق به لا يسمع إلا دعاء لا يعقله أو نداءً لا يهتدي به لعدم إدراكه.

(١) انظر: «إرشاد العقل السليم» (١/ ٢٢٥).

البصائر والحكم

- قوله: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ....﴾: مثل هذا المثل يزيد السامع معرفة بأحوال الكفار، ويحقّر إلىٰ الكافر نفسه إذا سمع ذلك، حيث صيّره كالبهيمة، فيكون في ذلك نهاية الزجر والردع لمن يسمعه عن أن يسلك مثل طريقه في التقليد[1].

- غرض قوله: ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٌ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾: تقرير لما وصفهم به بأوصاف من لا يسمع إلا دعاء ونداء، وزيادة في الذم والتقبيح والازدراء.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢﴾

غرض الآية:

الامتنان علىٰ المؤمنين بتوسيع الإباحة، ترغيباً في اتباع الشريعة، سداً لباب الابتداع في التحريم[2].

البصائر والحكم

- وجه تخصيص المؤمنين في الآية بالخطاب: تشريف لهم بعد خطاب الناس عامة، وتوجه إليهم استقلالاً لأنهم هم المقصودون أصلاً، فهم أجدر بالعلم، وأحرىٰ بالاهتداء والامتثال.

- المراد بالطيبات، ووجه تخصيصها بالذكر: أي: ما أباحه الله تعالىٰ مما هو نافع للبدن والعقل والروح، ووجه تخصيصها بالذكر: لبيان توسيع الله علىٰ عباده

(١) انظر: «مفاتيح الغيب» (٥/ ٧).

(٢) «التحرير والتنوير» (٢/ ١١٤).

في شرعه في مقابل ما كان عليه المشركون وأهل الكتاب من التضييق والتشديد، وإزالة ماقد يظن بأن الدين يمنع التوسع ويأمر بالتضييق علىٰ النفس أو التشديد عليها، وحرمانها التمتع بما رزقها الله من الطيبات [1].

- وجه الأمر بقوله تعالىٰ: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ﴾: وارد في مقابل الحظر الذي عليه حال المشركين وأهل الكتاب، والغرض منه بيان شرف الشريعة ويسرها، وأنها مبنية علىٰ الإباحة واليسر، وإزالة ما قد تتوهمه النفوس من التضييق أو التشديد الذي سلكه بعض أرباب المذاهب قبل الإسلام.

- المراد بالشكر هنا، ووجه الأمر به دون الاتباع: شكر القلب واللسان والجوارح، وهو مستلزم للاتباع الكامل، ووجه الأمر به دون أن يقول: ﴿واتبعوني﴾؛ أنه لما كان الغرض إظهار الامتنان بنعمته عليهم في شرعه حيث وسع عليهم فيه، وحقق لهم وجوه الانتفاع والاستمتاع بما يلائم طبائعهم وخلقهم ورغباتهم، وذلك موجب للشكر ابتداءً، فلذلك أمر به.

- وجه إظهار لفظ الجلالة في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ﴾ دون ﴿اشكروني﴾: لأن المقصود هو إظهار وحدانية الله تعالىٰ في الشكر والطاعة والعبادة؛ لأنه تعالىٰ هو المنعم وحده.

- وجه الشرط بقوله تعالىٰ: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾: مفيد وجوب اصطحاب الشكر للعبادة، فكأنه جاء بنتيجة بعد نتيجة، فأباح الطيبات مما رزقهم، ثم أمرهم بالشكر الواجب بعد الإباحة، وبنىٰ علىٰ الشكر لزوم استصحابها واقترانها بالعبادة، فلزمت العبادة، ويفيد إثارة نفوس المؤمنين واستدعاءها للعبادة بطريق الإغراء.

---

(١) «مفاتيح الغيب» (٥/ ٩).وانظر: أيضاً «البحر المحيط» (٢/ ١٠٩).

- توجيه المرء إلىٰ طلَب الرِّزق من الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾؛ فإذا كان هذا الرِّزق مِن الله

سبحانه وتعالىٰ فلنطْلُبه منه، مع فِعل الأسباب التي أمَرنا بها .

- إثبات رحمةِ الله سبحانه وتعالىٰ بعباده من وجهين:

أولًا: من أمرِه إيَّاهم بالأكل من الطيِّباتِ؛ لأنَّ بذلك حِفظًا لصحَّتِهم.

ثانيًا: من قوله تعالىٰ: ﴿مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾؛ فإنَّ الرِّزقَ بلا شكٍّ من رحمة الله

- أنَّ الشُّكر لله عزَّ وجلَّ من تحقيق العبادة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ .

- وجوب الإخلاص لله في العبادة؛ يُؤخَذ ذلك من اللام في قوله تعالىٰ: ﴿لِلَّهِ﴾، ومِن تقديم المعمول ﴿إِيَّاهُ﴾ في قوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ .

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾

◈ غرض الآية:

هو بيان أصول المحرمات التي استباحها المشركون من الطيبات المتعلق بجناب العقيدة.

◈ معاني الآية:

- المراد بالاضطرار: العموم؛ لأن السياق في الامتنان في الترخيص، والترخيص شامل كل حالة يصل فيها الإنسان إلىٰ حد الضرورة إلىٰ الأكل.

- المعنىٰ المراد في قوله تعالىٰ: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ ومتعلقه: علىٰ خلاف، والراجح قولان:

القول الأول: أنها متعلقة بالاضطرار، والمعنىٰ: أنه غير قاصد فساداً وتعدٍ، بأن يجد عن هذه المحرمات مندوحة ثم يأكلها.

القول الثاني: أنها متعلقة بالأكل، والمعنىٰ: أنه غير باغ ولا عاد في أكله بعد اضطراره، بحيث لا يتجاوز ضرورته.

لأن السياق في الامتنان بالترخيص بالاضطرار إلىٰ الأكل، وهذا يشمل القولين.

البصائر والحكم

- وجه الحصر في الآية، وفائدته: الحصر في الآية لا يفيد قصر الحرمة علىٰ ما ذكر مطلقاً، كما هو الظاهر؛ إذ من المحرمات مالا يدخل في الأمور المذكورة، والذي يدل عليه السياق في المراد بالحصر هو أن الحصر خاص بأصول المحرمات التي استباحها المشركون مما اعتقدوا فيه الشرك تخليصاً للتشريع مما وقع فيه من الشرك أولاً ثم تفصيله ثانياً، وأن المقصود بيان ماحظرته الشريعة من المطعومات المحرمة.

- وجه تحريم الميتة: ما فيها من وصف الخبث، وغلبة وقوع الضرر فيها، وعدم وجود القصد في إماتتها بعمل الإنسان، والميتة هي كل ما مات دون ذكاة مما له نفس سائلة، واستثني منها الحوت والجراد.

- وجه تحريم الدم: المراد به المسفوح، لتقييد الآية الأخرىٰ في قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً﴾ [الأنعام ١٤٥]، ووجه تحريمه: ما فيه من وصف الخبث، وفيه ضرر ظاهر من شربه.

- وجه تخصيص لحم الخنزير مع أن سائر أجزائه في حكمه باتفاق العلماء: فلأنه المقصود للأكل؛ ولأن معظم الانتفاع متعلق به[1]، وقال بعضهم: لعل السر

(١) انظر: «مفاتيح الغيب» (٥/ ١٩).

في إقحام لفظ لحم هنا لإظهار حرمة ما استطابوه وفضّلوه علىٰ سائر اللحوم، واستعظموا وقوع تحريمه[1].

- **وجه تحريم الخنزير**: ما فيه من خبث، وما فيه من الصفات الدنيئة ما ليس في غيره، وما فيه من ضرر ظاهر من أكله.

- **وجه تحريم ما أهل لغير الله به**: ما أهل لغير الله: هو ما ذبح للأنصاب والأوثان ونحوها، ويشمل كل ماذبح لغير الله تعالىٰ لقوله تعالىٰ: ﴿لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾، ووجه تحريمه: أنه خبيث خبثا معنويا، ولحفظ مقام التوحيد.

- **غرض قوله تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾**: إظهار كمال الدين برفع الحرج وتمام اليسر في إباحة ما حرم للمضطر.

- **وجه تقييد الاضطرار بعدم البغي والعدوان**: فيه إيماء إلىٰ علة الرخصة وهي الامتنان بالترخيص في المحرم للضرورة، فالتجاوز فيها تعدي إلىٰ المحرم، فكان لابد من هذا القيد لئلا تستمرئ النفوس وتتهاون في الترخص فتقع في الحرام، فيه إيماء إلىٰ حد الضرورة الصحيح، وهو الحاجة التي يشعر عندها من لم يكن دأبه البغي والعدوان.

- **وجه ختم الآية بالمغفرة والرحمة**: الامتنان وإظهار رحمته وكمال شريعته؛ فالمغفرة تناسب العفو عن الزلات وهذا مناسب لحال المضطر، وأكله من المحرم، والرحمة تناسب التخفيف بالرخصة في المحرم للمضطر، وفي هذا تأكيد علىٰ تضمن الشريعة للرحمة والتخفيف.

- **أنَّ التحريمَ والتحليل إلىٰ الله تعالىٰ؛** فهو حقٌّ خاصٌّ به وحده؛ لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ﴾ .

---

(١) انظر: «روح المعاني» (١/ ٦٠١).

- قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ﴾: فيه أنَّ الشِّركَ -وإن كانت نجاستُه معنويَّة- قد يؤدِّي إلىٰ خُبثِ الأعيان؛ إذ هذه البهيمة التي أُهلَّ لغير الله بها نجسةٌ خبيثة محرَّمة، والتي ذُكِر اسمُ الله عليها طيِّبةٌ حلال.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤﴾

◈ غرض الآية:

الوعيد والتحذير من كتمان الحلال والحرام الذي شرعه، توعداً لأهل الكتاب علىٰ كتمانهم له، وتحذيراً للمؤمنين من مشابهتهم، تهيئةً للتخلص إلىٰ ابتداء شرائع الإسلام.

البصائر والحكم

- الفرق بين الآيتين: قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ﴾ [البقرة ١٥٩]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ١٧٤]: أن الآية الأولىٰ عامة فيما أنزله الله من البينات والهدىٰ، ويؤيده ورودها بعد الدعوة للإيمان بأصول الدين وهي القرآن والرسالة والقبلة، والثانية خاصة فيما شرعه الله من الحلال والحرام ويؤيده ورودها بعد بيان الله لأصول التشريع.

- التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ إشارة إلىٰ حقارة العوض، وفي هذا زيادة تقبيح لفعلهم وتحذير منه.

- التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿يَأْكُلُونَ﴾ فيه مشاكلة ومناسبة للسياق، من جهة أن السياق فيما أبيح وحرم من المأكولات[1].

- التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ تنبيهٌ علىٰ شرههم وتقبيحٌ لتضييع أعظم النعم لأجل المطعوم الذي هو أحسن متناول[2].

- التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ إشارة إلىٰ انحطاط منزلتهم لديه وذلتهم[3].

- التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي: لا يطهرهم من موجبات العذاب[4]، وهذا مناسب لحالهم من تدنسهم بالرشوة والمال الحرام.

- ختم الآية بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بعد قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ مناسب للسياق من جهة أنه يفيد العذاب الحسي في الآخرة بعد العذاب المعنوي في الدنيا[5].

- وجوب نشْر العِلم؛ لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ ...﴾، ويتأكَّدُ وجوب نشْره إذا دعتِ الحاجةُ إليه بالسؤالِ عنه؛ إما بلسان الحال، وإما بلسان المَقال.

- إطلاق المسبَّب علىٰ السبب؛ لقوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾؛ فإنَّهم لا يأكلون النَّار، ولكن يأكلونَ المالَ، وهو سببٌ للنار.

- إقامة العَدل في الجَزاء؛ لقوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾؛ فجعَل عقوبتَهم من النَّارِ بقَدْرِ ما أكَلوه من الحرام.

---

(١) «التحرير والتنوير» (٢/ ١٢٢).

(٢) «المحرر الوجيز» (١/ ٢٤١).

(٣) انظر: «المحرر والوجيز» (١/ ٢٤١).

(٤) انظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٢٤١).

(٥) «مفاتيح الغيب» (٥/ ٣٠).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ١٧٥﴾

◈ غرض الآية:

الآية بيان لشناعة فعلهم بعد بيان شدة وعيدهم، وفيها تصوير بليغ مفيد نهاية خسارتهم في الدنيا والآخرة.

◈ معاني الآية:

- نوع الاستفهام ومعناه في قوله تعالىٰ: ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ﴾: أنه استفهام تعجب؛ لأن الغرض هو بيان نهاية جهلهم، وشدة التعجب من حالهم، وهو علمهم بأن عملهم يؤدي إلىٰ النار مع عدم مبالاتهم بذلك.

البصائر والحكم

- وجه وصفهم بشراء الضلالة بالهدىٰ والعذاب بالمغفرة: للإشارة إلىٰ كمال خسارتهم في الدارين، ففي الدنيا اشتروا أقبح الأشياء وهو الضلال بالذي هو خيرها وأحسنها وهو الهدىٰ، وذلك نهاية الخسران في الدنيا. وفي الآخرة اشتروا أخسر الأشياء وهو العذاب بأحسنها وهو المغفرة، وذلك نهاية الخسران في الآخرة، وإذا كانوا كذلك كانوا لا محالة أعظم الناس خسارة في الدنيا والآخرة[(١)].

- في قوله تعالىٰ: ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ إثباتُ صفة التعجُّب لله تبارك وتعالىٰ.

(١) انظر: «مفاتيح الغيب» (٥/ ٣١).

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾

◈ غرض الآية:

بيان سبب عذابهم وفساد أمرهم، وهو ختام مناسب للسياق مفيد شدة التحذير والتنفير من حالهم وعملهم.

◈ معاني الآية:

- مرجع الإشارة في قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ﴾: أي: أن ذلك العذاب بسبب أن الله نزّل الكتاب،وهم قد كفروا به وحرّفوه؛ لأن السياق في بيان سبب عذابهم، ويؤيد ذلك قوله بعده: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾، أي: أنه كتاب نزل بالحق لكن الذين اختلفوا فيه في شقاق وبعد عنه وكفر به.

- المقصود بالذين اختلفوا في الكتاب: أي: اليهود والنصارىٰ؛ لأنهم هم الذين حرفوا كتبهم، واختلفوا فيما أنزل الله بينهم، وظهر بينهم الشقاق والعداوة، والسياق فيهم ببيان الوعيد علىٰ كتمانهم الحق الذي أنزله الله في الكتاب، والتحذير منه.

- المراد بالكتاب: التوراة والإنجيل؛ وذلك لأن السياق في اختلاف أهل الكتاب الذين كتموا ما أنزل الله عليهم من الحق. ووعيدهم والتحذير من فعلهم. ويؤيد هذا ذكر الاختلاف بينهم والعداوة [1].

- المراد باختلافهم: علىٰ خلاف:

القول الأول: اختلاف قبولهم لما في الكتاب، فقبلوا بعض ما فيه وكتموا البعض الآخر مع أنه كله حق منزّل من عند الله.

---

(١) «التحرير والتنوير» (٢/ ١٢٦).

القول الثاني: اختلافهم فيما بينهم في الكفر بما أنزل الله عليهم، أي أن كل فريق يكفر بما أنزل علىٰ الآخر، مع أن كتب الله يصدق بعضها بعضاً[1].

الترجيح:

السياق يحتمل القولين:

أما المعنىٰ الأول فلأن السياق في بيان سبب وعيدهم.

أما المعنىٰ الثاني فلأن اختلافهم فيما بينهم مع أن كتبهم يصدق بعضها بعضاً دليل علىٰ مفارقتهم للحق وبعدهم عنه، وذلك موجب لفساد ما هم عليه واستحقاقهم للعذاب والوعيد.

- المراد بالشقاق: علىٰ خلاف:

القول الأول: أن المراد الشقاق والبعد عن الحق.

القول الثاني: أن المراد الشقاق والعداوة بينهم[2].

الترجيح:

السياق يحتمل المعنيين، ولا تناقض بينهما بل هما متلازمان؛ لأن شقاقهم ومفارقتهم للحق دليل علىٰ تنافرهم وشقاق بعضهم لبعض، واختلافهم فيما بينهم دليل علىٰ بعدهم عن الحق.

- الآية علىٰ هذا تمهيد لقوله في الآية بعدها: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾؛ فاختلافهم في الكتاب دليل علىٰ عدم صحة ما هم عليه من الدين وأنهم علىٰ بعد منه؛ ولهذا أشار في الآية بعدها إلىٰ اختلافهم في القبلة ودعاهم إلىٰ الدين الحق والبر الذي ليس هو أعمال مجردة بل إيمان واتباع وعمل.

---

(١) انظر: «مفاتيح الغيب» (٥/ ٣٧).

(٢) «جامع البيان» (٢/ ٩٦).

- **إثبات العِلل والأسباب**؛ لقوله تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ﴾، والباء للسببيَّة، وقد ذكَر بعض أهلُ العلم أنَّ في القرآن أكثرَ من مئة موضعٍ، كلُّها تُفيدُ إثبات العِلَّة؛ خلافًا للجَبْريَّة الَّذين يقولون: «إنَّ فِعْلَ الله عزَّ وجلَّ ليس لحِكمةٍ، بل لمجرَّد المشيئة»؛ تعالىٰ اللهُ عمَّا يقولون علوًّا كبيرًا.

- **أنَّ الاختلافَ ليس رحمة**، بل إنه شِقاقٌ وبلاءٌ، كما قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾.

﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ (البقرة: ١٧٧)

سياق الآية هو بيان حقيقة الدين وأصوله، تمهيداً لتفصيل أحكام الشريعة.

﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ... ﴿١٧٧﴾ ﴾

◈ غرض الآية:

بيان أن التوجه ليس هو الغاية العظمىٰ، وليس هو البر وإنما الغاية في الإيمان وتكميل خصال البر كلها.

البصائر والحكم

- وجه ابتداء الآية بنفي حصر البر في التوجه قبل إثبات حقيقة البر وخصاله:

لأن هذا النفي إبطال لما عليه أهل الكتاب من التعلق بالمظاهر دون الإيمان، وزعمهم الإيمان والبر في التوجه إلىٰ قبلتهم، ثم إثبات الحق الذي يجب أن يكون عليه المؤمنون ثانياً، فهو من باب التخلية قبل التحلية، وأن هذا النفي فيه بعث

للمؤمنين إلىٰ السعي إلىٰ تحقيق الكمال في الدين وعدم الانشغال بأمر القبلة[1].

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ... ١٧٧﴾

غرض الآية:

بيان حقيقة البر وهو تحقيق الإيمان والعمل.

البصائر والحكم

- **وجه التعبير بالبر دون غيره:** لأن البر هو اسم جامع للخير[2]، وهذا المعنىٰ يناسب السياق من جهة أن كل فريق يرىٰ أن البر كله في التوجه إلىٰ قبلته، فبين تعالىٰ أن البر ليس بالتوجه فحسب وإنما بتحقيق خصال البر كلها، وأن البر أيضا بمعنىٰ الزكاة وتحقيق الكمال، وهذا يناسب السياق من جهة أن كل فريق قد زكىٰ نفسه ورأىٰ أنه الأزكىٰ والأبرّ بعمله وقبلته.

- **وجه ذكر اليوم الآخر بعد الإيمان بالله وتقديمه:** لأنه أعظم الأركان لتعلقه بالثواب والعقاب، قال أبو حيان: «قدّم ذكره تنبيهاً علىٰ أن البر مراعاة الله ومراعاة الآخرة ثم مراعاة غيرهما»[3].

- **وجه تعريف الكتاب والتعبير بصيغة المفرد:** إشارة إلىٰ القرآن وأنه كامل

(١) وفي هذا فائدة تربوية وهي أن الأسلوب الأمثل لصرف الناس عن قضية تشغلهم عن الهدف المقصود، هو توجيههم للهدف الأكبر وبيان حقيقة الكمال المقصود.

(٢) «مفاتيح الغيب» (٥/ ٤٠).

(٣) «البحر المحيط» (٢/ ١٣٤).

جامع للكتب كلها، فاللفظ يرجع لقوله: ﴿ذَلِكَ الكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيْهِ﴾، وإنما أفرده هنا بخلاف غيره من المواضع لأن المقصود هنا الإيمان بالقرآن وبما اشتمل عليه من التشريعات، ويؤكد ذلك كون الآية تمهيداً للتشريع.

- **وجه حصر الإيمان بهذه الخمسة:** لأنها أصول الإيمان، وكل ما يلزم الإيمان به فهو داخل فيها، ولذا فإن جميع مافصلت السورة من أحكام راجع إليها[1].

﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ ...﴿١٧٧﴾﴾

◈ غرض الآية:

بيان أصول الأعمال بعد بيان أصول الإيمان، والأعمال هنا هي الأعمال المتعلقة بالمعاشرة والإحسان إلىٰ الخلق.

◈ معاني الآية:

- **المراد بإيتاء المال علىٰ حبه:** الحقوق الواجبة غير الزكاة؛ لأن السياق في بيان وجوه البر وكمالها، وإيتاء المال له عدة أوجه منها الواجب ومنها المندوب. فالأولىٰ أن يكون ذلك غير الزكاة تكميلاً لأعمال البر المتعلقة بالمال غير الزكاة.

- **مرجع الضمير في قوله: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾:** يرجع إلىٰ المال؛ لأنه أقرب مذكور.

البصائر والحكم

- **وجه البدء بإيتاء المال:** لأنه لما كان الغرض بيان أنواع البر، وكان أعظمها البر المتعلق بأصول الإيمان الخمسة، ذكر بعدها أنواع البر المتعلقة بالخلق

---

(١) «مفاتيح الغيب» (٥/ ٤٢).

وأعظمها البر بالمحتاجين علىٰ حسب مراتبهم، ولأنه لما كان نزول الآية في مبتدأ الهجرة وأول قيام الدولة الإسلامية، كان أولىٰ الأمور بعد الإيمان ما يتعلق بقيام المجتمع المسلم وتقوية أواصره وعراه، وقضاء حاجاته اللازمة، ولاشك أن النفقة وإيتاء المال أعظم ما يحقق ذلك.

- تقييده بقوله ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾: أنه أدل علىٰ كمال البر، وذلك لأن عطاءه مع محبة المال تدل علىٰ دافع يدفع لذلك هو ابتغاء مرضاة الله وثوابه، ويفيد تحرير النفس من عبودية المال التي تستذل النفوس.

- وجه تقديم المفعول الثاني علىٰ الأول في قوله: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾: المفعول الأول هو قوله ﴿ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وما بعده من المعطوفات، والمفعول الثاني هو ﴿ٱلْمَالَ﴾، وقدم المفعول الثاني لأنه أدل علىٰ الغرض وهو كمال البر، فأعظم وجوه البر والإحسان للمحتاجين إيتاؤهم المال. وهو أعظم عامل لقيام المجتمع وصلاحه بعد الإيمان.

- المراد بذوي القربىٰ في الآية، ووجه تقديمهم: المراد بهم في الآية المستحقون للنفقة منهم لاقترانهم بالمستحقين، وهم علىٰ حسب قربهم للإنسان[(١)]، ووجه تقديمهم: لأنهم أحق الناس بالبر والمعروف.

- وجه ذكر الأصناف الباقية: لأنهم أحوج الناس للكفاية لضعفهم وعجزهم وحصول سبب دافع لإيتائهم المال، والمقصود الأعظم من الأمر بإيتائهم المال هو رفع شأنهم وقضاء حاجتهم وتقوية رابطة المجتمع المسلم بالتكافل والتعاطف.

- وجه الترتيب بينهم: علىٰ حسب منازلهم وحاجتهم للتفقد والإنفاق، وأثر ذلك علىٰ الأمة[(٢)].

---

(١) «روح المعاني» (١/ ٦٠٦).

(٢) «البحر المحيط» (٢/ ١٣٨).

- **وجه ذكر إقام الصلاة وصلتها بالبر:** لأنها الركن الروحي في بناء الفرد والمجتمع، فهي تخلص العبد من التعلقات الدنيوية، وتورث تزكية النفس بالفضائل، وتطهرها من الرذائل، وهذا من كمال البر.

- **وجه ذكر إيتاء الزكاة مع دخوله في إيتاء المال:** لأن الزكاة فرض وركن في الدين، أما إيتاء المال للمستحقين فقد يكون واجبًا أو مستحبًا.

- **في قوله:** ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾: الترتيب في الإنفاق، فأولىٰ من يتفقده الإنسان بمعروفه أقاربه، ثمَّ اليتامىٰ؛ لأن مواساتهم بعد الأقارب أولىٰ، ثمَّ المساكين الذين لا مال لهم حاضرًا ولا غائبًا، ثمَّ ابن السبيل الذي قد يكون له مالٌ غائب، ثم السائلين الذين منهم صادقٌ وكاذب، ثم ذَكَرَ الرِّقاب الذين لهم أربابٌ يَعُولُونهم. فكلُّ واحدٍ ممن أُخِّر ذكره أقلُّ فقرًا ممن قُدِّم عليه.

﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ١٧٧﴾

◈ غرض الآية:

بيان أصول الأخلاق بعد بيان أصول الإيمان والأعمال.

البصائر والحكم

- **وجه تخصيص صفتي: الوفاء بالعهد والصبر، ووجه تأخيرهما عما قبلهما:** لأن من أغراض الآية تهيئة المؤمنين لتحمل الأمانة والتكليف وتلقي التشريع. فهو صفة مهمة لذلك، وعلة التأخير: لأن ما قبلهما سبب لهما وباعث عليهما؛ فكأنهما مبنيتان علىٰ ما قبلهما، وأنهما أصل لما بعدهما من الأحكام.

- **وجه اختلاف التعبير في الصفتين بذكر بصيغة الوصف دون الفعل**: للدلالة علىٰ وجوب الاستمرار وأن من أوفىٰ وصبر تكلفـًا لا يكون باراً حتىٰ يصير الوفاء والصبر من أخلاقه وملازماً له.

- **وجه تقييد الوفاء بالعهد بقوله ﴿إِذَا عَٰهَدُواْ﴾**: للإشارة إلىٰ مبادرتهم للوفاء وعدم تأخرهم عن وقت المعاهدة.

- **وجه ختم الصفات بالصبر وتمييزها عما قبلها بالنصب علىٰ الاختصاص**: التنبيه علىٰ مزية الصبر وفضيلته وكونه جامعـًا للأعمال والفضائل، ففي تمييزه تأكيد علىٰ مصاحبته للأعمال كلها[1]، وأنه مرتبط بالأحكام بعده.

- **المراد بأنواع الصبر المذكورة، ووجه تخصيصها**: المراد بالبأساء، من البؤس هو سوء الحال من فقر ونحوه من المكروه، والمراد بالضراء شدة الحال علىٰ الإنسان، والبأس النكاية والشدة في الحرب، ووجه تخصيصها: استوعبت أنواع الصبر وأحوال الإنسان، وأن هذه الأنواع متضمنة لجميع التكاليف والأحكام التي فصلت بعد ذلك، فكأن ذكرها إشارة إلىٰ الصبر علىٰ تلك التكاليف والأحكام بأنواعها، والترتيب جاء من الأدنىٰ إلىٰ الأعلىٰ.

- **وجه تعدية الحالين الأولين بـ ﴿فِي﴾، والثالث بـ﴿حين﴾**: تعدية الحالين الأولين وهما الصبر في البأساء والضراء بفي؛ لأنه لا يتحقق كمال الصبر فيهما إلا في حالة اشتدادهما وملازمتهما له وكونهما كالظرف له، أما إذا كانا في وقت ما فلا يكاد يمدح الإنسان بالصبر علىٰ ذلك؛ لأنه قل أن يخلو أحد من ذلك. وأما

(١) «إرشاد العقل السليم» (١/ ٢٢٩).

القتال فعدي بحين وهو ظرف زمانه لأنه حالة لا تدوم[1].

- وجه ختم الصفات بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾: لأن وصف الصدق دال علىٰ صدقهم وإخلاصهم في الاتصاف بهذه الخصال، ورسوخهم فيها وثباتهم ، عليها، ولهذا جاء بالفعل الماضي الدال علىٰ التحقق، وأن هذين الوصفين كالختم لهم علىٰ كمال اتصافهم بالبر، وكمال استعدادهم للتكليف والعمل بعد ذلك.

- ينبغي الصَّبرُ علىٰ جميع أنواع الضُّر، وقد استوعبتْ هذه الجملة ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ ﴾ جميعَ أنواع الضرِّ؛ لأنَّه إمَّا يحتاج إلىٰ الصبر في شيءٍ يَعوزُ الإنسانَ أو يُريده فلا يناله، وهو البأساء، أو فيما نال جِسمَه من ألَمٍ وسقمٍ، وهو الضرَّاء، أو في مدافعةٍ مُؤذيةٍ له، وهو البأس.

- أنَّ في نصْبِ ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ بتقدير: أخصُّ أو أمدَحُ: تنبيهًا علىٰ خَصيصيةِ الصَّابرين ومزيَّةِ صفتِهم الَّتي هي الصبرُ.

(١) «نظم الدرر» (٢/ ٣٢٠).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ
بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ
إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ
عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ
تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا
ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ
بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿١٨١﴾ فَمَنۡ خَافَ مِن
مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٨٢﴾ ﴾

البقرة: (١٧٨ – ١٨٢)

هذه الآيات واردة في تشريع أحكام القصائص، حفظاً لأعظم الضرورات الخمس للفرد والمجتمع بعد الدين وهو النفس والحياة، وإزالة للتحريف فيه، ومنعاً للتجاوز والتعدي، وإظهاراً لكمال الإسلام وعدله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ
وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰ ... ﴿١٧٨﴾ ﴾

◈ غرض الآية:

تشريع القصاص وبيان حكمة تشريعه، والتشديد في التجاوز فيه، إظهاراً للعدل والمساواة، ومنعاً من التعدي والظلم الواقع في الجاهلية.

◈ معاني الآية:

- وجه المقابلة في الآية بقوله تعالىٰ: ﴿ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ..﴾: أن الآية لا تفيد الحصر، وإنما تفيد المماثلة والتساوي في القود[1]؛ لأن المقصود التساوي والمماثلة وعدم التعدي والتجاوز دون إرادة الحصر.

البصائر والحكم

- وجه افتتاح الآية بنداء الإيمان: أنه لما كان الغرض هو تفصيل التشريع للأمة، والمؤمنون هم المقصودون بالتشريع، وكان هذا مبتدأها وجه لهم مباشرة، ليتلقوه بالامتثال والعمل[2].

- المراد بقوله تعالىٰ: ﴿كُتِبَ﴾ ووجه التعبير به: المراد بقوله تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ﴾ أي فُرِضت إقامته والتقيد به وعدم تجاوزه، وليس المراد أنه فرض علىٰ كل حال؛ لاستثناء حالة العفو والدية في الآية نفسها في قوله تعالىٰ: ﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖ﴾[3]، والتعبير به في الآية لتوكيده وتوثيقه والإلزام به؛ إذ أنه أمر ذو بال؛ لأن ما كتب جدير بثبوته وبقائه.

- المراد بالقصاص، ووجه التعبير به: القصاص: المماثلة والمساواة، وحقيقته راجعة إلىٰ الاتباع، والتعبير به دون القتل لإظهار الحكمة منه وهو المماثلة والمساواة في العقوبة، وفي هذا إظهار لحكمة الإسلام في التشريع وهو إقامة العدل والمساواة بين الناس في حفظ حقوقهم.

(١) «مفاتيح الغيب» (٥/ ٥٤)، «الجامع لأحكام القرآن» (١م/ ٢ج/ ٢٤٦).
(٢) «التحرير والتنوير» (٢/ ١٣٤).
(٣) «جامع البيان» (١/ ١٠٧).

- وجه تخصيص الأنثىٰ دون الذكر: تخصيص الأنثىٰ له ارتباط بالسياق من جهة أن فيه إزالة وإبطالاً لما كان عليه أهل الجاهلية من عدم اعتبار الأنثىٰ في المساواة وازدرائها، وفي هذا إظهار لكمال شريعة الإسلام.

- في قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ دَلالةٌ علىٰ أنَّ تنفيذَ القِصاص من مقتضىٰ الإيمان؛ لأنَّ الخطابَ موجَّهٌ للمؤمنين .

﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٨﴾

◈ غرض الآية:

تشريع العفو في القصاص والترغيب فيه، إظهاراً لكمال شريعة الإسلام بتضمنها العدل والرحمة، وتغييراً لما كان عليه أهل الجاهلية من ذم للعفو.

◈ معاني الآية:

- المقصود بقوله: ﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ﴾: المقصود بالجملة الأولىٰ العافي وهو ولي المقتول، والمراد باتباعه بالمعروف في المطالبة بالدية من غير تعنيف وتشديد عليه. والمقصود بالجملة الثانية: المعفو عنه وهو القاتل، والمراد أداء الدية بإحسان من غير أن يماطله أو يبخسه شيئاً؛ لأن السياق متضمن الحض علىٰ العفو من قبل ولي المقتول، والعفو إذا كان فيه تعنيف أو تشديد فليس ذلك من العفو بالمعروف، فيكون الاتباع بالمعروف متعلقاً به، أي اتباع للعفو الذي جاءت به الشريعة بالمعروف.

البصائر والحكم

- **وجه ذكر العفو بعد القصاص في الآية:** دال علىٰ رغبة الشارع في تقديم العفو والترغيب فيه والحث عليه خلافًا لما كان عليه أهل الجاهلية من ذم العفو.

- **وجه كون العفو تخفيفًا علىٰ الأمة ودلالته علىٰ كمال الشريعة:** أن فيه حفظًا للأنفس من جانبين، جانب الفرد والمجتمع، فالفرد بتشريع العفو، والمجتمع بتشريع القصاص، وأن فيه مصالح متعددة للطرفين، فأما ولي المقتول فقد يكون العفو مع الدية خيراً له من جهة حاجته للمال، وخيراً للقاتل من جهة كون العفو حياة جديدة له في إصلاح نفسه وتوبته واستبقاء عمره بالعمل الصالح.

- **المراد بالاعتداء في قوله تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ ومناسبة ذكره بعد العفو:** المراد بالاعتداء اعتداء ولي المقتول بقتل القاتل أو تعديه إلىٰ غيره، ووجه ذلك أن الآية نازلة في إبطال ما كان عليه أهل الجاهلية من التعدي والتجاوز بالزيادة علىٰ قتل القاتل.

- **أنَّ فاعلَ الكبيرة لا يخرُجُ مِن الإيمان بالكليَّة؛** لقوله تعالىٰ: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾؛ فجعَل اللهُ المقتولَ أخًا للقاتل، ولو خرَج من الإيمانِ لم يكُنْ أخًا له.

﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٧٩﴾

◈ غرض الآية:

إظهار حكمة تشريع القصاص لتطمئن إليه النفوس وتمتثله، وتدرك حاجتها وضرورتها إليه.

البصائر والحكم

- قوله تعالىٰ: ﴿وَلَكُمْ﴾ يفيد أن المقصود العناية بهم، وأن المراد حياتهم أنفسهم لا غيرهم.

- التعبير بـ﴿ٱلْقِصَاصِ﴾ دون القتل؛ مشعر بالمساواة، ومبنىٰ عن العدل بخلاف القتل.

- التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿حَيَوٰةٌ﴾ نص علىٰ المقصود الأعظم من هذا التشريع، ونص علىٰ أعظم مطلوب لدىٰ البشر، فهو تعبير في غاية البلاغة والدقة؛ إذ أن فيه ترغيبًا وتشويقًا عظيمًا، وتنكيره يفيد تنويعًا وتعظيمًا، أي حياة شاملة باقية، ولهذا فسروا الحياة في الآية بالبقاء [(١)].

- جعل الفناء والموت محلاً ومكانًا لضده وهو الحياة، واستقرار الحياة في الموت مبالغة عظيمة، وجعل القصاص كالمنبع للحياة والمعدن لها بإدخال ﴿فِي﴾ عليه [(٢)].

- وجه تخصيص أولي الألباب في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: لأنهم هم الذين يعقلون ويدركون الخطاب. والخطاب موجه للمؤمنين [(٣)]، ولأنه لما كانت الآية في إظهار الحكمة في القصاص وغايته، احتاج إلىٰ نظر العقول ودقة تدبرها فيه، أن في التعبير بالألباب الذي هو من صحة العقل والتفكر، دعوة للتخلص مما علق في نفوسهم وعقولهم من أمور الجاهلية [(٤)].

---

(١) «محاسن التأويل» (١/ ٤٤٩).

(٢) «محاسن التأويل» (١/ ٤٤٩).

(٣) «جامع البيان» (٢/ ١٢٠).

(٤) انظر: «إرشاد العقل السليم» (١/ ٢٣٢).

- وجه ختم الآية بقوله تعالىٰ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: أن فيه حثاً علىٰ التقوىٰ الدافعة للامتثال، والمانعة من التعدي والتجاوز، وأن فيه دلالة علىٰ أن الله تعالىٰ يريد من عباده الكمال بهذه الأحكام، والصلاح في الدارين [1].

- أنَّ كونَ القِصاص حياةً يحتاج إلىٰ تأمُّل وعقلٍ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠)﴾

◈ غرض الآية:

هو بيان الحقوق المالية الواجبة قبل الموت، إقامة للحق فيها ومنعاً للظلم وما يؤدي إلىٰ النزاع والشحناء.

◈ معاني الآية:

- حكم الوصية، والنسخ في الآية: أنها منسوخة بآيات المواريث، فلا وصية واجبة لأحد علىٰ أحد، ولكن يبقىٰ وجوب الوصية عاماً لمن عليه حقوق أو ديون، والندب والاستحباب فيها لغير الورثة، إعمالاً للآية والأحاديث [2]؛ لأن سياق الآية في بيان الحقوق الواجبة قبل الموت، وقد بينت آيات النساء حقوق الورثة، فتكون الآية منسوخة في حق الورثة، ويبقىٰ الوجوب في الحقوق الواجبة لغير الميراث، وتبقىٰ الوصية لغير الورثة وهي بين الوجوب والاستحباب،

---

(١) «مفاتيح الغيب» (٥/ ٦٢).

(٢) «جامع البيان» (٢/ ١٢٤)، «المحرر الوجيز» (١/ ٢٤٨)، «مفاتيح الغيب» (٥/ ٦٧).

والاستحباب أقرب؛ إذ لا دليل من عمل النبي ﷺ والصحابة علىٰ وجوب الوصية لغير الورثة.

- **المراد بالخير ووجه التعبير به:** أن المراد المال الكثير؛ لأن سياق الآية بيان الحقوق الواجبة في المال بعد الموت، وإبطال ما عليه العرب من تخصيص الأبناء فيه دون غيرهم، فيكون المراد بالآية فرض الوصية لهم حال كثرة المال بحيث لا يضر الأبناء.

البصائر والحكم

- **وجه فرض الوصية والتأكيد عليها قبل فرض المواريث:** أنه لما كان غرض الآيات بناء المجتمع المسلم وتأسيسه، وإزالة ماكان عليه العرب من الظلم وأسباب النزاع والشقاق، احتاج الأمر ابتداءً إلىٰ فرض وتأكيد ليكون ذال بال عندهم فلا يمنع ماكانوا عليه من عادة، وأنها كالتمهيد والتدرج للفرائض والمواريث، وهي سنة التشريع في الأحكام التي تحتاج لذلك مما هو مترسخ عند العرب.

- **وجه تخصيص الوالدين والأقرباء دون الأبناء:** فرض حقهم رعاية لهم، وإبطال ما كان عليه أهل الجاهلية من عدم توريث غير الأبناء الذكور، وأن القصد التذكير بحقهم بكونهم والِدَين وأقرباء، لهم حق في المال مع الأبناء لهذا الوصف، وحقهم في المال الوصية، ولهذا جعل الوصية لهم بالمعروف أي فيما ليس فيه مضرة علىٰ الأبناء؛ ولهذا قال ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ وهو ما تعرفه النفوس وتقدره بحيث لا يكون فيه إضرار بالورثة.

- **وجه ختام الآية بقوله تعالىٰ: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ﴾:** أن فيه تحذيراً من مفاجأة الموت علىٰ حال تقصير وتفريط بالوصية فكأنه قال: حقاً علىٰ المتقين للموت. ومن لا يتصف بالتقوىٰ، لا يستعد للموت بوصية ولا عمل، فالمتقي

هو من يبادر بكتابة الوصية خوفاً من مفاجآت الموت فيضيع الحق أو يقصر فيه، ولهذا خص وصف التقوىٰ[1].

- في قوله تعالىٰ: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾، خَصَّ الوالديْنِ والأقربين بالوصية؛ قيل: لأَنَّهم مظنَّة النِّسيان من الموصي؛ لأَنَّهم كانوا يُورثون الأولاد أو يوصون لسادة القبيلة، وقدَّم الوالدينِ للدلالة علىٰ أنَّهما أَوْلىٰ وأحقُّ في البَدْءِ بالوصيَّةِ لهما .

-أهميَّة صِلة الرَّحِم؛ حيث أوجب الله الوصيةَ للوالدينِ والأقربين بعد الموت؛ لأنَّ صِلة الرَّحِم من أفضل الأعمال المقرِّبةِ إلىٰ الله تعالىٰ .

- أنَّ المتَّقين هم الَّذين يراعون فرائضَ الله؛ ولذلك وجَّه الخطابَ إليهم؛ لقوله تعالىٰ: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾.

﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ ﴾
البقرة: (١٧٨ – ١٨٢)

◈ غرض الآية:

بيان الوعيد علىٰ تبديل الوصية، وذلك من تمام العدل ومنع الظلم.

البصائر والحكم

- وجه التعبير بالتبديل في الآية، ووجه قوله تعالىٰ: ﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ ﴾ بدل بدلها:

التعبير بالتبديل دون غيره ليشمل الإبطال أو النقص أو التغيير، والتعبير بقوله تعالىٰ: ﴿بَدَّلَهُۥ﴾ بدل بدلها أي الوصية، يدل علىٰ أن المراد الوصية بالمعروف؛

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١م/ ٢ج/ ٢٦٧).

إذ لو كانت الوصية بغير المعروف لجاز تبديلها، لقوله تعالىٰ: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ فلابد من اقتران المعروف لها، ولهذا جاء الضمير مشيراً إليه [(١)].

- وجه التشديد والتحذير من التبديل: أنه مظنة ذلك؛ إذ فيه تغيير لعادتهم في الوصية؛ إذ كانوا يوصون للأبناء دون الآباء، وأن فيه تحذيراً وتشديداً من عدم إعمال الوصية أو تغييرها، وأن فيه حثاً علىٰ كتابة الوصية، وعدم التعلل بتركها خوف التبديل من جهة أنه حذر من تبديلها وشدد في ذلك علىٰ الموكل بها[(٢)].

- وجه ختم الآية بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: أن فيه تخويفاً للموصي من الجنف وعدم الوصية بالمعروف [(٣)]، وأن فيه تهديداً ووعيداً للمبدلين، وهذا ظاهر لمجيئه في أثر ذكر التبديل، وما يترتب عليه من الإثم [(٤)].

﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾

غرض الآية:

بيان التبديل المشروع للوصية.

البصائر والحكم

- وجه تعليق الأمر بالخوف دون العلم: لأن الخوف قد يقع حال كتابة

(١) «التحرير والتنوير» (٢/ ١٥٢).

(٢) «التحرير والتنوير» (٢/ ١٥٢).

(٣) «جامع البيان» (٢/ ١٢٨).

(٤) «البحر المحيط» (٢/ ١٦٦).

الوصية وإملائها، أو في حال غلبة الظن المقترن بقرينة الميل بعد كتابتها، كأن يظهر من الموصي قبل موته مايدل علىٰ أنه يريد بها منع وصول المال إلىٰ الورثة [(١)]، ولهذا عبّر بقوله تعالىٰ: ﴿مِن مُّوصٍ﴾ ولم يقل ﴿في وصية﴾؛ لأن الموصي قد يقع منه الإثم بدون كتابة ذلك في الوصية.

- **وجه التعبير بالجنف والإثم:** يفيد التنفير منهما وتشنيع أمرهما، والمراد بالجنف لغة: الميل[(٢)]، والمراد به هنا: الميل عن الحق بغير قصد بقرينة السياق وهي مقابلته للإثم الذي هو القصد والعمد.

- **المراد بالإصلاح ووجه التعبير به:** الإصلاح المقصود هو كل ما يمكن وقوع النزاع فيه بسبب الجنف أو الإثم في الوصية، والأطراف الذين يمكن وقوع النزاع بينهم هم الموصي والموصىٰ لهم والورثة، ووجه التعبير بالإصلاح: لأن أعظم ما تضمنه التشريع هو قطع كل ما يؤدي إلىٰ المنازعات والشحناء من الظلم والحيف. وإقامة العدل والرحمة، من أجل تقوية أواصر الأخوة في المجتمع وضمان الاستقرار فيه. فعبّر بالإصلاح لأنه مؤدي لذلك.

- **وجه التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾ مع أنه مصلح بينهم:** لأنه تعالىٰ ذكر إثم المبدل في أول الآية، فعقبه بعدم إثم المبدل المصلح في مقابل جزاء الأول [(٣)]، وأنه لما كان عمل المصلح اجتهاداً في تبديل الوصية إلىٰ العدل، وهو

---

(١) «مفاتيح الغيب» (٥/ ٧٣). قد تكون القرينة هي سماع الناظر للموصي قبل موته بإقرار أو اتفاق مع الموصىٰ له لصرف الوصية لأحد الورثة كأن يوصي لولد ابنته علىٰ أن تصرف لابنته. يؤيد هذا ما أخرجه ابن جرير عن ابن طاووس عن أبيه قال في معنىٰ الآية: (جنفه وإثمه، أن يوصي لبني ابنه ليكون المال لأبيهم وتوصي المرأة لزوج ابنتها ليكون المال لابنتها) انظر: «جامع البيان» (٢/ ١٣٠).

(٢) «لسان العرب» (٩/ ٣٢).

(٣) «مفاتيح الغيب» (٥/ ٧٢).

معرض للخطأ ناسب أن يقول ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾ إي إذا أخطأ بقصد الإصلاح.

- ختم الآية بقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾: دال علىٰ أن الناظر إذا اجتهد في الإصلاح فأخطأ فإن الله غفور رحيم.

- فضيلة القيام بالإصلاح؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ
مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم
مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ
طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ
إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٤ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى
لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ
وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ
بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ
ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٨٥ وَإِذَا سَأَلَكَ
عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي
وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ١٨٦ أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ
نِسَآئِكُمۡۚ هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ
أَنفُسَكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ وَعَفَا عَنكُمۡۖ فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ
ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ
مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي
ٱلۡمَسَٰجِدِۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ
لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ١٨٧ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى
ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٨ ﴾

(البقرة: ١٨٣ – ١٨٨)

سياق الآيات في بيان حكم آخر من الأحكام الشرعية وهو الصيام؛ إكمالاً لفرائض الإسلام، وإظهاراً لكمال الشريعة بموافقتها تشريع الملل السابقة مع اشتمالها على الرحمة واليسر.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾

غرض الآية:

بيان فرضية الصيام، مع بيان الباعث عليه.

معاني الآية:

- **المراد بالمماثلة** في قوله تعالىٰ: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾: المقصود المماثلة في أصل الوجوب والفرض، أي أنه فرض عليهم قبلكم؛ لأن قوله تعالىٰ: ﴿كَمَا كُتِبَ﴾ أي فرض، فهذا صريح في أن المقصود هو فرض الصيام.

- **المراد بقوله تعالىٰ:** ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾: الأنبياء والأمم قبلهم؛ لظاهر عموم الموصول.

- **المراد بالأيام المعدودات:** أيام شهر رمضان؛ لأنه ذكر في الآية الأولىٰ فرض أصل الصيام، مماثلة في فرضه بصيام من قبلنا، ثم بيّن قدره بقوله تعالىٰ: ﴿أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖ﴾ فلزم أن تكون الأيام المذكورة هي المفروضة علىٰ الأمم السابقة، ولا دليل علىٰ فرض صوم غير شهر رمضان، فتعين أن المراد بها شهر رمضان.

البصائر والحكمة

- **وجه افتتاح أحكام الصيام بنداء الإيمان:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: لأن الحكم لما كان تكليفيـاً احتاج إلىٰ مايحرك النفوس لقبوله وامتثاله.

- **غرض التشبيه في الآية:** أنه تأكيد لأمر هذه الفريضة، وبيان لمنزلتها في الدين من حيث أنها مفروضة علىٰ الأمم كلها، حتىٰ لا يقصروا في قبولها، بل

يأخذونها بقوة وعزيمة [١]، وأن فيه تهوينًا علىٰ المؤمنين بهذه الفريضة، لئلا يستثقلوها، وذلك أن الاقتداء بالغير يهون مشقة العمل وصعوبته [٢].

- **وجه العلاقة بين الصيام والتقوىٰ وكون الصيام سبب له:** أن الصيام من أعظم الأعمال الباعثة علىٰ تهذيب النفوس وتزكيتها وتطهيرها وهذه حقيقة التقوىٰ، والصوم فيه وقاية من المحرمات والآثام؛ لأنه حبس للنفس عنها، وفيه وقاية للجسم من الأمراض والعلل والأدواء الناشئة عن الإفراط في تناول اللذات.

- **النَّظر في حِكمة الله سبحانه وتعالىٰ في تنويعِ العبادات؛** فمِنها ما هو ماليٌّ محضٌ: كالزَّكاة، ومنها ما هو بدنيٌّ محضٌ؛ كالصَّلاة، ومنها ما هو مركَّبٌ منهما: بدَنيٌّ، وماليٌّ: كالحجِّ، ومنها ما هو مِن قَبيل التُّروك: كالصِّيام؛ وذلك ليتمَّ اختبارُ المكلَّف؛ لأنَّ مِن النَّاس مَن يَهُون عليه العملُ البدنيُّ دون الماليِّ، ومنهم مَن يكونُ بعكسِ ذلك، وهكذا.

- **تَسليةُ المكلِّف لِمَن كلَّفه بعمل؛** ليهُون عليه القيامُ به، ومن ذلك: الإشارةُ إلىٰ تكليفِ غيرِه به من قبلُ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾، ومن ذلك أيضًا: التعبيرُ بكلماتٍ يكونُ بها تهوينُ الأمرِ علىٰ المكلَّف؛ لقوله تعالىٰ: أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ .

- **يَنبغي سلوكُ الأسبابِ الموصِّلة إلىٰ تحقيقِ التَّقوىٰ؛** لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أوجَب الصِّيامَ لهذه الغايةِ في قوله تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾.

---

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (٢/ ١٥٧).

(٢) «نظم الدرر» (٣/ ٤٤).

- من فوائدِ التَّشبيه المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾: استكمالُ هذه الأمَّةِ للفضائلِ الَّتي سَبقت إليها الأممُ السَّابقة، وليكون للمسلمين فيه أُسوةٌ، وليجتهدوا في أداءِ هذا الفرض بأكملَ ممَّا فعلَه مَن سبقَهم.

﴿أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٤﴾

◈ غرض الآية:

بيان جوانب التيسر في تشريع الصيام، وهي قلة الأيام بالنسبة للسنة، والرخصة للمريض والمسافر والعاجز، تهويناً لأمره تعالىٰ علىٰ المكلفين، وتخفيفاً من وقع التكليف عليهم كالتدريج في الأمر[١].

◈ معاني الآية:

- حد المرض والسفر المبيح للفطر: المراد المرض الذي يحصل بسببه مع الصيام ضرر في النفس أو زيادة في العلة، وأما حد السفر فهو يشمل كل سفر يباح فيه القصر، وهو السفر المعتبر في العرف؛ لأنه قال بعد ذلك ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ فمتىٰ كان في الصوم عسر ظاهر فإن التيسير بالفطر مشروع، وإلا فالصوم في حقه واجب وعلىٰ هذا أكثر الفقهاء[٢].

- نزول قوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ ونسخها: المقصود: أن الجملة دالة ابتداءً علىٰ التخيير بين الصيام والإطعام لمن شق عليه الصوم، ثم

(١) «التحرير والتنوير» (٢/ ١٦١).

(٢) انظر: «المبسوط» (٣/ ١٣٣) «روح المعاني» (١/ ٦٢١).

نسخ حكم التخيير منها، وخصص الحكم فيها بعد ذلك بالكبير العاجز، مع بقاء الرخصة للمريض والمسافر في الآية؛ لأنه لما قال ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وكان هذا عاماً في الفرض، عطف عليه الرخصة لمن أطاق الصوم مع المشقة، فقال: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ أي وكتب علىٰ الذين يطيقونه أي يستطيعونه بمشقة فأفطروا فعليهم فدية.

- **المراد بقوله تعالىٰ: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾**: العموم، ويؤكده التعبير بالخير وإطلاقه فيعم أنواع التطوع التي يوافقها السياق.

- **المقصود بقوله تعالىٰ: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾**: أي: خير لكم من الفدية؛ لأن الجملة معطوفة علىٰ ماقبلها فالأولىٰ رجوعها إليه [١].

البصائر والحكم

- **التعبير بقوله ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾** لبيان قلتها بالنسبة لأيام السنة، ترغيباً في صيامها، فيكون التصريح بها بعد ذلك هو المتعين في تحديدها.

- **وجه قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، ووجه تقديمها علىٰ تقدير الصوم**: لإظهار لكمال الشريعة بظهور التخفيف والتيسير فيها، والترغيب في تلقي الأمر بالصيام، وإنما قدمها علىٰ تقدير الصوم بشهر رمضان زيادة في الترغيب وتطميناً لنفوس المؤمنين بالتخفيف عليهم في الأمر بالتكليف بالصيام [٢].

- **التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ دون ﴿مسافر﴾** مناسب من جهة أن السفر يتعلق بالقصد، بخلاف المرض فإنه وصف عارض لا قصد للإنسان فيه. كما أن

---

(١) «التحرير والتنوير» (٢/ ١٦٨).

(٢) «التحرير والتنوير» (٢/ ١٦٢).

السفر يتعلق بحال الإنسان لا بذاته، بخلاف المرض فإنه صفة قائمة بذاته[1].

- دلالة قوله تعالىٰ: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾: تدل علىٰ وجوب القضاء حال الإفطار، وعليه فإن السياق يدل علىٰ محذوف تقديره ﴿فأفطر﴾ علىٰ رأي الجمهور[2].

- وجه نزول التخيير بين الصيام والإطعام في أول تشريع الصيام ثم نسخه:

أن فيه التخفيف عليهم فيه لعدم اعتيادهم عليه، وأن فيه مراعاة جانب الحاجة للإطعام في أول الإسلام، حيث كان الفقر أغلب، وأما نسخه فلأن تشريع الصيام هو المقصود أصلاً لأنه فرض الأمم كلها، ولأن الغرض من التخفيف زال بالاعتياد عليه؛ ولأن الصوم أعظم أثراً من الإطعام إذ أنه يبعث علىٰ الهداية والتربية وحصول التقوىٰ.

- القراءات في قوله تعالىٰ: ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾:

ورد في الآية قراءتان صحيحتان:

القراءة الأولىٰ: قراءة الجمهور ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ بالتنوين، ورفع طعام، وإفراد مسكين. وهي تفيد تعيين البدل وهو الفدية، وتفيد مقدار الفدية وهو طعام مسكين، أي: ما يكفي إطعامه عادة.

القراءة الثانية: قرأ نافع وابن عامر وابن ذكوان ﴿فِدْيَةُ طَعَامِ مَسَاكِينَ﴾ بغير تنوين مع كسر طعام مضاف إليه، وجمع مساكين[3]، وهي: تفيد نوع الفدية وأنه طعام، والمعنىٰ: فدية من طعام.

---

(١) انظر: «مفاتيح الغيب» (٥/ ٨١).

(٢) «نظم الدرر» (٢/ ٣٢٠).

(٣) «جامع البيان» (٢/ ١٤٨)، «البحر المحيط» (٢/ ٩٣)، «السبعة» (ص١٧٦)، «النشر» (١/ ٢٨٢)..

أما قراءة ﴿مِسۡكِينٍ﴾ بالإفراد فتفيد أن علىٰ كل واحد لكل يوم طعام مسكين، فبيّنت الواجب في اليوم.

أما قراءة ﴿مساكين﴾ بالجمع فتفيد أن الذين يطيقونه فيفطرون، عليهم طعام مساكين باعتبار مجموعهم.

- وجه ختم الآية بقوله تعالىٰ: ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾: أن فيه تأكيداً لخيرية الصيام، وترغيباً فيه، وإغراءً علىٰ التعرف علىٰ خيرية الصيام وفوائده؛ ليكون أدعىٰ لفعله وتقديمه علىٰ الإفطار.

- النَّظَر في حِكمةِ الله سبحانه وتعالىٰ في التدرُّج بالتَّشريع؛ حيث كان الصِّيامُ أوَّلَ الأمرِ علىٰ سبيلِ التَّخيير، فإمَّا أنْ يصومَ، وإمَّا أنْ يُطعِمَ كما قال تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾، ثمَّ تعيَّن الصِّيامُ علىٰ القادرِ بعد ذلك.

- ثبوتُ تفاضُلِ الأعمال؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾، وتفاضُلُ الأعمال يستلزم تفاضُلَ العامل.

﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ ... ١٨٥﴾

◈ غرض الآية:

بيان وجوب صيام رمضان مطلقاً بعد التخيير فيه، وحكمة فرضه وتخصيصه. إظهاراً لمنة الله علىٰ الأمة في الكمال والتيسير. وترغيباً في الصيام وتأكيداً لفرضه.

البصائر والحكم

- إظهار لفظ الشهر وإضافته إلىٰ رمضان: فيه دلالة علىٰ وجوب استيعاب جميع أيامه بالصوم، لئلا يُتوهم بعضه مع تقدم قوله تعالىٰ: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾، ولهذا قال في آخر الآية ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ أي عدة الشهر.

- وجه افتتاح الآية بقوله تعالىٰ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ قبل فرضه: التمهيد لفرض الصيام بما يبعث علىٰ تلقيه بالقبول والامتثال، وذلك ببيان فضله وشرفه، بيان السبب الموجب لفرض الصوم فيه، وهو إنزال القرآن الذي به بداية ملتهم وهو سبب هدايتهم، وفي هذا إظهار لمنة الله عليهم بإنزال القرآن الموجب للشكر بالصوم.

- وجه العلاقة بين القرآن وبين الصوم: لأن كلا منهما مذكر بالمقصد الأعظم في التشريع وهو الهداية والتقوىٰ، ولأن الصيام سبب لارتفاع القلب من الاتصال بالعلائق البشرية إلىٰ الاتصال والتعلق بالعلائق السماوية التي نزل منها القرآن. ففيه اتصال مباشر بجهة نزول القرآن. وبهذا يلتقيان من هذا الوجه[(١)]، ولأن الصيام سبب لصفاء الفكر ورقة القلب التي هي سبب الانتفاع بالقرآن والاهتداء به.

- وجه وصف القرآن بقوله تعالىٰ: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾: لأن الصوم يربي الناس ويهيئهم للإيمان والتقوىٰ التي هي سبب هداية القرآن[(٢)].

---

(١) «روح المعاني» (١/ ٦٢٧).

(٢) ويؤيد هذا معنىٰ الصوم لغة، وهو الكف، فالكف والتنزه عن المحظورات سبيل للتحلية والتزين بالكمالات، ومن هنا كان الصوم بمقام التقوىٰ التي بها التخلي والتنزه عن المحضورات، والقرآن بمقام الهدىٰ الذي به التحلي بالكمالات.

- **المراد بالبينات والفرقان:** المراد بالبينات من الهدىٰ ما فيه من بيان واضح للحدود والفرائض والأحكام والحلال والحرام[1]، وأما الفرقان: فهو المفرِّق بين الحق والباطل[2]، وأيضـاً فإن في الوصفين «البينات والفرقان» دلالة علىٰ كمال الدين من جهة أن في قوله تعالىٰ: ﴿وَبَيِّنَٰتٖ﴾ إشارة إلىٰ أن القرآن فيه كمال شرعهم، وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلۡفُرۡقَانِ﴾ إشارة إلىٰ كمال دينه بالنصر والتمكين.

- **وجه قوله تعالىٰ: ﴿وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ﴾ بعد قوله تعالىٰ: ﴿هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾:** أن فيه إظهاراً ماتضمنه القرآن من الهداية المجملة والمفصلة، فأما هدايته المجملة فبما تضمنه من المواعظ والقصص وأخبار الأمم والأمثال والوعد والوعيد وأحوال الآخرة.

- **وجوه التمهيد في الآيات لتعيين فرض صيام الشهر مطلقًا، وحكمتها:** علىٰ ما يلي:

أولاً: بيان فرض الصيام علىٰ الأمة كما فرض علىٰ من قبلها، في قوله تعالىٰ: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾

ثانيـاً: بيان حكمة الصيام وفائدته، وهي التقوىٰ، في قوله تعالىٰ: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾.

ثالثـاً: الرخصة للمريض والمسافر. في قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾

رابعـاً: التخيير بينه وبين الإطعام لمن شق عليه، في قوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖ﴾.

(١) «جامع البيان» (٢/ ١٥٢)، «المحرر الوجيز» (١/ ٢٥٤).

(٢) «جامع البيان» (٢/ ١٥٢)، «المحرر الوجيز» (١/ ٢٥٤).

خامساً: بيان فضل الصيام على الإطعام، في قوله: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

سادساً: بيان فضل الشهر وموجب فرض الصيام فيه بقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾.

سابعاً: بيان أن هذه الآيات من البينات التي اشتمل عليها القرآن. في قوله ﴿وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾.

كل هذه الممهدات دالة على كمال رحمة الله تعالى بهذه الأمة، وكمال الشريعة باشتمالها على التخفيف والتيسير. فله الحمد على كمال نعمته وتيسيرها [1].

- ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾: فيه إثباتُ صِفة العلوِّ لله تعالى؛ لأنَّه أنزَلَ القرآن، والإنزالُ إنَّما يكون من عُلْوٍ.

﴿... فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾

◈ غرض الآية:

تعيين فرض الصوم مطلقاً مع تأكيد الرخصة للمريض والمسافر ونسخ التخيير فيه. بعد التمهيد له والتخفيف فيه.

(١) «مفاتيح الغيب» (٥/ ٧٩).

البصائر والحكم

- المراد بالشهود في الآية ووجه التعبير به: المراد بالشهود الحضور والعلم، فأما الحضور فهو حضوره حال دخول الشهر وعدم سفره، أما العلم أي العلم بالشهر ويدل عليه كلمة شهر الذي هو مشتق من الشهرة؛ لأن الهلال يظهر لهم فيشهرونه ليعلم الناس دخول الشهر وثبوته، فهو بهذا المعنىٰ علم [(١)]، ولهذين المعنيين عبّر بالشهود.

- وجه إظهار لفظ الشهر: أن فيه تعييناً لصيامه كاملاً؛ لأن قوله شهر رمضان لا يعين صيامه، والغرض كله في تعيين صيامه كاملاً، كما أن فيه تعظيماً للشهر وتأكيد عليه [(٢)].

- وجه إعادة الرخصة للمريض والمسافر: إزالة التوهم بنسخه، وذلك أنه اقترن في الموضع الأول بقوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾، وأن الغرض في الموضع الأول التعجيل بالإعلام بالرخصة ورفع الحرج رفقاً بالأمة وترغيباً في الصيام. والغرض في الثاني تعيين الرخصة بعد تعيين صيام الشهر لإثباتها [(٣)]، وأن فيه تأكيداً علىٰ الرخصة مقترنـاً بالتأكيد علىٰ الصوم إظهاراً لكمال الشريعة.

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾: إظهار حكمة الشريعة وكمالها بتضمنها لليسر والرحمة، لتطمئن النفوس إليها وتأنس بها.

---

(١) انظر: «مفاتيح الغيب» (٥/ ٩٥)، «التحرير والتنوير» (٢/ ١٦٩)، (٢/ ١٧٣).

(٢) «إرشاد العقل السليم» (١/ ٢٣٦).

(٣) «التحرير والتنوير» (٢/ ١٧٤).

- قوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾: ومن هذه الآية أخذ العلماء القاعدة الكلية في الشريعة، وهي قاعدة (المشقة تجلب التيسير)[1].

- وجه إبراز قوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ في آيات الصوم: أن الصيام من فروض الإسلام وهو أول فرض تتحدث عنه السورة، أما ما سبقه وهو القصاص والوصية فهي في بيان حدوده وحقوقه، ولذلك قال فيها ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فكأن الحدود مشتملة علىٰ التخفيف، والفرائض مشتملة علىٰ التيسير، فكملت الشريعة بهما جميعًا، وأن الصيام من أعظم الأحكام التي يحصل فيها مشقة، خاصة أنهم لم يعتادوه من قبل. فناسب ذكر التيسير فيه وإظهاره.

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾: التأكيد علىٰ إكمال العدة بصيام الشهر كله، وفي هذا إشعار بلزوم استيفاء الشهر أداءً في العزيمة، وقضاءً في الرخصة، ويؤيد هذا قراءة التشديد ﴿وَلِتُكَمِّلُوا۟﴾[2]، وتقدم الواو واللام المفيدة للأمر[3].

- وجه التعبير بالعدة دون الشهر في قوله تعالىٰ: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾: أنه يدخل فيه عدة أيام الشهر وأيام القضاء لتضمن الآية لهما، ولو قال عدة الشهر، لما دلت الآية علىٰ القضاء[4]، وفيه إشارة إلىٰ لزوم إكمال العدة حال تعذر العلم بالشهر دخولاً وخروجًا كما في حال الغيم ونحوه، أو عدم القدرة علىٰ رؤية الهلال كما في المناطق التي يغطيها الليل أو النهار.

---

(١) انظر: «المدخل إلىٰ مذهب الإمام أحمد» «١/ ٢٩٨» و «المنثور في القواعد» «١/ ١٢٣»

(٢) انظر: «البحر المحيط» (٢/ ٢٠١)، «الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٢٨٤)، «النشر» (٢/ ٢٢٦).

(٣) «البحر المحيط» (٢/ ٢٠١).

(٤) «مفاتيح الغيب» (٥/ ٩٩).

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾: بيان استحقاق الله تعالىٰ للتعظيم بالذكر علىٰ الهداية للشهر والتوفيق لصومه. إظهاراً لعظم الهداية لتشريع الصيام وما حفّ به من التيسير والتخفيف[1].

- معنىٰ التكبير ووجه التعبير به في الآية: التكبير هو إظهار القدر والتعظيم، ولاشك أن عظم الهداية والتوفيق لهذا الفرض وتيسيره جدير بإظهار قدره تعالىٰ وتعظيمه، ولهذا عبّر به وأظهر اسم الجلالة في الجملة[2]، وفيه إشارة إلىٰ مشروعية التكبير في آخر الشهر وبعد إكمال العدة؛ ولهذا شرع إعلانه وإظهاره وتكراره يوم العيد.

- وجه تشريع التكبير بعد الصيام: ليكون دالاً علىٰ الشكر ومظهراً للاعتراف بفضل الله، بدلاً عما كانت الجاهلية تفعله عند انقضاء المناسب من الفخر بالآباء وتعدد المناقب.

- وجه التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ دون ﴿ما شرعه لكم﴾: أن التعبير بذلك للإشعار بأن هذا التشريع هو سبب تحقيقهم للهدىٰ وبه صلاح أحوالهم، وهو باعث للنفوس علىٰ استحضار منة الله بالهداية لهذا التشريع، والشعور بقيمته، وتذكر فضل الله تعالىٰ عليهم به.

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: التعليل لما يوجب شكر الله تعالىٰ علىٰ منته وفضله في اشتمال هذا التشريع علىٰ الحكمة والتيسير والرحمة.

- ختم الآية بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: لأن تمام العدة وتحقق هداية الله ومنته وفضله كل ذلك دال علىٰ استحقاقه للشكر[3].

(١) «جامع البيان» (٢/ ١٦٣).

(٢) «نظم الدرر» (٣/ ٦٥).

(٣) «مفاتيح الغيب» (٥/ ١٠١).

- **وجه ختم الأحكام بالحِكَم السابقة:** أن من سنة القرآن الحكيم أن يبين مع كل حكم حكمته التشريعية وفائدته في تقوية الإيمان ويبعث علىٰ تحقيق كمال العمل، أن ذكرها والتنصيص عليها يرسخها في النفوس، ويجعلها مستحضرة مع كل حكم شرعي.

- **وجه ترتيب الحِكَم السابقة:** أنها رتبت علىٰ الكمال. وبيان ذلك ظاهر بأن إكمال العبادة باعث علىٰ الشعور بالهداية واستحضار المنة، والشعور بالهداية باعث علىٰ الشكر، والشكر بمقام الحمد لله فهو باعث علىٰ السؤال والدعاء، ولهذا شرع تقديم الثناء قبل الدعاء، وتحقيقها كلها باعث علىٰ الكمال في الدين، ولهذا ختم الآية بقوله تعالىٰ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾. ولذلك أتت بصيغة العطف والتعليل الدال علىٰ ترتب الأمر علىٰ ما قبله، أي لتكملوا العدة ولتكبروا الله ولعلكم تشكرون.

- ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾؛ لأنَّ المرَضَ والسَّفر مَظِنَّةُ المشقَّةِ.

- **في قوله تعالىٰ:** ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ إثباتُ صِفة الإرادةِ لله تعالىٰ، والمرادُ بها هنا: الإرادةُ الشَّرعيَّة، وهي بمعنىٰ المحبَّة.

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾

◈ غرض الآية:

بيان فضل الدعاء ومناسبته بعد العبادة والذكر والشكر. ترغيباً وتحفيزاً علىٰ ذلك كله لتحقيق الكمال في الدين.

◈ معاني الآية:

- المراد بقوله تعالىٰ: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي﴾: أن معنىٰ الاستجابة: فعل الطاعة وامتثال أمر الله. ومعنىٰ الإيمان في الآية: التصديق بالقلب؛ لأن الآية في سياق الحض علىٰ الصيام، ولهذا جاءت متوسطة آيات الصيام.

البصائر والحكم

- سبب نزولها: الآية نازلة تبع لآيات الصيام، ولم يكن نزولها مستقلاً بسبب معين؛ لأن الغرض من الآية هو الترغيب في الصوم وتحقيق ما أمرهم به من إكمال العدة والتكبير والذكر، ببيان جزائهم علىٰ ذلك، ولهذا قال في آخرها ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي﴾ أي ليستجيبوا لما أمرتهم به من قبل، ومن ذلك الصيام وإكمال العدة والذكر والشكر.

- وجه ذكر سؤالهم بصيغة المستقبل، مع عدم وقوعه منهم: تحفيزهم للدعاء وحثهم عليه بعد العمل، ولأنه جُعل هذا الخير مرتباً علىٰ تقدير سؤالهم إشارة إلىٰ أنهم يهجس هذا في نفوسهم بعد أن يسمعوا الأمر بالإكمال والتكبير والشكر أن يقولوا: هل لنا جزاء علىٰ ذلك؟ [(١)]

- وجه تضمن الآية لبيان عظم حقهم وجزائهم: أنه بادر بذلك قبل سؤالهم المحتمل، فقال ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ﴾، والخطاب للنبي ﷺ للاهتمام وتعظيم الأمر، وأنه وصفهم بوصف العبودية فقال ﴿عِبَادِي﴾ تلطفاً معهم وتحبيباً إليهم وعناية بهم، وأنه تولىٰ بنفسه الجواب مباشرة ولم يقل: فقل: إني قريب، وفيه دلالة علىٰ شدة قرب العبد من ربه في حال الدعاء، وأنه ليس بينه وبينه واسطة في هذه الحالة [(٢)].

---

(١) «التحرير والتنوير» (٢/ ١٧٨).

(٢) «التحرير والتنوير» (٢/ ١٦٩).

- **وجه الجمع بين الاستجابة والإيمان:** بيان تلازمهما، وأنه لا يكون مستجيباً لله من لا يكون مؤمناً، وذلك أن الاستجابة متعلقة بذات الفعل وامتثاله، والإيمان متعلق بالقلب وتصديقه، ولابد منهما جميعاً، ولأن المقصود بالإيمان الرسوخ في الطاعة والثبات عليها ولذا أتىٰ بعد الاستجابة؛ لأن الإيمان يستلزم ذلك.

- **وجه تقديم الاستجابة علىٰ الإيمان:** لأن الاستجابة هي المقصودة في السياق، وأن الاستجابة باعثة علىٰ الإيمان وزيادته ورسوخه.

- **وجه التعبير بالاستجابة والإيمان وختم الآية بهما:** أن الاستجابة هي الإجابة بعناية واستعداد وإقبال؛ إذ السين والتاء تفيد المبالغة، وهي بهذا التعبير مناسبة للجملة الأولىٰ وهو قوله فإني قريب فكأنه تعالىٰ قال: إذا سألتموني بادرت بإجابة دعائكم، فبادروا بفعل طاعتي وامتثال أمري لتحققوا الكمال بالأمرين. والإيمان هو التصديق، وهذا التعبير مناسب لقوله أجيب دعوة الداع إذا دعان؛ لأن إجابة الدعاء هي بمعنىٰ تصديق الدعاء وقبوله وتحقيقه.

- **وجه ختم الآية بقوله تعالىٰ: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ﴾:** أنه لما كان الغرض من التشريع إصابتهم للخير وبلوغهم الكمال في الصلاح بيّن بأن ما أمرهم به مرجعه إليهم بصلاح أمرهم وإصابتهم للخير وبلوغهم الكمال، فلذلك عبّر بالرشد وختم الآية به [1]، وفيه دلالة علىٰ أن الجمع بين الاستجابة والإيمان سبب لقوة الدين وتمكنه وثباته.

- **وجه تضمن الآية لآداب الدعاء:** قال ابن عاشور: «وفي هذه الآية إيماء إلىٰ أن الصائم مرجو الإجابة، وإلىٰ أن شهر رمضان مرجوة دعواته، وإلىٰ مشروعية

---

(١) «البحر المحيط» (٢/ ٢١٠).

الدعاء عند انتهاء كل يوم من رمضان»[1]، وقال ابن كثير: «وفي ذكره تعالىٰ هذه الآية الباعثة علىٰ الدعاء، متخللة بين أحكام الصيام؛ إرشاد إلىٰ الاجتهاد في الدعاء عند إكمال العدة بل وعند كل فطر»[2].

- **قوله تعالىٰ:** ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾: يدل علىٰ الاستجابة لأوامر الله تعالىٰ بصدق وإخلاص، وعلىٰ تقديم الأعمال الصالحة قبل الدعاء، وذلك لأن الاستجابة هنا محمولة من وجه علىٰ فعل الطاعات، وأن يكون الداعي متحريًا للإجابة، وأن الإيمان بموعود الله في الإجابة واليقين بذلك.

- **قوله تعالىٰ:** ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي ... إِذَا دَعَانِ﴾ تخلَّل الدُّعاء أحكامَ الصيام؛ إرشارةً إلىٰ الاجتهاد في الدعاء عند إكمال العدَّة، بل وعند كلِّ فِطر.

- **قيل: إنما قال تعالىٰ:** ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ **ولم يقل:** ﴿فقل لهم إني قريب﴾: إيجازًا لظهوره من قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾، وتنبيهًا علىٰ أنَّ السؤال مفروضٌ غير واقع منهم بالفعل، وفيه لطيفةٌ قرآنية، وهي إيهام أنَّ الله تعالىٰ تولَّىٰ جوابهم عن سؤالهم مباشرةً منه إليهم؛ إذ حذف في اللفظ ما يدلُّ علىٰ وساطة النبي ﷺ؛ تنبيهًا علىٰ شدَّة قُرب العبد من ربِّه في مقام الدُّعاء، واحتيج للتأكيد بـ﴿إنَّ﴾؛ لأنَّ الخبر غريبٌ، وهو أن يكون تعالىٰ قريبًا مع كونهم لا يرونه.

- **قُيِّدت هذه الآية بالمشيئة** ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾، وأمَّا قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ فأطلقت فيه إجابة الدعوة دون تقييدٍ بالمشيئة؛ قيل لأنَّ الآية التي قُيِّدت: جاءت في دعاء الكفار، وجاءت الآية الأخرىٰ في دعاء المؤمنين فلم تُقيَّد بالمشيئة؛ لأنَّ دعاء المؤمن لا يُرَد إلا إذا كان بإثمٍ أو قطيعة، وما جرىٰ مجرىٰ ذلك .

---

(١) «التحرير والتنوير» (٢/ ١٨٠).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٥٠٩).

- أنَّ مِن شرط إجابةِ الدُّعاء: أنْ يكونَ الدَّاعي صادقَ الدَّعوة في دعوةِ الله عزَّ وجلَّ؛ بحيث يكون مخلصًا مُشعِرًا نفسَه بالافتقار إلىٰ ربِّه، ومشعِرًا نفسَه بكرَمِ الله وجُودِه؛ لقوله تعالىٰ: ﴿إِذَا دَعَانِ﴾.

- قيل: جاء قولُه تعالىٰ: ﴿إِذَا دَعَانِ﴾ بعد قوله تعالىٰ: ﴿الدَّاعِ﴾ مع أن الدَّاعي لا يُوصَف بأنه داعٍ إلَّا إذا دعا؛ لأن المراد بقوله تعالىٰ: ﴿إِذَا دَعَانِ﴾: إذا صدق في دعائه إيَّاي؛ بأنْ شعَر بأنَّه في حاجةٍ إلىٰ الله تعالىٰ، وأنَّ الله سبحانه قادرٌ علىٰ إجابته، وأخلص الدعاء لله عزَّ وجلَّ بحيث لا يتعلق قلبه بغيره.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ...﴾

◈ غرض الآية:

هو بيان الأحكام الفرعية المتعلقة بليالي الصيام، والمحظورات المتعلقة بالصيام والاعتكاف، بعد بيان فرضه، بيانًا لحدود الصيام، ولهذا قال في آخرها ﴿تلك حدود الله﴾.

◈ معاني الآية:

- ثبوت النسخ في الآية: الآية ناسخة لحظر سابق وهو الراجح[1]؛ لقول ابن عطية والقرطبي وأبي حيان: «لفظة ﴿أُحِلَّ﴾ تقتضي أنه كان محرمًا قبل ذلك»[2]،

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٢/ ١٧٢)، «المحرر الوجيز» (١/ ٢٥٧)، «مفاتيح الغيب» (٥/ ١١٠)، «الجامع لأحكام القرآن» (١م/ ٢ج/ ٣١٤)، «البحر المحيط» (٢/ ٢١١).

(٢) «المحرر الوجيز» (١/ ٢٥٧)، «الجامع لأحكام القرآن» (١م/ ٢ج/ ٣١٤)، «البحر المحيط» (٢/ ٢١١)

ولقوله تعالىٰ: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾ ولولا أنه كان محرمـًا وأنهم فعلوا معصية لما كان لذلك مناسبة، ولقوله تعالىٰ: ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ﴾ ولو كان الحل ثابتـًا قبل ذلك لما كان لهذا القول فائدة.

- **المراد بالذي كتبه الله في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾:** العموم؛ لأن غرض الآية دال علىٰ أن المقصود رفع نفوسهم ومقاصدهم إلىٰ المقاصد الشرعية في التمتع بالنساء، وإلىٰ طلب مرضاة الله والأجر، ولا شك أن ذلك عام في كل ماشرعه الله لهم في ليالي الشهر. فتبقىٰ الآية علىٰ العموم.

البصائر والحكم

- **وجه ترتيب الأحكام في الآية:** أنها مترتبة علىٰ حسب الحاجة والأهمية في بيان الحكم، وأنه ذكر أولًا ما يباح من الجماع والأكل والشرب، ثم ذكر ما يحرم منهما، وأنه قدم ما هو ألصق بالليل وأكثر وقوعـًا فيه.

- **وجه حظر المباشرة في ليالي رمضان ثم إباحتها:** حظر المباشرة أولاً لمنافاتها لمقاصد الصيام، وهذا ظاهر من حيث أن المباشرة تعلق بالخلق وأنس بهم، والصيام تعلق بالخالق تعالىٰ، ولياليه تبع له، ولهذا منعها حال الاعتكاف لمنافاتها لمقصده، وأما وجه الإباحة: أنه وقع فيه الحرج علىٰ الأمة مما أدىٰ إلىٰ الوقوع في الإثم والمحظور، وأن الشهوة الجنسية والرفث إلىٰ النساء من أعظم ما تتعلق به النفس وتهواه وتطلبه، وهو مما يمنع من تفرغ القلب ويشغل البال والخاطر.

- **وجه افتتاح الآية ببيان الحل قبل ذكر سببه:** أنه لما كان الحكم مشتملاً علىٰ التخفيف والرحمة قدمه علىٰ السبب إظهاراً لجانب العناية والتيسير، ورفعـًا للحرج عن الأمة، وأن في تقديمه ترغيبـًا وتحفيزاً علىٰ التمسك بالفرض

واستشعار فضل الله تعالىٰ ورحمته وتيسيره علىٰ الأمة، ولهذا قال ﴿لَكُمْ﴾.

- **وجه التعبير بالرفث، وتعديته بإلىٰ:** التعبير بالرفث والإفضاء والمس والغشيان والقربان ونحوها مما أتىٰ به القرآن عن الجماع هو أولاً دليل علىٰ كمال التعبير القرآني في الكناية عن الأفعال المستقبحة عادة، وأنه يتنافىٰ مع مقصد الصيام، فعبر عنه بلفظ يشعر بالكراهة، وأن الغرض منه في الآية إباحة ما حرم من قبل، وليس الغرض هو الحث عليه والترغيب فيه، فعبّر هنا بالرفث دفعاً لما قد يفهم أن الإباحة تفيد الترغيب في الجماع ليلة الصيام، وهو ليس كذلك.

قال الراغب: «كناية عن الجماع في قوله تعالىٰ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ وعدي بإلىٰ لتضمنه معنىٰ الإفضاء»[1].

- **غرض قوله تعالىٰ: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾:** بيان سبب الإباحة والرخصة،وهو شدة الاتصال بينهما لاختلاطهما وصعوبة اجتنابهن في الليل.

- **تقديم جملة ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾** يدل علىٰ أن شدة حاجة الرجل للمرأة كحاجته للباس.

- **غرض قوله تعالىٰ: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ والمراد بالتخون:** بيان سبب آخر للإباحة، وهو ما يقع في نفوسهم من إرادة الجماع والرغبة فيه الذي يؤدي إلىٰ اختيانهم فيه، وذلك من الحرج والمشقة، فكان سبباً في الحل[2]، وأما المراد بالاختيان فهو إرادة الخيانة[3]، أو فعل الشئ المخالف لا يقصد المخالفة وإنما هو مما تهواه النفس وتجنح إليه مع عدم الصبر عنه. ويؤيده قوله تعالىٰ: ﴿أَنفُسَكُمْ﴾.

---

(١) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٣٥٩).

(٢) انظر:«إرشاد العقل السليم» (١/ ٢٣٧).

(٣) «المفردات» (ص٣٠٥).

- سبب نزول قوله تعالىٰ: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾:
ما راوه البخاري عن البراء رضي الله عنه قال: «لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله، وكان رجال يخونون أنفسهم فأنزل الله ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾»[1].

- قوله تعالىٰ: ﴿كُنتُمْ﴾ ولو لم يقع ذلك منهم لقال ﴿ستختانون﴾.

- قوله تعالىٰ: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾ فالتوبة والعفو غالبًا ما تكون من ذنب وخطأ.

- وجه التعبير بقوله ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾: أن السياق دل علىٰ تضمن الحكم لرفع الحرج مع إظهار التخفيف والتيسير علىٰ الأمة، وأن لفظ العفو دال علىٰ حكمة الشريعة ومقصدها وهو الرحمة والتيسير.

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾: الإذن بالمباشرة وربطها بمقاصدها الشرعية، مع الترغيب فيما شرعه الله في ليالي رمضان.

- أنَّ الزَّوجةَ سِترٌ للزَّوج، وهو سِترٌ لها، وأنَّ بينهما مِن القُربِ كما بين الثِّيابِ ولابِسِيها، ومِن التَّحصينِ للفُروج ما هو ظاهِرٌ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾.

-أنَّ الإنسانَ كما يخُون غيرَه قد يخُون نفسَه؛ وذلك إذا أوقَعها في معاصي اللهِ؛ فإن هذا خيانةٌ، وعلىٰ هذا فنفسُ الإنسان أمانةٌ عنده؛ لقوله تعالىٰ: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ البقرة: ١٨٧.

(١) أخرجه البخاري (٤/ ١٦٣٩) ح(٤٢٣٨).

- أنَّه ينبغي أنْ يكونَ الإنسان قاصدًا بوَطْئِه طلَبَ الولَدِ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ .

- جوازُ أنْ يُصبِح الصائمُ جُنبًا؛ لأنَّ اللهَ أباح الجِماعَ حتَّىٰ يتبيَّنَ الفجرُ، ولازِمُ هذا أنَّه إذا أخَّر الجِماعَ لَم يغتسِلْ إلَّا بعد طلوعِ الفجرِ، وقد ثبَت عن الرَّسولِ ﷺ أنَّه كان يُصبِح جُنُبًا مِن جِماعِ أهلِه، ثم يصومُ .

﴿... وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ ... ١٨٧﴾

◈ غرض الآية:

بيان إباحة الأكل والشرب في ليالي الصيام بعد حظره في حالة النوم قبل العشاء.

البصائر والحكم

- المراد بالخيط الأبيض هو ضوء النهار وبياضه، والخيط الأسود: سواد الليل؛ لدلالة حديث عدي بن حاتم، ولأن الغرض بيان وقت ابتداء الصوم ونهاية وقت إباحة الأكل والشرب والجماع.

- نزول قوله تعالىٰ: ﴿مِنَ ٱلۡفَجۡرِ﴾: نزل متأخرا عن الآية. كما دل علىٰ ذلك سبب النزول الذي أخرجه البخاري ومسلم عن سهل بن سعد قال: «أنزلت ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِ﴾ ولم ينزل ﴿مِنَ ٱلۡفَجۡرِ﴾ وكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود ولا يزال يأكل حتىٰ يتبين له رؤيتهما فأنزل الله بعده ﴿مِنَ ٱلۡفَجۡرِ﴾ فعلموا أنما يعني الليل من النهار»[1].

(١) أخرجه البخاري (٤/ ١٦٤٠) برقم(٤٢٤١). ومسلم (٢/ ٧٦٧) برقم(١٠٩١).

- غرض قوله: ﴿مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾: أن في نزوله رفعاً للالتباس الذي وقع من الصحابة بعد نزول الآية، وهو من الحرج، وهو ظاهر بما دل عليه سبب النزول[1]، وأن في نزوله توسيعاً لوقت الإمساك.

- الأحكام التي تضمنتها الآية: الأمر بالسحور وفضيلته. وذلك أنه بعد أن أذن في المباشرة، وابتغاء ماكتب الله لهم، ومن ذلك القيام، أمرهم بالأكل بعد ذلك مما يشير إلىٰ أن الأكل بعد القيام وهو السحور، وأيضًا صحة صوم الجنب؛ لأن الله تعالىٰ أباح الأكل والشرب والجماع إلىٰ وقت طلوع الفجر، وهذا ظاهر من سياق الآية، وهو جعله الفجر غاية للإباحة.

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ﴾: الأمر بإتمام الصيام وتعيين نهايته. مراعاة لجانب الكمال في الأمة مع التخفيف عليها.

- وجه تضمن قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ﴾ لأحكام الصيام: وجوب إتمام الصيام الفرض بعد الشروع فيه، مشروعية تعجيل الفطر، وانتهاء الصوم بغروب الشمس ودخول الليل؛ لأن ﴿إِلَى﴾ تفيد الغاية، وعدم مشروعية الوصال.

- وجه تأخير قوله ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ﴾ عن آيات فرض الصيام: أن الآيات الأولىٰ متعلقة بفرض الصيام، وهذه الآية متعلقة بجزئياته وتفريعاته، ومنها ابتداؤه وانتهاؤه، وأن فيها تعييناً لوقت الإفطار، ففيه ترغيب لهم، من حيث أنه مشعر بنهاية الصوم وأحكام الفطر.

- أنَّ بياضَ النَّهار وسوادَ الليل يتعاقبانِ، فلا يجتمعانِ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ﴾.

---

(١) «محاسن التأويل» (١/ ٤٧٩).

﴿... وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ ...﴾ (١٨٧)

◈ غرض الآية:

تحريم المباشرة على المعتكف لیالي رمضان.

◈ معاني الآية:

- المراد بالتبين في قوله ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾: وجوب الإمساك متعلق بتبيّن الفجر وظهوره من ابتداء طلوعه حتى انتشاره في الأفق الذي يستوي في العلم به عامة الناس، فمتى ما تبيّن الفجر ابتداءً أو انتهاءً وجب الإمساك؛ لدلالة الأحاديث والآثار عليه.

- المراد بالإتمام في قوله ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ﴾: العموم، وهو أن المراد لزوم إتمامه إلى الليل، وإكماله بتحقيق حكمة تشريعه، واجتناب ما يؤثر عليه، ويدخل في ذلك اجتناب الباطل والمحرم من القول والفعل؛ ويؤيد هذا من السياق التعبير بقوله تعالى: ﴿أَتِمُّواْ﴾ ولم يقل صوموا، وإلا لو قال وصوموا إلى الليل.

- المراد بالمباشرة في قوله ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ﴾: المراد الجماع وما دونه مما يتلذذ به من النساء؛ لأن الغرض من النهي هو منافاة الجماع لمقصد الاعتكاف والبقاء في المسجد.

البصائر والحكم

- وجه ذكر النهي عن المباشرة بعد إباحتها وتأخره عنها في الآية: أنه لما أباح لهم المباشرة في بيوتهم التي هي موضع صِلتهم بزوجاتهم واتصالهم بهن، حرمها عليهم في بيوته التي هي موضع صِلتهم به وعبادتهم له؛ لما أن قصدوا

لزومها والانقطاع إليه فيها؛ فكان لكل مكان مايناسبه، ووجه تأخرها فلوجوه عامة متعلقة بترتيب الأحكام في الآية، ووجه خاص متعلق بالاعتكاف، وهو أن الاعتكاف مشروعٌ في آخر رمضان، فناسب أن يختم به آيات الصيام. إشعاراً بفضله، وبيانًا لحكمته.

- **وجه ذكر الاعتكاف في آيات الصوم:** أن الاعتكاف إنما شرع لطلب ليلة القدر وقيامها، وليلة القدر في شهر رمضان في العشر الأواخر منه، والعلاقة بين الصوم والاعتكاف من جهة اتحادهما في الغرض وهو حبس النفس عن الشهوات لتحقيق التقوىٰ وتقوية الصلة بالله تعالىٰ.

- **قوله:** ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ﴾ دال علىٰ تحريم الجماع للمعتكف، وكراهة مادون الجماع، والنهي عن كل ما ينافي حكمة الاعتكاف، والأمر بكل ما يحقق مقصد الاعتكاف من الخلوة، وقيام الليل والاشتغال بالذكر وقراءة القرآن والدعاء وغير ذلك.

- **قوله:** ﴿وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِ﴾ دال علىٰ مشروعية الاعتكاف في رمضان، ومشروعية الصيام لمن أراد الاعتكاف، وعدم تحديد الاعتكاف بأيام محددة، ومشروعية الاعتكاف في المساجد دون غيرها، ومشروعية الاعتكاف في أي مسجد، ومشروعية الدخول للمعتكف ليلاً، ومشروعية المكوث والجلوس في المسجد للصائم، ومشروعية الاعتكاف في أواخر رمضان.

- **استنبط بعضُ أهل العلم أنَّ الاعتكافَ يكون في رمضان في آخره؛** لأنَّ الله تعالىٰ ذكَر حُكْمه عقِبَ آياتِ الصِّيام؛ وهذا هو الذي جاءت به السُّنَّة .

﴿...تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

◈ غرض الآية:

التأكيد والتعظيم لما ذكره الله في الآية من أحكام، والتحذير من مخالفتها.

◈ معاني الآية:

- المراد بالحدود: الأوامر والنواهي المانعة والفاصلة بين الحلال والحرام، وهي هنا الأوامر والنواهي الفاصلة بين الإباحة والحظر في الأكل والشرب والجماع في رمضان.

البصائر والحكم

- وجه التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ دون ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾: أن الأحكام التي تضمنتها الآية كلها محظورات مشتهاة؛ لأنها متعلقة بالملذات والشهوات وهي الأكل والشرب والجماع، وهي مظنة الوقوع فيها والاختيان كما دلت عليه الآية، فناسب النهي فيها عن القربان؛ إشارة إلىٰ مشروعية البعد عما يدعو إليها وعدم قربانها لئلا يقعوا فيها، وأنه لما كانت الآية واردة في سياق الصوم،وهو الكف عن الشهوات وذلك دال علىٰ التورع عن الوقوع في الشبهات والمنهيات، ناسب أن يعبر بالقربان.

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ﴾: إظهار ما تضمنه الشرع من بيان دال علىٰ الكمال بتضمنه مايناسب أحوال الناس ومراعاة حاجاتهم.

- وجه ختم الآية بقوله تعالىٰ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾: أن فيه تذكيرا بمقصد الصيام الذي افتتحه به وهو قوله تعالىٰ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، وأنه لما كانت

الأحكام مشتملة على موانع ومحظورات عما تشتهيه النفس بطبعها عقبه بالتقوى ليكون حاجزاً عن الوقوع فيها [(١)].

- جاء قولُه سبحانه وتعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾؛ عقب محرماتٍ، فناسب أن يُنهى عن قربانها، والنهي عن قِربان شيءٍ أبلغُ من النهي عن فعله، وجاء في موضعٍ آخر: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلا تَعْتَدُوها﴾ عَقِبَ أوامر؛ فناسب أن يُنهى عن مجاوزتها.

- أنَّه ينبغي البُعدُ عن المحارِم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ .

- أنَّ العِلم سببٌ للتَّقوى؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، ووجهُه: أنَّه ذكَره عقِبَ قولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ﴾؛ فدلَّ هذا أنَّه كلَّما تبيَّنتِ الآياتُ حصَلت التَّقوى، ويؤيِّدُ ذلك قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ فاطر: ٢٨، فكلَّما ازداد الإنسانُ عِلمًا بآياتِ الله، ازداد تُقًى؛ ولهذا يُقال: مَن كان باللهِ أعرَفَ كان منه أخوَفَ .

- في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ البقرة: ١٨٧، إشارةٌ إلى علوِّ مرتبةِ التَّقوى؛ لكونِ الآياتِ تبيَّنُ للناسِ مِن أجلِ الوصول إليها .

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ١٨٨﴾

◈ غرض الآية:

التحذير من أكل الأموال بالباطل، وتحريم الحيل والوسائل المؤدية لذلك. ومنها الرشوة. منعاً للظلم وحفظاً للحقوق.

---

(١) «البحر المحيط» (٢/ ٢٢٣).

◈ معاني الآية:

- المراد بالإدلاء إلى الحكام في الآية: الرشوة بالمال للحكام لاستصدار حكم أو أخذ مال بغير حق. ولا يتنافى مع الأقوال الأخرى؛ لأنها كلها أكل للمال بالباطل؛ لأن السياق في تحريم الحيل والوسائل المحرمة. ولا شك أن الإدلاء بالأموال رشوة للحكام أظهر في الحيلة والوسيلة للحرام من الحجة وشهادة الزور ونحوها.

البصائر والحكم

- المراد بالأكل، ووجه التعبير به في الآية: المراد بالأكل هنا ما يعم الأخذ والاستيلاء بغير حق، بدلالة قوله تعالى: ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾، ووجه التعبير به فلأن السياق في النهي عن الحرام منه، وأكل المال هو الاستعمال الغالب في المال الحرام، وهو الاستعمال القرآني، ولأن الأكل هو المقصد الأعظم من المال؛ إذ هو أهم الحوائج[1].

- المراد بالأموال في الآية: الأموال المحرمة. للإطلاق في الآية، ولقوله تعالى: ﴿بالباطل﴾.

- وجه التعبير بقوله تعالى: ﴿أَمْوَٰلَكُم﴾ بإضافة الأموال إلى المخاطبين: لأنه في حال تدول المال بينهم بالباطل يكون المال منهيًا ومنهيًا عنه، وآكلاً ومأكولاً منه، فخلط الضمير لهذا الغرض[2].

- غرض قوله تعالى: ﴿وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾ ووجه تخصيصها: تحريم اتخاذ المال وسيلة وحيلة للحرام ولأكل مال الناس بالباطل، ووجه التخصيص

---

(١) «نظم الدرر» (٣/ ٩٤).

(٢) «البحر المحيط» (٢/ ٢٢٤).

فلأنها جامعة لمحرمات كثيرة. منها الإفضاء إلىٰ تعطيل حكم شرعي، والتحايل عليه، والتعاون علىٰ الإثم، ولهذا عبّر بالإثم، وأكل المال بالباطل. فهي بهذا أعظم أنواع الأكل الحرام، ولأنها من عمل اليهود.

- **المراد بالإثم، ووجه التعبير به:** المراد بالإثم، الظلم والتعدي[1]، وإنما عبر بالإثم للدلالة علىٰ أن حكم الحاكم بالرشوة لا يؤثر في تغيير حرمة أكل المال [2]، والدلالة علىٰ الاشتراك في الإثم بين الراشي والمرتشي؛ لأنه تعاون بينهما علىٰ الإثم والعدوان.

- **حرص الشَّارِع علىٰ حِفظ الأموال؛** لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾؛ فالأموالُ تقُوم بها أمورُ الدِّين، وأمورُ الدنيا؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾.

(١) «المحرر الوجيز» (١/ ٢٦٠).
(٢) «التحرير والتنوير» (٢/ ١٩٢).

﴿۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ
بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ
مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٨٩ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ
ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ
١٩٠ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ
ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ
كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩١ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٢ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ
لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩٣
ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ
بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩٤ وَأَنفِقُواْ فِي
سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٩٥﴾

(البقرة: ١٨٩ – ١٩٥)

سياق الآيات هو بيان حكمة الأهلة وحكم القتال في الأشهر الحرم وعند المسجد الحرام، تمهيداً وتهيئة للحج، لإكمال الدين وتمكينه في الأرض.

﴿۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٨٩﴾

◈ غرض الآية:

بيان أصل من أصول الدين، وهو إقامة نظام أحكام الشريعة على المواقيت،

وبنائها علىٰ الأهلة.

◈ معاني الآية:

- **المراد بسؤالهم عن الأهلة:** أي: أنهم سألوا عن حكمة تغيرها وارتباط الأحكام بهذا التغير؛ لأن الآية جاءت بعد ذكر هلال رمضان وارتباط دخول الشهر بابتداء الهلال وخروجه بانتهائه ودخول شهر شوال؛ فكأنه ورد في نفوسهم سؤال عن سر هذا الربط بين الصوم والأهلة ابتداءً وانتهاءً.

البصائر والحكم

- **المراد بالمواقيت، ومناسبة ذكرها للسياق:** المواقيت، جمع ميقات، وهو وقت قدر فيه عمل من الأعمال، وذكرها في الآية فيه إشارة لنهاية الصيام، وذلك أنها جاءت بعد آيات الصيام مباشرة، ولم يأت ذكر في آيات الصيام لما يثبت به نهاية الصيام، وفيه إشارة إلىٰ الأحكام التي سيأتي ذكرها في السورة، وأنها مبنية علىٰ المواقيت.

- **وجه تخصيص ذكر الحج:** أن تخصيصه بالذكر وقرنه بالأهلة تثبيت له بأشهره المحددة، وإبطال لما كان عليه أهل الجاهلية من النسيء في الحج وتأخيره، وأن فيه إشارة لدخول أشهر الحج بهلال شوال؛ لأن الآية جاءت بعد آيات صيام شهر رمضان.

- **غرض قوله تعالىٰ:** ﴿وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَا﴾: إبطال ما كان عليه أهل الجاهلية من اعتقاد باطل في الإحرام للحج تمهيداً للأمر به، والآية متضمنة غرضاً عاماً؛ وهو مشروعية إتيان الأمور من وجهها الأيسر والمشروع، وترك الغلو والتشديد والابتداع في الدين، وهذا أصل من أصول الدين، موافق لمقاصد الإسلام.

- **وجه تعليق البر بالتقوىٰ في قوله ﴿مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾:** فيه حث علىٰ تحقيق وإكمال صفات التقوىٰ التي تضمنتها آية البر الأولىٰ، لتكون حافزاً لهم علىٰ الامتثال؛ لأن الآيات بعدها مبنية عليها، ولذلك جعل المتقي هو نفس البر في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ إلهابًا له إلىٰ الإقبال علىٰ التقوىٰ[(١)].

- **ختام الآية بها في قوله ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾:** لبيان أنها تعليلٌ للفلاح؛ فكأنه قال: إذا اتقيتم الله حزتم علىٰ الفلاح، وفي ذلك حث علىٰ اتباع ما أمرهم به، وترك ما كانوا عليه[(٢)].

- **حِرص الصَّحابة رضي الله عنهم علىٰ العلم؛** لقوله تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ .

- **بيان عِلم الله، وسَمْعه،** ورحمته؛ لقوله تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾؛ علِم اللهُ بسؤالهم، وسمِعه، ورحِمهم بالإجابة .

- **أنَّ الميقات المعتبرَ هو الذي وضَعه الله للناس** - وهو الأهلَّة- فالأصل أنْ يكونَ هو الميقاتَ العالَمي؛ لقوله تعالىٰ: ﴿مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾، وأمَّا التوقيتُ بالأشهر الإفرنجيَّة فلا أصلَ له.

- **أنَّ العاداتِ لا تجعَل غيرَ المشروع مشروعًا؛** لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾، مع أنَّهم اعتادوه واعتقَدوه من البِرِّ، فمن اعتاد شيئًا يعتقده بِرًّا، فإنَّ عليه أنْ يعرِضَه علىٰ شريعة الله .

- **أنَّه ينبغي للإنسان أنْ يأتيَ الأمور من أبوابها؛** ليحصلَ علىٰ مقصوده؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾؛ فإن هذه الآيةَ كما تناوَلتِ البيوت الحسِّيَّة تناولت أيضًا الأمورَ المعنويَّة .

---

(١) انظر: «نظم الدرر» (٣/ ١٠٢).

(٢) «نظم الدرر» (٣/ ١٠٣).

- أنَّ الله سبحانه وتعالىٰ إذا نَهَىٰ عن شيءٍ فتَح لعباده مِن المأذون ما يقومُ مقامَه؛ فإنَّه لَمَّا نفىٰ أنْ يكونَ إتيانُ البيوت من ظهورها من البرِّ، بيَّن ما يقومُ مقامَه؛ فقال تعالىٰ: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾.

﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾

◈ غرض الآية:

بيان أصل من أصول القتال، وهو الإذن بالقتال في الأحوال والأزمنة والأماكن المحرمة للمدافعة والقصاص[(١)].

◈ معاني الآية:

- حكم نسخ الآية: السياق دال علىٰ عدم نسخها؛ لورود الآية في سياق ذكر الحج وآياته، وبعد الإشارة للأشهر الحرم بقوله تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾. يدل علىٰ أنها في بيان أحكام القتال في الأحوال الممنوعة، ولقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ وهذا صريح في أن المقصود من يبتدئ بالقتال، ولقوله تعالىٰ: في آخر آيات القتال المتصلة ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ فهذا دليل صريح من سياق الآيات علىٰ أن المقصود بالقتال القتال في الأحوال الممنوعة، ولهذا كانت الآية بيانًا لعلة إباحة القتال وهو القصاص ورد الاعتداء.

- المراد بقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾: المعنىٰ: قاتلوا من ابتدأكم القتال وقاتلكم؛ لأن السياق في بيان ضوابط القتال في الأحوال التي يمنع فيها القتال ابتداءً.

---

(١) هذا في الأحوال الممنوعة أصلًا، أما القتال عمومـًا فهو مشروع ابتداءً لإعلاء كلمة الله وإظهار الدين كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال ٣٩].

- المراد بالاعتداء في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾: العموم، وأخصه الاعتداء في القتال في الأحوال المحرمة، ومنه ابتداء القتال في الأشهر الحرم، وقتل من لم يقاتل؛ لأن سياق الآيات كلها وارد في بيان حدود القتال وضوابطه في الأشهر الحرم والأحوال التي يمنع فيها القتال ابتداءً، وتخصيصه بالمدافعة ورد الاعتداء.

البصائر والحكم

- وجه تشريع القتال في هذا الموضع ومناسبته للأحكام السابقة، وتضمينه لآيات الحج: أنه لما أرسىٰ قواعد الدين الداخلية بتحويل القبلة الذي به وراثة الأمة للبيت، وتشريع القصاص الذي به استقرار الأمن الداخلي وإزالة الظلم والتعدي في المجتمع، وتشريع الصيام الذي به تربية النفوس وتهيئتها علىٰ الصبر، أراد بعد ذلك أن يشرع في إرساء قواعد الدين الخارجية وهو تخليص البيت من الشرك وأهله وتمكين المسلمين منه إظهارًا للدين، فشرع القتال وعلقه بالمدافعة؛ لأنه ليس غاية وإنما وسيلة لتخليص البيت من الشرك، ولأنه لما كان السياق في تشريع الأحكام، وكان أعظم ما يتعلق بالتشريع فرائض الإسلام، ومنها الحج، ولما كان الحج مرتبطًا بالبيت، والبيت في أيدي المشركين، ناسب أن يورد أولاً آيات القتال الذي به إزالة المنع عن الحج وتخليص البيت من المشركين.

- أنَّه ينبغي للمتكلِّم أنْ يذكُرَ للمخاطَب ما يهيِّجه علىٰ الامتثال؛ لقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾.

- حُسن تعليم الله عزَّ وجلَّ؛ حيث يقرنُ الحُكمَ بالحِكْمَة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾.

﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ... ﴿١٩١﴾﴾

◈ غرض الآية:

الأمر بقتل من ابتدأ القتال منهم، وتتبعِهم علىٰ أي حال؛ إباحة لقتالهم في الحرم والأشهر الحرم، واقتصاصاً لما كانوا يفعلونه بالمؤمنين من قبل.

◈ معاني الآية:

- **المراد بالفتنة في الآية:** العموم؛ لأن الفتنة شاملة لذلك كله، وهي حاصلة من المشركين بالشرك والصد عن سبيل الله وإيذاء المؤمنين وإخراجهم عن بلدهم وابتلائهم في دينهم لردهم عنه كله فتنة في الدين، وهو أشد من قتل المسلمين لهم في الحرم.

البصائر والحكم

- **المراد بالثقف في قوله تعالىٰ: ﴿حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ ودلالته:** أي: وجدتموهم وأنتم في حال غلبة وظفر بعد مقاتلتهم لكم، وهو أمر بتتبعهم في أي وقت وعلىٰ أي حال أي في حل أو حرم، أو شهر حرام[1].

- **وجه دلالة الآية علىٰ أصول القتال:** الأمر بقتال المشركين في الحرم والأشهر الحرم إذا بدأوا بالقتال فيه أو صدوا المسلمين عنه؛ دفعاً لصولتهم وحماية للبيت وتطهيراً له، ومشروعية تتبع الكفار بعد فرارهم.

- **غرض قوله تعالىٰ: ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾:** بيان

(١) «نظم الدرر» (٣/ ١١٠).

علة الأمر بقتلهم في الحرم، وهو الاقتصاص منهم بإخراجهم المؤمنين من قبل، وفتنتهم في دينهم بالصد والأذية لهم. وكل ذلك دفع للحرج عن المؤمنين في قتالهم في الحرم. وتهييجٌ لهم علىٰ القتال.

- وجه كون الفتنة أشد من القتل: أن الأول داع إلىٰ الشرك وتمكينه في الحرم، والثاني داع إلىٰ نفي الشرك وزواله عن الحرم، فكانت الفتنة أشد من القتل، ولأن الأول محاربة للدين، والثاني مناصرة له، فكان الأول أشد، ولأن الأول تعدي والثاني قصاص. فكان الأول أشد.

﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩١ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٢﴾

◈ غرض الآيتين:

النهي عن ابتداء قتال المسلمين في الحرم إلا حال ابتداء المشركين القتال فيه.

البصائر والحكم

- القراءات الواردة ودلالتها في السياق:

ورد في الآية قراءتان صحيحتان.

القراءة الأولىٰ: قرأ الجمهور ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ﴾ ﴿حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ﴾ ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ﴾ كلها بألف بعد القاف.

القراءة الثانية: قرأ حمزة والكسائي الثلاثة بدون ألف[1].

وكلتا القراءتين تدلان علىٰ عدة معاني في السياق:

(١) «جامع البيان» (٢/ ١٩٨) «النشر» (١/ ٢٨٠).

القراءة الأولىٰ بالألف تدل علىٰ معنىٰ النهي عن ابتداء المقاتلة حتىٰ يبتدئ المشركون المقاتلة [1].

القراءة الثانية: بغير الألف تدل علىٰ معنىٰ النهي عن ابتدائهم بقتل ولو لم يكن قتال حتىٰ يبدؤوا به. فهي أعم من الأولىٰ، حيث أنها تدل علىٰ النهي عن قتل الكافر في الحرم ابتداءً [2].

- وجه مجيء الخطاب بصيغة النهي خلافًا للآية الأولىٰ: أن الأول متعلق بالقتال في الأشهر الحرم، وهنا الحكم متعلق بالقتال عند المسجد الحرام أي بالحرم.

- وجه تكرار الأمر في الآية بقوله تعالىٰ: ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾: التأكيد علىٰ الأمر بقتلهم حال ابتدائهم، والأمر بتتبعهم بعد ابتدائهم بالقتال لئلا يفهم من الأول مقاتلتهم حال قتالهم فقط.

- وجه ختم الآية بقوله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: أن فيه ترغيبـًا لهم في الانتهاء بعدم مؤاخذتهم علىٰ استباحة حرمة الحرم والمسجد الحرام، وقبول توبتهم علىٰ قتلهم السابق [3].

- الأحكام التي تضمنتها الآية ودل عليها السياق: لجوء الكافر بغير قتال ولا صد عن سبيل الله، فهذا لا يجوز قتله بنص الآية إلا أن يبتدئ القتال، ولكن يجب إخراجه من الحرم، ولجوء الجاني فراراً من القصاص والحد، ولجوء الباغي علىٰ الإمام، وأما من لجأ إلىٰ الحرم وأحدث فيه فتنة أو عمل للصد عن سبيل الله بأي أنواع الصد، فيجب إخراجه فإن لم يمكن وجب قتاله بلا خلاف.

---

(١) «جامع البيان» (٢/ ١٩٨).

(٢) «التحرير والتنوير» (٢/ ٢٠٤).

(٣) قال أبو حيان:» وفي قوله تعالىٰ: (فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) دلالة علىٰ قبول توبة قاتل العمد«انظر: «البحر المحيط» (٢/ ٢٤٦).

- المراد بقوله تعالىٰ: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾ ودلالته: أي: الكفر، ثم المقاتلة لأنها تابعة للكفر، وهذا ظاهر فإنهم إن انتهوا عن الكفر انتهوا عن المقاتلة؛ لأن أن غرض الآية هو كف أذاهم عن المؤمنين لإتمام الحج والتمكن من البيت[1]، وهذا يمكن حصوله دائماً بترك الكفر وهو الكمال، ويمكن حصوله مؤقتاً بترك المقاتلة.

- إثبات العَدْل لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، والجزاء من جِنس العمل.

﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩٣﴾

◈ غرض الآية:

بيان غاية القتال ومقصده بعد بيان أصله وأحواله، وهو زوال الكفر، وكف الأذىٰ عن المسلمين، وإظهار الإسلام وإتمام شعائر الإسلام.

◈ معاني الآية:

- النسخ في الآية: الآية محكمة خاصة لا منسوخة، ويكون حكمها في النهي عن ابتداء القتال عند المسجد الحرام مطلقاً، والأمر بقتال من بدأ بالقتال فيه، وتكون الآيات الأخرىٰ عامة ؛ لأن السياق في القتال عند المسجد الحرام، فهو خاص به، والآيات الأخرىٰ عامة. ولا يمكن أن يُنسخ الخاص بالعام.

- المراد بالفتنة في الآية، ووجه التعبير بها: الشرك وما تبعه من أذىٰ للمسلمين؛ لأن غرض الآية ظاهر بكونها لبيان الغاية لقوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ﴾ ولا شك أن غاية القتال دفع الشرك وكف الأذىٰ عن المسلمين وإظهار كلمة الحق.

(١) انظر: «نظم الدرر» (٣/ ١١٣).

البصائر والحكم

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾: بيان أن من غايات القتال إظهار الدين وكماله وإتمام الشريعة، وهذا مناسب لسياق السورة الوارد في بناء دين الإسلام وإتمام شرائعه.

- وجه اختلاف التعبير فيها عن قوله تعالىٰ: ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه﴾ [الأنفال ٣٩]: أن هذه في مبتدأ الإسلام، ولهذا جاءت في بيان غاية الجهاد علىٰ أن ذلك دعوة إليه، فكأنه في مبتدأ الأمر، ولأن هذه الآيات في سياق الحديث عن كفار مكة لأنه قال: ﴿وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وجاء بعدها الحديث عن الحج. أما آية الأنفال فهي في سياق قتال الكفار عامة لإظهار الدين كله، فكأن الآية هنا تمهيد لإقامة الحج وإتمامه بتطهيره من الشرك وأهله[1].

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: الأمر بالكف عنهم بعد انتهاء شركهم وأذاهم ودخولهم في الإسلام، وبيان حد العدوان عليهم بعد ذلك، وهو الظلم بأنواعه، وهو مشعر بتحذير المؤمنين من التعدي عليهم بغير ظلم منهم. وتحذير الكافرين من الظلم بعد ذلك[2].

- وجه التعبير بالعدوان: لأنه في مقابل عدوان آخر، فهو عقوبة له، والعقوبة تسمىٰ باسم الذنب.

---

(١) «البحر المحيط» (٢/ ٢٤٧).

(٢) «روح المعاني» (١/ ٦٤٦).

﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩٤﴾

غرض الآية:

بيان علة إباحة المحرمات بعد بيان غاية القتال. تأنيساً للمؤمنين ورفعاً للحرج عنهم، وتيئيساً للكافرين وإبطالاً لحجتهم.

البصائر والحكم

- **وجه ختم آيات القتال بهذه الآية:** لأن فيها تأنيساً للمؤمنين وتقوية لهم ورفع للحرج عنهم في قتالهم لعدوهم في الشهر الحرام وحال دخولهم للبلد الحرام وهم حرم، وذلك لاحتمال وقوع القتال بينهم وبين الكافرين[(١)].

- **وجه تخصيص الشهر الحرام مع دخوله في الحرمات:** فيه إشارة لسبب النزول وهو ما روي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي والربيع والضحاك وغيرهم قالوا: (نزلت في عمرة القضاء وعام الحديبية)[(٢)].

- **المراد بالحرمات، ووجه جمعها:** الحرمات جمع حرمة، وهي ما حرمه الله تعالىٰ ومنع من انتهاكه، والمراد هنا ما منع الله الاعتداء فيه، وجمعها يدل علىٰ تعددها، وهي حرمة الشهر الحرام، وحرمة البلد الحرام، وحرمة الإحرام.

- **المراد بالقصاص، ودلالة التعبير به:** المراد بالقصاص المماثلة والمساواة في الجزاء والعقوبة، والتعبير به دال علىٰ أصل من أصول الدين، وهو وجوب المماثلة في القصاص إلا أن تكون المماثلة غير ممكنة في القتل لتعديه إلىٰ الزيادة في التعذيب أو حرمته في الشرع أصلاً فيقص بالسيف.

---

(١) «مفاتيح الغيب» (٥/ ١٤٥).

(٢) أخرجها ابن جرير عنهم بأسانيد مختلفة، انظر: «جامع البيان» (٢/ ٢٠٣).

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾: التنصيص علىٰ علة الإباحة وهي الاعتداء، بيانًا لها وتأكيداً علىٰ وجوب المساواة فيها وعدم الزيادة عليها.

- وجه تسمية الجزاء اعتداءً: تسمية الجزاء اعتداءً علىٰ سبيل المقابلة كقوله تعالىٰ: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورىٰ ٤٠] وفي التعبير به تقوية للمؤمنين وتهييج لهم علىٰ رد الاعتداء.

- وجه ختام الآية بقوله تعالىٰ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾: فيه حث عليها وتوثيق لنفوس المؤمنين بها، وهذا يؤكد نظم الأحكام التشريعية في خيط التقوىٰ لتوثيقها بها.

- أن المعتديَ لا يُجازَىٰ بأكثرَ مِن عدوانه؛ لقوله تعالىٰ: ﴿بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، فلا يقول الإنسان: أنا أريد أنْ أعتديَ بأكثرَ للتشفِّي، ومن ثَمَّ قال العلماء: إنه لا يُقتَصُّ مِن الجاني إلَّا بحضرة السلطان أو نائبِه؛ خوفًا من الاعتداء؛ لأنَّ الإنسانَ يريدُ أنْ يتشفَّىٰ لنفسِه، فربما يعتدي بأكثرَ .

- فضيلة التَّقوىٰ؛ حيث ينال العبدُ بها مَعيَّةَ الله؛ وإذا كان الله معك فإنَّه ينصُرك، ويُؤيِّدك، ويثبِّتُك، فهذا يدلُّ علىٰ فضيلة السَّبب الذي هو التقوىٰ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾، وقد أكَّد الله تعالىٰ هذه المعيَّةَ للمتَّقين بقوله تعالىٰ: ﴿وَاعْلَمُوا﴾؛ فلم يقتصر علىٰ مجرَّدِ الإخبار بها، بل أمَرنا أنْ نعلَمَ بذلك.

﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ۝١٩٥﴾

◈ غرض الآية:

الأمر بالإنفاق في سبيل الله، والأمر بالإنفاق إشارة إلىٰ لزوم النفقة للعمرة والحج، ولهذا قدمه علىٰ الحديث عنهما، وفي هذا توجيه بالتهيئة للحج.

◈ معاني الآية:

- المراد بقوله ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾: المراد النهي عن ترك العدة للجهاد، أو الجهاد نفسه والإنفاق فيه بسبب الانشغال بالدنيا وجمع الأموال فيها، والإسراف في صرفها في الملذات والشهوات، وبيان أن ذلك سبب للهلاك والذل والهوان.

- المراد بالإحسان في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟﴾: المراد الإحسان في كل ما أمرهم به، ومن ذلك، الإحسان في الإنفاق في سبيل الله بزيادة البذل، والإحسان في الفرائض والحدود بالإتمام؛ لأن إطلاق لفظ الإحسان وعدم تعليقه، وهذا يشمل ما تضمنه السياق من الإحسان بالإنفاق والبذل في سبيل الله، وإقامة الدين وإتمامه.

البصائر والحكم

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ ودلالاتها: التعليل للأمر بالإنفاق ولزومه والتحذير من تركه. ببيان أن ترك الإنفاق في سبيل الله والانشغال بالأموال، أو الخروج للقتال بغير عدة يؤدي إلىٰ الهلكة والذل والهوان؛ فهذا النهي قد أفاد المعنيين جميعـًا، وهذا من أبدع الإيجاز [1].

- التعبير بالأيدي يفيد معنىٰ أن الهلاك بسبب ما اقترفته أيديهم، وهو يفيد أن سعيهم لإصلاح أموالهم وترك الإنفاق منها في سبيل الله مؤد إلىٰ الهلاك مع أنه سعي من الإنسان بنية الإصلاح، ففيه تحذير لهم.

- التعبير بالتهلكة دون الهلاك؛ لأن فعلهم ليس هو الهلاك بعينه.

(١) «التحرير والتنوير» (٢/ ٢١٤).

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾: أنه لما أمرهم بما هو لازم للقتال وركيزة فيه، وهو الإنفاق وحذرهم من تركه، أمرهم بما هو مستحب فيه وباعث علىٰ تحقيق غايته وهو الإحسان بالإنفاق والأعمال الصالحة، ولهذا أعقبه بقوله تعالىٰ: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِ﴾.

- في قوله﴿: وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ الأمر بالإنفاق في سائر وجوه القُربات والطاعات، ومن أهمها: صرف الأموال في قِتال الأعداء، وبذْلها فيما يقوىٰ به المسلمون علىٰ عدوِّهم، وأنَّ الإمساك عن الإنفاق في سبيل الله تهلكةٌ للنفس بالشُّحِّ، وتهلكةٌ للجماعة بالعجز والضَّعف، وبخاصَّة في نظامٍ يقوم علىٰ التطوُّع، كما كان يقوم الإسلام .

-الإشارة إلىٰ الإخلاص في العمل؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ويدخل في هذا: القصد، والتنفيذ؛ بأنْ يكون القصدُ لله، وأن يكون التنفيذُ علىٰ حسَب شريعةِ الله؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ الفرقان: ٦٧ .

- في الأمرِ بالإحسان بعد ذِكْر الأمر بالاعتداء علىٰ المعتدي والإنفاق في سبيل الله والنهيِ عن الإلقاء باليدِ إلىٰ التَّهلُكة: إشارةٌ إلىٰ أنَّ كلَّ هذه الأحوال يلابِسُها الإحسان ويحفُّ بها؛ ففي الاعتداء مثلًا يكون الإحسانُ بالوقوف عند الحدود، والاقتصاد في الاعتداء، وفي الجهاد في سبيل الله يكون الإحسان بالرِّفق بالأسير والمغلوبِ، وبحِفْظ أموال المغلوبين وديارِهم من التَّخريبِ والتحريق، وغير ذلك وقوله: ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْ﴾ يشمَلُ جميعَ أنواع الإحسان؛ لأنَّه لَم يقيِّدْه بشيء دون شيء، فيدخل فيه الإحسانُ بالمال، وبالجاه، وبالشَّفاعات، وغير ذلك.

﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ
حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ
صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ
فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ
حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ
مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ
وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ
يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا
مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ
ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ
لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟
ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟
ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ
رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن
يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ
ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ۞
وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ
وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ (البقرة: ١٩٦ – ٢٠٣)

سياق الآيات في بيان حكم من أحكام الشريعة وهو الحج، إكمالاً لفرائض الإسلام، وإظهاراً لكمال الشريعة بتضمنها للتخفيف والتيسير؛ وإبطالاً لما أحدثه المشركون وأهل الكتاب فيها من التحريف والتغيير بعد ملة إبراهيم عليه السلام.

﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ... ﴿١٩٦﴾﴾

◈ غرض الآية:

بيان الأحكام المشروعة في الإحرام والنسك تخفيفاً وتكميلاً، وهذه الأحكام متعلقة بالإحرام والنسك عامة في العمرة والحج.

◈ معاني الآية:

- **المراد بالإتمام في قوله ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾:** أداؤهما علىٰ الوجه الأكمل والمشروع؛ لأن السياق دال علىٰ أنهم أمروا في عمرة القضاء، فناسب أن يؤمروا بأدائهما علىٰ التوحيد والإخلاص، وعدم اتباع المشركين في المظاهر التي ابتدعوها فيهما لكونهما في يد المشركين، خاصة وأن البيت ملئ بالأصنام، وهي مظنة وقوع الشرك في الحج والعمرة لأن الطائف يطوف بالأصنام لإحاطتها بالكعبة، فلزم الأمر بالإتمام.

- **المراد بالإحصار في الآية:** أنه كل مانع يمنع من الوصول للبيت؛ لأن الغرض في الآية هو ذات المنع من البيت وأثره، بغض النظر عن المانع وفعله، ولهذا عبّر بقوله تعالىٰ: ﴿أُحْصِرْتُمْ﴾ دون ﴿حُصرتم﴾؛ لأن الأول أظهر في المنع، والثاني أظهر في المانع، ويؤيده أن المشركين لم يحبسوا المسلمين أنفسهم، وإنما منعوا البيت عنهم، فلهذا كان لفظ الإحصار أنسب هنا لتعلقه بالمنع ذاته [(١)].

(١) وقد أشار الفراء لهذا المعنىٰ مبينا احتمال اللفظ للمعنيين، فقال:» لو نويت في قهر السلطان أنه علة مانعة،ولم تذهب إلىٰ فعل الفاعل جاز لك أن تقول: قد أحصر الرجل» فجعل التعبير جائزاً إذا كان القصد الأثر من الفعل وهو المنع دون فعل الفاعل. انظر: «معاني القرآن» (١/ ١١٨).

- المراد بالمحل في قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥ﴾: محله الحرم إلا أن يمنع مانع فمحله حسب إحصاره، فإن كان إحصاره يمنع دخول هديه للحرم كحصر العدو، فمحله حيث منع، وإن كان إحصاره لا يمنع دخول هديه كالمرض فمحله الحرم؛ لأن السياق في بيان حكم الإحصار.

- الخطاب في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥ﴾: خطاب عام للأمة محصر ومخلىٰ؛ لأن سياق الآيات كلها في أحكام الإحرام والنسك.

البصائر والحكم

- غرض قوله ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾: الأمر بإتمام الحج والعمرة علىٰ الصفة المشروعة. إتماماً للحج علىٰ ملة إبراهيم، وإبطالاً لما أحدثه المشركون فيه من الشرك والتغيير. ولهذا قال ﴿لِلَّهِ﴾.

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾: بيان حكم الإحصار بعد الإحرام. تخفيفاً علىٰ الأمة وإظهاراً لكمال الشريعة.

- وجه تخصيص النهي عن الحلق دون غيره من المحظورات: لأنه أعظم المحظورات، ولتعلقه بالنسك حيث أن من النسك الحلق أو التقصير، وللبقاء علىٰ شيء من أحوال المناسك ومقصودها وهو الشعث وترك الترفه[1].

- تعليق الإحلال ببلوغ الهدي والحلق بعده: فلأنهما يشتركان في كونهما يدلان علىٰ مقصد عظيم في الحج وهو الفداء والتسليم لله.

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾: بيان حكم المانع الجزئي لإتمام النسك بعد المانع الكلي.

(١) «التحرير والتنوير» (٢/ ٢٢٤).

- وجه تخصيص ذكر المرض: لأنه لما ذكر الإحصار الكلي في المرض في أول الآية، ذكر الإحصار الجزئي فيه في هذه الجملة، ولأنه غالب ما يحتاج إليه، لمظنته بسبب المشقة والسفر، وأنه يحوج لفعل محظورات متعددة كاللباس والطيب وغيرها، فخصصه[1].

- وجه تخصيص ذكر أذىٰ الرأس: أنه متعلق بنسك وهو الحلق، وأن الحاجة إليه أشد لأنه مظنة الأذىٰ حيث أنه مكشوف فهو عرضة للأذىٰ، وأنه دال علىٰ غيره من المحظورات، وذلك لاختلاف الأذىٰ فيه، ولهذا عبّر بأذىٰ الرأس المحتمل لعدة أمور منها القمل والصداع، والحكة، أو الأذية بالحر أو البرد.

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾: بيان جزاء فعل المحظورات، توسيعاً وتخفيفاً، ولهذا نوَّع الفدية وعددها، وجعلها علىٰ التخيير، وذلك كله دال علىٰ كمال الشريعة وتضمنها للتخفيف والتيسير، وهو ما تضمنه سياق التشريع في السورة.

- وجه جعل الفدية في مقابل فعل المحظور: لأنها كالجزاء والفداء له، فهي تجبر الخلل الواقع بسبب فعل المحظور.

- وجه جعل الفدية بالتخيير دون الترتيب: أن الفدية جاءت في مقابل العذر والعجز عن أداء الواجب، فكان المناسب لها التخيير، ولهذا بدأ بالأخف فالأخف.

- وجوب الإخلاص لله؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾: يعني أتموهما للهِ لا لغيره، لا تُراعوا في ذلك جَاهًا، ولا رُتبةً، ولا ثناءً مِن النَّاس .

- تيسير اللهِ علىٰ العباد؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾، والدِّينُ كلُّه مِن أوَّلِه إلىٰ آخرِه مبنيٌّ علىٰ اليُسر .

---

(١) «مفاتيح الغيب» (٥/ ١٦٤).

- لَمَّا كان لفظ القرآن في بيان الرُّخصة، جاء بالأسهل فالأسهل، فقال تعالىٰ: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ .

﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾

◈ غرض الآية:

بيان حكم جديد من أحكام الحج متضمن للتخفيف والتيسير وهو التمتع بالعمرة إلىٰ الحج وبيان ما يلزمه، إظهاراً لكمال الشريعة وتضمنها للتخفيف. وإبطالاً لما كان عليه أهل الجاهلية من منع ذلك؛ ولهذا خص التمتع دون غيره.

◈ معاني الآية:

- الخطاب في قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ﴾: المراد الآفاقي، وتمتعه يكون بالعمرة في أشهر الحج وبقائه متحلالاً بمكة حتىٰ الحج من عامه[(١)]، ويدخل فيه المحصر عن الحج، وتمتعه يكون بعد الإحصار بالعمرة إلىٰ الحج المقبل؛ لأن السياق متضمن لأحكام الإحصار وغيره، بدليل أنه ابتدأ الآية بالأمر بالإتمام وهو أمر عام.

- المراد بالتمتع في الآية: التمتع في الآية يشمل كل تمتع بالعمرة إلىٰ الحج، وهو القران والتمتع بالحل بعد العمرة؛ لأن عموم الآية بالنص علىٰ التمتع بالعمرة إلىٰ الحج دون ذكر إحلال من العمرة، وهذا هو التمتع العام.

(١) انظر: «جامع البيان» (٢/ ٢٥٢)، «المحرر الوجيز» (١/ ٢٦٨) / «البحر المحيط» (٢/ ٢٥١)، «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٢/ ٣٩٠).

- نوع هدي التمتع، والمراد به: أنه هدي نسك وشكران؛ لأن هذا التمتع إنما شرعه الله تيسيراً علىٰ الأمة وتخفيفاً عليها، ورخصة في الجمع بين النسكين، ولاشك أن التيسير والتخفيف والرخصة موجب للشكر.

- وقت صيام الثلاثة الأيام في قوله تعالىٰ: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾: يجب صيامها في وقت تمتعه، وهو من أول إحرام بالعمرة متمتعاً إلىٰ نهاية أعمال الحج أيام التشريق التي هي أيام الهدي سوىٰ يوم النحر لعدم جواز صومه. والأفضل أن تكون قبل يوم النحر؛ لأن أطلق كونها في الحج، ولم يحدد، فتكون من حين إحرامه به حتىٰ نهاية أعماله. ولم يثبت في السنة دليل علىٰ تحديدها.

- المراد بالرجوع في قوله تعالىٰ: ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾: الرجوع إلىٰ البلد؛ لأن الغرض من توزيعها التخفيف والتيسير، ولا شك أن صيامها حال الرجوع أيسر.

- المراد بالإشارة في قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾: راجع إلىٰ التمتع والهدي؛ لأن السياق في بيان حكم التمتع، ولم تستأنف الآية بحكم خاص للهدي بل هو تابع للتمتع.

- المراد بحاضري المسجد الحرام: أي: أهل الحرم؛ لأن السياق في حكم التمتع بالعمرة إلىٰ الحج، والتمتع إنما شرع تيسراً وتخفيفاً علىٰ الآفاقيين للمشقة عليهم في إفراد النسكين.

البصائر والحكم

- وجه التعبير بالتمتع، وحكمة تشريعه: التمتع إنما سمي بذلك لأنه تمتع بالجمع بين العمرة والحج بسفر واحد، وسقط عنه إحد السفرين، أو لأنه ترفه بالحل بين النسكين بالنسبة للمتمتع غير القارن [1]، والتعبير بالتمتع دال علىٰ

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٢/ ٣٩٥).

حكمته وهو التيسير علىٰ الأمة والتخفيف عليها.

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ ووجه تكرارها: الموضع الأول جاء في سياق الإحصار، والمراد بها فيه طلب الأيسر؛ لأن هدي المحصر هدي جبران، والجبران لا يناسب معه طلب الكمال، أما الموضع الثاني فقد جاءت في سياق التمتع، والمراد بها فيه طلب الأكمل؛ لأن هدي التمتع هدي نسك وشكران، ويدل علىٰ أن هدي التمتع يطلب فيه الأكمل وهو فعل النبي ﷺ في هديه في حجة الوداع حيث أهدىٰ مائة من الإبل.

- وجه تفريق الصيام، ووجه جعل أكثره حال الرجوع إلىٰ البلد، ووجه توزيعها إلىٰ ثلاثة وسبعة: لأن غرض تشريع الصيام أصلاً هو التخفيف، فكان تفريقه مناسباً لهذا الغرض، ولذا جعل أقل العددين لأشق الحالين، وأكثرهما لأخفهما، وتوزيعها إلىٰ ثلاثة وسبعة لكونهما عددين مباركين ضبطت بمثلهما الأعمال دينية وقضائية[1].

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ ووجه التعبير بالكمال: التأكيد عليها حتىٰ تكون ذات بال وعلىٰ بال؛ لأنها مظنة النقصان أو النسيان لاختلاف زمن الصومين، ولكون الإنسان بعد الحج مسافراً ثم مشغولاً بأهله وإصلاح أمواله فهي مظنة النسيان أو التفريط، وأما وصفها بالكمال ففيه التأكيد في التوصية بصيامها، وضبط عددها، لتعلقها بالنسك وإتمامه[2].

- وجه فرض الصيام بدلاً عن الهدي: لأن الصوم يتفق مع الهدي في أنه سبب للإمساك والتحرج في ارتكاب المحظور.

---

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (٢/ ٢٢٩).

(٢) «محاسن التأويل» (١/ ٥٠٠).

- **وجه الأمر بالتقوىٰ بعد بيان الأحكام:** لأن ما سبق من الأحكام مشتمل علىٰ فرائض وحدود، فناسب الأمر بالتقوىٰ المتضمنة للطاعة والامتثال في القيام بتلك الفرائض والحدود، والتحذير من الاعتداء والتجاوز باستحلال ما حرم الله تعالىٰ وانتهاك حرماته.

- **وجه ختام الآية بقوله تعالىٰ:** ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾: أنه لما تضمنت الآيات صد المشركين للمسلمين عن البيت، وبيان حكم الإحصار للمؤمنين، وإكرام الله للمؤمنين بالتخفيف والتيسير عليهم بسبب ذلك بتشريع التمتع، وأمرهم بالتقوىٰ في ذلك كله، ناسب أن يؤنسهم بالوعد بعقاب المشركين بعد ذلك فكأنه إشعار بالغلبة عليهم وتخليص البيت منهم وتمكين المؤمنين منه.

- **سَعةُ فضلِ الله عزَّ وجلَّ، وتيسيرُه في أحكامه،** بوقوع الفِدْية علىٰ التَّخيير، وجَعْل الأكثرِ من صيام الفِدْيَة بعد رجوعه؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡ﴾، كما جعَل الإنسانَ مخيَّرًا بين أنْ يبقىٰ ثلاثةَ أيَّام، أو يتعجَّل في يومين.

- **أنَّ العِلمَ بشدَّةِ عقوبةِ الله من أهمِّ العلوم؛** ولهذا أمَرَ الله سبحانه وتعالىٰ به بخصوصِه؛ لأنَّه يُورِث الخوفَ مِن الله، والهرَبَ مِن معصيَتِه، فقال سبحانه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾.

﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٧ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ ... ١٩٨﴾

◈ غرض الآيتين:

بعدها بيان فرائض الحج وشعائره وواجباته ومعالمه، وتغيير ماأحدثه أهل الجاهلية فيه.

◈ معاني الآيتين:

- **المراد بالأشهر المعلومات في الآية:** شهر شوال وذي القعدة وذي الحجة؛ لأن السياق في بيان وقت الحج من مبتدئه بالإحرام إلىٰ نهاية أعماله، وأعماله لا تنتهي إلا بانتهاء أيام التشريق.

- **المراد بالرفث والفسوق والجدال المنهي عنه:** عموم الرفث والفسوق والجدال بغير حق، وأولىٰ ما يدخل فيه ما كان خاصا بالحج وأعماله، وهو المقصود الأول في النهي، وهو المحظورات المتعلقة بالحج، والمخالفة لحقيقته وصحته وأدائه.

البصائر والحكم

- **غرض قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ وفائدة ذكر الأشهر ووصفها:** بيان وقت الحج وأشهره، إقراراً لما كان عليه من قبل، وإبطالاً لما أحدثه أهل الجاهلية من النسيء فيها، ولذلك قدم لفظ الحج علىٰ تقدير أنه لايكون إلا فيها، ونص علىٰ أنها ﴿مَّعْلُومَٰتٌ﴾، وذكر الأشهر ووصفها بالمعلومات لبيان أن فرضها كذلك في ملة إبراهيم عليه السلام، وتحديد وقت الحج، وأنه ليس كوقت العمرة.

- **غرض قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ ودلالتها، والمراد بالفرض:** بيان وقت فرض الحج، وما يلزمه، والمراد بالفرض لغة الإلزام والإيجاب. والمراد به هنا إلزام النفس بالحج بعقد النية والإحرام له[1].

- **غرض قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾:** بيان ما ينافي حقيقة الحج وصحته وأدائه من هذه الأمور الثلاثة، ولزوم اجتنابها فيه،

---

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٢/ ٤٠٦).

وهذا الغرض دال علىٰ المحظورات الخاصة بالحج من هذه الأمور الثلاثة، وبيان ما ينافي كمال الحج وإتمامه المأمور به من هذه الأمور الثلاثة، والحث علىٰ الاحتراز منها.

- وجه تخصيص الجدال في الحج مع أنه داخل في عموم الفسوق: ذكر تعيين الأشهر وتحديدها بعد ما أحدثه أهل الجاهلية فيها من التغيير والتأخير، فيكون الغرض من تخصيصه قطع الجدال في وقتها وتحديدها كأنه قال: هذه أشهر الحج ووقته فلا جدال فيها بعد ذلك.

- حكمة النهي عن هذه الثلاثة خاصة وتحريمها في الحج: أنها أصول القوىٰ البشرية، وشهوات النفس وحظوظها ترجع إليها، فهي منشأ الشرور كلها، وهي منافية للعبادة أصلاً، ولذلك شرعت العبادات لتهذيبها

وتوجيهها[1]، ولأنها منافية لحكمة الحج في انقطاع القلب لله وإقامة ذكره وكمال التوجه والتوحيد له.

- وجه إظهار لفظ الحج وتكراره في الآية: لاختلاف غرضه في كل جملة:

فالغرض منه في الموضع الأول إقرار أشهره وتثبيتها، بدلالة قوله تعالىٰ: ﴿أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ﴾.

والغرض منه في الموضع الثاني لزوم فرض الحج في أشهره، بدلالة قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ﴾.

والغرض منه في الموضع الثالث بيان ما يلزم فيه وما ينافيه، بدلالة قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ﴾.

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ﴾: الأمر بفعل الخير والطاعات بعد النهي عن فعل المحرمات والمحظورات في الحج، حثاً، وترغيباً.

(١) «مفاتيح الغيب» (٥/ ١٨٠).

- قوله تعالىٰ: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾: أي: التزود للحج بما هو سبب لبلوغه وأدائه؛ إبطالاً لما كانوا يفعلونه من ترك التزود للحج، وقطعـًا لتعلق القلب بالخلق عن الخالق، وتفرغـًا للتزود بالطاعة، والحث علىٰ التزود من الطاعات للآخرة.

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾: الأمر بالتزود للدنيا بالنفقة وللآخرة بالأعمال الصالحة، فبيّن هنا حقيقة الزاد اللازم في الدارين وخيره في الأمرين.

- وجه ختم الآية بقوله تعالىٰ: ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾: أنه لما أمر بالتزود الذي يشمل زاد الدنيا والآخرة، أمر بتقواه تعالىٰ الدال علىٰ لزوم اصطحابها في التزود، وأنه مناسب لمضمون الآية كلها، من جهة أنه تقدم ما يدل علىٰ اجتناب أشياء في الحج، فناسب ذلك كله الأمر بالتقوىٰ.

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾: إباحة التجارة في الحج، رفعـًا للحرج عن الأمة في الحاجة إليها، وهو من التخفيف الذي اشتملت عليه أحكام الحج، ويدل عليه من سياق الآية قوله تعالىٰ: ﴿فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

- وجه التعبير برفع الجناح دون الإباحة: التعبير برفع الجناح مفيد الترخيص دون الحض عليها[1].

- البُعْد حالَ الإحرام عن كلِّ ما يشوِّش الفِكر، ويشغَلُ النَّفس؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾.

- أنَّه ينبغي للإنسان في حالِ بيعِه وشرائه أنْ يكونَ مترقِّبًا لفضلِ الله، لا معتمِدًا علىٰ قوَّتِه وكَسْبِه؛ لقوله تعالىٰ: ﴿أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

(١) «مفاتيح الغيب» (٥/ ١٨٦).

- ظهور منَّةِ الله علىٰ عباده بما أباح لهم من المكاسبِ، وأنَّ ذلك مِن مقتضىٰ ربوبيَّتِه سبحانه وتعالىٰ؛ حيث قال تعالىٰ: ﴿فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ﴾.

﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ١٩٨﴾

◈ غرض الآية:

بيان ضابط الإذن بالتجارة في الحج وحده، وهو ألا يشغل عن أعمال الحج وذكر الله فيها، ومشروعية الوقوف بعرفة، والإفاضة منها. إحياءً لسنة إبراهيم، ومخالفة لأهل الجاهلية في ترك الوقوف فيها والإفاضة من مزدلفة.

البصائر والحكم

- **وجه دلالة السياق علىٰ الوقوف بعرفة وحكمه:** أن ذكر الإفاضة والتصريح بها دال باللزوم علىٰ الوقوف من حيث أنه لا إفاضة إلا بعد وقوف، ومالا يتم الواجب إلا به فهو واجب.فثبت أن الآية جاءت بذكرهما جميعًا، والتصريح بذكر عرفات والتنصيص عليها دون غيرها ، دال علىٰ أنها من الشعائر الثابتة في الحج، وأنها ركن الحج.

- **التعبير بعرفات دون عرفة** دال علىٰ الوقوف من جهة أنه الأصل في الاسم، وأما عرفة فتخفيف جرىٰ علىٰ الألسنة [(١)].

- **عرفات دال علىٰ الموضع بخلاف عرفة** فهو دال علىٰ اليوم [(٢)]، والموضع

---

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (٢/ ٢٣٩).

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٢/ ٤١٥).

أدل علىٰ الوقوف من اليوم.

- وجه ذكر الإفاضة دون الوقوف مع أنه ركن الحج: أنه ذكر الإفاضة لأنها مما خالف فيه المشركون، وأما الوقوف بعرفة فمعلوم أصلاً لكونه من شرائع الحج الأصلية التي كانت علىٰ عهد إبراهيم، وأن ذكر الإفاضة فيه دلالة علىٰ وجوب الوقوف إلىٰ وقت الإفاضة، وهو غروب الشمس، فهذا أشمل من ذكر الوقوف وحده.

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾: بيان مشروعية الوقوف بمزدلفة وذكر الله عند المشعر الحرام، وبيان حكمة تشريع مناسك الحج، وهي إقامة ذكر الله تعالىٰ تعظيما لله تعالىٰ ولمشاعر الحج التي شرعها سبحانه، ولذلك خص الذكر، وعبّر بالمشعر الحرام.

- وجه تخصيص الذكر عند المشعر الحرام دون غيره: تنبيه علىٰ أنه من الشعائر الثابتة أصلاً في ملة إبراهيم، وقد تركه المشركون، لوقوفهم أدنىٰ مزدلفة تحت جبل ثبير[1]، فأمر بإحيائه.

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾: التذكير بنعمة الله وهدايته لشعائر الحج بتحقيق الكمال والتيسير لهم فيها. تأكيداً علىٰ شكرها وترسيخاً وتثبيتاً لها.

- وجه تكرار الأمر بالذكر في الآية: يدل علىٰ أن الأول يراد به الذكر المشروع في النسك، والذكر الثاني يراد به ذكره علىٰ منته وهدايته لكمال الدين. فالأول متعلق بتكميل حق العبادة، والثاني متعلق بتكميل حق المعبود. ولا شك أن اجتماعهما هو غاية الكمال في العبادة، فكأنه أمرهم بتحقيق الكمال، وذلك من كمال التوفيق والهداية لهم[2].

(١) قال في النهاية: «ثَبِير: جَبَل بمنىٰ» «النهاية في غريب الحديث» (٢/ ١١٤٣).

(٢) «مفاتيح الغيب» (٥/ ١٩٤).

- بيَّن الله تعالىٰ أولًا تفصيل مناسك الحج، ثم أمر بعدها بالذكر فقال﴿: فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾ ثم بيَّن أنَّ الأَوْلىٰ أن يترك ذِكر غيره، وأنْ يقتصرَ علىٰ ذِكره سبحانه، ثم بيَّن بعد ذلك كيفيةَ الدُّعاء، فقال: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ...﴾ وما أحسنَ هذا الترتيبَ! فإنَّه لا بدَّ من تقديم العبادة لكسْر النفس وإزالة ظُلماتها، ثم بعد العبادة لا بدَّ من الاشتغال بذِكر الله تعالىٰ؛ لتنويرِ القلب، وتجلي نور جلاله، ثم بعد ذلك الذِّكر يشتغل الرجل بالدعاء؛ فإنَّ الدعاء إنما يكمل إذا كان مسبوقًا بالذكر.

- أنَّ الذِّكر المشروعَ ما وافَق الشَّرع؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ﴾.

﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٩﴾

◈ غرض الآية:

بيان مشروعية الإفاضة من مزدلفة، وإتمام المناسك كلها علىٰ ما كان عليه الناس من قبل في ملة إبراهيم عليه السلام ومن بعده، والأمر بالجمع بين الإفاضتين والترتيب بينهما، إتمامًا للحج علىٰ ملة إبراهيم عليه السلام، وإبطالًا لما أحدثته قريش من العمل بالإفاضة من مزدلفة وترك الإفاضة من عرفة، وتشنيعًا عليها في ذلك.

◈ معاني الآية:

- المراد بالإفاضة في قوله ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾:

الإفاضة من عرفة إلىٰ مزدلفة، ثم من مزدلفة إلىٰ منىٰ؛ لاشتمال الآية علىٰ غرضين، وهما دالان علىٰ الإفاضتين.

البصائر والحكم

- وجه قوله ﴿أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾: دال علىٰ أن المقصود إفاضة ماضية، وهي عادة الناس من قبل في الإفاضة، وهي ماكان عليه إبراهيم(١).

- وجه ختام الآية بالأمر بالاستغفار: لما أمر بالجمع بين الإفاضتين، بيّن ما يشرع فيهما من الاستغفار والدعاء، وأن الأمر بالاستغفار في الآية فيه تعريض بقريش في مخالفتها سنة إبراهيم، وترك الوقوف بعرفة(٢).

- قرنُ الحُكم بالعلَّة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وقَرْنُ الحُكم بالعلَّةِ في مِثل هذا يُفيد الإقدامَ والنَّشاطَ علىٰ استغفارِ اللهِ عزَّ وجلَّ.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا...﴿٢٠٠﴾﴾

◈ معاني الآية:

- المراد بالمناسك في قوله ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾: العموم لإطلاقه في الآية؛ ولأن الغرض بيان صفة الذكر، وإبطال ماكان عليه أهل الجاهلية من ذكر آبائهم بعد انقضاء نسكهم، ويدخل فيه من باب أولىٰ الدعاء بعد قضاء المناسك، والتكبير أيام التشريق، لوروده بعد ذلك في الآيات.

- المراد بالتشبيه في قوله تعالىٰ: ﴿كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾:

---

(١) «البحر المحيط» (٢/ ٣٠٣).

(٢) «التحرير والتنوير» (٢/ ٢٤٤).

العموم، وذلك أن الآيات واردة في بيان صفة الحج وإتمامه، وإبطال ما أحدثه المشركون فيه، فالمقصود من الجملة كلها أن يكون الحاج منشغلاً في العبادة فعلاً، وقولاً، واعتقاداً، وألا ينشغل بما ينافي مقصد الحج في إقامة ذكر الله وتعظيمه، وأن يلازم الذكر ويكون حاله فيه كحال الإبن في ذكره لأبيه في الملازمة والاستكانة.

البصائر والحكم

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾: بيان مشروعية ذكر الله تعالىٰ بعد قضاء المناسك والمبالغة فيه، شكراً لله تعالىٰ علىٰ هدايته وتوفيقه لإتمام النسك. وإبطالاً لما كان عليه أهل الجاهلية من ذكر آبائهم بعد انتهاء نسكهم[1].

- وجه قوله ﴿كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾: مشروعية ملازمة ذكر الله تعالىٰ وتعظيمه دون سواه في الحج وبعد انقضائه، إتماماً لإقامة ذكره وعبادته، وإظهاراً لشكره علىٰ هدايته، وإبطال المظاهر المنافية للحج ومقاصده. من المفاخرة بالآباء والأيام والأنساب.

- في الأمر بالذِّكر عند انقضاء النُّسك في قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾، إشارةٌ إلىٰ أنَّ سائرِ العبادات تَنقضي ويُفرَغ منها، وذِكر الله عزَّ وجلَّ باقٍ لا يَنقضي ولا يُفرَغ منه، بل هو مستمرّ للمؤمنين في الدنيا والآخرة .

- أنَّ الأجدادَ داخِلون في مسمَّىٰ الآباء؛ لأنَّ العربَ كانوا يفتخِرون بأمجادِ آبائهم، وأجدادهم، وقبائلهم، كما قال تعالىٰ: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾.

(١) «التحرير والتنوير» (٢/ ٢٤٥).

﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۝٢٠٠ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝٢٠١ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٢٠٢﴾

◈ غرض الآيتين:

بيان أصناف الناس ومقاصدهم في الحج.

◈ معاني الآية:

- **المراد بالحسنتين في الآية:** عموم خيري الدنيا والآخرة؛ لأن اللفظ يقتضي هذا كله، فإن ﴿حسنة﴾ نكرة في سياق الدعاء[(١)].

- **المراد بقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾:** إنها لجزاء الفريقين؛ لأن الآية واردة مستقلة بعد الدعائين، ولو كانت خاصة في المؤمنين لكانت ملحقة بدعاء المؤمنين في الآية قبلها.فدل استقلالها علىٰ احتمالها للفريقين.

البصائر والحكم

- **غرض قوله ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾:** تعريض وذم للكافرين وتقبيحاً لمقصدهم، ولهذا التفت من الخطاب إلىٰ الغيبة حطاً لهم عن ساحة الحضور[(٢)].

---

(١) انظر:«الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٢/ ٤٣٣).

(٢) انظر: «روح المعاني» (١/ ٦٦٣).

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾: بيان حال المؤمنين ومقصدهم، ثناءً عليهم، وحضاً علىٰ فعلهم، وذلك أنهم جمعوا بين حظ الدنيا والآخرة.

- الآية دليل علىٰ مشروعية الدعاء في أمور الدنيا والآخرة جميعًا، وعلىٰ أن الدعاء في أمور الدنيا مشروط بالمباح المعين علىٰ أمر الآخرة؛ لأنه قيده بالحسنة، وجمع بينه وبين دعاء الآخرة.

- وجه تنكير الحسنتين في الآية، وتقييد الدعاء بها بخلاف الدعاء الذي قبله: ليناسب غرض الدعاء، فإنهم إنما طلبوا حسن الحال في الدنيا والآخرة، في مقابل طلب من قبلهم حسن الحال في الدنيا بدليل سبب النزول. والتقدير علىٰ هذا: آتنا حالاً حسنة، وهذا يعم جميع الخير، وقيد الدعاء هنا بالحسنة بخلاف القسم الأول فإنه لم يذكر الحسنة؛ لأن المقصود بطلب الدنيا هنا طلب مايباح منها وما يعين علىٰ سعي الآخرة. أما القسم الأول فالدنيا همه الأول والأخير.

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾: بيان جزاء الفريقين وعاقبة عملهم.

- في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ إثباتُ صِفة السُّرعة لله عزَّ وجلَّ.

﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ٢٠٣﴾

◈ غرض الآية:

بيان مايشرع في أيام التشريق من الذكر؛ إظهاراً لشكر الله، وإبطالاً لما كان عليه أهل الجاهلية من إشتغالها بذكر الآباء والنساء[1]، والإذن بالتعجيل تخفيفاً وتيسيراً.

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (٢/ ٢٦٢).

البصائر والحكم

- **وجه تخصيص الذكر دون الرمي والمبيت:** أن الذكر يشملها، وهو غايتها؛ لأن المشاعر شرعت لإقامة ذكر الله تعالىٰ، وأن ذلك هو الأصل المعلوم المشهور من شعائر الحج، ولم يكونوا يفعلونه في الجاهلية، فخصه إظهاراً له، وإبطالاً لما كانوا عليه.

- **وجه تشريع الذكر في هذه الأيام:** لأنها أيام تخلو من المناسك غير الرمي، وهي بعد انقضاء أركان الحج فكأن الحج قد انتهىٰ - ولهذا جاء الترخيص بالتعجيل لكونها غير مرتبطة بأركان الحج - فهي مظنة انشغال الناس بذكر دنياهم وملاذهم التي أمسكوا عنها مدة طويلة.

- **المراد بالأيام المعدودات، ووجه تسميتها بذلك:** هي أيام التشريق، وسماهن معدودات تقليلاً لها، وترغيباً في الذكر المشروع فيها.

- **غرض قوله تعالىٰ:** ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾: الترخيص في التعجل بترك الرمي والمبيت في منىٰ؛ مع بيان تمام الأجر بمغفرة الذنوب في ذلك كله، رحمة الله تعالىٰ بالأمة وكرماً.

- **وجوب المبيت في منىٰ،** وذلك من قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ والمفهوم أن من تعجل قبلها فعليه إثم.

- **وجه فضيلة التأخر:** في التأخير رحمة لمن لم يقض نسكه لعذر المرض أو الزحام وغيره، أو أراد زيادة الأجر والعمل، وهذا من الأحكام الجديدة التي شرعها الإسلام توسعة علىٰ الأمة وتخفيفاً وتيسيراً عليها.

- **وجه قوله تعالىٰ: ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ في الأمرين:** أنه لما أمر بالذكر في أيام التشريق، مخالفة لما كان عليه أهل الجاهلية من الاشتغال فيها بذكر الآباء

والنساء، شرع التعجل تخفيفاً علىٰ الأمة، وكان ذلك موهماً بأنه أولىٰ تباعداً عن مواقعة فعل أهل الجاهلية والاشتغال بغير الذكر، فدفع ذلك بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾ لبيان فضيلة التأخر لقصد الإقامة في منىٰ وذكر الله تعالىٰ، وعدم الاشتغال بغيره[1]، ولأنه عبّر بذلك للإشارة إلىٰ حصول مغفرة الذنوب الموعود بها للفريقين.

- وجه ختام الآية بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾: أن المراد اتقوا الله في المستقبل، بعد تقواكم في الحج، لتحقيق كمال التقوىٰ في حياتكم، والأمر بالتقوىٰ دليل علىٰ مابنيت عليه الأحكام في السورة من نظم عقد التقوىٰ. لتحقيق الكمال للمؤمنين الذي جاء التشريع من أجله، ولأنه مناسب لمقام الحج الذي هو بمثابة جمع الناس وحشرهم.

- وجه تكرار الأمر بالذكر في الآيات: التركيز علىٰ روح العبادة ومقصدها الأول، وتكراره لتستحضره النفوس في العبادة، ولأنه الجانب المغفل عند أهل الجاهلية، فليس حجهم للذكر وإنما عادة يصاحبها الرياء والسمعة والتفاخر؛ فلهذا ركز القرآن عليه ليزرعه في النفوس، وليزيل عادة الجاهلية الأولىٰ.

- وجه ارتباط فرائض الإسلام بأول السورة: قال البقاعي: «وهنا تم ماأراد سبحانه وتعالىٰ من بيان قواعد الإسلام الخمسة: الإيمان والصلاة والزكاة والصوم والحج المشار إلىٰ الثلاثة الأول منها بقوله أول السورة ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة ٣] وذكر الحج لمزيد الاعتناء به لاحقاً للصوم»[2].

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (٢/ ٢٦٤).

(٢) «نظم الدرر» (٣/ ١٦٨).

- **أنَّ الأعمالَ الَّتي يُخيَّر فيها العبدُ** إنَّما ينتفي الإثمُ عنها إذا فعَلها علىٰ سبيل التَّقوىٰ لله عزَّ وجلَّ دون التهاونِ بأوامره؛ لقوله تعالىٰ: ﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾؛ فمَن فعَل ما يُخيَّر فيه علىٰ سبيل التَّقوىٰ لله عزَّ وجلَّ والأخذ بتيسيره، فهذا لا إثمَ عليه، وأمَّا مَن فعَلها علىٰ سبيل التهاونِ، وعدمِ المبالاة، فإن عليه الإثمَ بترْك التَّقوىٰ، وتهاونِه بأوامرِ الله تعالىٰ.

- **قرنُ المواعظ بالتخويف؛** لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي
قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا
وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ
ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ
ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ
﴿٢٠٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ
خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ
بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلۡ
يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ
وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ وَمَن
يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ
ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ
وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢١٢﴾ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ
مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا
ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ
بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ
يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ البقرة: ٢٠٤ – ٢١٣

سياق الآيات في بيان أصناف الناس ومقاصدهم في اتباع الدين بعد تمكنه، وحقيقة كل صنف وعاقبته، تمييزاً للفريقين، وتثبيتاً للمؤمنين، وإعداداً لهم لحمل راية الدين كاملة، ومواجهة المشاق المحتملة.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ ﴾

◈ غرض الآيات:

بيان حقيقة الصنف الأول وهو المنافق. تعريفاً بوصفه، وتحذيراً منه. وهي تنبه المؤمنين إلىٰ واجب التوسم في الحقائق ودواخل الأمور، وعدم الاغترار بالظواهر إلا بعد التجربة والامتحان، فإن من الناس من يغر بحسن ظاهره، وهو منطو علىٰ باطن سوء، ويعطي من لسانه حلاوة تعبير، وهو يضمر الشر والكيد[1].

◈ معاني الآيات:

- المراد بقوله ﴿يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾: أن الظرف متعلق بقوله تعالىٰ: ﴿يُعۡجِبُكَ﴾ والمعنىٰ: يعجبك في الحياة الدنيا إظهاره الإسلام ورغبته فيه قولاً وظاهراً، وهي علىٰ هذا ظاهرة في المنافق دون غيره؛ لأن السياق في بيان أوصاف المنافقين.

- المراد بالتولي في قوله ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا﴾: الإعراض والانصراف، فإن عمله يكون ضد قوله. يدعي الإصلاح ظاهراً ثم إذا أعرض عن الناس سعىٰ في الفساد؛ لأنه في مقابل ادعائه الصلاح ظاهراً فهو عمل دال علىٰ نفاقه.

---

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (٢/ ٢٦٥).

- المراد بالإفساد في قوله ﴿لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾: الإفساد المعنوي بتفريق كلمة المسلمين وإلقاء الشبه في قلوبهم وتقوية الكفر؛ لأن السياق في بيان أوصاف المنافقين، والإفساد المعنوي فيهم أظهر.

البصائر والحكم

- نزول الآيات: هي نزلت في المنافقين عامة؛ لأن السياق في بيان أصناف الناس في اتباعهم للدين، وهذا يدخل فيه عموم المنافقين.

- الخطاب في قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ﴾: الخطاب في الأصل للنبي ﷺ، ثم هو عام للمؤمنين، وإنما توجه الخطاب أولاً للنبي ﷺ زيادة في التحذير منهم؛ ولأنهم في الأصل يظهرون إيمانهم للنبي ﷺ.

- المقصود بالأوصاف في الآية: هو المنافق، ويدخل فيها غيره بحسب الاتصاف بالأوصاف المذكورة، ويدل علىٰ كونها أصلاً في المنافقين مقابلتها بقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ وهي في المؤمن الخالص، وقوله تعالىٰ: ﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾.

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: بيان الوصف الأول للمنافق وهو إظهاره للإسلام قولاً وظاهراً وإخفاؤه الكفر اعتقاداً وباطناً، وحصر همه وغايته علىٰ الحياة الدنيا، ولذلك قيده بقوله تعالىٰ: ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ﴾: بيان الوصف الثاني للمنافق؛ وهو إظهار صلاح الباطن وحسن السريرة لإخفاء ما يبطنه من الكفر، وتصديق ما يظهره من الإيمان.

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ ومعناها: بيان الوصف الثالث للمنافق، وهو تراكم نفسه بالخصومة والشقاق والعداوة، فلا ود ولا سماحة،

ومعناها: هو أن خصامه إذا خاصم أشد الخصام.

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾: بيان الوصف الرابع للمنافق وهو بيان غايته وسعيه وعمله، وهي الشر والفساد وتدمير الحياة.

- عبر بقوله تعالىٰ: ﴿سَعَىٰ﴾ أي: اجتهد وسارع في الإفساد، وأصل السعي المشي بسرعة، لكنه مستعار هنا للمسارعة في إيقاع الفتنة والتخريب بين الناس وإهلاك الحرث والنسل، لما انطوت عليه نفسه من الكفر والحقد والعداوة.

- وجه تخصيص الحرث والنسل: لأنهما قوام الناس، وليس المراد خصوصهما بل المراد إفساد مابه قوام الناس.

- وجه ختام الآية بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾: قال ﴿ٱلْفَسَادَ﴾ ولم يقل الإفساد، مما يدل علىٰ أن المقصود جميع الأوصاف السابقة؛ لأنها كلها داخلة في معنىٰ الفساد وهو إخراج الشيء عن حالته المحمودة لا لغرض صحيح[1]، وهذا المعنىٰ متحقق في الأوصاف كلها.

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾: بيان الوصف الخامس للمنافق وهو بيان تكبره عن قبول الحق والنصح، وغضبه لذلك، ولذلك وصفه بالإثم. والمعنىٰ التبست العزة بالإثم في نفسه فأنتجت عدم قبول للحق والنصح.

- قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾: هذا الوصف مترتب بالأوصاف السابقة كلها، من حيث أنها كلها أعمال مخالفة للحق، مستوجبة للنصح، فيكون هذا الوصف جامعاً للأوصاف السابقة كلها؛ لأن

(١) انظر: «البحر المحيط» (٢/ ٣٣١)، «روح المعاني» (١/ ٦٧٠).

الكبر عن قبول الحق مجمع خصال الشر كله، وهذا ظاهر فإنك لا تجد متكبراً عن الحق إلا وهو مبطن للشر، شديد الخصام، ساع في الإفساد (١).

- التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ﴾ وأخذ العزة له تكون برؤيته مكانته في قومه.

- تعريف العزة بالألف واللام، فإنه دال علىٰ كمال عزته، ولا تكمل العزة إلا بعلو المكانة والغلبة والسلطان.

- وجه ختم الآية بقوله تعالىٰ: ﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾: لأنه مقابل لحاله. وذلك أنه حين استكبر عن الحق وأخذته العزة بالإثم وهي الترفع عن الحق وعدم قبول النصح، قوبل علىٰ اعتزازه بالباطل بعذاب جهنم، وهي الغاية في الذل، فحل به ما أمر أن يتقيه وهو عذاب الله (٢).

- في قوله تعالىٰ: ﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ ...﴾: إثبات عِلم الله عزَّ وجلَّ بما في الصُّدور؛ لأنَّ ما في القلبِ لا يعلَمُه إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ.

- الإشارة إلىٰ ذمِّ الجدل والخِصام؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾؛ لأنَّ الخُصوماتِ في الغالب لا يكونُ فيها بركةٌ.

- في قوله تعالىٰ﴿:وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ إثبات محبَّةِ اللهِ عزَّ وجلَّ للصَّلاح، فإنَّ نفيَه محبَّةَ الفسادِ دليلٌ علىٰ ثبوت أصلِ المحبة.

- التَّحذير من ردِّ النَّاصحين؛ لأنَّ اللهَ تعالىٰ جعَل هذا مِن أوصاف هؤلاء المنافِقين؛ فقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾، فمَن ردَّ آمرًا بتقوىٰ الله، ففيه شَبَه مِن المنافقين، والواجب علىٰ المرء إذا قيل له: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أنْ يقولَ: ﴿سمِعْنا وأطَعْنا﴾ تعظيمًا لتقوىٰ اللهِ عزَّ وجلَّ.

---

(١) «مفاتيح الغيب» (٥/ ٢٢٠).

(٢) انظر: «البحر المحيط» (٢/ ٣٣٣).

- **أنَّ الأَنَفةَ قد تحمِلُ صاحبَها علىٰ الإثم**؛ لقوله تعالىٰ: ﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾

◈ غرض الآية:

بيان الصنف الثاني وهو صنف المؤمن الخالص في مقابل المنافق المرائي، وقد وصف هذا الصنف بمقابل ما وصف به الصنف الأول، وهو إيثار الدين علىٰ الدنيا حتىٰ بلغ غاية ذلك، وهو طلب بقاء دينه بدنياه، وعرض نفسه للهلاك في الدنيا في سبيل ذلك، ولهذا عبر بالشراء الدال علىٰ المبادرة لذلك ابتداءً، وبذل النفس رغبة.

البصائر والحكم

- **فصّل في وصف الأول واختصر في الوصف الثاني**: لأن الغرض في الأول التعريف به والتحذير من أوصافه، والغرض من الثاني الحض عليه.

- **الآية تتضمن تحريض المؤمنين لتهيئة نفوسهم للقتال**، وذلك أن وصف المؤمن بهذا الوصف دال علىٰ الترغيب فيه، وهو مناسب لحال المؤمنين بعد بيان أصول الدين الدالة علىٰ تمكن الدين وقوته.

- **نزول الآية**: هي آية عامة؛ لأن غرض الآية الثناء علىٰ المؤمنين والإشادة بهم في مقابل ذم المنافق والتحذير منه.

- **وجه ختم الآية بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾**: أنه لما ختم الوصف

الأول بالوعيد في قوله تعالىٰ: ﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ وهو يقتضي التحذير مما وقع به الذم في الآية، ختم الوصف الثاني بالوعد المقتضي للترغيب والحض علىٰ ما وقع به المدح في الآية [1]، ولأنه لما ذكر وصف المؤمن الخالص، بأنه يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله، عقبه بهذه الجملة إشعاراً بأن هذا الشراء ليس المقصود منه في الشرع إهانة النفس ولا إذلالها، وإنما لأجل دفع الشر ونصر الحق والدين رأفة بالعباد، ولا شك أن إقامة الحق ونشر الدين ودفع الشر هو رأفة بالعباد[2].

- الموفَّقون هم الَّذين باعوا أنفسَهم وأرخصوها وبذَلوها طلبًا لمرضاةِ الله، ورجاءً لثوابه، كما قال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

- في قوله تعالىٰ: ﴿مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ إثبات الرِّضا لله؛ ورضَا اللهِ صفةٌ حقيقيَّةٌ لله عزَّ وجلَّ متعلِّقة بمشيئتِه.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱدْخُلُوا فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾

◈ غرض الآيتين:

دعوة المؤمنين كافة إلىٰ الدخول في الإسلام كله، وإكماله بعد إكمال فرائضه، وترك الاختلاف والنزاع والحرب بينهم.

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز».

(٢) وتفيد الجملة علىٰ هذا أنه ليس مشروعـًا للمسلم أن يلقي بنفسه في التهلكة لغير مصلحة ظاهرة في الدين، بل عليه أن يبذلها متىٰ ما رأىٰ أن بذلها هو السبيل لدفع الشر وإقامة الحق ونصر الدين.

◈ معاني الآيتين:

- نزول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ ...﴾ والمقصود بها: الآية عامة فيمن ينطبق عليهم وصف الإيمان وهم المؤمنون أصلاً، والمنافقون الذين أظهروا الإيمان، ومن آمن من أهل الكتاب، والمؤمنون بالكتب السابقة؛ لأن سياق الآيات ظاهر في تمكين الدين وتقوية الصف المسلم.

- المراد بالسلم في الآية: الانقياد والطاعة والدخول في الإسلام، والصلح وترك الحرب؛ لأن غرض الآية يتضمن ما سبق تمكيناً للدين وتقوية للصف المسلم؛ وتهيئة لتشريع القتال وفرضه، وتفصيل شرائع الإسلام كلها.

- المراد بالبينات في قوله ﴿ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ ﴾: كل مابينه الله تعالىٰ مما سبق فتشمل الإسلام والقرآن وماجاء به النبي ﷺ من البينات والهدىٰ؛ وذلك لأن الآية خطاب عام للمؤمنين والمنافقين وأهل الكتاب، كل بحسبه. ويؤيد ذلك الجمع والتعميم

البصائر والحكم

- وجه التعبير بالسلم دون الإسلام: لأن الغرض هو تثبيت دعائم الدولة المسلمة وتوحيد صفها، بعد إكمال أصول الدين وفرائض الإسلام؛ ولذلك كان التعبير به أولىٰ؛ لأنه جامع بين الإسلام والسلام، وفيه إشارة إلىٰ نبذ كل النعرات الجاهلية التي بقيت آثارها في بعض النفوس، وأمر بتصفية القلوب علىٰ الدين واتحاد الكلمة عليه بعد أن أكمل لهم أصوله وفرائضه، وأن التعبير به يشعر بأن الإسلام حصن حصين منيع للداخلين في كنفه، وسبب للسلامة والاطمئنان والأمان النفسي والاجتماعي.

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾:

بيان الأسباب المؤدية لمخالفة الأمر السابق بالدخول في السلم. هو النهي عن ذلك والتحذير وبيان علة المخالفة، ولهذا نص علىٰ خطوات الشيطان وعداوته.

- وجه التعبير بخطوات الشيطان: دال علىٰ أن الغرض التحذير من الأسباب المؤدية للمخالفة، وهي أسباب خفية يبعثها الشيطان، تجر إلىٰ ذلك، ولهذا عبر بالخطوات التي هي بمثابة اتباع آثار الشيطان وسيره الموصل إلىٰ خلاف السلم من الكفر والنفاق والنزاغ والشقاق.

- ختم الآية بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ استجاشة لضمائرهم ومشاعرهم، واستثارة لمخاوفهم بتذكيرهم بعداوة الشيطان لهم. ففيها زيادة تحذير.

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾: بيان عاقبة الزلل بعد البيان. تحذيراً من الزلل وتخويفاً من عاقبته أعذاراً لهم في البيان.

- التعبير بالزلل مناسب لذكر خطوات الشيطان؛ إذ المقصود الزلل عن الصراط المستقيم واتباع سبل الشيطان المنحرفة. كما قال تعالىٰ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. وشبه من يتبع خطوات الشيطان بهيئة الماشي حال انزلاقه عن الطريق. وفيه أن كل ماهو مخالف للحق فهو زلة عنه.

- وجه ختام الآية بقوله ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾: أن وصفه بالعزة التي تتضمن الغلبة والقدرة اللتين يحصل بهما الانتقام، وعيد شديد لمن خالفه وزل عن منهج الحق الذي أمر به، وفي وصفه بالحكمة دلالة علىٰ إتقان أفعاله، وأن ما أمرهم به هو الخير وما نهاهم عنه هو الشر، وأن مايرتبه من الزواجر حال مخالفتهم هو من مقتضىٰ الحكمة(١).

(١) انظر: «البحر المحيط» (٢/ ٣٤٢).

- **فضل الإيمان**؛ لقولِه تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لأنَّ هذا النداء، نداء تشريف وتكريم.

- **أنَّ الإيمان مقتضٍ لامتثال الأمر**؛ لأنَّ الله صدَّر الأمر بهذا النداء؛ والحُكمُ لا يُقرَن بوصف إلَّا كان لهذا الوصف أثرٌ فيه .

- **وجوب تَطبيق الشَّرع جملةً وتفصيلًا**؛ لقوله تعالىٰ: ﴿ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ .

- **قرن الحُكم بعلَّته**؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ ثم علَّل﴾: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾.

الوعيد علىٰ مَن زلَّ بعد قيام الحجة عليه؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ .

- **أنَّه لا تقوم الحجَّة علىٰ الإنسان**، ولا يستحق العقوبة إلَّا بعد قيام البيِّنة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾.

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٢١٠﴾

◈ غرض الآية:

تصوير حال عدم المستجيبين للدعوة بعد البيان الكامل، تعجباً من حالهم وإصرارهم، وتهديداً وتوبيخاً لهم.

◈ معاني الآية:

- معنىٰ الآية: دال علىٰ شدة إصرارهم مع ماجاءتهم به الآيات، ودال علىٰ تخويفهم وتوعدهم بالعقاب يوم القيامة؛ لأنه حذرهم قبل ذلك من الزلل بعد

ماجاءتهم البينات، ثم استنكر عليهم بهذه الآية، والتعبير بإتيان الله والملائكة أيضًا، وهذا متضمن لأسلوب التهديد والتخويف ظاهراً، ويؤيده قوله تعالىٰ: ﴿فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾ تهويلاً للموقف.

- قوله تعالىٰ: ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾: أي: قضي الأمر بالإسلام، أو قضي الأمر بكفرهم أو بأنهم لن يؤمنوا، وأيضًا قضي الأمر بالفصل بين العباد[1]، فلا تنفع نفس إيمانها، ويدل علىٰ هذا المعنىٰ الجامع قوله بعده: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾؛ لأن الأمور كلها ترجع إليه بالاختيار والتشريع والحكم، وأن الجزاء والحساب والعقاب والثواب إليه تعالىٰ يوم القضاء.

البصائر والحكم

- وجه تحويل الخطاب إلىٰ الغيبة: أنه لما دعاهم للدخول في السلم خاطبهم بالإيمان ترغيباً وتحفيزاً، ثم حذرهم من الزلل، فلما ظهر منهم الإصرار، حول الخطاب إلىٰ الغيبة، لفصلهم عن خطاب الإيمان، وإنزالهم عن مقامه، أن تحويل الخطاب وتوجهه إلىٰ النبي ﷺ والمؤمنين تثبيت وتأنيس لهم، ولهذا قال بعدها ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾ فتوجُه الخطاب للنبي ﷺ في هذه الآية، دليل علىٰ أن الغرض تثبيته ومن معه من المؤمنين.

- في قوله تعالىٰ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ إثبات صفة الإتيان لله عزَّ وجلَّ.

(١) انظر: «جامع البيان» (٢/ ٣٤٤).

﴿سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢١١﴾

◈ غرض الآية:

إقامة البرهان علىٰ المكذبين المصرين من المنافقين وأهل الكتاب بعدم انتفاعهم بالآيات واستكبارهم وجحودهم للآيات بعد وضوحها كحالهم من قبل مع الأنبياء.

◈ معاني الآية:

- المراد بالآية في قوله ﴿سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ﴾: العموم؛ لأن الغرض بيان عدد ماآتاهم الله تعالىٰ من الآيات العظيمة الدالة علىٰ صدق رسلهم، وما تضمنته كتبهم من صدق رسالة النبي ﷺ.

- المراد بالنعمة في قوله ﴿وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ﴾: العموم؛ لأن الجملة جاءت تذييلاً لقوله تعالىٰ: ﴿سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ﴾ فدل علىٰ أن النعمة ما بدله بنو إسرائيل، وهو شامل لكل ما ذكر.

البصائر والحكم

- وجه التصريح ببني إسرائيل دون أهل الكتاب: أن المقصود منه المبالغة في الزجر عن الإعراض، وذلك تنبيه لهؤلاء الحاضرين علىٰ أنهم لو زلوا عن آيات الله لوقعوا في العذاب كما وقع أولئك المتقدمون فيه، فالمقصود من ذكر هذه الحكاية أن يعتبروا بغيرهم، أن التصريح ببني إسرائيل تحذير للمؤمنين من موقفهم قديمًا وحديثًا.

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾:

التحذير من الكفر والتبديل، وتعريضاً بالمكذبين من بني إسرائيل المعاصرين، وتحذيراً للمؤمنين، ولهذا قال ﴿يُبَدِّلْ﴾ مضارعاً[(١)].

- **وجه التعبير بالنعمة:** أن المقصود الامتنان عليهم بكونه تعالىٰ منحهم هذه النعمة وعرفهم بها وبيّنها لهم فقابلوها بالكفر والجحود، وهذا أعظم الكفر والتبديل. فهو مبالغة في الذم والتقبيح لذلك، والتحذير منه، وفيه إظهار المنة للمؤمنين بما منحهم إياه من النعمة، تحذيراً لهم من تبديلها، وحثٌّ علىٰ زيادة التمسك بها وشكر الله عليها.

- **وجه قوله تعالىٰ:** ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ﴾: دال علىٰ أن العقاب مترتب علىٰ التبديل عن علم وبصيرة لا عن جهل أو غلط.

- **ختم الآية بقوله تعالىٰ:** ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾: أن فيه تهديداً بالعقاب لمن بدل نعمة الله. ففيه تحذير من ذلك؛ ولهذا عبر بشدة العقاب ليناسب التبديل؛ لأن التبديل للنعمة وبعد تبين لها مستدع للعقاب وشدته[(٢)].

- **وجه إظهار اسم الجلالة:** وأظهر اسم الجلالة للمبالغة في التخويف وإدخال الروع في ضمير السامع وتربية المهابة، ولتكون الجملة بمنزلة المثل[(٣)].

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٢١٢﴾

◈ غرض الآية:

بيان علة إعراض المكذبين في عدم دخولهم في السلم وتبديلهم للنعمة،

---

(١) «التحرير والتنوير» (٢/ ٢٩١).

(٢) «المحرر الوجيز» (١/ ٢٨٤).

(٣) انظر: «التحرير والتنوير» (٢/ ٢٩٣).

وهو تعلقهم بالدنيا وشهواتها وحظوظها، ونسيانهم الآخرة وحظوظها.

◈ معاني الآية:

- المراد بالكافرين في قوله ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا ﴾: العموم؛ لأن الغرض بيان علة كفرهم وهو تقديم الدنيا علىٰ الآخرة، وهذا متحقق فيهم جميعـًا، ولفظ الكافرين يعمهم، وكلهم قد سخروا من الذين آمنوا.

- المقصود بقوله ﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾: العموم؛ لأن الجملة جاءت علىٰ صيغة حكم عام، فتعم الفريقين. ولو كانت خاصة بالمؤمنين لقال ﴿والله يرزقهم بغير حساب﴾، لكن قوله تعالىٰ: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ تعم الخلق كلهم كما تعم الدنيا والآخرة.

البصائر والحكم

- المراد بتزيين الحياة للكافرين، والتعبير بـ﴿ زُيِّنَ ﴾ للمجهول: المراد بتزيين الحياة الدنيا، تمكنها في نفوسهم واشتداد تعلقهم بها حتىٰ كانت غايتهم دون الآخرة[1]، وعبّر بقوله ﴿ زُيِّنَ ﴾ للمفعول ولم يقل ﴿زَين﴾ للفاعل، كما يؤيده التعبير بالماضي الدال علىٰ التحقق، ولهذا قال ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ علىٰ الاختصاص، والكفار لا يختصون إلا بكون زينة الدنيا غايتهم دون الآخرة، وهو المقصود.

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: الجملة مبينة نتيجة تصورهم الخاطئ لزينة الدنيا، وأنها هي الغاية، وهي أنهم يرون أن المؤمنين قد فوتوا علىٰ أنفسهم زينتها ونعيمها، وأنهم بقصر أنفسهم علىٰ المشاق من الطاعات ضعفاء العقول.

---

(١) وليس المراد أن زينة الحياة الدنيا للكافرين دون سواهم قطعـًا لأن الله يقول +قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة».

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾: إظهار فضل المؤمنين بالتقوىٰ، تمييزاً لهم عن الكافرين، وتبشيراً بعلو مقامهم في الآخرة، ولهذا عبر بالفوقية. وتثبيتاً لهم وتحفيزاً علىٰ التمسك بالدين.

- وجه التعبير بالتقوىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾: التنبيه علىٰ مزية التقوىٰ، وكونها سبباً في الفوقية تحفيزاً عليها وتأكيداً علىٰ الاتصاف بها، وبيان أنها سبب النجاة والنعيم في الحياة الباقية، وأن في هذا نظماً لعقد التقوىٰ الذي انتظمته السورة من أولها.

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾: بيان فضل الله تعالىٰ علىٰ الخلق بالرزق، وأنه تعالىٰ يمنحهم رزقهم بغير حساب.

- حقارة الدنيا؛ لوصفها بالدُّنيا، وهي من الدنوِّ زمنًا، ورتبةً: زمنًا؛ لأنَّها قبل الآخرة. ورُتبةً؛ لأنَّها قليلٌ بالنسبة للآخرة؛ ولهذا لا تجد في الدنيا حال سرور إلَّا مَشوبًا بتنغيصٍ قبله، وبعده؛ لكن هذا التنغيص بالنسبة للمؤمن خير؛ لأنَّ له فيه أجرًا .

- أنَّ الكفَّار لا يزالون يُسلِّطون أنفسهم علىٰ المؤمنين؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَيَسۡخَرُونَ﴾ بالفعل المضارع الذي يفيد التجدُّد والاستمرار .

- تثبيت المؤمنين، وترسيخ أقدامِهم في إيمانهم؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يعني: اصبِروا؛ فإنَّ هذا دأبُهم وشأنهم أن يسخروا منكم؛ فما دمتم تعرِفون أنَّ هذه عادة الكفَّار، فاصبروا؛ فإنَّ الإنسان إذا عرَف أنَّ هذا الشيء لا بدَّ منه فإنَّه يكون مستعدًّا، وقابلًا له، وغير متأثِّرٍ به.

- أنَّ العبرة بكمالِ النِّهاية؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾.

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾

◈ غرض الآية:

بيان أن كمال الإسلام وأنه الدين الحق الذي اختلفت فيه الأمم وزلوا عنه بعد ماجاءتهم البينات بسبب تلقين الضلال وترويج الباطل وتزيين الدنيا، إظهاراً للمنة علىٰ المؤمنين، وتأكيداً لهم أنهم علىٰ الدين الحق.

◈ معاني الآية:

- **المراد بالناس والأمة في قوله تعالىٰ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾:** قال ابن جرير: «أن الله أخبر عباده أن الناس كانوا أمة واحدة علىٰ دين واحد وملة واحدة... وكان الدين الذي كانوا عليه دين الحق»[1]؛ لأن غرض الآية بيان فضل دين الإسلام وأنه الدين الذي كان الناس فيه أمة واحدة من قبل، امتناناً علىٰ المؤمنين، وإلزاماً للمختلفين من أهل الملل به.

- **مرجع الضميرين في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾:** أن الضميرين متلازمان في عودهما إلىٰ الحق والكتاب والنبي ﷺ جميعاً؛ لأن الحق هو ما تضمنه الكتاب وأتىٰ به النبي ﷺ، والكتاب والنبي ﷺ مصاحبان للحق، فإذا اختُلف في أحدها لزم الاختلاف في الآخر.

- **المراد بالاختلاف في الآية:** اختلافهم في الدين الحق بتكذيبهم لأنبيائهم

---

(١) «جامع البيان» (٢/ ٣٤٩).

بعد ما جاءتهم البينات، وتكفير بعضهم بعضاً وتحريفهم وتبديلهم لكتبهم؛ لأن ذلك كله داخل في الاختلاف.

- **المراد بالهداية في الآية:** هدايتهم للحق الذي هو الإسلام بعد أن اختلف فيه الأولون. فيكون المراد هدايتهم لجميع ما اختلفوا فيه من الدين بالإسلام، ويدخل فيه أمر إبراهيم عليه السلام، وأمر القبلة وغير ذلك؛ لأن السياق في بيان كمال الإسلام وأنه الحق.

- **وجه تقديم لفظ الخلاف علىٰ لفظ الحق:** الدلالة أولاً علىٰ أن اختلاف الأمم كان علىٰ الدين والإسلام الذي هو الحق لا علىٰ غيره، والدلالة ثانياً علىٰ أن الله هدىٰ المؤمنين إلىٰ هذا الدين الحق الذي هو الإسلام وجمعهم عليه، وهذا أظهر في الامتنان عليهم.

- **معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾:** المراد بالإذن هنا التيسير والتوفيق، وإرادة الخير للأمة، واختيار الأكمل لها، والمعنىٰ فهداهم إلىٰ الحق بتوفيقه واختياره وإرادته إكمال الدين لهذه الأمة؛ لأن السياق في إظهار الامتنان علىٰ المؤمنين بالإسلام، وبيان أنه الحق الذي كان الناس فيه أمة واحدة من قبل.

البصائر والحكم

- **غرض قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾:** بيان سبب اختلافهم الأول علىٰ دين الله، وهو البغي بينهم في طلب الرياسة والتنافس بينهم فيها، تعريضاً بأهل الكتاب وتوبيخاً لهم وتشنيعاً عليهم بعد اختلافهم علىٰ دين الإسلام، وإظهاراً لما امتن الله به علىٰ المؤمنين في هدايتهم للحق الذي اختلفت فيه الأمم وحادوا عنه، وتثبيتاً لهم وتحذيراً من مشابهة أهل الكتاب في الاختلاف علىٰ الكتاب بعد ماجاءهم.

- عبر بالإيتاء دون الإنزال في قوله تعالىٰ: ﴿أُوتُوهُ﴾ تأكيداً علىٰ علمهم ويقينهم به.

- قال: ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾ للدلالة علىٰ أن الخلاف كان في حالة تقررت فيها دلائل الحق في نفوس المختلفين[1].

- قال: ﴿ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ للدلالة علىٰ أن هذه النصوص ظاهرة بيّنة ليست محلاً للاختلاف[2].

- قال: ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾ لبيان أن الاختلاف ليس لجهل ولا لعدم فهم للحق، وإنما هو بغي وظلم وحسد، وأتىٰ بالظرف ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ للإشارة إلىٰ أن البغي حسد بينهم وأنه مشترك بينهم، وأنه لم يكن بين أهل الدين ومعانديه بل هو بين أهل الدين أنفسهم[3].

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦ﴾: بيان هداية الأمة للحق الذي اختلف فيه من قبلهم، وهو هدايتهم لهذا الدين.

- وجه ختام الآية بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾: بيان تفضيل هذه الأمة وتوفيق الله تعالىٰ لها بالهداية، ومن عظيم فضله علىٰ هذه الأمة أن حكمته اقتضت أن يتأخر تمام الهدىٰ إلىٰ وقت مجيء شريعة الإسلام.

- أنَّ مَن يُوصَف بالتبشير إنَّما هم الرُّسل، وأتباعهم؛ وأمَّا ما تسمَّىٰ به دعاة النصرانيَّة بكونهم مبشِّرين، فهم بذلك كاذبون؛ إلَّا أن يُرادَ أنَّهم مبشِّرون بالعذاب الأليم، كما قال تعالىٰ: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

- رحمة الله عزَّ وجلَّ بالعباد، حيث لم يكِلْهم إلىٰ عقولهم؛ لأنَّهم لو وُكِلوا

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (٢/ ٣١٠).

(٢) انظر:«التحرير والتنوير» (٢/ ٣١٠).

(٣) انظر: «روح المعاني» (١/ ٦٧٩) ، «التحرير والتنوير» (٢/ ٣١١).

إلىٰ عقولهم لفسدتِ السَّموات والأرض، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ المؤمنون: ٧١؛ فكلُّ إنسانٍ يقول: العقل عندي، والصَّواب معي، ولكنَّ الله تعالىٰ بعث النبيِّين، وأنزل معهم الكتاب؛ ليَحكُمَ بين النَّاس فيما اختلفوا فيه .

- **أنَّه يجب علىٰ المرء الذي هداه الله ألَّا يعجب بنفسه،** وألَّا يظنَّ أنَّ ذلك مِن حولِه، وقوته؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ﴾، ثم قال تعالىٰ: بِإِذْنِهِ أي أمرِه الكوني القدري؛ ولولا ذلك لكانوا مثل هؤلاء الذين ردُّوا الحق بغيًا وعدوانًا .

- **الإيماء إلىٰ أنَّه ينبغي للإنسان أن يَسألَ الهداية من الله عزَّ وجلَّ؛** لقوله تعالىٰ: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

- **رحمة الله عزَّ وجلَّ بالمؤمنين؛** لقوله تعالىٰ: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا ٱخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾.

- **أنَّه كلما قوِي إيمان العبد، كان أقربَ إلىٰ إصابة الحقِّ؛** لقوله تعالىٰ: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا ٱخْتَلَفُوا ...﴾.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾

◈ غرض الآية:

بيان سنة الله في ابتلاء المؤمنين بعد هدايتهم للدين الحق.

◈ معاني الآية:

- **المراد بقوله تعالىٰ:** ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾:

قوله تعالىٰ: ﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ هو من قول الرسول والمؤمنين علىٰ سبيل استعجال وقت النصر؛ لأن السياق في بيان شدة البلاء وتنوعه علىٰ المؤمنين بسبب دينهم.

البصائر والحكم

- **وجه التعبير بالبأساء والضراء ووجه الجمع بينهما:** المراد بالبأساء، من البؤس وهو الشدة في الفقر، وهو إشارة إلىٰ قلة المال، والمراد بالضراء، من الضرر، وهو إشارة إلىٰ القتال والحروب[(١)]، والجمع بينهما للإشارة إلىٰ ما سيصيب المؤمنين من البلاء المتنوع في المال والجسد، ولهذا قال ﴿وَزُلْزِلُوا﴾ أي حركوا بأنواع البلايا والرزايا[(٢)].

- **غرض قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾:** بيان حالة الشدة وغاية البلاء في الذين آمنوا من قبل، تثبيتـًا للمؤمنين، وتهوينـًا عليهم.

- **القراءات في قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ﴾:**

ورد في قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ﴾ قراءتان صحيحتان:

القراءة الأولىٰ بنصب الفعل ﴿يقولَ﴾ وهي قراءة الجمهور.

والقراءة الثانية برفع الفعل ﴿يقولُ﴾ وهي قراءة نافع[(٣)].

فالقراءة بالرفع دالة علىٰ وقوع ذلك في الماضي، أي للرسل والأمم السابقة. وذلك لأن الفعل المضارع بعد حتىٰ يكون حالاً محكية، والمراد به المضي، والمعنىٰ: وزلزلوا فقال الرسول.

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٢٨٧)، «مفاتيح الغيب» (٦/ ٢٠).

(٢) انظر: «مفاتيح الغيب» (٦/ ٢٠).

(٣) انظر: «السبعة» (ص١٨١)، «الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٢٩١).

والقراءة بالنصب دالة علىٰ وقوع ذلك في المستقبل، أي للرسول والمؤمنين، وذلك لأن الفعل منصوب علىٰ الغاية، أي إلىٰ أن يقول الرسول.

- وجه ختام الآية بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾: تثبيت المؤمنين، وتبشيرهم بنصر الله حال ثباتهم وصبرهم.

- أنَّ الإيمان ليس بالتمنِّي، ولا بالتحلِّي؛ بل لا بدَّ من نيَّة صالحة، وصبرٍ علىٰ ما ينالُه المؤمن من أذًىٰ في الله عزَّ وجلَّ.

- أنَّ الصَّبر علىٰ البلاء في ذاتِ الله عزَّ وجلَّ من أسباب دخول الجنة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ...﴾ الآية.

- أنه ينبغي للإنسان ألَّا يسألَ النصر إلَّا من القادر عليه، وهو الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾.

- تبشير المؤمنين بالنصر؛ ليتقوَّوا علىٰ الاستمرار في الجهاد ترقبًا للنَّصر المبشَّرين به، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾.

- لَمَّا كان الفرج عند الشدَّة، وكلَّما ضاق الأمر اتَّسع، قال تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ فهكذا كلُّ مَن قام بالحقِّ، فإنَّه يُمتَحن.

- حِكمة الله عزَّ وجلَّ، حيث يبتلِي المؤمنين بمثل هذه المصائب العظيمة؛ امتحانًا حتىٰ يتبيَّن الصادق من غيره.

﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ
وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ٢١٥
كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ
لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ
٢١٦ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ وَصَدٌّ عَن
سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ
وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ
إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ
حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ٢١٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ
ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨ ۞ يَسۡـَٔلُونَكَ
عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ
أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ
ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ٢١٩ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ
عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ
ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٢٠ ﴾

(البقرة: ٢١٥ – ٢٢٠)

الآيات كلها واردة في الاستعداد لما أخبر عما سيلاقيه المسلمون بسبب دينهم من البلاء في البأساء والضراء في الآية السابقة، فشرع لهم ما يستعدون فيه للبأساء وهي الفقر، بالنفقة ومراعاة الضعفاء، ثم شرع ما يستعدون فيه للضراء وهي الحرب

والقتل، بفرض القتال عليهم وبيان كونه خيراً لهم. فظهر بذلك ارتباط الآيات ومناسبتها لما قبلها.

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ ﴾

◈ غرض الآية:

بيان وجوه النفقة الصحيحة ومصارفها المهمة، إصلاحاً للجانب المالي واستعداداً لما سيصيبهم من البأساء بسبب امتحانهم في دينهم.

◈ معاني الآية:

- **المراد بالسؤال في الآية والجواب عنه:** السؤال إنما صدر استعلاماً لأولى المواضع التي ينفقون فيها أموالهم استعداداً للبأساء التي أخبرهم بحصولها في الآية السابقة، فالسؤال ظاهر في معرفة المصارف الأَولى في الإنفاق كما يدل عليه الاستفهام بماذا؛ فلذلك طابق الجواب السؤال؛ إذ أجيب بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ فجاء ببيان المصارف الأقرب والأشد حاجة.

- **المراد بالنفقة في الآية:** العموم؛ لأن غرض الآية في إصلاح الأموال وبيان مصرفها الصحيح، وهذا عام في النفقة.

البصائر والحكم

- **وجه تقدم السؤال على النفقة على القتال:** أن النفقة هي العامل الرئيس في سد الحاجة الداخلية وتقوية البناء الداخلي للمجتمع، وهي العدة للقتال الذي

سيفرضه عليهم، فلا يمكن قيام قتال بلا عدة وقوة مالية.

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾: الحث علىٰ الإنفاق في مصارف الخير عامة بعد الأمر بالنفقة علىٰ المصارف الخاصة.

- وجه التعبير بالخير: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ﴾: قال السعدي: «عمم تعالىٰ فقال ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ﴾ من صدقة علىٰ هؤلاء وغيرهم، بل ومن جميع أنواع الطاعات والقربات لأنها تدخل في اسم الخير»[(١)].

- حِرصُ الصحابة رضي الله عنهم علىٰ السُّؤال عن العِلم؛ وقد وقع سؤالهم لرسول الله ﷺ في القرآن أكثرَ من اثنتي عشرة مرة .

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾

◈ غرض الآية:

بيان وتقرير فرضية القتال، وتشريعه علىٰ الأمة، تهيئة لما سيلاقيه المسلمون من أعدائهم.

◈ معاني الآية:

- حكم القتال في الأمة: ظاهر الآية أنه فرض عين علىٰ جميع الأمة لقوله تعالىٰ: ﴿عَلَيْكُمُ﴾ لكن سياق الآية وارد في بيان فرضية أصله علىٰ الأمة، وليس في بيان فرضه علىٰ أفرادهم، فيكون فرض عين علىٰ الأمة بمجموعها، وفرض كفاية علىٰ أفرادها، كما دلت عليه السنة.

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ١٥٩).

البصائر والحكم

- **الآية ليست في الأمر بالقتال ابتداءً**، وإنما في بيان فرضيته بعد الإذن فيه الوارد في قوله تعالىٰ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ [الحج٣٩]، فتكون مرحلة من مراحل تشريع القتال.

- **وجه تعليق حكم القتال بعلته في قوله تعالىٰ:** ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾: تعليق حكم القتال بعلته ومصلحة الأمة فيه لتأكيده وبيان عاقبته وأنه خير لهم، كما بين عاقبة الصوم بقوله تعالىٰ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُوْنَ﴾.

- **وجه ختم الآية بقوله تعالىٰ:** ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾: زيادة في الترغيب في الجهاد والحث عليه، وذلك أن الإنسان إذا علم أن الله سبحانه لا يأمره إلا بما فيه خيريته ومصلحته علم قطعاً أن الذي يأمره الله تعالىٰ به يجب عليه امتثاله، سواء كان مكروهاً للطبع أو لم يكن.

- **أنه لا حرَجَ علىٰ الإنسان إذا كرِه ما كُتِب عليه مِن حيثُ الطبيعةُ**؛ أمَّا من حيث أمر الشارع به فالواجب هو الرِّضا، وانشراح الصدر به .

- **ضَعْف الإنسان**، وأنَّ الأصل فيه عدم العلم؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِ...﴿٢١٧﴾﴾

◈ غرض الآية:

بيان حرمة القتال في الشهر الحرام بعد بيان فرض القتال علىٰ الأمة احترازاً من دخوله.

◈ معاني الآية:

- السائلون في الآية: الأصل أن السؤال من المؤمنين، مع احتمال صدوره من المشركين؛ لأن دلالة الآية السابقة عليه وهي قوله تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾ فكان ذلك باعثًا علىٰ السؤال عن حكمه في الشهر الحرام.

- حكم القتال في الشهر الحرام: أنه منسوخ بآية السيف، وأن حرمته باق بالنسبة لبقية الجرائم والذنوب؛ لأن الله تعالىٰ نص علىٰ حرمتها بقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ وهذا صريح في بقاء الحكم، وإنما حرمت الأشهر الحرم؛ لأجل تامين سبل الحج كما قال تعالىٰ: ﴿جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ [المائدة٩٧]، ولما تمكن الإسلام وزال الشرك بفتح مكة، وطُهِّر المسجد الحرام، وانتقل ليد المسلمين، ولم يبق مشرك يقصد الحج، زالت حرمة القتال في الأشهر الحرم، وتعطل العمل بها؛ لأنها إنما حرمت لأجل تأمين سبل الحج والعمرة، فنسخ بانقضاء الحاجة إليه [(١)].

- المراد بالفتنة في الآية: المراد بالفتنة جميع ما ارتكبوه من الشرك والصد وإخراج المؤمنين وتعذيبهم علىٰ دينهم؛ لأن لفظ الفتنة يشمل جميع ما ذكر، وأعظمه الكفر والشرك.

- أنَّ الرسول ﷺ هو مرجع الصَّحابة في العلم؛ لقوله تعالىٰ: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ ﴾ .

- أنَّ الأشهر قسمان: أشهر حُرم، وأشهر غير حرم، ويتفرَّع علىٰ هذه الفائدة: أنَّ الله يختصُّ من خلقه ما شاء؛ فهناك أماكن حرام، وأماكن غير حرام، وأزمنة حرام، وأزمنة غير حرام، وهناك رسل، وهناك مرسَل إليهم، وهناك صِدِّيقون، وهناك مَن دونهم، والله عزَّ وجلَّ كما يفاضل بين البشر، يفاضل بين الأزمنة والأمكنة .

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (٢/ ٣٢٨).

- تقديم ما يُفيد العِلِّيَّة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ﴾؛ المسؤول عنه القتال في الشهر الحرام؛ لكنه قدَّم الشهر الحرام؛ لأنَّه العلة في تحريم القتال .

- تفاوت الذُّنوب؛ لقوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۖ﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾؛ وبتفاوت الذنوب يتفاوت الإيمان؛ لأنَّه كلما كان الذنب أعظم كان نقص الإيمان به أكبر .

- أنَّ من كان أقومَ بطاعة الله فهو أحقُّ النَّاس بالمسجد الحرام؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ﴾؛ فمع أنَّ المشركين ساكنون في مكَّة؛ لكنَّهم ليسوا أهلَه: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ الأنفال: ٣٤.

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢١٧﴾

◈ غرض الآية:

الإخبار بما سيكون عليه حال المشركين مع المسلمين في المستقبل من القتال والفتنة، تحذيراً للمؤمنين، وتثبيتاً لهم علىٰ الدين، وتحفيزاً لهم علىٰ الاستعداد للقتال.

البصائر والحكم

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ﴾ وفائدته: يفيد استبعاد استطاعتهم[1]، وفي ذلك تبشير للمؤمنين، وزيادة تحفيز لهم وترغيب علىٰ القتال.

(١) انظر: «الكشاف» (١/ ٢٥٩).

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾: تحذير المؤمنين من الميل عن دينهم بسبب قتال المشركين وفتنتهم لهم.

- رُتب علىٰ الردة والموت عليها أمور: حبوط الأعمال في الدنيا بالشرك، وزوال حرمة النفس والمال والعرض، وعدم الصلاة عليه وقبره في مقابر المسلمين، وزوال آثار العبادات وفضائل الإسلام من الهجرة والأخوة والولاء والحقوق، وحبوط الأعمال في الآخرة بحبوط الأجر والثواب، والخلود في النار.

- وجه العطف بالفاء في قوله تعالىٰ: ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾: العطف بالفاء المفيدة للتعقيب بعد قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ مع أنه في العادة لا يموت بعد الردة مباشرة، فيه تحذير من الردة وعاقبتها بالموت علىٰ الكفر.

- وجه ذكر الوعيد بالخلود مع حبوط الأعمال في هذه الآية: لأن هذه الآية وردت في التحذير من الردة بعد الإسلام، فذكر فيها هنا الوعيد بالخلود، زيادة في التهويل والتحذير[1].

- الحذر من الكافرين؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ﴾؛ وكلمة: لَا يَزَالُونَ تفيد الاستمرار، وأنه ليس في وقت دون وقت، وأنَّ محاولتهم ارتدادَ المسلمين عن دِينهم مستمرةٌ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨﴾

◈ غرض الآية:

الإشادة بالمؤمنين والثناء عليهم وترغيبهم في الجهاد، وبيان فضلهم بالجهاد والهجرة، وجزائهم علىٰ ذلك؟

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (٢/ ٣٣٥).

البصائر والحكم

- **سبب النزول:** هو ما أخرجه ابن جرير وغيره عن جندب بن عبدالله قال: «لما كان من أمر عبد الله بن جحش وأصحابه وأمر ابن الحضرمي ما كان، قال بعض المسلمين: إن لم يكونوا أصابوا في سفرهم وزراً، فليس لهم فيه أجر، فأنزل الله الآية»[1]، فالآية لها ارتباط بما قبلها وهي قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾.

- **وجه تخصيص الأعمال الثلاثة:** فيه إشادة بالذين نزلت فيهم الآية، وهم أصحاب السرية؛ إذ أنهم كانوا من المؤمنين المهاجرين جميعـًا، وأن هذه الأعمال هي أصول الأعمال المتعلقة بالقتال،وهي أعظم الدلائل علىٰ قوة الدين في النفس واستعداده للقتال.

- **وجه قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾:** الترغيب في الصفات المذكورة، والبشارة لأهلها، ويدل عليه التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ وفعل المضارع في ﴿يَرْجُونَ﴾، وأن رجاء الرحمة لا يكون إلا بالعمل وفعل الأسباب[2]، وأن العبد ولو أتىٰ من الأعمال بما أتىٰ لا ينبغي له أن يعتمد عليها، ولذلك قال ﴿يَرْجُونَ﴾ بعد ذكر الأعمال؛ بل يعتمد علىٰ رحمة الله ومغفرته ولهذا قال ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

- **أنَّه لا ينبغي للإنسان أن يكون جازمًا بقَبول عمله؛** بل يكون راجيًا؛ حَسن الظنِّ بالله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّهم لا يغترون بأعمالهم؛ ولا يدلُّون بها علىٰ الله؛ وإنَّما يفعلونها وهم راجون رحمة الله تعالىٰ.

---

(١) «جامع البيان» (٢/ ٣٦٨).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ١٦٢).

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ...﴿٢١٩﴾﴾

◈ غرض الآية:

التنفير من الخمر والميسر، وذمهما تمهيداً لتحريمهما لمنافاتهما لما أمروا به من الإنفاق والقتال.

◈ معاني الآية:

- **الحكم المقصود في الآية:** الآية نازلة لبيان الإثم والضرر تمهيداً للتحريم؛ لأن الله تعالىٰ أثبت في الآية أن فيهما منافع للناس، وهذا ينافي تحريمهما.

- **المراد بالإثم، ووجه التعبير به، ووصفه بالكبير:** الآثار السيئة والمفاسد الباعثة علىٰ الإثم الظاهر من نقص الدين، وأذية الناس، والإفضاء إلىٰ العداوة والبغضاء؛ لأن الله لم يصفهما بالإثم بذاتهما، وإنما أظهر أن فيهما إثماً بما يورثانه من ذلك.

أما وجه وصفه بالكبير؛ فلأن مضرتهما والتبعات التي تعقبهما كبيرة، والضرر يكون في الدين والبدن والنفس والعقل والمال، ولا يوجد إثم من الآثام ضرره في كل شي كالخمر والميسر؛ ولهذا سميت الخمر بأم الخبائث[(١)].

البصائر والحكم

- **وجه بيان إثمهما دون تحريمهما:** أن الخمر والميسر مما تطبَّع عليه العرب واعتادوه؛ فكان لا بد من التدرج في تحريمهما، ولأن السياق وارد في إصلاح

---

(١) انظر: «تفسير المنار» (٢/ ٣٢٥)، وقد عدّد بعض المفسرين مضار الخمر والميسر بأنواعها انظر: «محاسن التأويل» (١/ ٥٣٧)، «تفسير المنار» (٢/ ٣٢٧-٣٣٠).

الأموال والإعداد للقتال فناسب أن يبين إثمهما وضررهما المنافي لذلك.

- **المراد بالخمر والميسر ووجه الجمع بينهما:** الخمر هو ماء العنب الذي غلىٰ ولم يطبخ، وما خامر العقل من غير ذلك فهو في حكمه، والميسر هو القمار، وجمع بينهما لأنهما كانا من عمل الجاهلية، فقد كانوا يجمعون بينهما، وهما قرينان في التمكن من نفوس العرب يومئذ؛ إذْ هما أكبر لهو يلهون به، ولاشتراكهما في الضرر بالجهاد من حيث أنهما يعوقان عن الجهاد نفساً ومالاً وتعلقاً.

- **القراءات في الآية والجمع بينهما، ووجه وصفهما بذلك:**

وردت قراءتان صحيحتان في الآية، الأولىٰ بلفظ ﴿كَبِيرٌ﴾ وهي قراءة الجمهور، والثانية بلفظ ﴿كثير﴾ وهي قراءة حمزة والكسائي[1]، والجمع بينهما من جهة أن وصف الكبر أدل في الذنب، ووصف الكثرة أدل في الضرر والمفاسد، ولأن وصفهما بذلك يدل علىٰ أنهما متعلقان بالذنب وبالضرر.

- **المراد بالمنافع ووجه ذكرها:** أي: المنافع الدنيوية من اللذة والطرب والتجارة في الخمر، وإصابة المال بلا كد في الميسر، ويدخل في ذلك المنافع التي تعود علىٰ المحاويج والفقراء بالإنفاق عليهم منها، ولذلك خصصها بالناس[2]، ووجه ذكرها: المقارنة بينها وبين الإثم، لإظهار غلبة الإثم والضرر فيهما، ولأنه لو اقتصر علىٰ الإثم لظهر من الآية تحريمها، وليس هذا مقصوداً في الآية، فذكر المنافع لبيان الغرض المقصود، وهو الذم وبيان الضرر.

- **وجه دلالة السياق علىٰ غلبة الإثم علىٰ المنافع في الخمر والميسر:** تقديم بيان إثمهما علىٰ ذكر منافعهما، والتعبير بالإثم ووصفه بالكبير والكثير، وتعميم

---

(١) انظر: «التيسير» (ص٨٠)، «التبصرة» (ص٤٣٩)، «السبعة» (ص١٨٢).

(٢) انظر: «البحر المحيط» (٢/ ٤٠٥).

الإثم، وتخصيص المنافع بالناس ظاهر في غلبة الأول، والتعقيب بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ وهذا نص صريح في غلبة الإثم، وهذا غاية المقصود من الآية وهو التنفير منهما؛ ولهذا كانت هذه الآية ممهدة لتحريمهما.

- أنَّ الدِّين الإسلامي جاء بتحصيل المصالح، ودرء المفاسد؛ لقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾.

- المقارنة في الأمور بين مصالحها، ومفاسدها؛ لقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ...﴿٢٢٠﴾﴾

◈ غرض الآية:

التأكيد علىٰ النفقة ببيان قدرها ووجهها الصحيح، بعد النهي عن الوجه غير المشروع فيها لسد حاجة المجتمع واستعداداً للجهاد.

◈ معاني الآية:

- المراد بالنفقة في الآية: التطوع؛ لأن السؤال مبني علىٰ سؤالهم الأول في النفقة، والسؤال الأول دال علىٰ أن المراد نفقة التطوع.

- المراد بالعفو في الآية: الفضل؛ لأن العفو في اللغة يكون بمعنىٰ الزيادة[1]، ويدل علىٰ التيسير والتخفيف.

(١) انظر: «جامع البيان» (٢/ ٣٧٨١).

البصائر والحكم

- وجه عطف السؤال عن النفقة علىٰ السؤال عن الخمر والميسر في آية واحدة: أنهم لما سألوا عن الخمر والميسر فبين ما فيهما من الإثم والمنافع، وقد كانوا يجعلون من أموالها جزءاً للإنفاق علىٰ الفقراء والمحاويج، فناسب أن يسألوا عن الوجه الصحيح في الإنفاق عليهم، فبين لهم ذلك، وأنه يحتمل أن يكون سؤالهم عن الخمر والميسر، واقعـًا مع سؤالهم عن النفقة، فقرنهما في الآية [1]، وأنه لما كان الخمر والميسر إنما يحصل بسبب الغناء وكثرة المال، أتبعه بسؤالهم عن النفقة لبيان أن المشروع لهم إنفاق مافضل من أموالهم؛ لئلا ينشغلوا بها أو تصرفهم إلىٰ الحرام.

- وجه إعادة السؤال عن النفقة، واختلاف الجواب عنه: الغرض من السؤال في الموضع الأول بيان المصارف، والغرض منه في الثاني بيان المقدار، ولأن مناسبته في الموضع الأول توجيههم لصرف أموالهم للأقربين استعداداً لما أخبرهم به من وقوع البأساء والضراء عليهم، ومناسبته في الموضع الثاني توجيههم لصرف الفاضل من أموالهم حذراً من الاشتغال بها في شهواتهم ولذاتهم.

- وجه تخصيص المنفَق بالعفو، والتعبير به في الآية: أن فيه ترغيبـًا لهم علىٰ النفقة والدوام عليها، وأن في إنفاق الفضل منعـًا للتضخم المالي، والتصرف بالأموال في غير الأمور المشروعة، وأن فيه مراعاة لجميع الأحوال والعصور علىٰ مختلف مستوياتها المادية، وأن فيه حضـًا وترغيبـًا علىٰ كثرة الإنفاق، وأن في إنفاق الفضل ضمانـًا لدوام الإنفاق من المال وإن قل.

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (٢/ ٣٥١).

- **وجه ختام الآية بقوله تعالىٰ:** ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾: أن ما أرشدهم إليه من أمر النفقة ومصارفها ومقدارها، وشرعه لهم من القتال وحدوده وآثاره، وبيّنه لهم من إثم الخمر والميسر ومفاسدهما، يستوجب التفكر والدراسة؛ إذ فيه مصلحتهم وخيرهم في الدارين، وأن في ذلك تنويهاً بأن الشرع الحكيم مبني علىٰ إصلاح شؤون الأمة وإكمال نظامها، وأن في ذلك إرشاداً للأمة لمراعاة الأصلح والأنفع من الأمور في الدارين جميعاً.

- **وجه قطع قوله تعالىٰ: ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ عن الآية والابتداء بها في الآية بعدها:** علىٰ وجه تعلقها بـ﴿ٱلْآيَٰتِ﴾ أي يبين لكم الآيات في أمر الدنيا والآخرة لعلكم تتفكرون فيها، أو علىٰ تعلقها بقوله تعالىٰ: ﴿تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي تتفكرون في الدنيا والآخرة، والمعنىٰ: تتفكرون في مصالحكم الدنيوية والأخروية، فتختارون الأصلح لكم فيها.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾

◈ غرض الآية:

الوصية بإصلاح أمور اليتامىٰ، إبطالاً لما كانوا عليه في الجاهلية من احتقارهم، وعدم مخالطتهم، وأكل أموالهم.

◈ معاني الآية:

- **المراد بالإصلاح في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾:** إصلاح أنفسهم وإصلاح أموالهم، لأنه عبر بالإصلاح وهو أنسب لإصلاح ذواتهم، وأما قوله: ﴿لَّهُمْ﴾ مناسب لأموالهم.

- المراد بقوله تعالىٰ: ﴿خَيۡرٞ﴾ وعائدها: خير للولي ولليتيم؛ لأنه لو قال ﴿قل إصلاح خير لهم﴾ لخصص باليتيم، فلما أطلق الخير دخل فيه الولي واليتيم، وفي ذلك ترغيب للولي.

- المراد بالمخالطة في الآية: العموم؛ لأن اللفظ مطلق، ولأن الغرض الإصلاح.

- المراد بالعنت: المشقة والتضييق؛ لاشتماله علىٰ التخفيف والتيسير المقصود في التشريع.

البصائر والحكم

- وجه عطف بعض السؤالات علىٰ بعض دون بعضها: أن الأسئلة الأولىٰ الواردة بغير عطف كلها في أحكام متفرقة وهي في عبادات مختلفة، وأن الأسئلة المعطوفة دالة علىٰ كون السؤال عنها في وقت واحد، وأما الأسئلة التي جاءت بغير واو العطف فلأن سؤالهم عن تلك الحوادث وقع في أوقات متباينة متفرقة(١).

- التعبير بقوله: ﴿فَإِخۡوَٰنُكُمۡ﴾ فيه تأليف لقلوبهم من حيث أنهم بمنزلة الإخوة، وبعث لهم للنظر إليهم بعين الأخوة مما فيه إصلاحهم والنصح لهم.

- فائدة قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِ﴾ ووجه تقديم المفسد: التحذير من الرغبة في أكل أموالهم بالمخالطة، أو إفسادها ظاهراً أو باطناً.

- وجه تقديم المفسد في: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِ﴾: أن الأمر مظنة الإفساد، لضعف اليتيم، وعدم الرقيب علىٰ الولي، فكأنه تعالىٰ جعل نفسه وكيلاً عن الولي في العلم والمراقبة، وأن الورع مندوبٌ إليه محثوثٌ عليه عموماً، وفي

(١) انظر: «البحر المحيط» (٢/ ٤٢٢).

أمر اليتامىٰ خصوصاً لضعفهم وحاجتهم، فكان التحذير بهذا المقام أولىٰ[1].

- من أعظم أسباب الإصلاح وعدم الإفساد مراقبة الله تعالىٰ، ولا عاصم من الطمع وشهوة المال واتباع الشبهة إلا مراقبة الله تعالىٰ وتقواه.

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾: التذكير والامتنان برحمة الله والتخفيف عليهم في أحكام أموال اليتامىٰ، ترغيباً لهم في السعي لإصلاحها والقيام عليها[2].

- وجه ختام الآية بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾: أن وصفه تعالىٰ بالعزة وهو الغلبة، إشارة إلىٰ أنه مختص بذلك لايشارك فيه، ووصفه تعالىٰ بالحكمة إشارة إلىٰ أنه لا يتعدىٰ ما أمر به فيهم وفي أموالهم، ولأن تكون الجملة تقريراً لعزته وحكمته في المسائل الثلاث في الآيتين المرتبطتين، وهي مسألة الخمر والميسر ومسألة الإنفاق ومسألة اليتامىٰ.

- مراعاة الإصلاح فيمَن ولاه الله تعالىٰ علىٰ أحد؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾.

- إطلاق الأخ علىٰ مَن هو دونه؛ لأنَّ اليتيم دون مَن كان وليًّا عليه؛ وهذه الأخوة هي أخوَّة الدين.

(١) انظر: «نظم الدرر» (٣/ ٢٦٧).

(٢) انظر: «روح المعاني» (١/ ٦٩٨).

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ
وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ
مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ
وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ
عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ
يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ
وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟
لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾

(البقرة: ٢٢١ – ٢٢٣)

سياق هذه الآيات وما بعدها في إصلاح الأحوال الزوجية التي كان عليها العرب في الجاهلية، وقد ركزت الآيات على بناء الأسرة، وبيان أصول العلاقات الزوجية اتصالاً وانفصالاً، وجاء سياق المقطع الأول في بيان عقد الزوجية، وأحكام المعاشرة والاتصال بين الزوجين.

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ
أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ
وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ
وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾

◈ غرض الآية:

بناء عقد الزوجية وتقييده بالإسلام، توثيقاً لرباطة المجتمع علىٰ الدين، وقطعاً للصلة بالكفر وأهله.

◈ معاني الآية:

- **المراد بالمشركات في الآية:** مشركات العرب اللاتي لا كتاب لهن؛ لأن التعبير كان بلفظ الشرك دون الكفر، والنص علىٰ المشركات دون الكتابيات.

- **المراد بِالْأَمَةِ والعبد في الآية:** الأمة الرقيقة والعبد الرقيق؛ لأن اللفظ هنا وارد في سياق النكاح لا في سياق العبادة، والأقرب للنكاح أن يكون بمعنىٰ الأمة الرقيقة والعبد الرقيق.

البصائر والحكم

- **وجه بدء أحكام الأسرة بالنكاح، والنهي عن نكاح المشركات:** أن عقد النكاح هو أساس العلاقة بين الزوجين وابتداؤه، فلذلك ابتدأ به، وأما النهي عن نكاح المشركات فلأن رابط الأسرة التي عُني الإسلام ببنائها لا تقوم إلا برابطة الدين وبناء الأسرة عليه، فلذلك لزم بناؤه علىٰ رابطة الدين، ولأن الإسلام عُني في ابتداء التشريع بتوثيق الرابطة بين المؤمنين،وبناء الشخصية الإسلامية وتميزها واستقلال الدولة وبناء نظامها، فابتدأ تشريع نظام الأسرة بتحريم إنشاء أي نكاح جديد بين المشركين والمسلمين.

- **غرض قوله تعالىٰ:** ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾: بيان حكمة التحريم بالتنبيه علىٰ دنو منزلة المشركات، بتفضيل أقل المؤمنات علىٰ أكمل المشركات، ولذلك قال: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ إشارة إلىٰ أقصىٰ الأحوال في كمالها.

- **وجه خيرية الْأَمَةِ والعبد علىٰ المشركة والمشرك:** أن الأمة المؤمنة والعبد المؤمن يدينان لله بالعبودية، ويعينان علىٰ الخير في الدارين، ولهما دين يحملهما علىٰ الأمانة ويأمرهما بالخير، وينهاهما عن الشر، فهما موكولان إلىٰ مراقبة الله تعالىٰ.

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾: بيان العلة المانعة من مناكحة الكفار، بالتنبيه إلىٰ عاقبة معاشرتهم السيئة، مبالغة في التحذير من ذلك.

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿إِلَى ٱلنَّارِ﴾ دون الكفر: أنه أبلغ في التحذير من قوله ﴿يدعون إلىٰ الكفر﴾ وأدل علىٰ المقصود، وهو النهي عن معاشرتهم. وذلك أن كل ما عليه الكفار دعوة للنار فيجب اجتنابه.

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ﴾ دون ﴿والمؤمنون يدعون﴾: فيه إشارة إلىٰ أن المؤمنين يدعون إلىٰ دعوة الله وإلىٰ جنته، وفي ذلك تشريف لهم وتفخيم لشأنهم.

- وجه ختم الآية بقوله تعالىٰ: ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾: أنها تتضمن الامتنان ببيان الله للأحكام وحِكمها الدالة علىٰ كمال شرعه، وتضمنه لمصالح عباده، وذلك داع للتبصر فيها واتباعها(١).

- أنَّ الحُكم يدور مع عِلَّته وجودًا وعدمًا؛ لقوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْ﴾؛ فدلَّ ذلك علىٰ أنَّه متىٰ زال الشرك حلَّ النكاح؛ ومتىٰ وجد الشرك حرم النكاح .

- أنَّ المؤمن خير من المشرك؛ ولو كان في المشرك من الأوصاف ما يُعجب؛ لقوله ﴿وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡ﴾؛ ومثله قوله تعالىٰ: ﴿قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِ﴾ المائدة: ١٠٠؛ فلا تغترَّ بالكثرة؛ ولا تغترَّ بالمهارة؛ ولا بالجودة؛ ولا بالفصاحة؛ ولا بغير ذلك؛ وارجِع إلىٰ الأوصاف الشرعيَّة المقصودة شرعًا.

- تفاضل النَّاس في أحوالهم، وأنهم ليسوا علىٰ حدٍّ سواء؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ﴾.

---

(١) «تفسير المنار» (٢/ ٣٥٧).

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾

◈ غرض الآية:

بيان الأحوال المحظورة في المعاشرة، إصلاحًا لما كان عليه العرب وأهل الكتاب من التشديد أو التساهل.

◈ معاني الآية:

- **المراد بالمحيض في الموضعين:** المراد به في الموضع الأول الحيض، والمراد به في الموضع الثاني موضع الدم؛ لأن سياق الآية وارد في إصلاح الأحوال المتعلقة بالمعاشرة التي كانوا عليها، وقد كانوا يعتزون الحائض زمن الحيض كما هو فعل اليهود والعرب في الجاهلية، فسألوا عن ذلك، فبيّن لهم الحكم بمنع مباشرتهن في موضع الحيض دون غيره. فلزم أن يكون المقصود بالمحيض الأول هو زمن الحيض لنص الحديث عليه كما في سبب النزول السابق، ولزم أن يكون المقصود بالمحيض الثاني هو موضع الحيض لنص الحديث عليه: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح»[(١)].

- **المراد بالاعتزال في قوله تعالىٰ: ﴿فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ﴾:** اعتزال موضع الأذىٰ؛ لأن دلالة السياق ظاهرة بالنص علىٰ الأذىٰ، فما كان موضعًا للأذىٰ فيجب اعتزاله منها.

---

(١) أخرجه مسلم ١/ ٢٤٦ برقم ٣٠٢ وابن حبان ٤/ ١٩٥ برقم ١٣٦٢

- المراد بالطهر في قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ والتطهر في قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾: الطهر المبيح للجماع مجموع الطهرين، وهو انقطاع الدم والغسل[1].

واختلافهم في الأولىٰ بحسب اختلاف القراءات في الآية، فقد وردت فيها قراءتان

الأولىٰ: قراءة الجمهور بالتخفيف ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾، وهي تفيد معنىٰ الطهارة من الحيض بانقطاع الدم.

والثانية: قرأ بها حمزة والكسائي وعاصم في رواية: بالتشديد في الطاء والهاء ﴿حَتَّىٰ يَطَّهَّرْنَ﴾[2]، وهي تفيد التطهر بالاغتسال بعد الدم.

والقراءتان لا تنافي بينهما، ويمكن الجمع بينهما بأن الأولىٰ للدلالة علىٰ ابتداء الطهر وانتهاء الحرمة والثانية لكمال الطهر وابتداء الحل، ولهذا قال بعدهما: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ﴾ أي إذا تحقق الطهران فأتوهن، ولا يأتي الأمر من الله إلا علىٰ الوجه الأكمل[3].

- المراد بقوله تعالىٰ: ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾: الأمر بإتيانهن في القبل الذي أمر الله باعتزاله وقت الحيض؛ لأن الآية واردة في سياق الحيض، وقد تقدم الأمر باعتزال النساء في المحيض، ثم عطف عليه قوله: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ فكان الأولىٰ أن يرجع لفظ الأمر إلىٰ الأمر الوارد في الآية.

- المراد بالتوابين والمتطهرين: العموم لعدم تقييد التوبة والتطهر بأمر معيَّن.

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٢/ ٣/ ٨٨)، «مجموع الفتاوىٰ» (٢١/ ٣٩٧).
(٢) انظر: «جامع البيان» (٢/ ٣٩٧)، «المحرر الوجيز» (١/ ٢٩٨)، «البحر المحيط» (٢/ ٤٢٤).
(٣) انظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٢٩٩).

البصائر والحكم

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ هُوَ أَذٗى﴾ ووجه تقديمه علىٰ الحكم: بيان علة التحريم بكونه جامعًا لأنواع الأذىٰ، وتقديم الجملة علىٰ الحكم لتكون تهيئة له، وليؤخذ الحكم مأخذ القبول، ويعلم أن الحكم لمصلحة لا لمجرد التعبد[1].

- المراد بالأذىٰ، ووجه التعبير به في الآية: سمي دم الحيض أذىٰ؛ لكون هذا اللفظ جامعًا لأشياء متعددة ومؤذية؛ لأنه دم قذر ومنتن، ونجس ويخرج من سبيل البول[2]، ولعل هذا السر في التعبير به هنا للمبالغة في التنفير منه وبيان علة تحريمه.

- وجه ختام الآية بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾: في ذلك تحفيز للأمر من أن التوبة تتضمن نية الامتثال، والتطهر يتضمن الامتثال نفسه ولذلك قدم وصف التوبة، وأنه لما كان هذا مما يتعلق بالشهوة والحاجة الفطرية، وهو مما يحتاج لمجاهدة النفس؛ إذ النفوس مجبولة علىٰ الميل للشهوة، أتىٰ بالوصفين وبالغ فيهما تأكيداً علىٰ المجاهدة في ذلك والاتصاف بهما لحفظ النفس من الوقوع في المحذور.

- أنَّه لا ينبغي أن يمتنعَ الإنسانُ من السؤال عمَّا يُسْتَحيَا منه؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِ﴾.

- تقديم عِلَّة الحُكم عليه حتىٰ تتهيَّأ النفوس لقَبول الحُكم، والطمأنينة إليه؛ ويكون قَبوله فطريًّا؛ لقوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ﴾.

-فضيلة التوبة، وأنَّها أمر مطلوب، وأنها من أسباب محبَّة الله للعبد؛ لقوله

---

(١) انظر: «تفسير المنار» (٢/ ٣٥٩).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٢/ ٣٩٣)، «المحرر الوجيز» (١/ ٢٩٨).

تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾.

- في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ أنَّ محبَّة الله من صفاته الفعليَّة- لا الذاتيَّة-؛ لأنَّها عُلِّقت بالتوبة؛ والتوبة من فِعل العبد تتجدَّد؛ فكذلك محبَّة الله عزَّ وجلَّ تتعلَّق بأسبابها؛ وكلُّ صفةٍ من صفات الله تتعلَّق بأسبابها، فهي من الصِّفات الفعليَّة .

- حُسن أسلوب القرآن؛ لأنَّه جمع في هذه الآية بين التطهُّر المعنوي الباطني، والتطهُّر الحسي الظاهري؛ لقوله تعالىٰ: ﴿يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾، وهي طهارة باطنة، وقوله تعالىٰ: ﴿وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ ، وهي طهارة ظاهرة.

﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾

◈ غرض الآية:

بيان غاية النكاح والمحل الواجب في إتيان المرأة منه.

◈ معاني الآية:

- المراد بقوله تعالىٰ: ﴿أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ ودلالتها: أي: علىٰ أي صفة شئتم، ومتىٰ شئتم؛ لأن كلمة ﴿أَنَّىٰ﴾ لمعنىٰ كيف، ومتىٰ[(١)].

- المراد بقوله تعالىٰ: ﴿وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ﴾: العمل الصالح؛ لأن أن الجملة واردة بعد الكلام عن اللذائد الدنيوية العاجلة وهي الجماع، كما يؤيده أن الله عقبه بالأمر باتقائه في إتيان المعصية[(٢)].

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (٢/ ٣٧٢).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٢/ ٤١١).

البصائر والحكم

- المراد بالحرث، ووجه التعبير به وتخصيصه: المراد به هنا القُبُل، وتشبيهه بالزرع لأن النساء مزدرع الذرية، وتعميم جميع الكيفيات مع تخصيص الحرث فيه دلالة علىٰ أن الإباحة في الفرج خاصة، وتحريم ما سواه[1]،قال شيخ الإسلام: «والحرث هو موضع الولد، فإن الحرث هو محل الغرس والزرع.. والولد إنما يزرع في الفرج، لا في الدبر»[2].

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡ﴾: الحث علىٰ الأعمال الصالحة الباقية - ومنها ابتغاء الولد الصالح - بعد الكلام علىٰ اللذائذ العاجلة[3].

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: الأمر بالتنزه عما نهاهم عنه بعد الأمر بالتحلي بما أمرهم به.

- وجه ختام الآية بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: لتوثيق الأمر والتأكيد عليه ترهيباً وترغيباً، وعيداً ووعداً.

- أنَّه ينبغي للإنسان أن يَسعىٰ لكثرة النَّسل؛ لقوله تعالىٰ: ﴿حَرۡثٞ لَّكُمۡ﴾.

- أنَّه ينبغي للإنسان أن يحافظ علىٰ امرأته التي سُمِّيت حرثًا له، كما يحافظ علىٰ حرث أرضه.

- من المستحْسَنِ إذا أراد المرءُ إخبار غيره بأمر هامٍّ أن يُقدِّم بين يدي الخبر ما يَقتضي انتباهَه؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾؛ وهذا ممَّا يزيد الإنسان انتباهًا وتحسُّبًا.

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٢٩٩)، «نظم الدرر» (٣/ ٢٨١).
(٢) «مجموع الفتاوىٰ» (٣٢/ ٢٦٧).
(٣) انظر: «التحرير والتنوير» (٢/ ٣٧٥).

- **في قوله:** ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ﴾ تحذير غير المؤمنين من هذه الملاقاة؛ وذلك لقوله تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ فدل ذلك علىٰ أنَّ غير المؤمنين لا بُشرىٰ لهم.

- **فضيلة الإيمان؛** لأنَّ الله علَّق البشارة عليه؛ فقال تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصۡلِحُواْ
بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢٢٤ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن
يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ٢٢٥ لِّلَّذِينَ يُؤۡلُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ
تَرَبُّصُ أَرۡبَعَةِ أَشۡهُرٖۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٢٦ وَإِنۡ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ
ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢٢٧ وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ وَلَا يَحِلُّ
لَهُنَّ أَن يَكۡتُمۡنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرۡحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤۡمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ
أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنۡ أَرَادُوٓاْ إِصۡلَٰحٗاۚ وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ
عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٢٨ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ
بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا
يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ
تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٢٩ فَإِن
طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ
أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ
٢٣٠ وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ
بِمَعۡرُوفٖۚ وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ ضِرَارٗا لِّتَعۡتَدُواْۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ
وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ
ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ
٢٣١ وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ
إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ
وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ ذَٰلِكُمۡ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢٣٢﴾

(البقرة: ٢٢٤ – ٢٣٢)

سياق الآيات في بيان أحكام الانفصال بين الزوجين بعد بيان أحكام الاتصال تكميلاً لنظام الأسرة، وإبطالاً لما كان عليه أهل الجاهلية من الظلم والجور في معاملة المرأة وطلاقها[1].

﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾

◈ غرض الآية:

تعظيم اسم الله تعالى والحلف به من أن يكون مانعاً للبر والصلة، تمهيداً وتعظيماً لأحكام الإيلاء والطلاق المتعلقة بالأيمان، وإبطالاً لما كانوا عليه من جعل اليمين بالله مانعاً للبر والصلة.

◈ معاني الآية:

- المراد بقوله تعالى: ﴿عُرْضَةً﴾: قال شيخ الإسلام: «فإن السلف مجمعون أو كالمجمعين على أن معنى الآية: أنكم لا تجعلوا الله مانعا لكم إذا حلفتم به من البر والتقوى والإصلاح بين الناس بأن يحلف الرجل أن لا يفعل معروفاً مستحباً، أو واجباً، أو ليفعل مكروهاً، أو حراماً ونحوه، فإن قيل له افعل ذلك أو لا تفعل هذا، قال: قد حلفت بالله، فيجعل الله عرضة ليمينه»[2].

- **المراد بقوله تعالى: ﴿أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾:** المقصود جعل اليمين مانعاً للبر والتقوى؛ لأن الغرض هو تعظيم اليمين من كونها مانعة من البر والتقوى.

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٢/ ٤٦٩).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٤/ ١٢٥).

البصائر والحكم

- وجه التعبير بالعرضة: أن الغرض منه التنفير من كل ما يكون مناعـاً من البر والصلة، وذلك أن جعل اسم الله عرضة دال علىٰ عظم الجرم، حيث جعلوا ما هو سبب في الوصل سبباً في القطيعة. وهو يتضمن التهديد.

- وجه ختام الآية بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: فيه تهديد ووعيد، ولأن الآية تضمنت مايتعلق بهما، فالذي يتعلق بالسمع الحلف؛ لأنه من المسموعات، والذي يتعلق بالعلم هو إرادة البر والتقوىٰ والإصلاح إذ هو شيء محله القلب، فهو من المعلومات، فجاءت الصفتان منتظمتين للعلة والمعلول[1].

- الحثُّ علىٰ البرِّ، والتقوىٰ، والإصلاح بين النَّاس؛ لأنَّه إذا كان الله تعالىٰ قد نهانا أن نجعل اليمين مانعًا من فعل البرِّ؛ فكيف إذا لم تكُن هناك يمين ؟!

- فضيلة الإصلاح بين النَّاس؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَتُصۡلِحُواْ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ فنصَّ عليه مع أنَّه من البرِّ؛ والتنصيص علىٰ الشيء بعد التَّعميم يدلُّ علىٰ العناية والاهتمام به.

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ٢٢٥﴾

◈ غرض الآية:

بيان المعتبر في الأيمان، وما ينعقد منها، تخفيفاً عليهم فيما يشق عليهم فيها.

(١) انظر: «البحر المحيط» (٢/ ٤٤٢).

◈ معاني الآية:

- المراد بلغو اليمين: هو ما لم تنعقد فيه النية والقصد؛ لأن سياق الآية في المعتبر في اليمين، وهو انعقاد النية فما لم تنعقد فيه النية فهو لغو لا مؤاخذة فيه.

- المراد بكسب القلب، ووجه المؤاخذة عليه: المقصود عقد اليمين بالقلب وقصده، فهو المعتبر في الأيمان؛ لأن سياق الآية في بيان المعتبر في الأيمان، وهو العمد دون اللغو.

البصائر والحكم

- المراد بنفي المؤاخذة هو نفي المؤاخذة بالإثم والكفارة؛ لأن نفي الفعل يعم؛ ولأنه جعل اللغو في مقابل الكسب الذي هو العمد والقصد، فاليمين التي لا قصد فيها، لا إثم فيها ولا كفارة عليها[1].

- وجه ختام الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾: قال ابن عطية: «﴿غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ صفتان لائقتان بما ذكر من طرح المؤاخذة؛ إذ هو من باب رفق وتوسعة»[2].

- وجه وصفه بالحليم دون الرحيم: أنه لما كان السياق في المؤاخذة التي هي معاجلة بالعقوبة، كان الحلم أنسب الأوصاف لذلك[3]، وأن هذا العفو والمغفرة هو من قبيل التقصير في الأدب مع الله تعالىٰ، فلذلك وصف الله نفسه بالحليم؛ لأن الحليم؛ هو الذي لا يستفزه التقصير في جنابه، ويقبل المعذرة[4].

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (٢/ ٣٨٢).

(٢) «المحرر الوجيز» (١/ ٣٠٢).

(٣) انظر: «نظم الدرر» (٣/ ٢٨٨).

(٤) انظر: «التحرير والتنوير» (٢/ ٣٨٤).

- يُستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾، عدمُ مؤاخذة العبدِ بما لم يَقصدْه في لفظه؛ وهذه الفائدة تُعَدُّ قاعدة عظيمة تترتَّب عليها مسائلُ كثيرة؛ منها: لو جرىٰ لفظُ الطلاق علىٰ لِسانه بغير قصدٍ لم تطلق امرأته؛ ولو طلَّق في حال غضبٍ شديدٍ لم تطلق امرأته؛ ولو قال كفرًا في حال فرحٍ شديد لم يَكفُر.

-أنَّ للقلوب كسبًا، كما للجوارح؛ فأمَّا ما حدَّث به الإنسان نفسه دون اطمئنان إليه، فإنَّه لا يؤاخذ به؛ لأنَّه ليس بعمل، قال تعالىٰ: ﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾.

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾

◈ غرض الآية:

هذه الآية واردة في يمين الإيلاء، بياناً لحكمه وتحديداً لمدته، توسيعاً عليهم في التربص فيه، وإبطالا لما عليه الجاهلية من التمادي والعدوان فيه.

◈ معاني الآية:

- المراد بالفيء ووقته الواجب: المراد به الجماع لمن لا عذر له؛ لأن الغرض من تحديد الإيلاء بأربعة أشهر هو إبطال مضارة المرأة، والتوسعة في التربص للرجل فيما لا ضرر علىٰ المرأة فيه، وأما وقته الواجب: الصحيح أنه لا يلزم بالفيء حتىٰ تمضي الأربعة الأشهر؛ لأن الغرض من الآية التوسعة للأزواج بالتربص، وإيجاب الفيء في المدة المحددة لا تناسب هذا الغرض.

- المراد بالعزم علىٰ الطلاق: يكون بالتصميم وإحداث الطلاق؛ لأنه جعل أمر الطلاق إليهم، ولم يقل وإن لم يفيؤا طلقت نساؤهم.

البصائر والحكم

- سبب النزول: وهو ما أخرجه الواحدي والسيوطي عن ابن عباس قال: «كان إيلاء أهل الجاهلية السنة والسنتين وأكثر من ذلك فوقت الله بأربعة أشهر»(١).

- وجه تقديم حكم الإيلاء على الطلاق: أنه المدخل لأحكام الطلاق، وأنه مرحلة تتقدم الطلاق؛ لأنه قد يكون علاجاً نافعاً في بعض الحالات، حين تكون الزوجة ناشزاً أو مستعلية على الرجل، أو مفرطة في الدلال.

- المراد بالإيلاء: قال الراغب: «وحقيقة الإيلاء: الحلف المقتضي للتقصير في الأمر الذي يُحلف عليه، وجعل الإيلاء في الشرع للحلف المانع من جماع المرأة»(٢).

- وجه تعدية الفعل بـ﴿مِن﴾ دون ﴿علىٰ﴾ في قوله تعالىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾: لتضمنه معنىٰ (البعد) ولإفادة الغرض من الإيلاء وهو البعد عن المرأة تأديباً أو إضراراً؛ فكأنه قال: يبعدون من نسائهم مولين.

- وجه تقييد الإيلاء بأربعة أشهر: وذلك قطعاً لضرار الجاهلية في الإيلاء إلىٰ غير حد، وتوسعة للأزواج في التربص بحد، لما في ذلك من المنفعة في تربية المرأة أو إصلاح ولدها(٣)، وأن هذه المدة - والله أعلم - هي القدر الذي تصبر فيه المرأة عن زوجها، ويؤخذ من تحديد المدة بأربعة أشهر بأنها مدة الإيلاء الموجب للطلاق حال عدم الفيء أي إن لم يَفِيءْ فيلزمه الطلاق، أما إن كان أقل من ذلك فليس بإيلاء.

- وجه ختام الآية بقوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: إشعار بإسقاط الإثم في الفيء والحنث فيه، وقوله تعالىٰ: ﴿رَّحِيمٌ﴾ إشعار بالمنة فيما ملكهم إياه من

---

(١) انظر: «أسباب النزول للواحدي» (ص١٢٥)، «الدر المنثور» (١/ ٤٨٢).

(٢) «المفردات» (ص٨٤).

(٣) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٢/ ٣/ ١٠٨)، «التحرير والتنوير» (٢/ ٣٨٥).

المهلة والتربص، توسعة عليهم، وإسقاط العقوبة عنهم بالكفارة[1]، وفيه حث وترغيب في الفيء[2].

- وجه ختام الآية الثانية بقوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: أن وصف السمع إشارة إلىٰ أنه تعالىٰ سميع بأقوالهم وإيقاعهم للطلاق، وفيه دلالة علىٰ أنه لابد للطلاق من ظاهر لفظ يتحقق به الطلاق عند الناس، ووصف العلم إشارة إلىٰ أنه تعالىٰ عليم بوقوعه وبنيتهم فيه، وفي ذلك توثيق للطلاق وتحذير من المضارة فيه.

- أنَّ رجوع الإنسان عمَّا هو عليه من المعصية سببٌ للمغفرة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

- أنَّ الطلاق بيَدِ الزوج؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ﴾؛ والضمير يعود علىٰ ﴿الذين يُؤلُون من نِسائهم﴾.

- أنَّ الطلاق لا يقع بمجرَّد تمام مدَّة الإيلاء؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ﴾. وفي هذا إشارة إلىٰ أنَّ الفَيْئة أحبُّ إلىٰ الله تعالىٰ من الطلاق.

﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾

◈ غرض الآية:

بيان عدة المطلقة الرجعية، وأحكام الرجعة فيها وما يلزم بعدها، توثيقاً

(١) «جامع البيان» (٢/ ٤٣٧).

(٢) انظر: «نظم الدرر» (٣/ ٢٩٤).

للحق الواجب علىٰ الزوجين في الطلاق والرجعة، وإبطالاً لما كان عليه أهل الجاهلية من الظلم والتعدي في ذلك.

◈ معاني الآية:

- **المراد بالقروء:** المراد بالقرء في هذه الآية حد الحيض بداية ونهاية، والمقصود بالقروء الثلاثة هنا ثلاث حيضات؛ لأن المقصود بداية الحيض ونهايته للدلالة علىٰ غرضي الأمر بالتربص، ولو عبر بالحيض لما دل علىٰ الغرضين، فكان المعتبر هو الحد والوقت المنتظر في التربص، قال القرطبي: «واتفقوا علىٰ أن القرء الوقت»[1].

- **المراد بما في أرحامهن:** الحيض والحمل؛ لأن الغرض من التربص؛ هو براءة الرحم من الولد بالحيض، وغرض المرأة في الكتمان أمران، إما كتمان الحيض وادعاء الحمل لأجل بقاء حقها في النفقة.

- **المراد بالدرجة في قوله ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾:** المراد بالدرجة حق التعظيم والطاعة له عليها، وذلك لتفضيل الله له في العقل والقدرة وملك العصمة، ولما له فضل في الإنفاق عليها، ولأن السياق وارد في بيان الحقوق بين الزوجين.

البصائر والحكم

- **وجه تشريع التربص علىٰ المرأة المطلقة:** لأجل براءة الرحم؛ إذ المقصود بالذي في أرحامهن الحيض والحمل، ولأجل جعل فرصة للرجل للعود؛ إذا قد يكون الطلاق بسبب عارض يندم بعده المطلق، فكان من رحمة الله وتيسيره جعل هذه الرجعة فرصة له.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٢/ ٣/ ١١٥).

- **وجه البدء بعدة المطلقات قبل بيان عدد الطلاق:** أنه ذكر في الآية السابقة العزم علىٰ الطلاق، فبيّن هنا العدة الواجبة حال حصوله، ولذلك عطفه بالواو، وقال ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ ﴾ أي اللاتي طلقن ولم يقل ﴿وإذا طلقتم﴾، ولأنه لم يكن في الجاهلية للمطلقات عدة ولا عدد للطلاق محدد، فكان بيان العدة أولىٰ من بيان العدد.

- **المراد بالمطلقات في الآية:** الآية عامة في المطلقات ذوات القروء، ولذلك نص علىٰ القروء، فهي شاملة لجنس المطلقات ذوات القروء[١].

- **المراد بالتربص، ووجه تشريعه:** التربص هو الانتظار بعدم الزواج من زوج آخر، أو التعرض للزواج في تلك المدة، وفي ذلك فرصة للمعاودة، وإصلاح الخلل، ومراجعة النفس، وتجديد الرغبة، وفيه تحقق براءة رحم المطلقة من آثار الزوجية السابقة، ولذلك قيده بالقروء، وفيه مراعاة للمطلقة، وحفظاً لحقها، وتشديداً علىٰ المطلق، وتعظيماً لعقد الزوجية واحتراماً له[٢].

- **وجه تقييد التربص بقوله: ﴿بِأَنفُسِهِنَّ﴾:** تأكيدٌ وحضٌ لهن علىٰ التربص، وقمع أنفسهن وحملهن علىٰ الانتظار، وعدم تشوفهن للأزواج[٣].

- **غرض قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾:** تأكيد التربص بالنهي عن كتمان ما يظهر فيها من الحمل وغيره مخافة الرجعة، إبطالاً لما كان عليه أمر النساء في الجاهلية من عدم التربص، وكتمان ما في أرحامهن.

- **وجه قوله تعالىٰ: ﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾:** أن فيه ترهيباً لهن من الكتمان؛ لأن أمر الحيض والحمل مما هو خفي بينهن وبين الله.

---

(١) يخرج منها المطلقات قبل البناء فهن مخصوصات بآية الأحزاب.

(٢) انظر: «التحرير والتنوير» (٢/ ٣٩١).

(٣) انظر: «الكشاف» (١/ ٢٧٠)، «التحرير والتنوير» (٢/ ٣٩١).

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا﴾: بيان حق الزوج في المراجعة، وشرطها، حضاً عليها وضبطاً لها، ومنعاً من الظلم والإضرار فيها.

- المراد بالبعل، ووجه التعبير به: الزوج، وسمي به؛ لأنه يعلو المرأة في العصمة والقوامة؛ ولأن الزوج يعتبر ملكاً للمرأة وسيداً لها، فكان حقيقاً بهذا الاسم[1]، وفيه الإشارة والتذكير بما للزوج من سيادة وحق في أمر الرجعة، والتنبيه علىٰ حقه في الرجعة بكونه هو بعلها.

- وجه التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿أَحَقُّ﴾: الإفادة بأن الرجعة بيد الرجل دونها، والإشارة إلىٰ أن للمرأة حق في الامتناع من المراجعة إن أبتها[2]، وأن فيه إشعاراً للزوج بأن المرأة إذا خرجت من العدة فهي أحق بنفسها حيث تصير أجنبية عنه، ولا سبيل له عليها إلا بخطبة ونكاح مستأنف، وفي هذا تهييج علىٰ مراجعتها في العدة.

- المراد بقوله تعالىٰ: ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ ووجه التعبير به: أي: في العدة، والتعبير به مشعر بتوسيع حقه في العدة وجميع مايتعلق بها، وفي ذلك تحضيض علىٰ الرجعة.

- وجه تعليق الحكم بقوله تعالىٰ: ﴿إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا﴾: فيه النهي عن قصد المضارة، أو الانتقام بتطويل العدة عليهن، أو الاستنكاف عن أن تنكح زوجاً آخر، كما هو عمل أهل الجاهلية، وأنه لما كان الأمر متعلقاً بنيته في الرجعة قيده بذلك منعاً لضده، وتشديداً عليه في ذلك، وأن فيه حضاً وترغيباً في إرادة الإصلاح، وبياناً لحكمة الشارع في جعل المراجعة له، وهي الإصلاح.

---

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (٢/ ٣٩٣).

(٢) انظر: «التحرير والتنوير» (٢/ ٣٩٥).

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾: بيان وجه الإصلاح المشروط للرجعة، وهو القيام بحقوقهم في مقابل قيامهن بحقوق الأزواج.

- وجه الإتيان بالجملة في سياق المطلقات مع أنها للزوجات ابتداءً: أن الأصل في الزواج هو قيام هذه الحقوق وانتظامها، وإنما أعظم مايحتاج إليها حال الخلاف والطلاق، فكان الأنسب ورودها في الحديث عنه، وأن هذه الجملة واردة بغرض بيان حقيقة الإصلاح، والقيد اللازم للرجعة وهو القيام بالحقوق بعد الرجعة.

- وجه تقديم حقهن، وتشبيهه بما للرجال علىٰ النساء: أن حقوقهن لم تكن متقررة عند الرجال؛ بل إنها مهضومة بما كان عليه عمل الجاهلية من المضارة بالنساء، وأن فيه رعاية لحقهن، ومراعاة لضعفهن، حيث أن للأزواج الحكم عليهن، فأوجب أولاً حقوقهن عليهم.

- المراد بالمماثلة في الآية: يراد بها ما لكل واحد منهما من حقوق حددها الشرع بما يحقق الإصلاح لكل منهما، فكل ما يُصلح المرأة في بيتها فهو من حقوقها واجبًا أو مندوبًا، وكل مايصلح الرجل في بيته فهو من حقوقه واجبًا أو مندوبًا.

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾، ووجه جعل الدرجة للرجل: بيان لتفضيل الرجل علىٰ المرأة بدرجة القوامة والرئاسة؛ لئلا يظن أن المماثلة تعني المساواة التامة، فيكون ذلك مثار نزاع بينهما، ووجه كون الدرجة للرجل دون المرأة؛ لأن الله تعالىٰ قد فضله في الخلق بقوة البدن والعقل، وجعله صاحب كسب المال وتحصيله، فكان مطالبًا بحماية المرأة والإنفاق عليها، وعلىٰ المرأة أن تكون مطيعة له بالمعروف حافظة له بالغيب.

- وجه ختم الآية بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾: الوصفان مناسبان لما تضمنته الآية من أحكام فيها تكليف، ومنها الأمر بالتربص، والنهي عن الكتمان،

وغيرهما، وأنه خَتَمَ الحكم بوصف العزة تخويفًا للرجل بعزة الله تعالىٰ عليه، وضبطًا له من التجاوز في قوامته، وخَتَمَه بوصف الحكمة إشارة إلىٰ أن هذا التفضيل هو المناسب للفطرة والخلقة التي خلق الله عليها الرجل والمرأة، فهو تأنيس للمرأة وتطمين لها، فهو تعالىٰ أعلم بخلقه[1].

- قوَّة الداعي في المرأة للزواج؛ لقوله تعالىٰ: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾؛ فكأن النفس تحثُّها علىٰ أن تُنهِيَ عَلاقتها بالأول، وتتزوج؛ فقيل: ﴿تربصي بنفسك﴾ أي: انتظري .

- أنَّه ينبغي تحذير المؤتَمن- الذي لا يَعلم بأمانتِه إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ- من عذاب اليوم الآخِر، إنْ هو لم يقُم بواجب الأمانة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

- استعمال الاحتراز؛ فلا ينبغي الإطلاقُ في موضعٍ يخشىٰ فيه من التعميم؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾.

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمْسَاكُۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُۢ بِإِحْسَٰنٍۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾

◈ غرض الآية:

بيان حد الطلاق الرجعي وما يجب فيه، وتحريم عضل النساء لرد الصداق بغير حق.

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٢/ ٤٦٩)، «المحرر الوجيز» (١/ ٣٠٦)، «التحرير والتنوير» (٢/ ٤٠٣)، «تفسير المنار» (٢/ ٣٨١).

◈ معاني الآية:

- المراد بقوله تعالىٰ: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾: بيان عدد الطلاق الرجعي وتحديده؛ لأن السياق وارد في بيان الطلاق الرجعي وتحديده.

- المراد بالإمساك والتسريح في الآية: الإمساك هو الإرجاع، والتسريح هو تركها بعد الطلاق حتىٰ تنتهي عدتها؛ لأن غرض الآية هو إبطال عمل الجاهلية بإضرار المرأة في الطلاق والرجعة بلا عدد.

- الخطاب في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ﴾: الخطاب ابتداءً للأزواج لأنهم المخاطبون به أصلاً، تحذيراً لهم من الظلم والإضرار بالمرأة، ثم هو خطاب للحكام تنفيذاً وفصلاً، وللأمة تشريعاً وحكماً؛ لأن الغرض في الآية منع الإضرار بالمرأة بأخذ عوض علىٰ الطلاق إلا حال نشوزها، وهذا متوجه ابتداءً للأزواج، ثم هو متوجه للحكام وللأمة تشريعاً عاماً.

- المراد بقوله تعالىٰ: ﴿فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ﴾: بالصداق كله أو بعضه من غير زيادة؛ لأن أن الغرض من الآية النهي عن أخذ شيء مما آتاها بغير حق.

- حكم الخلع: هو فسخ لا طلاق؛ لأن غرض الآية هو تعظيم أخذ مال الزوجة إضراراً بها في حال مفارقتها مع استثناء حالة نشوزها، وليس هذا متعلقاً بالحديث عن الطلاق قبله، وإنما هو حالة مستقلة، ذكرها عقب ذكر الطلاق لاحتمالها؛ ولذا ذكرها بعد ذكر الطلقتين الرجعيتين لإمكان وقوع الخلع في وقتهما، ثم ذكر الطلاق الثالث بعده. ولو كان الفسخ طلاقاً لاستلزم أن يكون الطلاق الثالث رابعاً.

البصائر والحكم

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿مرتان﴾ دون طلقتان: يفيد أنه يجب أن يكون مرة بعد مرة، كل تطليقة مرة لا أن يجمعهما جميعاً في مرة واحدة، وهذا يدل علىٰ أن الطلاق ثلاثاً بلفظ واحد لا يقع، ولأن الله قصد من تعدد الطلاق التوسعة علىٰ الناس؛ لأن المعاشر لا يستحضر ساعة الطلاق تأثير مفارقة زوجته، فإذا طلقها ظهر له الندم وعدم الصبر علىٰ مفارقتها، فلو جعل الطلاق الثلاث بلفظ واحد واقعاً ثلاثاً لمجرد التلفظ لتعطل المقصد الشرعي من إثبات حق الرجعة.

- وجه إثبات الرجعة في الطلاق، وتحديدها بمرتين: أنه من التيسير الذي اشتملت عليه الشريعة، أن هذا دليل علىٰ كمال الشريعة ووسطيتها ومراعاتها لأحوال البشر وطبائعهم.

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ﴾: بيان ما يشرع في المراجعة والطلاق إبطالاً لأفعال أهل الجاهلية فيهما.

- المراد بالمعروف والإحسان ووجه تقييد الإمساك والتسريح بهما: المراد بالمعروف ماوافق الشرع والعقل وهو المعاشرة الحسنة، والقيام بالحقوق الزوجية[(١)]، وأما الإحسان فيكون بالقول الحسن والبذل بالمتعة[(٢)]، وتقييد الإمساك بالمعروف والتسريح بالإحسان للتنبيه علىٰ الواجب المشروع فيهما[(٣)].

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾: النهي عن أخذ حق المرأة من الصداق بغير حق،

---

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (٢/ ٤٠٧).

(٢) انظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٣٠٦).

(٣) «التحرير والتنوير» (٢/ ٤٠٦).

وبيان الوجه المباح فيه وهو الخلع، إبطالاً لما كانوا عليه في الجاهلية من الظلم والإضرار بالمرأة بأخذ حقها من الصداق بغير حق.

- **تخصيص النهي في قوله تعالىٰ: ﴿مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا﴾:** أنه سبب الشقاق والاختلاف بينهما غالبًا، والمعروف أن الرجل عند الشقاق يطلب ما خرج من يده، فخصه، ولبيان أن أخذ شيء من المهر أو رده لا يجوز إلا في حالة النشوز؛ لأنه ليس مقابل الانتفاع أصلاً، وإنما هو لذات العقد بينهما ولدرجة الرجل علىٰ المرأة.

- **جيء بقوله تعالىٰ: ﴿شَيْـًٔا﴾** لأنه من النكرات، تحذيراً من أخذ أقل القليل بخلاف ما لو قال مالاً أو نحوه[1].

- **المراد بالخوف في قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ ووجه التعبير به، ووجه إسناد الفعل إليهما:** المراد بالخوف ما يكون بسبب المرأة، بنشوزها، أو عدم قيامها بالحقوق الواجبة عليها له، أو بعدم رغبتها فيه، أو عدم قدرتها علىٰ الصبر معه، والتعبير بالخوف فيه دلالة علىٰ جواز الخلع حالة وجود الخوف، وهو توقع حصول ما تكرهه النفس؛ لا علىٰ حصوله فقط، وإسناد الفعل إليهما جميعًا دون الرجل فيه إشارة إلىٰ اشتراكهما في الحكم في ذلك ابتداءً، وتشاورهما فيه، فلا يكون الحكم صادراً من الرجل دونها.

- **المراد بإقامة حدود الله:** هو القيام بالحقوق الزوجية التي شرعها الله تعالىٰ، من الطاعة له عليها، وحسن العشرة بينهما.

- **التعبير عن الحقوق بحدود الله:** أن هذه الحقوق إنما هي من الشرع فهي حدود حدها الله تعالىٰ وأمر بها، وأن في التعبير بذلك تعظيمًا لها وحثًا علىٰ التقيد بها وتخويفًا من مخالفتها.

---

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (٢/ ٤٠٩).

- وجه ختام الآية بقوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾: أن الأحكام المذكورة متعلقة بأحكام الفرقة مع النساء التي هي مظنة الظلم والإضرار بالمرأة، وفيه مبالغة في التهديد من التعدي، وفيه ما لا يخفىٰ من إدخال الروعة وتربية المهابة[1].

- وجه التعبير بالتعدي دون القربان في الآية: لأنها في أمور مكروهة باعثة علىٰ التباعد وترك الحقوق، وتعدي الحدود، وعدم التقيد بها لأن النفوس متنافرة متشاحة، فناسب التحذير من التعدي لا من المقاربة.

- يُستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ اعتبار المفاسد، وسلوك الأهون لدفع الأشدِّ؛ لأنَّ الأخذ من مال الزوجة محرَّم بلا شكٍّ؛ لكن إذا أريد به دفْع ما هو أعظم من تضييع حدود الله عزَّ وجلَّ، صار ذلك جائزًا .

- أهميَّة النِّكاح، وبيان أنَّه راجع إلىٰ الأسرة كلِّها؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾، ولم يقل: فإنْ خافا.

﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾

◈ غرض الآية:

بيان أصل من أصول الطلاق وهو نهاية حق الرجعة بالطلقة الثالثة، مع وضع شرط للرجوع حال الرغبة فيه، إبطالاً لما كانوا عليه في الجاهلية من الطلاق بلا حد ولا عدد.

(١) انظر: «روح المعاني» (١/ ٧٢٨).

◈ معاني الآية:

- المراد بالطلاق في الآية: أي: الثالثة؛ لأن لآية تفريع مرتب علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿الطلاق مرتان﴾ وما بينهما بمنزلة الاعتراض للمناسبة.

- المراد بالنكاح في قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾: الوطء اتفاقا؛ لأن المقصد من التحليل التنفير من الطلاق والتسرع فيه، والنكاية والعقاب للمطلق، ولا يكون التنفير والعقاب بمجرد العقد بل لابد من الوطء الذي به يتحقق به التحلل.

البصائر والحكم

- وجه شرط المحلل للرجوع: أنه من كمال الشريعة، وفيه تعظيم عقد الزوجية، وردع الأزواج عن الاستهانة والاستخفاف بحقوق زوجاتهم، والإضرار بهن في الطلاق والرجعة كما هو حال أهل الجاهلية، وفيه تنفير من الطلاق والتسرع فيه.

- وجه تقييد حل التراجع بقوله تعالىٰ: ﴿إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾، ووجه التعبير بالظن: لأن الغرض من الإباحة استمرار العشرة بينهما وبناء الأسرة وإصلاحها، لا لمجرد هوىٰ أو شهوة أو نزوة في تجمع أو افتراق، وإنما عبر بالظن دون اليقين؛ لأن اليقين مغيب عنهما؛ إذ المقصود ظنهما في أمر مستقبل.

- وجه ختم الآية بقوله تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ووجه تخصيص العلماء: أن فيه زيادة في التهديد والتخويف من تعدي هذه الحدود، وخص العلماء لتشريفهم، ولأن العلماء هم الذين يدركون تفاصيل تلك الأحكام ودقائقها وأغراضها، وهم الذين ينتفعون بما بيّن الله لهم من أحكام دينه.

- قوله: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾: جاء بكلمة قوم للدلالة على أن صفة العلم سجيتهم وملكة فيهم، وأنهم أهل للنهوض والجد والاجتهاد في العلم بذلك[1].

- عناية الله سبحانه وتعالىٰ بعباده في بيان ما يجب عليهم في عبادتهم، وفي معاملة بعضهم لبعض حتىٰ لا تحصُل الفوضىٰ المؤدِّية إلىٰ النِّزاع.

- أنَّه إذا لزِم من فِعل المباح شيء محرَّم صار الشيء المباح حرامًا؛ لأنَّ رجوع الزوجة حلال في الأصل؛ فإذا لم يظنَّ الإنسان أنَّه يقوم بالحدود صار حرامًا؛ وهو في الأصل حلال، كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾.

- الاكتفاء بالظنِّ في الأمور المستقبلة؛ لأنَّ طلب اليقين في المستقبل من باب التكليف بما لا يُطاق؛ لقوله تعالىٰ: ﴿إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾؛ وقد قال الله -تبارك وتعالىٰ-: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ البقرة: ٢٨٦، فقال: قد فعلتُ كما في الحديث.

- أنَّه لا يَعرِف هذه الحدودَ، ويتبيَّنها إلَّا مَن كان من ذوي العِلم؛ فكلَّما كان أعلمَ كانت الحدود في حقِّه أبينَ وأظهر؛ فطالب العلم يتعلَّم من اللَّفظ مسائل أخرىٰ؛ فالعلم يُغذِّي بعضه بعضًا؛ وطالب العلم رابحٌ بكلِّ حال؛ فهو ليس كطالب المال قد يشتري السِّلعة وهو يظنُّ الرِّبحَ، ثم يخسر؛ فطالب العلم إذا تعلَّم مسألة، فإنَّها مفتاح له لأبواب أخرىٰ؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (٢/ ٤٢١).

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾

غرض الآية:

بيان الواجب في حق النساء المطلقات عامة في الطلاق والرجعة، تأكيداً عليه وتشديداً علىٰ مخالفته، وإبطالاً لما كانوا عليه في الجاهلية.

البصائر والحكم

- **المراد بقوله تعالىٰ: ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾:** أي: المشارفة؛ لأن الغرض هو منع الإمساك بالمرأة في آخر المدة وقبل خروجها إضراراً بها.

- **وجه تقييد التسريح بالمعروف في قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ دون الإحسان، بخلاف قوله ﴿أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾:** أن السياق في النهي عن المضارة، والذي تخاف مضارته بمنزلة بعيدة عن أن يطلب منه الإحسان، فطلب منه الحق، وهو المعروف، الذي منه عدم المضارة، وهذا يشمل الإمساك؛ لأنه نهىٰ عن الإمساك ضراراً بعد ذلك[1].

- **وجه النهي بعد الأمر بالإمساك في الآيتين:** أنه تأكيد للحكم بطريقي الإثبات والنفي، لأهميته ولكثرة وقوعه عندهم[2]، وللنهي عن الضرار.

- **وجه التعبير بقوله ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ في ظلم الرجل للمرأة ومضارته**

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (٢/ ٤٢٢).

(٢) انظر: «مفاتيح الغيب» (٦/ ٩٤).

بها: فيه زيادة تخويف وترهيب، وأن فيه تذكيراً بالأضرار الراجعة إليه من اختلال المعاشرة، واضطراب حال البيت، وفوات المصالح، بسبب حصول المخاصمات.

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾: التأكيد والتشديد علىٰ عدم تجاوز أحكام الله، والتحذير من التحايل عليها واتخاذها هزواً بمخالفتها وعدم المبالاة بها، بسبب ما كانوا عليه من امتهان النساء والتقليل من شأنهن.

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾: التذكير بنعمة الله في بيان الأحكام وتفصيلها وما فيه كمال مصلحتهم وسعادتهم واستقرار حياتهم.

- المراد بالكتاب والحكمة ووجه تخصيصهما: المراد بالكتاب القرآن وبالحكمة السنة، وخصا بالذكر لأنهما مصدر الأحكام التي أرشدهم إليها، فهما نعمة تستوجب الشكر.

- وجه ختم الآية بالتقوىٰ والعلم في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: لما تضمنه السياق من أحكام مبنية علىٰ التقوىٰ لتعلقها بأمور خفية أو علاقات زوجية، خاصة ما يتعلق بحقوق النساء وما يعتريها من ظلم وتعدي من قبل الأزواج لقدرتهم عليهن وتحكمهم فيهن، والوصف بـ ﴿عَلِيمٌ﴾ يقتضيه ما تقدم من الأفعال التي ظاهرها خلاف النية فيها، كالمحلل والمترجع مضارة وغيرها[1].

- عناية الله عزَّ وجلَّ بعباده في أن يتعاملوا بينهم بالمعروف، سواء في حال الاتِّفاق، أو في حال الاختلاف: لأنَّ ذلك هو الذي يُقيم وَحْدة الأمة؛ فإنَّ الأمَّة إذا لم تتعامل بالمعروف- بل بالمنكر، والإساءة- تفرَّقت، واختلفت؛ فالأمَّة الإسلاميَّة أمَّة واحدة، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٣١٠).

كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ آل عمران: ١٠٣.

- في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ : إغراء المخاطَب باجتناب ظلم غيره؛ لأنَّ الظالم قد يَظنُّ أنَّه منتصرٌ علىٰ المظلوم؛ فإذا علِم أنَّه ظالم لنفْسه تهيَّب ذلك، واستقام علىٰ العَدل.

- في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ دلالةٌ علىٰ أنَّ المعصية نوع من الاستهزاء بالله عزَّ وجلَّ - وإن كانت لا تُخرِج الإنسانَ من الإسلام.

- أنَّ منَّةَ الله علينا بإنزال الكتاب والحِكمة أعظمُ من كلِّ مِنَّة؛ وذلك لتخصيصِها بعد تعميم النِّعم؛ لأنَّ التَّخصيص بعد التَّعميم يدلُّ علىٰ أهميتها، قال تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾

◈ غرض الآية:

النهي عن عضل النساء في منع نكاح أزواجهن بعد الطلاق حالة وجود الرغبة بينهم، منعـًا للأولياء من الإضرار والظلم بمنع المرأة من الرجوع لزوجها.

◈ معاني الآية:

- الخطاب في الآيتين: الخطاب عام للأمة يدخل فيه الأزواج والأولياء؛ لأن غرض الآيتين النهي عن الإضرار والعضل الذي كانوا عليه في الجاهلية، إبطالاً له، وتأكيداً علىٰ حكم الله الذي شرعه في شأن النساء.

- المراد ببلوغ الأجل في الآية: أي:بعد خروج العدة، ورغبتهم فيهن بنكاح جديد؛ لأن الغرض من الآية منع عضل النساء في نكاح أزواجهن، أو منعهن من النكاح.

البصائر والحكم

- الخطاب في قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ والمراد بالعضل: الخطاب عام للأمة، ويدخل فيه ابتداءً الأولياء، ويدخل فيه الأزواج علىٰ معنىٰ عضلهن بعد الطلاق من النكاح أنفة وكبراً أن يرىٰ امرأته تحت غيره، والمراد بالعضل في هذه الآية: منع النساء من النكاح ظلماً، ويدخل فيه منعهن من مراجعة أزواجهن بنكاح جديد.

- التعبير بالعضل: فيه شدة والتواء في إنكاح النساء، وتضييق عليهن فيه. وهو دال علىٰ الظلم والإضرار، ولهذا عبر به، بخلاف التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿تمنعوهن﴾ لأن المنع قد يكون بغرض شرعي، أما العضل فهو منع علىٰ وجه غير صحيح.

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم﴾: الجملة دالة علىٰ أن النهي مقيد بحالة التراضي بين الزوجين؛ لأن الولي إذا علم عدم التراضي بينهما، ورأىٰ أن المراجعة ستعود إلىٰ شقاق وفساد فله منعها، وجمع بينهما في الرضا للدلالة علىٰ اشتراط وجودها في كل واحد منهما.

- معنىٰ قوله: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ في قوله: ﴿إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: أي: ما يقره الشرع وتستحسنه المروءة، وعليه فيدخل فيه كل ما أقره الشرع ووافق المروءة، ومن ذلك أن يكون الزوج كفوءاً[(١)].

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (١/ ١٢٤).

- **التعبير بالتراضي** دون الرضا للتنبيه علىٰ شرط ترسخ الرضىٰ وتحققه ولذا قال بينهم[1].

- **الخطاب في قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ و ﴿ذَٰلِكُمْ﴾**: الخطاب للجميع بصريح الجمع في قوله تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ مِنكُمْ﴾ وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾.

- **وجه الإفراد والجمع في قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ و ﴿ذَٰلِكُمْ﴾**: أما إفراده في الجملة الأولىٰ، وجمعه في الثانية فلأن في الخطاب بقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ راجع للأمر تعظيماً له[2]، و الخطاب بقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ راجع للمأمور تشريفاً وترغيباً، وأن قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلىٰ العلم بالأمر، ولذلك قيده بقوله تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ تهديداً، وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلىٰ العمل بمقتضاه، ولذلك قيده بقوله تعالىٰ: ﴿أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ ترغيباً.

- **وجه قوله تعالىٰ: ﴿يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ وقوله تعالىٰ: ﴿أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾**: للترغيب والترهيب.

- **تخصيص الإيمان بالله واليوم الآخر**؛ لأنهما دالان علىٰ أصل الإيمان وأثره؛ ولأن الإيمان بالله باعث علىٰ التعظيم، والإيمان باليوم الآخر باعث علىٰ الخوف من الفضيحة والجزاء السيئ[3].

- **وجه ختم الآية بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾**: أنه تعالىٰ لما نهىٰ عن العضل وكان مخالفا لعاداتهم، وما كانوا يعتقدونه في أنفسهم من حفظ أعراضهم وشرفهم بالعضل، بين سبحانه سبب نهيه بأنه أعلم بمصالح خلقه.

---

(١) انظر: «إرشاد العقل السليم» (١/ ٢٦٨).

(٢) ذهب بعضهم إلىٰ أن الخطاب المفرد للنبي ﷺ. وهذا لاينافي ماذكرت بل يؤيده من جهة أن المقصود تعظيم الأمر والحكم المسوق في الآية بذاتها، انظر: «جامع البيان» (٢/ ٥٠٢).

(٣) انظر: «نظم الدرر» (٣/ ٣٢٦).

- **أنَّه لا بدَّ في النِّكاح من وليٍّ؛ فالمرأة لا تزوِّج نفسها؛** لأنَّه لو كانت تملك العقد لنفسها لما كان للعضل أي تأثير؛ ولما قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ﴾.

- **أنَّ الاتِّعاظ بأحكام الله تزكية للنفس؛** لقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكُمۡ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ﴾؛ فهو ينمِّي النفس، وينمِّي الإيمان، وينمي الأخلاق، ويُنمِّي الآداب؛ فكلَّما كان الإنسان أشدَّ تطبيقًا لأحكام الله كان ذلك أزكىٰ له .

- **أنَّ تطبيق الأحكام أطهرُ للإنسان،** أي: أطهرُ للقلب؛ لأنَّ الأعمال الصالحة تُطهِّر القلب من أرجاسِ المعاصي؛ ولذلك تجد عند الإنسانِ المؤمنِ من الحيوية، والنشاط، والسرور، والفرح ما ليس عند غيرِه؛ قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكُمۡ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ﴾.

۞ وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى
ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفۡسٌ إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ
بِوَلَدِهَا وَلَا مَوۡلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ وَعَلَى ٱلۡوَارِثِ مِثۡلُ ذَٰلِكَۗ فَإِنۡ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٖ
مِّنۡهُمَا وَتَشَاوُرٖ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَاۗ وَإِنۡ أَرَدتُّمۡ أَن تَسۡتَرۡضِعُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا
سَلَّمۡتُم مَّآ ءَاتَيۡتُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٢٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ
يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ فَإِذَا بَلَغۡنَ
أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ
خَبِيرٞ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا عَرَّضۡتُم بِهِۦ مِنۡ خِطۡبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ
أَنفُسِكُمۡۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ سَتَذۡكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ
قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗاۚ وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ
أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿٢٣٥﴾ لَّا
جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ أَوۡ تَفۡرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَمَتِّعُوهُنَّ
عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعَۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن
طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ
إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ
لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ حَٰفِظُواْ عَلَى
ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا
أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ
﴿٢٣٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم مَّتَٰعًا
إِلَى ٱلۡحَوۡلِ غَيۡرَ إِخۡرَاجٖۚ فَإِنۡ خَرَجۡنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِي مَا فَعَلۡنَ
فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعۡرُوفٖۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ
بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ
لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ (البقرة: ٢٣٣ – ٢٤٢)

سياق الآيات في بيان الأحكام المشروعة بعد الطلاق والوفاة، بعد بيان أحكام الاتصال والانفصال بين الزوجين، توثيقاً للحقوق، ومنعاً من التعدي والظلم.

﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ ﴾

◈ غرض الآية:

بيان أحكام الأولاد بعد الطلاق، وما يتعلق بهم من الرضاع والنفقة والفطام.

◈ معاني الآية:

- **المراد بالوالدات في الآية:** المراد بالآية ابتداءً عموم الوالدات، ثم خصوص الوالدات المطلقات؛ لأن اللفظ دال على العموم.

- **الحكم المقصود من قوله تعالىٰ: ﴿يُرْضِعْنَ﴾:** الحكم للتشريع وإثبات حق المرأة فيه؛ لأن الغرض من الآية إثبات الحكم، منعاً للمضارة بالولد بسبب الطلاق.

- **المراد بقوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾:** الباقي من الوالدين بعد وفاة الآخر منهما؛ لأن غرض الآية رعاية الرضيع وحفظه، وأحق الناس بذلك بعد والده، عصبته ورحمه، وهم وارثوه علىٰ اختلاف منازلهم.

- **المراد بقوله تعالىٰ: ﴿إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾:** أي: تسليم حق المرضعة والمسترضعة؛ لأن الغرض من الجملة تأكيد حق المرضعة والمسترضعة في النفقة والأجرة.

البصائر والحكم

- وجه الابتداء بأحكام الولد وإرضاعه قبل غيره من الأحكام: أنه هو الأمر المتعلق بهما جميعاً بعد الطلاق، وهو ما يقع فيه الخلاف بين الآباء والأمهات عادة بعد الفراق، وفيه رعايةُ حقِّ الضعيف وهو الولد الرضيع، واهتمامٌ بشأنه، وحثٌّ للأبوين علىٰ الشفقة عليه، وتحذيرٌ من إهماله بسبب الطلاق، وأن أمر إرضاع الولد مهم؛ إذ به حياته ونموه، وهذا من مقاصد التشريع في بناء المجتمع المسلم وإنمائه.

- وجه التعبير بـ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ ﴾ وقوله تعالىٰ: ﴿أَوْلَـٰدَهُنَّ﴾: فيه إيماء إلىٰ أحقيتهن بذلك، وترغيبهن فيه، وهز لعواطفهن لأولادهن بداعي الحنان والشفقة [1].

- المراد بالحولين، ووجه التعبير به: المراد بالحولين أي سنتين [2]، والتعبير به دون السنتين؛ لأن الحول تمام القوة في الشيء الذي ينتهي لدورة الشمس، وهو العام الذي يجمع كمال النبات الذي يتم فيه قواه [3]، ففيه إشارة إلىٰ غرض تحديد المدة، وهو قوة الولد واكتمال غذائه وبنائه،واكتفائه بالرضاع.

- وجه تحديد الرضاع بحولين: أن فيه قطعاً للمشاجرة والخلاف بين الزوجين [4]، وأن فيه تحديداً للمدة الضرورية التي يحتاجها الطفل للرضاع، وهي فترة نموه بالرضاع.

---

(١) انظر: «إرشاد العقل السليم» (١/ ٢٨٦)، «التحرير والتنوير» (٢/ ٤٣٠).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٢/ ٥٠٣).

(٣) انظر: «نظم الدرر» (٣/ ٣٣١).

(٤) انظر: «البحر المحيط» (٢/ ٤٩٨).

- أخذ العلماء من هذه الآية أن الرضاع بعد الحولين لا يؤثر في الحرمة؛ لأنه غير معتبر[١].

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾: الجملة مفيدة نفي وجوب إكمال المدة، وجواز الفطام قبل ذلك حسب حال الرضيع ومصلحته، وقطعاً للتنازع بين الزوجين في مدة الرضاع.

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: بيان الحق الواجب علىٰ الوالد في الإنفاق علىٰ المرضعة، منعاً من الإضرار بالرضيع وإهماله.

- وجه التعبير بالمولود له دون الوالد، ووجه إيجاب النفقة عليه: فيه استعطاف، وبيان لعلة وجوب النفقة، وهذا يدلك علىٰ دقة التعبير القرآني ودلالات ألفاظه[٢]، وإنما أوجب علىٰ الرجل النفقة، لكون الولد له ومنتسباً إليه وله الطواعية عليه.

- المراد بالرزق والكسوة، ووجه تخصيصهما: المراد بالرزق: النفقة، وعبر بالرزق؛ لأن المراد به الطعام الكافي لمثلها، والكسوة هي اللباس[٣]، ووجه التخصيص: أن النفقة والكسوة هما أعظم ما تحتاجه المرأة للقيام بنفسها، وما يضمن قيامها بحق ولده، وأن النفقة حق ضروري متعلق بالرضاع؛ إذ لا يحصل الرضاع ولا يكمل إلا بحسن طعام المرأة وغذائها، وأما الكسوة فهي حق زائد لها كالمتعة تطييباً لخاطرها، فكأن الرزق لأجل الولد، والكسوة لأجلها[٤]،

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٣١١)، «البحر المحيط» (٢/ ٤٩٨).

(٢) «البحر المحيط» (٢/ ٥٠٠).

(٣) انظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٣١١).

(٤) وتخصيصها بالكسوة فيه إشارة إلىٰ أن أعظم ماتحتاجه المرأة بعدطعامها كساؤها وما تستتر به، وهذا يدلنا علىٰ كمال مراعاة الإسلام للمرأة، ودليل علىٰ أعظم ماينبغي أن تعتني به المرأة وهو لباسها وسترها.

وهما غالب ما يتعامل به الناس في جميع حالاتهم الاجتماعية في الفقر والغنىٰ.

- المراد بقوله تعالىٰ: ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾: الذي يجمع حسن الأداء من الوالد بالطعام الكافي المناسب لها، وحسن الاقتضاء من المرأة بقبول ما يناسبها من غير زيادة، حسب حالهما[١].

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفۡسٌ إِلَّا وُسۡعَهَا﴾: الجملة تعليل لما قبلها منعاً للإضرار والاختلاف، وتقريراً للحكم بتضمنه للتيسير والتخفيف ترغيباً وحضاً عليه.

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوۡلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾: الجملة تفصيل وتقرير لما قبلها، والغرض منها منع الإضرار بينهما بسبب الولد، ونهي لهما عن أن يستغل أحدهما ما يعلمه من شفقة الآخر علىٰ ولده فيفترض ذلك للإشفاق عليه والإضرار به[٢].

- جاءت الآية علىٰ قراءتين في قوله تعالىٰ: ﴿لَا تُضَآرَّ﴾: الأولىٰ بضم الراء رفعاً، والثانية وهي قراءة الجمهور بفتح الراء جزماً[٣].

فالأولىٰ إخبار يفيد النهي عن إضرار الوالدة بالوالد بسبب الولد، والثانية نهي يفيد النهي عن إضرار الوالد بالولد بسبب الولد[٤].

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنۡ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٖ مِّنۡهُمَا وَتَشَاوُرٖ﴾: بيان حكم الفطام وما يجب فيه، رعاية لحق الرضيع الضعيف، وهو دليل علىٰ كمال الشريعة ورعايتها لحق الضعفاء.

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٣١١).

(٢) «تفسير المنار» (٢/ ٤١٣).

(٣) انظر:«جامع البيان» (٢/ ٥١٠)، «البحر المحيط» (٢/ ٥٠٢)، «النشر» (٢/ ٢٢٧).

(٤) انظر: «جامع البيان» (٢/ ٥١٠).

- **المراد بالفصال، ووجه التعبير به:** الفطام قبل تمام الحولين[1]، وعبر به لأنه فطام قبل وقته المعتاد، فكأنه فصل للرضيع عن وقت رضاعه، ولذلك نكره ولم يعرفه، إشارة إلىٰ أنه فصال غير معتاد [2]، ولأن التعبير به دال علىٰ معنىٰ انفصال الرضيع عن أمه، وتمام الانفصال بين الزوجين بذلك؛ إذ هو حبل الوصل بينهما.

- **وجه قوله تعالىٰ:** ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾: الجملة تفيد تقييد الفصال بالشرطين، وهما التراضي والتشاور بينهما في ذلك، رعاية لحق الرضيع، ومنعاً من الإضرار به.

- **وجه ذكر التشاور وعطفه علىٰ التراضي:** أن التشاور يستلزم منه الإشارة بما ينفع الصبي؛ لأن التشاور من المشورة، وهي الإشارة بما ينفع[3]، ولأن التشاور سبيل التراضي بينهما.

- **وجه قوله تعالىٰ:** ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ﴾: بيان لحكم استرضاع الطفل حال تعذر إرضاع والدته، لمرضها، أو تزوجها، أو امتناعها.

- **الخطاب في قوله تعالىٰ:** ﴿أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ **ووجه الالتفات فيه:** الخطاب في الآية للآباء، والالتفات في الخطاب من الغيبة للخطاب لكونه متوجهاً لهم دون الأمهات لأن الأمر متعلق بهم خاصة لا بهما جميعاً.

- **وجه قوله تعالىٰ:** ﴿إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: تأكيد علىٰ نفقة المرضعة والمسترضعة، حفظاً لحق المرضعة، وتوطيناً للمسترضعة واستعطافاً لها علىٰ الولد.

---

(١) انظر: «نظم الدرر» (٣/ ٣٣٦).

(٢) انظر: «إرشاد العقل السليم» (١/ ٢٦٩).

(٣) انظر: «التحرير والتنوير» (٢/ ٤٣٨).

- وجه ختم الآية بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: أنه لما كانت الآية مبنية علىٰ الأمر بالحقوق وحماية حق الضعيف خاصة، ختمها بالضمان الوحيد لتوثيق تلك الحقوق والقيام بها، وهو التقوىٰ وعلم الله تعالىٰ، ولأنه لما كانت الأحكام في الآية متضمنة للأوامر والنواهي أمر بالتقوىٰ، ولما كان كثير منها متعلقاً بأمر الأطفال الذين لا قدرة لهم ولا منعة مما يفعل بهم، حذّر وهدد بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ﴾ وأتىٰ بالصفة ﴿بَصِيرٌ﴾ مبالغة في الإحاطة بما يفعلونه معهم والاطلاع عليه.

- أنَّه يَنبغي استعطافُ المخاطَب بما يَقتضي عطفَه علىٰ الشَّيء؛ لقوله تعالىٰ: ﴿يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ حيث أضاف الأولاد إلىٰ المرضعاتِ.

- يُؤخذ من قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾، ومن قوله سبحانه: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ الأحقاف: ١٥ أنَّ أقلَّ مدَّةٍ للحمل سِتَّة أشهر، وأنَّه يمكن وجود الولد بها.

- أنَّ الله عزَّ وجلَّ أرحمُ بخلقِه من الوالدة بولدها؛ لأنَّه أمرها أن ترضعَ مع أنَّ فطرتها، وما جُبِلت عليه تستلزم الإرضاعَ؛ وهذا لأنَّ رحمة الله أعظمُ من رحمة الأمِّ بولدها، ومثله قوله تعالىٰ: ﴿يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ النساء: ١١؛ فلأنَّ الله أرحمُ بأولادنا منَّا، أوصانا فيهم.

- عناية الله عزَّ وجلَّ بالرُّضَّع؛ لأنَّه لم يُبِح فطامَهم قبل الحولينِ إلَّا بعد التراضي بين الوالدة، والمولود له، والتشاور؛ قال الله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٣٤﴾

◈ غرض الآية:

بيان حكم المتوفى عنها زوجها في العدة والخطبة، إتماماً لإصلاح نظام الأسرة، ورعاية لحق المرأة في التخفيف عنها فيما كانت عليه في الجاهلية.

◈ معاني الآية:

- المراد بالتربص: الامتناع عن الزوج والزينة والطيب ونحوها، والتزام المبيت في مسكنها؛ لأن الغرض من التربص هو حفظ حق الزوج المتوفى.

البصائر والحكم

- وجه تحديد التربص بأربعة أشهر وعشراً: أنها وقت تحقق استبراء الحمل وتبيّنه، حفظاً لأنساب الأموات، ومنعاً من كتمانه أول مدته تعجلاً للزواج، وأن هذه المدة هي مدة صبر الزوجة عن زوجها عادة، وفيه إبقاء لحق الزوج ووفاء له، ولأن تعجل الزوجة في الزواج، يفضي إلىٰ الخوض في المرأة ولمزها بالتهافت علىٰ الزواج.

- وجه زيادة العشر: أنها وقت تحقق حركة الجنين ونفخ الروح فيه، وذلك لنقص الشهور أو كمالها، ولسرعة حركة الجنين أو إبطائها [1]، ولأنها أكمل الأعداد وأشرفها، فحددت الزيادة بها.

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٣١٤).

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: رفع الحرج في التعرض للخطبة بعد انتهاء العدة، إزالة لما بقي في النفوس من استفظاع تسرع النساء إلىٰ التزوج قبل الحول[1].

- وجه التعبير برفع الجناح، وإسناده إلىٰ الرجال دونهن، ووجه تقييده بالمعروف: عبر برفع الجناح؛ لأن فيه نهيا عن التغليظ عليهن في التعرض للخطبة بعد انتهاء العدة، وأسند إلىٰ الرجال لأنهم هم الذين ينكرون عليهن، ويأخذونهن بأحكام العدد، لأن الرجال هم الذين يسوغ لهم نكاحهن، وخطبتهن بعد انقضاء العدة، وتقييد الفعل بالمعروف، تقييد للإباحة بالوجه المشروع وهو الخطبة والنكاح الحلال[2].

- وجه ختام الآية بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾: أنه لما كانت الآية مشتملة علىٰ حدود خالفت ما كانوا عليه، ناسب أن يعقب ذلك بالوعيد تحذيراً من التهاون به أو تجاوزه[3].

- ختمها باسم الخبير: لأنها تضمنت قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ﴾ وهو مما يدرك بلطف وخفاء، فناسب التذكير بوصف الخبير الذي هو العلم بدقائق الأمور وخفاياها.

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (٢/ ٤٤٦).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٢/ ٥٣٠).

(٣) انظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٣١٥).

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾

◈ غرض الآية:

بيان أحكام المعتدة بالنسبة للخطبة والنكاح. منعـًا للتحايل عليها في العدة بالمواعدة والخطبة، مع رفع الحرج بالتعريض والعزم في النفس علىٰ خطبتها بعد العدة.

◈ معاني الآية:

- **المراد بالمواعدة سرا:** المواعدة بالخطبة والمعاهدة بالنكاح، علىٰ معنىٰ: لاتواعدوهن نكاحـًا خفية في العدة؛ لأن غرض الآية هو حماية حرمة العدة، وبيان الأحكام المتعلقة بها في أمر النكاح.

- **المراد بالعزم في قوله ﴿وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾:** عقد القلب علىٰ الفعل؛ لأن الغرض من الجملة المبالغة في النهي.

البصائر والحكم

- **المراد بالتعريض، ووجه إباحته:** التعريض هو القول بالمعروف من غير تصريح وعزم[1]، وأبيح لأن فيه تخفيفـًا للجانبين، فهو تخفيف للرجال وتيسير عليهم لاحتمال شدة رغبتهم فيهن مع عدم القدرة علىٰ الصبر عن ذلك وكتمانه،

---

(١) انظر: «جلاء الأفهام» (ص٩٤).

وتخفيف لهن من جهة أن فيه ذهاباً لحزنهن وإرجاء لهن، ولأن التعريض لا عزم فيه، وهذا لا ينافي مقصد العدة، وأن فيه قطعاً للحيل والطرق غير المشروعة.

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾: بيان لرفع الحرج عما تكنه النفس من الرغبة مع عقد القلب علىٰ الخطبة في المستقبل، رفعاً للحرج، وذلك لعلمه تعالىٰ بغلبة النفوس وطمحها وضعف البشر عن ملكها[1].

- وجه تأخير الإكنان عن التعريض: فيه إشارة إلىٰ مراعاة تقديم ما هو أيسر لهم وهو التعريض؛ وذلك لأن النفس ضعيفة الصبر علىٰ الكتمان ومجبولة علىٰ التحدث فيما تشتهيه خاصة في أمر النساء.

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ سَتَذۡكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾: بيان لسبب الإباحة ورفع الحرج، وهو علم الله بطبيعة البشر، وعدم قدرتهم علىٰ الكتمان، وميلهم الفطري إلىٰ ذكر النساء في القلب واللسان حال الميل إليهن والرغبة فيهن.

- وجه التعبير بقوله: ﴿سَتَذۡكُرُونَهُنَّ﴾: التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿سَتَذۡكُرُونَهُنَّ﴾ بالإتيان بسين المقاربة للدلالة علىٰ قرب تذكرهم لهن وسرعته بعد موت أزواجهن، ففيه زيادة بيان لشدة حرصهم[2]،

- التعبير بالسر دون التعبير بالنكاح في قوله: ﴿لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾: لأنه لا يمكن إظهاره؛ إذ هو في العدة، فيكون المقصود مواعدتهن بالنكاح سراً، وأن السر يعبر به عن النكاح والوطء[3].

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٣١٥).

(٢) انظر: «البحر المحيط» (٢/ ٥٢١).

(٣) انظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٣١٦).

- **قوله:** ﴿إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗاۚ﴾: القول المعروف هو ما أبيح من التعريض [1]، وعبر عنه للدلالة على أن غير التعريض قول منكر، وللتنبيه إلى أنه يجب أن يكون التعريض في حدود المعروف الذي لا يستنكر، وأن يكون التعريض متضمناً معنى الإسرار إليها بالإحسان إليها والاهتمام بشأنها والتكفل بمصالحها [2].

- **غرض قوله تعالى:** ﴿وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ﴾ **والمراد بالكتاب والتعبير به:** غرض الجملة هو المبالغة في النهي عن عقد النكاح زمن العدة، والمراد بالكتاب هو الحد الذي حده وقدره من المدة، سماه كتاباً؛ لأنه قد حد وقدر في كتاب الله، والتعبير به زيادة وتوثيقٌ للنهي؛ لأن ما يكتب أثبت وآكد وأحفظ.

- **وجه قوله:** ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ﴾: تأكيد وتحذير من تجاوز الأحكام السابقة لكونها مما تعقد في الصدور أو في السر؛ لأنها مظنة الوقوع لتعلقها بأمر النساء ونكاحهن، وهي مالا يعلمه إلا الله.

- **وجه ختام الآية بقوله تعالى:** ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾: أن فيه حضاً على الإقلاع عن الذنب والرجوع عنه حال الوقوع فيه.

- **أنَّ وساوس القلوب لا يُؤاخَذ بها؛ لأنَّها ليست من الأعمال؛** لقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا عَرَّضۡتُم بِهِۦ مِنۡ خِطۡبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾.

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٣١٦).

(٢) انظر: «مفاتيح الغيب» (٦/ ١١٤).

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾

◈ غرض الآيتين:

بيان حكم الطلاق قبل الدخول وما يتعلق به من الحقوق.

◈ معاني الآيتين:

- **المراد برفع الجناح وسببه:** أنه رفع للجناح في المهر وفي الطلاق؛ لأن غرض الآية يتضمنهما، ولدلالة رفع الجناح أولاً عن الزوج، وللنص على المهر بقوله تعالىٰ: ﴿أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾.

- **المراد بالمتعة وحكمها:** أنها واجبة للمطلقة قبل الفرض والمسيس، ومندوبة لغيرها؛ لأن الآيتين في رفع الحرج عن المطلقين في الطلاق قبل الدخول أو قبل الفرض، وبيان حقوق المطلقات.

- **المقصود بقوله تعالىٰ: ﴿أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ والمخاطب في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾:** المراد تضمن الآية للولي والزوج معـًا، وأن المراد بالولي الأب دون غيره من الأولياء؛ لأن الغرض هو الحض علىٰ العفو حفظـًا للمودة ومراعاة للحال، وهذا يشمل الزوج والزوجة مباشرة، ويشمل الولي لأنه القادر علىٰ العفو، بل هو أقدر من المرأة.

البصائر والحكم

- وجه تأخير الآية عن الآيات السابقة التي تحدثت عن أحكام المطلقة المفروض لها والمدخول بها، مع أن الظاهر تقدمها: أن الابتداء بحكم المطلقات مناسب ثم بعد الدخول، ابتدأ بما هو أهم من حيث كثرته وغلبة وقوعه، ثم ذكر الحالات المحتملة الوقوع بعد الأحكام الأصلية كالاستدراك لها.

- وجه رفع الجناح فيه: أن فيه حفظًا لنظام الأسرة من الاختلاف في الإلزام به، وقطعًا للخلاف والبغضاء بين الزوجين بعد الفراق[1]، وأن فيه مراعاة وتخفيفًا ورحمة بالمطلق والمطلقة.

- القراءات في قوله تعالىٰ: ﴿مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾، والمراد بالمس ووجه التعبير به: فيه قراءتان

الأولىٰ: وهي قراءة الجمهور، بغير ألف ﴿تَمَسُّوهُنَّ﴾، وهي تفيد مجرد المسيس.

الثانية: وهي قراءة حمزة والكسائي، بالألف ﴿تماسوهن﴾ وهي تفيد المماسة أي المفاعلة. فهي أبلغ في المعنىٰ[2].

قال ابن عطية: «وهذه القراءة الأخيرة تعطي المس من الزوجين، والقراءة الأولىٰ تقتضي ذلك بالمعنىٰ المفهوم من المس»[3].

- المراد بفرض المهر في قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ ووجه التعبير بالفريضة. ووجه العطف بحرف ﴿أو﴾ دون الواو: المراد بفرض المهر إثباته

(١) في الآية دليل علىٰ أن الطلاق قبل البناء من أولىٰ أنواع الطلاق المباح، لرفع الجناح فيه.

(٢) انظر: «جامع البيان» (٢/ ٥٤٣)، «المحرر الوجيز» (١/ ٣١٨)، «مفاتيح الغيب» (٦/ ١١٦).

(٣) «المحرر الوجيز» (١/ ٣١٨).

وتحديده[1]، والتعبير بالفريضة للدلالة علىٰ وجوب المهر؛ لأن أصل الفرض: الواجب[2]، والعطف بأو يفيد تضمن الآية لحالات الطلاق بالنسبة للمهر ثبوتـًا وسقوطـًا، وذلك لأن أو في الأصل للتخيير والتنويع.

- **حكمة تشريع المتعة في قوله: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ...﴾:** أنها عوض عن المهر، وأنها في مقابل عقد الزوجية، وأنه جبر لخاطر المرأة بالطلاق، وأن في الطلاق غضاضة وإيهامـًا للناس أن الزوج لم يطلقها إلا وقد رابه شيء منها، فإذا متعها متاعـًا حسنـًا زالت هذه الغضاضة، وأن في المتعة استبقاء للود بين أفراد الزوجين، واحتفاظـًا بالعلاقة بينهم.

- **وجه قوله تعالىٰ: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾:** الجملة تفيد أن مقدار المتعة راجع لحال الزوج وقدرته، مراعاة لحاله، وذلك لكون المتعة إحسانـًا منه، وليست عوضـًا لمنتفعة، أو عقوبة.

- **المراد الموسع والمقتر، ومقدار المتعة:** المراد بالموسع هو الغني الذي يكون في سعة من غناه، وعبر بالموسع حضـًا وترغيبـًا، والمقتر هو الذي ضيق من فقره، وهو المقل، وعبر به مراعاة لحاله [3]، والآية لم تبين حدود المتعة ومقدارها، ولكن الذي يدل عليه السياق أنها لا تزيد علىٰ نصف مهر المثل.

- **وجه تخصيص المطلقة قبل الدخول وبعد الفرض في الآية الثانية مع دخولها في الآية الأولىٰ:** أن الغرض في الآية الثانية هو بيان حقها المفروض لها في المهر بعد بيان حقها في المتعة في الآية السابقة.

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٣١٨)

(٢) انظر: «جامع البيان» (٢/ ٥٤٤).

(٣) انظر: «مفاتيح الغيب» (٢/ ١١٩).

- **وجه قوله تعالىٰ:** ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ **ووجه أمرهما جميعًا:** الجملة مفيدة التحريض علىٰ العفو من الطرفين، مراعاة لحالهما وحفظًا لصفاء القلوب ودوام الألفة بين المؤمنين، ووجه أمرها بالعفو مراعاة للزوج؛ ولذا قدم عفوها لأنه أولىٰ بالمراعاة فخسارته أعظم، ووجه أمره بالعفو مراعاة للزوجة من حيث أن في طلاقها تعريضًا لسمعتها، وسببًا لكدرها وحزنها.

- **وجه ختام الآية بقوله تعالىٰ:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: أنه تعالىٰ لما أمر بالعفو بينهم ترغيبًا، ذكر بعده إطلاعه وعلمه علىٰ ما يعملون، لتكون مقرونة بالموعظة التي تغذي الإيمان، وتبعث علىٰ الامتثال، وترهب من المشاحة والمطالبة[1].

- **مراعاة الأحوال في الأحكام؛** فيثبت في كل حال ما يناسبها؛ لقوله تعالىٰ: ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾.

- **امتناع التكليف بما لا يُطاق؛** لقوله تعالىٰ: ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾؛ وهذه القاعدة دلَّ عليها القرآن في عدة مواضع؛ منها قوله تعالىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

- **أنَّ الأعمال تتفاضل؛** لقوله تعالىٰ: ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ ، ويلزم منه أنَّ النَّاس يتفاضلون في الإيمان؛ لأنَّ تفاضل الأعمال يستلزم تفاضل العامل؛ والأعمال من الإيمان﴾.

- **أنَّه ينبغي للإنسانِ ألَّا ينسىٰ الفضلَ مع إخوانه في معاملته؛** لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾.

(١) «تفسير المنار» (٢/ ٤٣٤).

﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ٢٣٩ ﴾

◈ غرض الآيتين:

توجيه المؤمنين، وصرفهم عن الانهماك بشؤونهم الخاصة إلىٰ عبادة الله تعالىٰ والقيام بحقه، وبيان عظم الصلاة، وأثرها في حل الأزمات الداخلية والخارجية.

◈ معاني الآيتين:

- المراد بالصلاة الوسطىٰ: صلاة العصر؛ لأنه بالتأمل في أوقات الانشغال بالنساء والأولاد وأمور الدنيا، وأمور القتال؛ نجد أن أشده وقت الظهيرة وقبل صلاة العصر، فهي مظنة الفوات والإضاعة.

- المراد بالقنوت: جميع المعاني الدالة علىٰ القنوت من الخضوع والسكينة والدعاء والطاعة؛ لأن الغرضين اللذين تضمنتهما الآية، دالان علىٰ المعاني كلها.

- المراد بالذكر في: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ﴾: أدوا الصلاة كما علمكم مع شكره علىٰ ذلك؛ لأن الغرض الأصلي هو الحض علىٰ الصلاة لحصول الأمن الداخلي والخارجي، وهذا مستوجب المحافظة علىٰ الصلاة، ومستوجب للشكر علىٰ نعمة الأمن.

البصائر والحكم

- وجه كون الآية وما بعدها تمهيداً للقتال: أن الأمر بالصلاة ظاهر في كونه عدة للقتال من جهة كون الصلاة عدة وعونـًا للقتال، ولأن الله تعالىٰ ضمن الآية

حكم صلاة الخوف، وهي في القتال، وأن الله تعالىٰ ذكر في الآية بعدها حكم المتوفىٰ عنها زوجها، والوصية لها بالمتعة إذا مات زوجها، وهذا لضمان عدم مخافة المقاتل علىٰ أهله وأولاده من الضياع والعيلة لو قتل، وأنها جاءت في ترتيب تدريجي في التهيئة والتمهيد للقتال.

- وجه الانتقال السريع في الآية وعدم ربطه بما قبله: أن فيه هزاً للنفوس إلىٰ عظم أمر الصلاة، وأن لا يشغل عنها شاغل مهما كان مُهمًّا، وللتشويق والمفاجئة بأمر يشد النفوس، وأنه لما كان الحديث في الآيات عن الطلاق والقتال، وهما أعظم الأزمات الداخلية والخارجية، ناسب أن يأتي العلاج مباشراً ومفاجئاً كأنه علاج طارئ مناسب للحالة، ليهز النفوس ويشدها إليه.

- وجه الأمر بالمحافظة دون غيره: فيه دلالة علىٰ أن الذي يحصل به الأثر من الصلاة هو دوام المحافظة عليها في وقتها، مع حسن أدائها، ولأنه لما كانت الآية تدل علىٰ الأمر بما يصلح أحوالهم، ويكون عوناً لهم في حل مشكلاتهم، ذكر الصلاة بصيغة المفاعلة ﴿حَٰفِظُواْ﴾ والمفاعلة إنما هي بين العبد وربه، فيكون المعنىٰ (احفظوا صلاتكم ليحفظ الله أمركم ويصلح حالكم).

- وجه وصفها بالصلاة الوسطىٰ دون تعيينها: للدلالة علىٰ أن الصلاة سبب لحصول الخير والاعتدال في أمور الحياة كلها،ولأنه لما كان الغرض صرفهم إلىٰ ما هو خير لهم، وهو حق الله تعالىٰ والانشغال بأمر الأمة، وأن ذلك هو سبب صلاحهم وكمالهم، عبر بهذا الوصف للإشعار بذلك، وفيه إشعار للتحفيز علىٰ الحرص عليها والمحافظة عليها.

- في وصف الصلاة بالوسطىٰ بعد الأمر بالمحافظة عليها وقبل الأمر بالقنوت فيها، دلالة علىٰ صفة أدائها، فالجملة الأولىٰ دالة علىٰ الأمر بالمحافظة عليها، والجملة الثانية دالة علىٰ أدائها علىٰ أفضل حال، وذلك أن معنىٰ الوسطىٰ

حقيقة الفضلىٰ؛ لأن الوسط هو الخيار العدل، والجملة الثالثة مؤكدة للجملتين؛ لأن القنوت حقيقة هو دوام الصلاة في خشوع وخضوع [1].

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾: الأمر بالقيام في الصلاة علىٰ الوجه الأكمل بخشوع وطمأنينة وسكون، وفيه الأمر باللجوء والفزع إلىٰ الله بالصلاة والدعاء حال الأزمات.

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾: بيان لزوم الصلاة في حال الخوف مع التخفيف في صفتها، بعد الأمر بالمحافظة عليها وإكمال أدائها حال الأمن.

- ورود صلاة الخوف بعد الأمر بالمحافظة علىٰ الصلاة تخلص بديع وانتقال مناسب من المشكلات الداخلية إلىٰ المشكلات الخارجية؛ فكأن الجملة نقطة تحول بين الموضوعين، ومدخلٌ مناسبٌ للحديث عن القتال، وفيه مناسبة لطيفة وهي التخفيف والتهوين من شأن المشكلات الأسرية.

- المراد بالخوف، ووجه التعبير به: الخوف المطلق، وعبر به للدلالة علىٰ غرض الرخصة وهو الخوف المانع من أداء الصلاة، وتقييد الصلاة علىٰ هذه الحالة، وهي حالة وجود الخوف في النفس في وقت أداء الصلاة، ولهذا قال ﴿فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾.

- المراد بالصلاة في الآية، والجمع بين هذه الآية وبين آية النساء في صفة صلاة الخوف: المراد بالصلاة هنا الصلاة حال المقاتلة والمسايفة، ومطالبة سبع ونحوه، فهذه الآية تدل علىٰ صفة الصلاة حال ملاقاة العدو وحضور القتال، والحالة الثانية تدل علىٰ صفة الصلاة حال توقف القتال في المعركة، وكون

(١) انظر: «محاسن التأويل» (١/ ٥٨٠)، «تفسير المنار» (٢/ ٤٣٨).

الصلاة مع الإمام في حال كون العدو في مواجهة عسكر المسلمين، وعلىٰ هذا فتكون هذه الآية دالة علىٰ حالة من حالات صلاة الخوف.

- **وجه فرض الصلاة في الخوف وعدم إسقاطها:** أن الغاية العظمىٰ من خلق الإنسان هي عبادة الله تعالىٰ وذكره وتعظيمه في السراء والضراء، فكان لابد من إبقاء أصل هذه العبادة في أي حال، وأن في ذلك توجيهاً وتعليماً بأن المؤمن في حال الخوف يجب أن يكون فزعه حال الخوف إلىٰ الله تعالىٰ.

- **غرض قوله تعالىٰ:** ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾: التذكير بنعمة الله في حصول الأمن بعد الخوف، وتعليم الصلاة التي هي سبيل الأمن والتخفيف عليهم فيها.

- **وجه اختلاف صدر الجملتين ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ﴾ ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمۡ﴾:** أن تصدير الآية الأولىٰ بـ﴿إن﴾ الشرطية لإفادة قلة وقوع الخوف وندرته، أما تصدير الثانية بـ﴿إذا﴾ الشرطية لإفادة تحقق وقوع الأمن وكثرته، ولأن في الأولىٰ تطميناً وتخفيفاً علىٰ المؤمنين، وفي الثانية بشارة للمسلمين بأنه سيكون لهم النصر والأمن والتمكين.

- **سَعة رحمة الله عزَّ وجلَّ، وأن هذا الدين يسر؛** لقوله تعالىٰ: ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗا﴾؛ لأنَّ هذا من التيسير علىٰ العباد .

- **بيان نقْص الإنسان؛ لكون الأصل فيه الجَهل؛** حيث قال تعالىٰ: ﴿كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾؛ فالأصل في الإنسان الجهل حتىٰ يُعلِّمه الله عزَّ وجلَّ.

- **في قوله تعالىٰ:** ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ

﴿ٱللَّهَ﴾ جاء في الأمن بـ﴿إذا﴾- التي تكون لِمَا يقع غالبًا، وفي الخوف بـ﴿إنْ﴾- التي تكون لِمَا لا يقع غالبًا؛ بشارة للمسلمين بأنَّهم سيكون لهم النصر والأمن.

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٤٠)﴾

◈ غرض الآية:

بيان أحكام النساء المتوفىٰ عنهن أزواجهن، في المتعة بالسكنىٰ، مراعاة لحالهن وضعفهن، ومنعـًا من إضاعة حقهن في السكنىٰ.

◈ معاني الآية:

- **حكم الآية والعمل بها:** الآية فيها إشارة لتفضيل زوجة المجاهد المقتول في سبيل الله بهذه الوصية، وهي تتضمن حكمين: الأمر بالوصية لزوجة المتوفىٰ بالسكنىٰ سنة ما لم تخرج، وأمر الأزواج المقاتلين بالوصية لأزواجهم بالمتعة والسكنىٰ، لمظنة موتهم؛ لأن غرض الآية بيان أحكام النساء المتوفىٰ عنهن أزواجهن، والتمهيد وتهيئة النفوس للقتال لتلقي الأمر به، بدليل ورودها بعد قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾.

- **المراد بالخروج في قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾:** المراد خروجهن من بيوتهن باختيارهن بعد العدة[1]؛ لأن غرض الآية الوصية بالمتعة لها في السكنىٰ، وبيان حده، وهو خروجها بعد العدة.

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (١/ ١٢٨) «المحرر الوجيز» (١/ ٣٢٦)، «روح المعاني» (١/ ٧٥٢).

البصائر والحكم

- وجه الفصل بين هذه الآيات وآيات الطلاق بآية الصلاة: التأكيد على عدم الانشغال بحقوق الخلق عن الحق تعالى، ولبيان أن الصلاة سبب للخروج والخلاص من الأزمات الداخلية في الأسرة، وورودها قبل الحديث عن أحكام الوفاة أولى لتكون مهيئة لها تبعث على الإيمان بالقدر حال وقوعه؛ ولذا اختار الله الصلاة دون غيرها لأنها أعظم أسباب الطمأنينة والثبات.

- غرض قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾: الإذن للمتوفى عنها بالخروج بعد العدة، وترك الحداد والتعرض للنكاح، ورفع الحرج عن أوليائهن في ذلك.

- وجه قوله تعالى: ﴿فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾: لبيان سبب رفع الحرج، وهو تشوفهن للرجال عادة.

- المراد بقوله: ﴿فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾، ووجه التعبير بقوله تعالى: ﴿مِن مَّعْرُوفٍ﴾: المراد: التزين وترك الحداد والتزوج[1]، والتعبير بقوله تعالى: ﴿مِن مَّعْرُوفٍ﴾ دون ﴿بالمعروف﴾ للدلالة على أن تكون ﴿مِن﴾ متعلقة بقوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ والمعنى: لا تبعة عليكم في السكنى والنفقة، فرفع الجناح هنا عن الأولياء فيما يجب عليهم من السكنى التي هي من المعروف، وعلى أن تكون متعلقة بقوله تعالى: ﴿فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ﴾ والمعنى: لا جناح عليهن فيما فعلن في أنفسهن من تزين وتعرض للخطبة وخروج ونحوه، إذا كان مما هو معروف شرعاً[2].

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٣٢٦).

(٢) انظر: «البحر المحيط» (٢/ ٥٥٤).

- وجه ختم الآية بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾: أن وصف العزيز مناسب للوصية للمتوفىٰ عنها زوجها بالسكنىٰ، ففيه وعيد لمن خالف الحد في هذه النازلة فأخرج المرأة، وهي لا تريد الخروج[1]، وأن وصف الحكيم مناسب لما شرعه الله تعالىٰ من فرصة الوصية للمتوفىٰ عنها زوجها بالسكنىٰ.

- أنَّ المسؤولين عن النِّساء هم الرِّجال؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾.

﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾

◈ غرض الآيتين:

التأكيد علىٰ حق المطلقات في المتعة عمومـاً، وحق المطلقة المتوفىٰ عنها زوجها وهي في العدة، والمطلقة الغائب عنها زوجها للجهاد في المتعة خصوصاً.

◈ معاني الآيتين:

- المراد بالمطلقات في الآية: المراد بالمطلقات عموم المطلقات مع اختلاف حكمهن؛ لعموم اللفظ.

- المراد بالمتعة في الآية: الإمتاع الزائد جبرا لها، قال في بدائع الصنائع: «وأما الآية الكريمة فيحمل ذكر المتاع فيها علىٰ الندب والاستحباب.. أو يحمل علىٰ النفقة و الكسوة في حال قيام العدة؛ ولأن كل ذلك المتاع اسم لما ينتفع به عملا بالدلائل كلها بقدر الإمكان»[2].

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٣٢٦).

(٢) «بدائع الصنائع» (٢/ ٥٩٩).

البصائر والحكم

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾: أنه لما كان غرض الآية التأكيد علىٰ حق المطلقات في المتعة عبر بذلك، ولا دلالة في هذا التعبير علىٰ وجوب المتعة لجميع المطلقات؛ لأن الآية لم تتضمن فرضـاً صريحـاً، وإنما هي للتأكيد والتعميم.

- وجه ختام الآية بقوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾: الجملة مبينة وجه الحكمة من بيان الأحكام وتفصيلها، وهي أن يذكر الحكم وفائدته ويقرنه بذكر الله والموعظة الحسنة ليبعث ذلك علىٰ العمل به.

- أنَّه ينبغي تأكيدُ الحقوق التي قد يتهاون النَّاس بها؛ لقوله تعالىٰ: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

- أنَّه ينبغي ذِكرُ الأوصاف التي تحمل الإنسان علىٰ الامتثال فعلًا للمأمور، وتركًا للمحظور؛ لقوله تعالىٰ: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ لأنَّ عدم القيام به مخالف للتقوىٰ؛ والقيام به من التقوىٰ.

- الردُّ علىٰ المفوِّضة - أهل التجهيل؛ وعلىٰ أهل التحريف- الذين يسمُّون أنفسهم بأهل التأويل؛ لقوله تعالىٰ: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾؛ لأنَّ أهل التفويض يقولون: إن الله لم يُبيِّن ما أراد في آيات الصفات، وأحاديثها؛ وأنها بمنزلة الحروف الهجائية التي لا يفهم معناها؛ وأهل التحريف يقولون: إنَّ الله لم يبيِّن المعنىٰ المراد في آيات الصِّفات، وأحاديثها؛ وإنَّما وكَل ذلك إلىٰ عقولنا؛ وإنَّما البيان بما ندركه نحن بعقولنا؛ فنقول: لو كان الأمر كما ذكرتم لكان الله سبحانه وتعالىٰ يبيِّنه؛ فلما لم يبيِّن ما قلتم علم أنَّه ليس بمراد.

- **أنَّه لا يمكن أن يوجد في الشرع حكمٌ غير مبيَّن؛** لقوله تعالىٰ: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾.

- **الثَّناء علىٰ العقل،** حيث جعله الله غاية لأمر محمود- وهو تبيين الآيات؛ والمراد عقل الرشد السالم من الشبهات، والشهوات، أي: الإرادات السيِّئة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ
ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا
يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن
ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ
وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟
لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ
عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا
مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ
بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ
قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ
ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى
مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ
مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ
ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن
شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟
مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا
ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ
قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ
وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ
ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم
بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

(البقرة: ٢٤٣ – ٢٥٢)

سياق الآيات كلها في التمهيد للأمر بالقتال، وتحريض المؤمنين عليه، وإزالة الخوف في نفوس المؤمنين من الموت والهزيمة بسببه، ورسم المنهج الصحيح له، إعداداً للقتال، ووعداً بتمكين دولة الإسلام وشريعتها ودينها.

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ ﴾

◈ غرض الآية:

التمهيد للقتال بتحريض المؤمنين عليه، وإزالة الخوف في نفوسهم من الموت بسببه.

◈ معاني الآية:

- **الخطاب في قوله ﴿أَلَمْ تَرَ﴾:** للنبي ﷺ ولكل سامع؛ لأن غرض الآيات هو بعث النفوس للجهاد، وذلك يحتاج إلىٰ تأكيد ومبالغة في التصوير.

- **المراد بالموصوفين في الآية:** المراد بهم أنهم قوم فروا من عدوهم حذر الموت بعد أن دعاهم نبيهم لقتالهم، فأماتهم الله ثم أحياهم؛ لأن الغرض من القصة التحريض علىٰ الجهاد وإزالة الخوف من الموت، فكون القصة في الجهاد أولىٰ.

البصائر والحكم

- **وجه افتتاح القصة بقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾:** تأكيد للعلم بالخبر حتىٰ يكون أثره في النفس بالغاً من جهة بعث النفوس للجهاد وإزالة الخوف[1].

(١) «المحرر الوجيز» (١/ ٣٢٧).

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡ﴾ والمراد بالموت هنا: الدلالة علىٰ قدرة الله تعالىٰ، وأن الموت بيد الله، وفي هذا بعث للجهاد وإزالة للخوف من الموت في قلوب المؤمنين، والمراد بالموت، هو الموت الحقيقي لصريح اللفظ، وليس هو موت آجالهم، بل جعله الله تعالىٰ موتًا عارضًا كمرض حادث؛ ليكون عبرة (١).

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾: التنبيه علىٰ فضل الله علىٰ الناس بحياتهم الموجبة لطاعتهم له في جميع أمورهم، ومنها أمر الجهاد الذي فيه تضحية بالنفس في سبيل الله.

- أنَّه لا فرارَ من قدَر الله؛ لقوله تعالىٰ: ﴿حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ﴾.

- في قوله تعالىٰ: ﴿مُوتُواْ﴾ إثبات أنَّ كلام الله سبحانه وتعالىٰ بحروف مرتَّبة، وفيه ردٌّ علىٰ مَن قال: إنَّ كلام الله هو المعنىٰ القائم بنفْسه.

- أنَّه سبحانه وتعالىٰ يَمدَح نفْسَه بما أنعم به علىٰ عباده؛ لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ فهو سبحانه وتعالىٰ يحبُّ أن يُمدح، ويُحمَد؛ لأنَّ ذلك صِدقٌ، وحقٌّ؛ فإنَّه سبحانه وتعالىٰ أحقُّ مَن يُثنَىٰ عليه، وأحقُّ مَن يُحمَد؛ وهو سبحانه وتعالىٰ يحبُّ الحقَّ.

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢٤٤﴾

◈ غرض الآية:

الأمر بالقتال الذي هو المقصود، بعد التمهيد له والتحذير من الفرار منه.

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٣٢٨).

◈ معاني الآية:

- الخطاب في الآية: لمؤمني هذه الأمة؛ لأن غرض الآيات ظاهر في التمهيد لأمر الأمة بالقتال وتحريضها عليه.

البصائر والحكم

- وجه مجيء الأمر بالقتال بين القصتين: أن القصة الأولىٰ جاءت للتحذير من الاستسلام واستضعاف النفس والهروب من العدو خوف الموت، وهذا مناسب أن يكون قبل الأمر بالقتال، والقصة الثانية جاءت للتحذير من التخلي عن القتال بعد الأمر به والشروع فيه خوفاً من الهزيمة، فناسب تأخير القصة عن الأمر، فكانت الآية بينهما، تحريضاً وتحذيراً[1]، وهذا الأسلوب القرآني مقصود لكونه أدعىٰ لقبول الأمر والامتثال له.

- وجه التدرج في الأمر بالقتال وتشريعه في السورة: أن غرض السورة هو إصلاح المجتمع المسلم، وتنظيمه، وتقوية بنائه، وتأسيس نظامه، ولا شك أن من أعظم مقومات هذا البناء وذروة سنامه الجهاد، وأن القتال من أشد التكاليف علىٰ النفوس، والله تعالىٰ - من رحمته بالأمة وتخفيفه عليها - أراد أن يكون تكليفها بالقتال متدرجاً علىٰ مراحل حتىٰ لا تتلكأ النفوس عنه.

- وجه ختم الآية بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾: ختام الآية بهذه الجملة لمزيد الحث علىٰ القتال والتحذير من تركه، بتذكيرهم بإحاطة علم الله تعالىٰ بجميع المعلومات، ففي الجملة وعد ووعيد.

(١) «التحرير والتنوير» (٢/ ٤٨٠).

﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ ﴾

◈ غرض الآية:

الحث علىٰ النفقة بعد الحث علىٰ القتال.

◈ معاني الآية:

- **المراد بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾:** المقصود أنه تعالىٰ هو الذي يبسط لأناس ويقبض الرزق عن آخرين؛ لأن الغرض هو الحث علىٰ الإنفاق، ولا شك أن إظهار قدرة الله تعالىٰ علىٰ قبض الأرزاق وبسطها، أعظم باعث علىٰ الإنفاق، وأقوىٰ دافع إليه.

البصائر والحكم

- **وجه تكرر الأمر بالنفقة في السورة واقترانه بآيات القتال:** أن مقصد السورة الأعظم هو بناء الدولة الإسلامية وتأسيس نظامها، فكان مناسبًا أن يكرر الحديث عن النفقة والجهاد، وأن النفقة من أعظم مقومات الجهاد، وأن الأمر بالإنفاق في هذه الآية بعد الأمر بالقتال مناسب لحال الصحابة وحث لهم، فالأمر بالقتال مناسب لحال المهاجرين، والأمر بالإنفاق مناسب للأنصار.

- **وجه التعبير بالقرض الحسن عن الأمر بالإنفاق:** الإشعار بأن النفقة إقراض لله تعالىٰ، والإشعار بأن النفقة والمال المبذول في سبيل الله تعالىٰ مضمونة التعويض والرد، وفيه حث علىٰ تجهيز الغزاة وإعدادهم.

- **وصف القرض بالحسن** للدلالة علىٰ خلوصه لله وعلىٰ أن يكون حلالا طيبا وافرا، وأن يكون عن طيب نفس.

- القراءات في قوله تعالىٰ: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ﴾ ومناسبتها للسياق. ووجه التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗ﴾ من غير تحديد:

اختلف القراء في رفع الفاء ونصبها، وتشديد العين وتخفيفها، وإسقاط الألف وإثباتها[1].

والقراءة بالنصب والرفع دال علىٰ معنيين:

الأول: الدلالة علىٰ مضاعفة القرض، وتدل عليه القراءة بالنصب، والمراد بمضاعفة القرض علىٰ هذا المعنىٰ: مضاعفته في الدنيا بالبركة بالمال وغيره، ومضاعفته في الآخرة بإنمائه وتكثيره، وفي هذا بعث للنفوس علىٰ النفقة.

الثاني: الدلالة علىٰ الأجر العظيم علىٰ النفقة، وتدل عليه القراءة بالرفع[2]، وهذا باعث آخر للنفوس.

فكانت القراءتان دالتين علىٰ كمال معنىٰ المضاعفة، مبالغة في الحث علىٰ النفقة، ولهذا عبر بالمضاعفة التي هي صيغة مفاعلة.

والتعبير بقوله تعالىٰ: ﴿أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗ﴾ دون تحديدها، دال علىٰ الغرض، وهو المبالغة في الحث علىٰ النفقة.

- ختم الآية بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ لأنها متضمنة إظهار قدرة الله، والوعد والوعيد، ففيها باعث قوي علىٰ النفقة، وهو غرض الآية.

- الحثُّ علىٰ الإنفاق في سبيل الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗ﴾؛ فالاستفهام هنا للحثِّ، والتشويق.

- أنَّ الجزاء علىٰ العمل مضمونٌ كضمان القرض لمقرضه، قال تعالىٰ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗ﴾.

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٢/ ٦٠٨)، «المحرر الوجيز» (١/ ٣٢٩).

(٢) انظر: «إرشاد العقل السليم» (١/ ٢٧٩).

- أنَّ فضل الله وعطاءه واسع؛ وأنَّ جزاءه للمحسن جزاء فضل؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ﴾ مع أنَّ أصْلِ توفيقه للعمل الصَّالح فضلٌ منه .

- في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ﴾ إثباتُ صِفة القَبْض والبَسْط لله عزَّ وجلَّ.

- الإشارة إلىٰ أنَّ الإنفاق ليس هو سببَ الإقتار والفقر؛ لأنَّ ذِكر هذه الجملة ﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ﴾ بعد الحثِّ علىٰ الإنفاق، يُشير إلىٰ أنَّ الإنفاقَ لا يستلزمُ الإعدامَ، أو التضييق؛ لأنَّ الأمرَ بيد الله سبحانه وتعالىٰ.

- ترهيب المرء من المخالَفة، وترغيبه في طاعة الله؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾؛ لأنَّ الإنسان إذا علم أنَّه راجع إلىٰ ربه لا محالة فإنَّه لا بدَّ أن يكون فاعلًا لِمَا أُمِر به، تاركًا لما نُهِي عنه؛ لأنَّه يخاف من هذا الرجوع.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٢٤٦﴾ البقرة: ٢٤٦

◈ غرض الآية:

تحريض المؤمنين علىٰ القتال بعد الأمر به، وإزالة خوف الهزيمة من نفوسهم، وتحذيرهم من التخلي عن القتال بعد طلبهم إياه والأمر به والشروع فيه.

◈ معاني الآية:

- المراد بالملأ في الآية: هم أشرافهم ورؤساؤهم؛ لأن طلب ذلك عادة إنما يكون من كبار القوم؛ لأن الأمر متعلق بسياسة الأمة وقيادتها.

البصائر والحكم

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓۚ﴾: دلالة علىٰ أن زمن أصحاب القصة بعد موسىٰ، وفي هذا إشارة إلىٰ أنهم أضاعوا زمن موسىٰ بالاختلاف عليه، وعصيانه بقولهم: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾ [المائدة٢٤]، وإشارة أيضاً إلىٰ أن ما وقع لهم من ضياع ملكهم وتشتت أمرهم وغلبة عدوهم كان بعد اختلافهم علىٰ موسىٰ، وفي هذا تحريض لأمة الإسلام باغتنام وجود نبيهم بينهم، وتحذير لهم من الاختلاف عليه[1].

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ﴾ دون تعيين النبي: للإشارة إلىٰ أن محل العبرة كونهم طالبوا ذلك من نبيهم، وهو أشد حجة وأبلغ عبرة، وأنسب للغرض المقصود وهو تحذير المؤمنين من مشابهتهم بطلبهم من نبيهم القتال ثم النكوص عنه، أو طلب نبيهم منهم القتال وتخليهم عنه.

- المراد بالمَلِك في الآية، ووجه طلبهم إياه مع وجود نبيهم: المَلِك: هو الملِك حقيقة، وفيه دلالة علىٰ أن من عادتهم وجود الملوك بينهم؛ لكن لم يكن لهم ملك يومئذ؛ ولذا طلبوه من نبيهم، ولم يعينوه بأنفسهم، فدل علىٰ أن هذا من شرعهم، والظاهر أن الملك هو الذي بيده السياسة والقيادة، والنبي بيده الأمر والوحي والشرع.

- وجه قول نبيهم ﴿هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ﴾: الاستفهام في الجملة تقريري وتحذيري، والغرض منه توثيق الأمر منهم؛ إذ أنهم أهل نكث وغدر وقلة وفاء[2]، وفيه إشعار للمؤمنين بألا يطلبوا القتال ويسألوه إلا وهم علىٰ يقين من أنفسهم وعزيمة عليه واستعداد له.

(١) «التحرير والتنوير» (٢/ ٤٨٥).

(٢) انظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٦١٣).

- وجه ذكر الإخراج من الديار في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾ ووجه تخصيص الأبناء: ذكر الإخراج لتبرير طلبهم للقتال وعدم تركهم له حين يؤمرون به، وتخصيص الأبناء فيه مزيد تقوية لأسباب القتال، وهو دال علىٰ أن جالوت ومن معه من العمالقة قد سبوا أولادهم، وأسروهم[1].

- قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟﴾ المراد بالتولي هنا ووجه ذكره: التولي هنا ليس أنهم تولوا عندما أمروا مباشرة بل حينما ساروا لملاقاة العدو، وابتلوا بالنهر، ورأوا العدو كما سيأتي، قال أبو السعود: ﴿إنما ذكر ههنا مآل أمرهم إجمالاً، إظهاراً لما بين قولهم وفعلهم من التنافي والتباين﴾[2].

- ختام الآية بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾: فيه وعيد علىٰ التولي عن القتال وترك الجهاد[3]. وفي ذلك مبالغة في تحذير المؤمنين منه، وزيادة بعث لهم علىٰ الجهاد.

- من الفوائد الاجتماعيّة: أنَّ الأُمم التي تفسد أخلاقها وتضعُف، قد تفكِّر في المدافعة عند الحاجة إليها، وتعزم علىٰ القيام بها إذا توفَّرت شرائطها، التي يتخيَّلونها، ثم إذا توفَّرت الشروط يضعُفون ويجبنون، ويزعمون أنَّها غير كافية؛ ليعذروا أنفسهم وما هم بمعذورين، والله عليم بالظالمين، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَـٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

---

(١) انظر: «إرشاد العقل السليم» (١/ ٢٧٩).

(٢) «إرشاد العقل السليم» (١/ ٢٧٩).

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (١/ ١٣١).

- **أنَّ مِن شأن الأمم الاختلافَ في اختيار الرئيس الذي يكون له المُلْك عليها،** والاختلاف مدعاةٌ للتفرُّق، فيجب أن يكون هناك مرجِّح يقبله الجمهور من الأمَّة؛ لذلك لجأ الملأ من بني إسرائيل إلىٰ نبيِّهم، وطلبوا منه أن يختار لهم رجلًا يكون ملِكًا عليهم، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا﴾، وقد جعل الإسلامُ المرجِّحَ لاختيار إمام المسلمين مبايعةَ أُولي الأمر لمن يختارونه من أنفسهم، وهم أهل الحَلِّ والعَقد والمكانة في الأمَّة، الذين هم عون السُّلطان، وقوَّته باحترام الأمَّة لهم، وثقتها بهم .

- **أنَّ اجتماع أهل الكلمة والحَلِّ والعقد،** وبحثهم في الطريق الذي تستقيم به أمورُهم وفَهمه، ثم العمل به، من أكبرِ الأسباب لارتقائهم وحصول مقصودهم، كما وقَع لأولئك الملأ من بني إسرائيل، حين راجعوا نبيَّهم عليه السلام في تعيين مَلِك تجتمع به كلمتهم ويلمُّ متفرِّقهم، وتحصل له الطاعة منهم .

- **أنَّ مرتبة النبوَّة أعلىٰ من مرتبة الملْك؛** لقولهم: ﴿ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا﴾ يُخاطبون النبيَّ؛ فالنبيُّ له السُّلطة أن يبعث لهم ملِكًا يتولَّىٰ أمورهم ويدبِّرهم .

- **إذا طلب الإنسان شيئًا من غيره فعليه أن يذكُرَ له ما يُشجِّعه علىٰ إجابة طلبه؛** لقولهم: ﴿نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ فإن هذا يَبعثُ النبيَّ ويُشجِّعه علىٰ أن يبعث لهم الملك.

- **أنَّ الإنسان قد يظنُّ أنَّه يستطيع الصبر علىٰ ترك المحظور، أو القيام بالمأمور؛** فإذا ابتلي نكص؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡ﴾ مع أنهم كانوا متحمِّسين للقتال.

- **أنَّ بعض الأسئلة تكون نكبةً علىٰ السائل،** كما قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ المائدة: ١٠١، وذلك أنَّ بَني

إسرائيلَ طلبوا مِن نبيِّهم أنْ يبعثَ لهم مَلِكًا يُقاتلون معه في سبيل الله تعالىٰ، فلمَّا جاءَهم الملِكُ، وفُرِضَ عليهم القتالُ وقَعوا في الظُّلم بالنُّكوص والإعراض عنه.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٤٧﴾

◈ غرض الآية:

بيان وتفصيل حالهم مع نبيهم في تعيين ملكهم، واختلافهم عليه فيه.

◈ معاني الآية:

- المراد بالعلم والجسم: المقصود قوة رأيه في الحرب، وعلىٰ الطول والقوة في جسمه؛ لأن ذلك من أعظم ما ينتفع به في دفع الأعداء، وإرهابهم.

- القائل لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ﴾: هو الله، أو هو نبيهم؛ لأن الغرض قطع جدالهم في أمر الملك، وتقوية نفوس المؤمنين بالإيمان بالله والامتثال لما يأمرهم به ويختاره لهم.

البصائر والحكم

- المراد بطالوت: طالوت الظاهر أنه وصف للملك ولقب له، وليس اسمًا له؛ لأنه مأخوذ من الطول، وصف به مبالغة في طول قامته[1]، وإنما جعله لقبًا له

(١) انظر: «إرشاد العقل السليم» (١/ ٢٧٩)، «التحرير والتنوير» (٢/ ٤٨٩).

في القرآن للإشارة إلىٰ الصفة التي أوحىٰ الله بها إلىٰ النبي أن يختاره عليها، وهي أنه أطول القوم ليكون مناظراً لحال جالوت وقومه العمالقة[(١)].

- وجه اختياره من غير سبط الملوك واصطفائه من عامة الناس: أن يكون حاله متوسطًا بين القوم، فيعدل فيهم، ويكون قريبًا منهم، وتبقىٰ الشورىٰ بينهم، ولو كان الملك من سادتهم، لطغىٰ عليهم واستعبدهم، واستبد بالأمر دونهم، وأن يكون من أقرب الناس للخير، ولو كان من علية القوم لكان في الغالب بعيداً عن الخير لارتباط العلو بالاستعلاء.

- وجه اعتراضهم عليه بقولهم ﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾: وجه اعتراضهم أنهم نظروا إلىٰ اعتباراتهم وعاداتهم، وهي أنه ليس من أهل الملك عندهم؛ وذلك أن الملك في سبط من أسباطهم[(٢)]؛ ولأنه فقير ليس من أغنيائهم، ورجل من عامتهم لا من سادتهم، ولم ينظروا إلىٰ أن الله هو الذي اصطفاه عليهم كما قال نبيهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ﴾[(٣)].

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾: تقرير لأهليته للملك، رداً لطعنهم في استحقاقه للملك.

- وجه تخصيص العلم والجسم، وكونهما أنسب مما زعموه: أن العلم والقوة من باب الكمالات الحقيقية، والجاه والمال ليسا كذلك، وأن العلم والقوة متعلقان بذات الإنسان لا يمكن سلبهما منه، والجاه والمال أمران منفصلان عن ذات الإنسان، ويمكن سلبهما منه، وأن العالم بأمر الحرب، القوي

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (٢/ ٤٨٩).

(٢) انظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٣٣٢).

(٣) «البحر المحيط» (٢/ ٥٧٤).

علىٰ المحاربة أعظم انتفاعـًا في حفظ مصلحة الأمة ودفع شر الأعداء، من الرجل النسيب الغني لمجرد نسبه وعلمه [1]، وأن البسطة في العلم هي قوة الباطن، والبسطة في الجسم هي قوة الظاهر، فاكتمل له القوتان[2].

- وجه ختام الآية بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾: أن وصفه بالواسع للدلالة علىٰ أنه تعالىٰ واسع الفضل والعطاء، يوسع علىٰ الفقير ويغنيه من فضله[3]، ووصفه بالعليم للدلالة علىٰ أنه تعالىٰ عليم بوجوه الاختيار، ومن يستحق الملك، فلا اعتراض عليه، وهو أحكم الحاكمين[4].

- ينبغي اختيار الألفاظ التي يكون بها إقناع المخاطَب، وتسليمه للأمر الواقع؛ لقول نبيهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ﴾.

- أنَّ المجيبَ يختار ما يكون به الإقناع بادئًا بالأهمِّ فالأهم؛ لقول نبيِّهم في جوابه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ ...﴾ إلخ؛ فبدأ بذكر ما لا جدالَ فيه -وهو اصطفاء الله عليهم- ثم ذكر بقيَّة المؤهلات: وهي أنَّ الله زاده بَسطةً في العِلم، وتدبير الأمَّة، والحروب، وغير ذلك، وأنَّ الله زاده بَسطةً في الجسم: ويشمل القوة، والطول... وأنَّ الله عزَّ وجلَّ هو الذي يُؤتِي مُلكَه مَن يشاء، وفعله هذا لا بدَّ وأن يكون مقرونًا بالحِكمة؛ فلولا أنَّ الحِكمةَ تقتضي أن يكون طالوتُ هو الملِكَ ما أعطاه الله عزَّ وجلَّ المُلْك، وأنَّ الله واسعٌ عليم؛ فهو ذو الفضل الذي يَمدُّه إلىٰ مَن يشاء من عباده؛ فله أن يتفضَّل علىٰ مَن يشاء، وأنَّ الله أعلمُ حيث يَجعل رِسالتَه، وأعلمُ أيضًا حيث يجعل ولايتَه.

---

(١) انظر: «مفاتيح الغيب» (٦/ ١٤٨).

(٢) انظر: «الصواعق المرسلة» (٤/ ١٣٧).

(٣) انظر: «البحر المحيط» (٢/ ٥٧٦) «تفسير المنار» (٢/ ٤٨٠).

(٤) انظر: «تفسير القرآن العظيم لابن كثير» (١/ ٦٦٦).

- أنَّ الحقَّ كلَّما عُورِض وأُوردت عليه الشُّبه ازداد وضوحًا وتميَّز، وحصل به اليقين التامُّ كما جرىٰ لهؤلاء؛ لَمَّا اعترضوا علىٰ استحقاق طالوت للمُلك أُجيبوا بأجوبةٍ حصَل بها الإقناع وزوال الشُّبه والريب.

- أنَّ العلم والرأي مع القوة؛ بهما كمالُ الولايات، وبفَقْدهما أو فَقْد أحدهما نُقصانُها وضررها؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِ﴾.

- أنَّ الله قد يُعطي المُلْكَ مَن لا يترقَّبه، وذلك أنَّ طالوت لم يكُن من سلالة ملوكهم، ولم يكن يتشوَّف إلىٰ المُلك، فاختاره الله تعالىٰ له لأهليَّته لذلك.

- أنَّ تقديرَ الله عزَّ وجلَّ فوق كلِّ تصوُّر؛ لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ مع أنَّهم قدَحوا فيه من وجهين: أنَّهم أحقُّ بالمُلك منه، وأنَّه لا يَملك أموالًا كثيرة؛ فبيَّن لهم نبيُّهم أنَّ الله اصطفاه عليهم بما تقتضيه الحِكمة .

- أنَّ مُلك بني آدم ملكٌ لله؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ﴾؛ فهذا الملِك في مملكته هو في الحقيقة ما مَلَك إلَّا بإذن الله عزَّ وجلَّ؛ فالملْك لله سبحانه وتعالىٰ وحده، يُؤتيه من يشاء .

- أنَّ مُلكنا لِمَا نملكه ليس ملكًا مطلقًا نتصرف فيه كما نشاء؛ بل هو مقيَّدٌ بما أذِن الله به؛ ولهذا لا نتصرَّف فيما نملك إلَّا علىٰ حسَب ما شرَعه الله؛ فلو أراد الإنسان أن يتصرَّف في ملكه كما يشاء- يُتلِفه ويحرقه، ويعذِّبه إذا كان حيوانًا- فليس له ذلك؛ لأنَّ مُلْكَه تابعٌ لملْك الله سبحانه وتعالىٰ، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ﴾.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾

◈ غرض الآية:

تأكيد ملك طالوت بآية تدل علىٰ أن الله تعالىٰ هو الذي اختاره لهم ملكًا، توثيقًا لنفوسهم علىٰ القبول والامتثال له.

◈ معاني الآية:

- **وجه كون إتيان التابوت آية**: أنه نزل من السماء تحمله الملائكة، وهم يشاهدونه[1]؛ لأن نبيهم جعل الإتيان به آية علىٰ ملك طالوت، وكون الملائكة تحمله وهم يشاهدونه.

- **المراد بالتابوت**: صندوق فيه بقية من ألواح التوراة، ويؤيد هذا صريحًا قوله تعالىٰ: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾.

- **المراد بالسكينة**: المراد بالسكينة آية بعينها جعلها الله في التابوت، ويحتمل كونها موجودة في التابوت استقلالًا أنهم يجدون أثرها بحمله، ويحتمل أن تكون الآية ريحًا أو صوتًا يخرج من التابوت، فيسكنون به، يدل علىٰ نصرهم؛ لأن الغرض هو توثيق نفوسهم علىٰ الطمأنية لملك طالوت، وتثبيتهم علىٰ القتال معه.

- **المراد بالبقية في قوله تعالىٰ: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾**: التوارة وغيرها؛ لأنه لو لم يكن فيها سوىٰ التوارة لخصها، وأيضًا

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٢/ ٦٢٢)، «المحرر الوجيز» (١/ ٣٣٣).

فيها ماهو من آيات الله كالعصا ونحوها لقوله بعد ذلك ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

- المراد بآل موسىٰ وآل هارون: النص صريح في موسىٰ وهارون دون غيرهما، ولو كان المقصود الأنبياء لقال مما ترك أنبياؤكم، وأما التعبير بالآل؛ فلأن التابوت ورثه من بعدهما، ففيه الدلالة علىٰ أنه متوارث في آبائهم منذ موسىٰ وهارون، وفي ذلك توثيق لأمر التابوت.

البصائر والحكم

- وجه الإتيان بالتابوت: أن يكون آية علىٰ ملك طالوت، وأن الله تعالىٰ هو الذي اختاره لهم، أن يكون سببًا لسكينتهم وثباتهم في الحرب، وسببا لنصرهم.

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: دال علىٰ أن الإتيان بالتابوت علىٰ الوصف المذكور آية لهم، وهذا يؤيد أن التابوت نازل من السماء، وأن السكينة آية مستقلة فيه، وفي الآية إشعار لهم بأن هذا التابوت علامة علىٰ نصرهم في قتالهم [١].

- أنَّ الإنسان إذا ازداد إيمانًا ازداد فهمًا لكتاب الله سبحانه وتعالىٰ، وسُنَّة رسوله ﷺ؛ لأنَّ الشيء إذا عُلِّق علىٰ وصف، فإنَّه يزداد بزيادة ذلك الوصف، وينقص بنقصانه؛ فكلَّما تمَّ الإيمانُ كان انتفاعُ الإنسان بآيات الله أكثرَ، وفَهمُه لها أعظمَ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

---

(١) انظر: «البحر المحيط» (٢/ ٥٨٥).

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)﴾

◈ غرض الآية:

بيان وتفصيل اختبار طالوت للجنود لتمحيصهم وتهيئتهم وإعدادهم لملاقاة العدو، وإظهار مقام الصابرين منهم.

◈ معاني الآية:

- **المراد بالغرفة، والقراءات فيها:** المراد أن يأخذ بيده مرة واحدة تكون كافة لضرر العطش[1]؛ لأن الغرض ابتلاؤهم، وليس في الإذن بالأخذ بما يكفيه ويكفي دوابه وخدمه وما يحمله ابتلاء.

وقد ورد في الغرفة قراءتان: الأولىٰ: فتح الغين ﴿غَرفةً﴾. والثانية: ضم الغين ﴿غُرفة﴾[2].

وقراءة الفتح دالة علىٰ الفعل وهو الاغتراف مرة واحدة، وقراءة الضم دالة علىٰ القدر وهو القلة[3]، فمجموعهما دال علىٰ الغرض المقصود وهو المبالغة في النهي.

---

(١) انظر: «مفاتيح الغيب» (٦/ ١٥٤).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٢/ ٦٣٣)، «المحرر الوجيز» (١/ ٣٣٥).

(٣) انظر: «مفاتيح الغيب» (٦/ ١٥٤).

- **الذين جاوزوا النهر، وعدتهم**: لم يجاوز معه النهر إلا من لم يشرب إلا غرفة أو لم يشرب جملة، وأن من هؤلاء من ضعف ولم ينهزم، ومنهم من صبر ولم يضعف؛ لأن لغرض من الابتلاء هو تمحيص الصابر الصادق في إيمانه من غيره.

ويؤيد هذا القول صريحاً ما ثبت في الصحيح عن البراء قال: «كنا أصحاب محمد ﷺ نتحدث أن عدة أصحاب بدر علىٰ عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، ولم يجاوز معه إلا مؤمن بضعة عشر وثلاثمائة»[(١)].

- **القائلون** ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾: هم بعض المؤمنين الذين جاوزا النهر خوفاً لا ارتداداً؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾، وهذا صريح في أن هذا القول إنما هو بعد المجاوزة؛ لأن الفاء تقتضي الترتيب، ولم يجاوز معه إلا المؤمنون كما تقرر، فدل هذا علىٰ أن القائل طائفة من المؤمنين، وإنما كان قولهم ذلك خوفاً وكرهاً للقتال بعد أن رأوا جالوت وجنوده.

البصائر والحكم

- **حكمة ابتلائهم بالنهر**: أنه لما كان القتال بسبب طلبهم، كان المناسب ابتلاءهم لمعرفة صدقهم، واختبارهم في الصبر والتحمل، وأنه كان مشهوراً من بني إسرائيل أنهم يخالفون الأنبياء والملوك مع ظهور الآيات الباهرة، فأراد الله تعالىٰ إظهار علامة قبل لقاء العدو يتميز بها من يصبر علىٰ الحرب ممن لا يصبر[(٢)]، ولاختبار انقيادهم وطاعتهم، ولأنهم قوم أهل ترف، ولا يمكن لأهل الترف تحمل الشدائد.

(١) أخرجه البخاري (٤/ ١٤٥٧) ح(٣٧٤١).

(٢) «مفاتيح الغيب» (٦/ ١٥٢).

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾: المبالغة في التحذير من الشرب، والزجر عن المخالفة.

- قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾ دون ﴿يشرب منه﴾ مبالغة في النهي وسداً للذريعة من جهة أنه يشمل الذوق وإدخال الماء إلىٰ الفم دون شربه.

- وجه الاقتصار في العفو علىٰ الغرفة: أن تكون قاطعة لضرر العطش، والدلالة علىٰ صدق التحمل والصبر، وارتفاع الهمة عن الرفاهية والرغبة فيها.

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ﴾ والتعبير به دون ذكر بوصف الإيمان: بيان حال الصابرين الصادقين، وهو استشعارهم معية الله تعالىٰ واعتبار نصره وتأييده وتمكينه لعباده المؤمنين دون اعتبار القلة والكثرة، وهذا توجيه عظيم للأمة، وعبر بهذا الوصف للدلالة علىٰ قوة صبرهم ويقينهم بوعد الله تعالىٰ، ودلالة علىٰ سبب ثباتهم وهو اعتقادهم لقاء الله، ورغبتهم في الشهادة.

- وجه التعبير بالظن دون اليقين في قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ﴾ والمراد بلقاء الله: التعبير بالظن مناسب من جهة أن الظن هنا دال علىٰ عزيمتهم علىٰ الشهادة، وهو دليل صدق ثباتهم لتغليبهم جانب الموت علىٰ الحياة [1]، ولقاء الله يراد به الشهادة أو النصر والأجر للدلالة علىٰ صدقهم وثباتهم وقوة إيمانهم.

- أنَّ من الحِكمة اختبارَ الجند؛ ليظهرَ مَن هو أهلٌ للقتال، ومَن ليس بأهلٍ له، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾.

- أنَّه يجبُ علىٰ القائد أن يَمنع مَن لا يصلُح للحرب، سواء كان مُخذِّلًا، أو

(١) انظر: «مفاتيح الغيب» (٦/ ١٥٦).

مُرجِفًا، أو غير ذلك؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ﴾.

- أنَّ من حِكمة الله تعالىٰ تمييزَ الخبيث من الطيِّب، والصادق من الكاذب، والصابر من السَّاخط، وأنه لم يكن ليذرَ العباد علىٰ ما هم عليه من الاختلاط وعدم التمييز.

- أنَّ القليل من النَّاس هم الذين يصبرون عند البلوىٰ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ﴾.

- أنَّ طاعة الجنود للقائد فيما يأمر به وينهَىٰ عنه شرط في الظفر واستقامة الأمر.

- أنَّ الإيمان بالله تعالىٰ، والتَّصديق بلقائه من أعظم أسباب الصَّبر والثبات في مواقفِ الجِلاد؛ لقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ...﴾ الآية .

﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٥٠﴾

غرض الآية:

بيان حالِ القوم، حالَ مواجهة العدو، في ثباتهم والتجائهم إلىٰ الله تعالىٰ.

البصائر والحكم

- وجه دعائهم بطلبهم الصبر والثبات والنصر جميعًا، ووجه الترتيب بينها: أنه دال علىٰ كمال توجههم إلىٰ الله واعتمادهم عليه، بطلب معونته لهم في الأحوال كلها، وأما وجه الترتيب بين الأمور الثلاثة فظاهر، من جهة: أنهم طلبوا أولا إفراغ الصبر علىٰ قلوبهم عند اللقاء، وهو ملاك الأمر وسبب لما بعده،

ثم طلبوا ثانياً ثبات أقدامهم وذلك باعث علىٰ عدم الفرار والتولي، ثم طلبوا ثالثاً النصر علىٰ العدو؛ لأنه العمدة؛ إذ المقصود من المحاربة هو النصرة علىٰ الخصم، فكان الترتيب بينها مناسباً[1].

- قوله: ﴿رَبَّنَآ﴾: التوسل بوصف الربوبية المنبئة عن كمال التضرع والعبودية[2].

- قوله: ﴿أَفۡرِغۡ﴾: التعبير بالإفراغ؛ إذ الإفراغ هو تمام الإخلاء، والمعنىٰ: اصبب علينا الصبر أتم صب وأبلغه.

- قوله: ﴿عَلَيۡنَا﴾: التعبير بعلىٰ المشعر بجعل ذلك كالظرف، وجعلهم كالمظروفين للصبر.

- قوله: ﴿صَبۡرٗا﴾: تنكير صبراً المتضمن معنىٰ التأكيد والتفخيم.

- قوله: ﴿وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا﴾: الدال علىٰ طلب كمال الثبات والرسوخ، حتىٰ لا يفروا، وحتىٰ تكون ضرباتهم بالعدو موجعة[3].

- **قال الألوسي: «وفي هذا الدعاء من اللطافة وحسن الأسلوب والنكات ما لا يخفىٰ»**[4].

- **أنَّ الاتّكال علىٰ النفس سبب الفشل والخذلان،** والاستعانة بالله والصبر والالتجاء إليه سبب النصر، فالأول كما في قولهم لنبيهم ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ فكأنَّ نتيجةَ ذلك أنَّه لَمَّا كتب عليهم القتال تولوا، والثاني في قوله: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (١/ ١٣٢).
(٢) «البحر المحيط» (٢/ ٥٩٢).
(٣) انظر: «نظم الدرر» (٣/ ٤٣٦).
(٤) «روح المعاني» (١/ ٧٦٩).

رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾.

﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾

◈ غرض الآية:

بيان تحقق النصر لطالوت علىٰ جالوت وقومه، وتمكين الله لداود، وتفضيله، إشعاراً بتفضيل الله لنبيه محمد ﷺ، وإشعاراً للمؤمنين بتأييد الله لهم حال قتالهم لعدوهم، وتبشيراً لهم بتمكنهم من عدوهم.

◈ معاني الآية:

- المراد بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ﴾: لولا دفاع الله الكافرين بالمؤمنين لفسدت الأرض بقتل المؤمنين وتخريب البلاد والمساجد، وأيضا لولا أن الله يدفع بالمؤمنين عن الكافرين لهلك أهل الأرض بعقوبة الله إياهم، ففسدت بذلك الأرض؛ لأن غرض الآية الحض علىٰ القتال، وإقامة الدين، وبيان فضل المؤمنين وأثرهم في ذلك، ويؤيد ذلك: ورود قراءتين في الجملة، الأولىٰ قوله ﴿دفاع﴾ بالألف، والثانية ﴿دفع﴾ بغير الألف [1]. والأولىٰ دالة علىٰ المعنىٰ الأول؛ لأنها من المدافعة، والثانية دالة علىٰ المعنىٰ الثاني؛ لأنها من الدفع.

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٢/ ٦٤٧)، «البحر المحيط» (٢/ ٥٩٤).

البصائر والحكم

- **غرض قوله تعالى:** ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾: الدلالة على كمال ملك بني إسرائيل بعد قتالهم لجالوت، وتمكن دولتهم.

- **المراد بالملك والحكمة، ووجه تخصيصهما:** المراد بالملك هو السلطان، والحكمة هي النبوة[1]، وتخصيصهما فيه إشارة إلى أن داود أوتي ملك طالوت ونبوة شمعون بعد ذلك، ويؤيده أنه أخر قوله تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ وكان حقها التقدم على قوله تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ لأن الهزيمة مترتبة على قتل جالوت، وإنما قدم الجملة الأولى للإخبار عن هزيمتهم، وأخر الجملة الثانية للإخبار عن ملك داود، فدل ذلك على أن الإيتاء بعد الهزيمة؛ لأنه لابد من غرض في تأخرها.

- **وجه قوله تعالى:** ﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾: تحريض المؤمنين، وتهيئتهم للقتال، وتبشيرهم بالنصر على عدوهم، وكمال ملكهم، والجملة تتضمن أصلاً عظيماً من أصول الحرب، وسبباً من أسباب النصر والتمكن من العدو، وهو العلم بأدوات الحرب ووسائله وآلاته وطرقه، كما يؤيده ذكر تعليم داود بعد الإخبار عن قتل داود لجالوت، مما يدل على أن من أسباب قتله تعليم الله له، ومما علمه الله إياه آلات الحرب.

- **وجه الإخبار بإتيان داود الأمور الثلاثة بعد قتله لجالوت، ووجه تخصيصها:** الدلالة على فضيلة الأمور الثلاثة، وأن اجتماعها سبب لاستتباب أمر العالم، وتحقق النصر والتمكين، والعلو والرفعة، والدلالة على أن سبيل تحقيق الأمور

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٢/ ٦٤٥).

الثلاثة يكون بالجهاد، والوعد والتبشير والتعريض بالنصر علىٰ الكفار في بدر، وقتل صناديدهم، وذلك لتحقق تلك الأوصاف في محمد ﷺ، فقد آتاه الله الملك بالخلافة، والحكمة بالنبوة، والعلم بالكتاب والسنة، والدلالة علىٰ تحقق الأمور الثلاثة للأمة في مستقبلها؛ لأن الآية واردة في مخاطبة المؤمنين توجيهاً ووعداً.

- غرض قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾: بيان مصالح الجهاد وأثره في كونه سبباً لدفع الفساد والمفسدين في الأرض، وفي ذلك تحريض للمؤمنين علىٰ دفع فساد المشركين بقتالهم.

- أنَّ الأنبياء عليهم الصَّلاة والسلام ليس عندهم من العلم إلَّا ما علَّمهم الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾؛ فالنبيُّ نفسه لا يعلم الغيب، ولا يعلم الشرع إلَّا ما آتاه الله سبحانه وتعالىٰ؛ ومثل ذلك قول الله تعالىٰ لنبيِّه محمَّد ﷺ: ﴿وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ النساء: ١١٣.

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٥٢﴾

◈ غرض الآية:

الدلالة علىٰ صدق نبوة محمد ﷺ بالإخبار بهذه القصص والحوادث عن بني إسرائيل التي لا يعلمها إلا القليل من علماء بني إسرائيل، والدعوة إلىٰ الاعتبار بهذه الآيات والقصص، وتربية النفوس وتهيئتها للجهاد.

البصائر والحكم

- وجه ختم القصة بهذه الآية: وراثة النبي ﷺ لملك بني إسرائيل ونبوتهم، ووراثته ﷺ للفضل والمرتبة العالية علىٰ الأنبياء، وإشعار الأمة أنها الأمة الحق،

وأن الله تعالىٰ فضلها علىٰ العالمين، وأنها سترث ملك بني إسرائيل.

- ختم الآية بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: الدلالة علىٰ صدق نبوته ﷺ، وتسليته فيما يواجهه من مخالفة أهل الكتاب والمنافقين، وتأنيسه وتطمينه بأن الله ناصره كما نصر المرسلين.

﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾

◈ غرض الآية:

تسلية النبي ﷺ وتثبيته بتفضيله علىٰ الأنبياء، وإشعاره باختلاف أهل الكتاب عليه بعد ذلك، وتهيئة نفوس المؤمنين للقتال وتربيتهم وإعدادهم.

◈ معاني الآية:

- المراد بالرسل في الآية: المراد جميع الرسل؛ لأن الغرض بيان فضله ﷺ وتفضيله علىٰ الأنبياء تسلية له.

- المراد بقوله تعالىٰ: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾: هو محمد ﷺ؛ لأن غرض الآيات كما تبين بيان تفضيله تأنيسًا وتثبيتًا له.

- المراد بروح القدس: هو جبريل عليه السلام؛ لأنه قال: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾، والتأييد ظاهر في تأييده بجبريل أكثر من غيره.

- المراد بقوله تعالىٰ: ﴿ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم﴾: أي: اقتتال كل أمة فيما

بينهم، وأيضًا اقتتالهم بعد اختلافهم؛ لأن الغرض من الآية يتضمن تسلية النبي ﷺ في اختلاف قومه عليه، كما اختلف الناس علىٰ الأنبياء قبله.

البصائر والحكم

- وجه التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ﴾: بيان التفاضل بين الأنبياء، والتعبير بـ﴿تِلْكَ﴾ دون ﴿أولئك﴾ أو ﴿كذلك﴾ للدلالة علىٰ أن النبي ﷺ هو المقصود بالخطاب أصلاً.

- الاستئناف في الآية دال علىٰ الانتقال إلىٰ غرض مقصود بذاته، وهو الإشارة إلىٰ درجة فضله وعلو مكانته، تسلية له وتثبيتاً وتقوية ليقينه وللمؤمنين معه.

- المراد بقوله تعالىٰ: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ ووجه تخصيصه، ووجه عدم التصريح به: المقصود بمن كلمه الله موسىٰ، والغرض من تخصيصه الدلالة علىٰ أن موسىٰ ممن فضل بالتكليم إشعاراً لليهود، وعدم التصريح به لغرض مقصود وهو الإشعار بدخوله ﷺ في الوصف للدلالة علىٰ فضله؛ لأن الغرض كله في بيان تفضيله ﷺ[1].

- وجه عدم التصريح بالنبي ﷺ في قوله تعالىٰ: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ ووجه توسيط الجملة بين ذكر موسىٰ وعيسىٰ: أن التصريح به، سبب لغيظ أهل الكتاب من اليهود والنصارىٰ وحسدهم ومخالفتهم له وكفرهم به، وأن هذا الإبهام فيه تفخيم لفضله وإعلاء لقدره، لما فيه من الشهادة علىٰ أنه العَلَمُ الذي لا يشتبه، والمتميز الذي لا يلتبس[2]، وأنه هو المبلغ ﷺ فكان التعريض به دفعاً لتزكية نفسه، والعرب تعبر عن النفس بالبعض[3]، وتوسيطه بين ذكر موسىٰ وعيسىٰ مناسب من

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (١/ ١٣٣)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٦٧٠).

(٢) انظر: «الكشاف» (١/ ٢٩٧)، «أنوار التنزيل» (١/ ١٣٣).

(٣) انظر: «التحرير والتنوير» (٣/ ٧).

جهة أن في توسيطه إشارة إلىٰ تفضيله أولاً، وكون شريعته وكذا أمته وسطاً[1].

- **وجه تخصيص ذكر موسىٰ وعيسىٰ في الآية:** لأن أمتهما حاضرتان في زمن الخطاب، فخصهما تنبيهاً علىٰ الطعن في قومهما في تكذيبهم ومخالفتهم.

- **تخصيص إيتاء عيسىٰ بالبينات، ووجه نسبته إلىٰ أمه:** أن في ذلك تقبيحاً لليهود حين أنكروا نبوته مع ما ظهر علىٰ يديه من الآيات الواضحة[2]، وإشعار النبي ﷺ بتكذيب اليهود له ومخالفته، ولو كان أفضل الرسل، وأوتي أعظم البينات، ونسبة عيسىٰ إلىٰ أمه واردة في كثير من مواضع ذكرت في القرآن، والسر في ذلك -والله أعلم هو إبطال زعم النصارىٰ في ألوهيته.

- **غرض قوله تعالىٰ:** ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾: بيان أن الاختلاف علىٰ الأنبياء مع فضلهم وكمال بيانهم وآياتهم، سنة أرادها الله لبقاء التدافع والجهاد في سبيله، تأنيساً للنبي ﷺ وتسلية له.

- **غرض قوله تعالىٰ:** ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟﴾: بيان سبب الاقتتال، وسبب الإيمان والكفر، وهو سنة الاختلاف.

- **غرض قوله تعالىٰ:** ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ **ووجه تكرارها:** تأكيد تعلق مشيئة الله في الأمور كلها، بعد تخصيص الاقتتال تأكيدا وتثبيتاً ومبالغة في تسلية النبي ﷺ.

- **أنَّ فضلَ الله يُؤتيه مَن يشاء،** حتىٰ خواصَّ عباده يُفضِّل بعضَهم علىٰ بعض؛ لأنَّ الرُّسل هم أعلىٰ أصناف بني آدَم، ومع ذلك يقَع التفاضلُ بينهم بتفضيل الله

(١) انظر: «تفسير المنار» (٣/ ٥).

(٢) انظر: «البحر المحيط» (٢/ ٦٠٢).

تعالىٰ، كما قال سبحانه: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ .

– أنَّ كلام الله للإنسان يُعَدُّ رِفْعةً له؛ لأنَّ الله تعالىٰ ساق قولَه: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ علىٰ سبيلِ الثَّناء والمدح .

– أنَّ الفضائل مَراتِبُ ودرجاتٌ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾، وهذا يشمل الدَّرجاتِ الحسيَّة، والدَّرجاتِ المعنويَّة .

– قوله تعالىٰ: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾: إنَّما وصف عيسىٰ بهذين– مع أنَّ سائر الرُّسل أُيِّدوا بالبيِّنات وبرُوح القُدُس–؛ للردِّ علىٰ اليهود الذين أنكَروا رسالتَه ومُعجِزاتِه، وللردِّ علىٰ النَّصارىٰ الذين غَلَوا فزَعموا أُلوهيَّتَه، ولأجْل هذا ذُكِر معه اسمُ أُمِّه– مهما ذُكِر–؛ للتَّنبيه علىٰ أنَّ ابن الإنسان لا يكون إلهًا.

–الردُّ علىٰ النَّصارىٰ في زعْمهم أنَّ عيسىٰ إلهٌ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾: أي: قوَّيناه، ولازِمُ ذلك أنَّه يحتاج إلىٰ تقوية، والذي يَحتاج إلىٰ تقوية لا يَصلُح أنْ يكون ربًّا وإلهًا.

– أنَّ البَشَر مهما بلَغوا من قوَّة، فهُم في حاجة إلىٰ مَن يؤيِّدهم ويُقوِّيهم؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾

◈ غرض الآية:

هذه الآية تمثل انتقالاً مباشراً في سياق التحريض علىٰ القتال، وهو الأمر بالإعداد المادي والمعنوي، وبناء القوة المادية والإيمانية.

◈ معاني الآية:

- المراد بالنفقة في الآية: أنها في التأكيد والتحريض علىٰ الإنفاق، إعداداً للجهاد؛ لأن غرض الآية ظاهر في كونها تحريضاً علىٰ النفقة في الجهاد.

- المراد بالبيع: أي: حقيقة البيع؛ لأن الآية في الندب علىٰ النفقة، وهز النفوس لها، ويؤكده التعبير بالبيع دون الفدية، فبين أن يوم القيامة لا بيع فيه.

- المراد بالخلة والشفاعة: المعنىٰ عام، والمقصود بها المبالغة والتأكيد علىٰ الأمر بالنفقة؛ لأن الغرض هو هز النفوس وحضها علىٰ النفقة؛ ولا شك أن الإخبار بتجرد الإنسان من جميع سبل الانتفاع والنصرة الدنيوية المعتادة، أبلغ في الأمر والحض علىٰ النفقة.

البصائر والحكم

- وجه تعميم النفقة دون تخصيصها في الجهاد: أن الأمر وارد علىٰ سبيل التأكيد والمبالغة والتحريض، وأن التعميم دال علىٰ الأمر بعموم النفقة تهيئة للقتال؛ لأن عموم النفقة فيها تهيئة للمجتمع وتقوية له، وليس المقصود الإنفاق للقتال مباشرة بل للإعداد له.

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞ﴾ وعلاقتها بالنفقة: هز النفوس للنفقة، بربط الأمر بأمر عظيم وهو يوم القيامة الذي لا ينفع فيه إلا أجر العمل ومنه النفقة، وبيان تجرد الإنسان من مقومات النجاة والنصرة إلا بالله، وذلك لربط نفوس المؤمنين بالله تعالىٰ وتقوية يقينهم بالآخرة.

- مناسبة نفي البيع: أن فيه تأكيداً علىٰ النفقة، وإزالة الشح وحب الإمساك من النفوس.

- مناسبة قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ ووجه ختام الآية بها: أن يكون تعلقها بالآية قبلها، وذلك أنه قد تقدم ذكر أصناف الناس وموقفهم من أنبيائهم؛ فحث المؤمنين علىٰ النفقة تهيئًا للقتال، وأخبر بأن الكافرين هم الظالمون، وأن يكون تعلقها بالآية نفسها، وهو أنه لما أمر بالنفقة مما رزق الله، وحض عليها بالتذكير باليوم الآخر، ذكر حال الكفار بنعمة الله الذين لا ينفقون من أموالهم ولا يؤدون زكاتهم، وحكم عليهم بأنهم الظالمون.

- في قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم ﴾ دلالةٌ علىٰ أنَّ الإنفاق من مقتضىٰ الإيمان، وأنَّ البُخْل نقْصٌ في الإيمان؛ ولهذا لا يكون المؤمن بخيلًا؛ المؤمن جَوَادٌ بِعلمه، جَوَاد بجاهه، جواد بماله، جواد ببَدَنه .

- في قول الله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم ﴾ إشارةٌ إلىٰ أنَّه لا مِنَّةَ للعبد علىٰ الله ممَّا أنفقه في سبيله؛ لأنَّ ما أنفقه من رِزْق الله له .

- التَّنبيه علىٰ أنَّ الإنسان لا يُحصِّل الرِّزقَ بمجرَّد كسْبه؛ الكسبُ سببٌ، لكنَّ المسبِّب هو الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾؛ فلا ينبغي أن يُعجَب الإنسانُ بنفسه حتىٰ يجعل ما اكتَسبه من رِزقٍ مِن كسْبه وعمَله، كما في قول القائل: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ القصص: ٧٨.

- أنَّ الكافرين لا تَنفعهم الشفاعةُ؛ لأنَّه تعالىٰ أَعقَب قولَه: ﴿وَلَا شَفَٰعَةٌ ﴾ بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾، ويؤيِّد ذلك قولُه تعالىٰ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ المدثر: ٤٨.

- قوله: ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾: انتفاءُ البيع والخُلَّة والشَّفاعة فيه كِنايةٌ عن تَعذُّر التَّدارك للفائت؛ لأنَّ المرء يُحصِّل ما يَعوزه بطُرُق، هي المعاوضَة المعبَّر عنها بالبيع، والارتفاق من الغير، وذلك بسببِ الخُلَّة، أو بسبب توسُّط الواسطة إلىٰ مَن ليس بخليل، وهي الشَّفاعة .

- **أنَّ الكُفْرَ أعظمُ الظُّلم**؛ ووجه الدَّلالة منه: حَصْر الظُّلم في الكافرين؛ وطريق الحَصْر هنا ضمير الفصل: ﴿هُمُ﴾ ، ودخول ﴿أل﴾ علىٰ الخبر ﴿ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾، مما يشعر أنَّهم حصَّلوا الوصف الكامل من الظلم.

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا
خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ
قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ
ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ
ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ
هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ
ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ
قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ
فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ
قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ
ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل
لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ
حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ
نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ
شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ
تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ
إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ
ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٦٠﴾ ﴾ (البقرة: ٢٥٥ – ٢٦٠)

سياق هذه الآيات وارد في بناء وترسيخ اليقين بالله تعالى والاعتماد عليه، إعداداً وتهيئة للمؤمنين لحمل الأمانة العظمى أمانة الدين، وإقامته بالجهاد والدعوة، فهي بإجمال تمثل (العدة الإيمانية للمؤمنين في سبيل إقامة الدين بالجهاد والدعوة).

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾ البقرة: ٢٥٥

◈ غرض الآية:

تقرير التوحيد وبيان عظمة الخالق وكمال وصفه تعالى، إعداداً وعدة للمؤمنين، وحجة وبرهاناً على الكافرين.

◈ معاني الآية:

- المراد بالسنة: بدء النعاس؛ لأن الغرض إثبات كماله وكمال قيوميته، ولا شك أن نفي أدق الآفات أولى.

- المراد بقوله تعالى: ﴿مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾: المقصود بيان إحاطة علمه تعالى بجميع أحوال السموات والأرض وما فيهما من المخلوقات؛ ولهذا خص الحالين لأنهما دالان على ذلك من جميع الوجوه؛ لأن سياق الآيات كلها دال على كمال صفاته ووحدانيته وتفرده، فعموم اللفظ أكمل في المعنى.

- المراد بالكرسي: مخلوق عظيم بين يدي العرش، والعرش أعظم منه؛ لأن الغرض من الآيات بيان عظمة قدرة الله عز وجل.

- المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾: أي لا يثقله، و لا يكهله، و لا يشق عليه،

ولا يشغله شاغل عن حفظهما؛ لأن الغرض بيان عظمته تعالىٰ، ومن عظمته أن حفظ السموات والأرض لا يثقله ولا يشغله ولا يتعاظمه.

البصائر والحكم

- فضل آية الكرسي: النبي ﷺ نص علىٰ كونها أعظم آية في كتاب الله، وذلك دليل علىٰ أنها في تعظيم الله تعالىٰ، وكونها حرزاً ووقاية لصاحبها دليل علىٰ حكمة نزولها، وأنها عدة وحماية من الشرور كلها.

- وجه افتتاحها باسم الجلالة: لكون السورة مبنية علىٰ تعظيم الله تعالىٰ وإظهار كمال صفاته، وفي افتتاح الآية بهذا الاسم تربية للمهابة والتعظيم لله في النفوس.

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: إخبار منه تعالىٰ بأنه المتفرد بالألوهية لجميع الخلائق.

- المراد بالحي القيوم، ووجه تخصيصهما: الحي صفة دالة علىٰ كمال حياته تعالىٰ ودوامها فهو الحي الذي لا يموت[(١)]، والقيوم بمعنىٰ القائم بجميع الموجودات، وتخصيصهما من جهة أنهما دالان علىٰ كماله تعالىٰ بنفسه، وكمال قيامه بشؤون الخلق وحاجاتهم، وذلك باعث علىٰ كمال تعظيمه تعالىٰ ولزوم كمال الاعتماد عليه وحده.

- وجه كونهما الاسم الأعظم الذي إذا دعي به تعالىٰ أجاب: أن الاسمين متضمنان لكماله المطلق في ذاته وصفاته، وأنهما دالان علىٰ كمال استغنائه تعالىٰ عن الخلق بحياته الكاملة، وكمال حاجة الخلق إليه، وأن هذين الاسمين دالان

(١) انظر: «جامع البيان» (٣/ ٧).

علىٰ جميع العلم الإلهي؛ ولذلك كان الدعاء بهما مستجاباً؛ لأن العالم بكل شيء هو القادر علىٰ الاستجابة بعلمه وقدرته[1].

- المراد بقوله تعالىٰ: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾: الجملة واردة في تنزيه الله تعالىٰ عن صفات النقص، تقريراً وتأكيداً لكمال حياته وقيوميته.

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: الجملة في إثبات كمال ملكه وتصرفه تعالىٰ، ولذلك أتىٰ بالاسم الموصول المفيد للعموم، وكرره[2].

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾: الجملة تقرير لكمال ملكه ببيان كمال خضوع الخلق كلهم له، وعدم تصرفهم إلا بإذنه.

- وجه تخصيص الشفاعة: دال علىٰ كمال نفي عموم التصرف والنفع والضر، فضلاً عن نفي المعاندة أو المناصبة له تعالىٰ[3]، ودال علىٰ تفرده بالملك ولزوم الاعتماد عليه واللجوء إليه.

- التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى﴾: فيه رد وإبطال وتقبيح وتعظيم لما زعمه المشركون وأهل الكتاب من شفاعة أوليائهم وشركائهم عنده؛ وذلك لأن الاستفهام دال علىٰ النفي والتقريع والتوبيخ لمن يزعم أن أحداً يقدر علىٰ ذلك بغير إذنه[4].

- وجه حصر الشفاعة بإذنه تعالىٰ دون تحديد الشفعاء: أن الغرض بيان كمال تفرده بالملك والتصرف، وفيه بعث للنفوس إلىٰ السعي لتحقيق سبب نيل

---

(١) «مفاتيح الغيب» (٧/ ٦).

(٢) انظر: «البحر المحيط» (٢/ ٦١٠).

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (١/ ١٣٥).

(٤) انظر: «مفاتيح الغيب» (٧/ ١٠).«فتح القدير للشوكاني» (١/ ٤١١).

الشفاعة عنده، وهو تحقيق توحيده والإخلاص له تعالىٰ، وقطع لأمل الزاعمين الشفاعة لأنفسهم بآلهتهم أو زعمهم القربىٰ من الله من المشركين وأهل الكتاب.

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: الجملة دالة علىٰ كمال علمه تعالىٰ بجميع المخلوقات، وذلك دليل علىٰ كمال عظمته.

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾: الجملة تقرير لكمال تفرده بالعلم، وتجرد المخلوقات من علمه إلا بمشيئته؛ وذلك دليل علىٰ كمال عظمته الباعثة علىٰ تعظيمه.

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾: الجملة دالة علىٰ عظمة الله تعالىٰ ومقامه وجلاله، وهي تقرير لما سبق من كمال ألوهيته، وحياته، وقيوميته، وملكه، وعلمه.

- وجه تخصيص الكرسي: أنه لما كان الغرض من الآية تعظيم الله تعالىٰ وصفاته، جاء بأدنىٰ ما يدل علىٰ عظمته وقدره في ذاته تعالىٰ من المخلوقات العظيمة التي تحوي السموات والأرض، وهو كرسيه تعالىٰ، وفيه دلالة علىٰ كمال عظمته، وكمال ملكه تعالىٰ وعلمه وقدرته، من جهة أن الكرسي قد وسع السموات والأرض.

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾: الجملة بيان لكمال قدرته في حفظ السموات والأرض، ومن فيهما، مع كمال عنايته بهما.

- وجه ختام الآية بقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾: للدلالة علىٰ حيازته المرتبة العليا، والقدر الأكمل والوصف الأتم في العلو والعظمة في الذات والصفات والأفعال جل في علاه.

- وجه كون آية الكرسي أعظم آية في القرآن: عظم غرضها، فقد جاءت في تعظيم الرب تعالىٰ وتمجيده، وتضمنها لأعظم صفات الله تعالىٰ، وهو التوحيد

والتعظيم، وأنها اشتملت علىٰ بيان مقام الله تعالىٰ وقدره الأعلىٰ والأعظم، بكون كرسيه الذي هو موضع القدمين له تعالىٰ قد وسع السموات والأرض، فكيف بذاته عز وجل !؟

- قوله سبحانه: ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾: اسمان كريمان يَدُلَّانِ علىٰ سائر الأسماء الحسنىٰ دَلالةَ مطابقةٍ وتضمُّنٍ ولُزومٍ؛ فالحيُّ: مَن له الحياة الكاملة المُستلزمة لجميع صِفات الذَّات، كالسَّمع والبَصر والعِلم والقُدرة، ونحو ذلك، والقيُّوم: هو الذي قام بنَفْسِه وقام به غيرُه، وذلك مستلزمٌ لجميع الأفعال التي اتَّصف بها ربُّ العالَمين مِن فِعله ما يشاء، من الاستواءِ والنُّزول والكلام والقَول والخَلْق والرِّزْق والإماتة والإحياء، وسائرِ أنواع التَّدبير، كلُّ ذلك داخلٌ في قيوميَّة الباري عزَّ وجلَّ .

- في قوله تعالىٰ: ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ﴾ لم ينفِ الله سبحانه ذكر النوم وحده؛ لئلَّا يُتوهَّم أنَّ السِّنَةَ يجوزُ أن تَطْرُقَه، فيُزيل تمكُّنها بنحو ما يَفعَلُ البَشرُ، من نحو مشيٍ، وضربٍ للوجه بماءٍ وغير ذلك، ولم يَذْكُر السِّنة وحدها؛ لأنَّ النوم ربما يهجم بقوة، دفعة واحدة، من غير تدرُّجِ فتورٍ .

- قُدِّمَت السِّنة علىٰ النوم، قيل: مراعاةً للترتيب الوجودي، فلتقدُّمها علىٰ النوم في الخارج؛ قُدِّمَت عليه في اللفظ، وقيل: لأجل التعبير بالأخذ الذي معناه القهر والغلبة قُدِّمت السِّنة، كما لو قيل: فلانٌ لا يغلبه أميرٌ ولا سلطان .

- تسلية الإنسان علىٰ المصائِب، ورِضاه بقضاء الله عزَّ وجلَّ وقَدَرِه؛ لأنَّه متىٰ عَلِم أنَّ المُلْك لله وحده، رضي بقضائه؛ كما في قوله: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ .

- احتجَّ بعضُ أهل العلم بقوله تعالىٰ: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ علىٰ أنَّ أفعال العباد مخلوقةٌ لله تعالىٰ؛ لأنَّ قوله سبحانه: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ

﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يتناول كلَّ ما في السموات والأرض، وأفعالُ العِباد من جُملة ما في السَّموات والأرض، فوجب أن تكون مُنتسبةً إلىٰ الله تعالىٰ .

- أنَّ الحُكْم الشَّرعي بين النَّاس، والفصل بينهم، يجب أنْ يكون مُستنِدًا علىٰ حُكْم الله تعالىٰ، وأنَّ اعتماد الإنسان علىٰ حُكْم المخلوقين، والقوانين الوضعيَّة نوعٌ من الإشراك بالله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ المُلْك لله عزَّ وجلَّ؛ كما في قوله: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ .

- إثبات الإذن -وهو الأمر-؛ لقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾، وذلك الإذن يتعلَّق بالشَّافع والمشفوع فيه، وبوقت الشَّفاعة؛ فليس يَشفعُ إلَّا مَن أذِن الله له في الشَّفاعة، وليس له أن يَشفعَ إلَّا بعد أنْ يأذنَ الله له، وليس له أنْ يَشفعَ إلَّا فيمَن أذِن الله تعالىٰ له أن يَشفعَ فيه؛ قال تعالىٰ: ﴿وكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ الله لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ النجم: ٢٦، وقال أيضًا: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ الأنبياء: ٢٨، وقال﴾: مَا مِنْ شَفِيعٍ إلا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ يونس: ٣.

- في قوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ إثباتُ الشفاعة، والردُّ علىٰ الخوارج والمعتزلة؛ فهم ينكرون الشفاعة في أهل الكبائر؛ لأنَّ مذهبَهما أنَّ فاعل الكبيرة مُخلَّدٌ في النار لا تَنفع فيه شفاعةٌ .

- في قوله تعالىٰ: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: ردٌّ علىٰ القدرية الغلاة؛ فإثبات عموم العِلم يردُّ عليهم؛ لأنَّهم أنكروا عِلمَ الله تعالىٰ بأفعال خَلْقه قَبلَ وقوعِها .

- أنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يُحاط به عِلْمًا، كما لا يُحاط به سمعًا ولا بصرًا؛ قال تعالىٰ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ الأنعام: ١٠٣، وقال تعالىٰ:

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ﴾.

- عظمة خالِق الكُرْسيِّ؛ لأنَّ عِظَمَ المخلوق يَدُلُّ علىٰ عظمة الخالق .

- إثبات ما تتضمَّنه هذه الجُملة: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾، وهي العِلْم، والقدرة، والحياة، والرحمة، والحِكمة، والقوَّة .

- أنَّ السَّمواتِ والأرضَ تحتاج إلىٰ حِفْظ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾، ولولا حِفْظ الله لفَسَدتا؛ لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

- في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ أي: السَّموات والأرض، لم يتعرَّض لذِكر ما فيهما؛ لأنَّ حفظهما مستتبعٌ لحفظه، وخصَّهما بالذِّكر دون الكرسيِّ؛ قيل: لأنَّ حِفظهما أمرٌ مشاهدٌ محسوس .

- في قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ ردٌّ علىٰ الحُلوليَّة، وعلىٰ المعطِّلة النُّفاة؛ فالحُلوليَّة قالوا: إنَّه ليس بعالٍ؛ بل هو في كلِّ مكان، والمعطِّلة النُّفاة قالوا: لا يُوصَف بعُلوٍّ ولا سُفْل، ولا يمين ولا شِمال، ولا اتِّصال ولا انفِصال .

- التَّحذير من الطُّغيان علىٰ الآخرين؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾؛ ولهذا قال الله في سورة النِّساء: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ النساء: ٣٤؛ فإذا كنتَ مُتعاليًا في نفسك فاذكُر عُلُوَّ الله عزَّ وجلَّ؛ وإذا كنتَ عظيمًا في نفسك فاذكُر عظمةَ الله، وإذا كنتَ كبيرًا في نفسك فاذكُر كبرياءَ الله .

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾

◈ غرض الآية:

بيان منهج الإسلام في تشريع الجهاد والدعوة لإقامة الدين، وبيان كمال الدين، بكمال براهينه ودلائله، ووضوح آياته بما لا يحتاج إلىٰ الإكراه عليه.

◈ معاني الآية:

- **الجمع بين هذه الآية وبين الأمر بالقتال:** الآية عامة في جميع الكفار، وأنها نازلة لمنع الإكراه علىٰ الدخول في الدين لجميع الكفار بعد تبينه وبعد الأمر بالقتال؛ لأن غرض الآية بيان كمال الإسلام بعدم الإكراه في الدخول في الدين مع أنه الحق.

- **المراد بالدين في الآية:** العقيدة؛ لأن الآية واردة بعد آية الكرسي المتضمنة لدلائل التوحيد.

- **المراد بالطاغوت:** العموم، فيدخل فيه كل من عبد من دون الله تعالىٰ؛ لأن الغرض هو الإغراء بالكفر بكل ما عبد من دون الله والإيمان بالله.

- **المراد بالعروة الوثقىٰ:** المقصود دلائل التوحيد والتعظيم لله تعالىٰ الموجبة لكمال الاعتماد عليه مما تضمنته آية الكرسي، ويؤيده قوله تعالىٰ: ﴿بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾.

البصائر والحكم

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾: التصريح بظهور الحجة والبرهان علىٰ كمال بيان الدين.

- وجه التعبير بالرشد والغي: للدلالة علىٰ سبب الإيمان والكفر، فسبب الإيمان هو الرشد الذي هو سداد الرأي، وسبب الكفر هو الغي الذي هو الجهل والسفه.

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾: الجملة فيها إغراء ودعوة للكفر بالطاغوت، والإيمان بالله بعد الإغراء بالتصبر في الأدلة والتحذير من الاستكبار عنها.

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾: الدلالة علىٰ أثر الإيمان والتمسك بوثاق التوحيد الذي تضمنته آية الكرسي، وهو إشعار بضمان الأمن والسلامة والنجاة في الدارين.

- وجه التعبير والتشبيه بالعروة الوثقىٰ: مبالغة من الثقة بشدة ضمانها، ثم بيّن وثاقتها بأنها ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾، أي: لانقطاع لها، ولا انكسار لها، ولا انحلال لها أصلاً[1].

- وجه ختم الآية بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: أنه لما كان الكفر بالطاغوت والإيمان بالله مما ينطق به اللسان، ويعتقده الجنان، حسن في الصفات ﴿سَمِيعٌ﴾ للدلالة علىٰ النطق، و﴿عَلِيمٌ﴾ للدلالة علىٰ المعتقد[2]، وفيه تعريض بالوعد والوعيد.

---

(١) انظر: «البحر المحيط» (٢/ ٦١٧)، «نظم الدرر» (٣/ ٤٣)، «التحرير والتنوير» (٢/ ٢٩).

(٢) انظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٣٤٤).

- **أفاد قوله تعالىٰ:** ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ أنَّه ليس هناك إلَّا رُشْدٌ أو غيٌّ؛ لأنَّه لو كان هناك ثالث لذُكِر؛ لأنَّ المقام مقام حَصْر، ويَدُلُّ علىٰ هذا قولُه تعالىٰ: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ يونس: ٣٢، وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ سبأ: ٢٤.

- **أنَّ كلَّ ما عُبِد من دون الله فهو طاغوت؛** لقوله تعالىٰ: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ﴾، ووَجْه هذا: أنَّه سبحانه وتعالىٰ جعل الكُفْر بالطَّاغوت قسيمًا للإيمان بالله، وقسيم الشِّيء غيرُ الشيء، بل هو مُنفصِل عنه .

- **أنَّه لا يتِمُّ الإخلاص لله إلَّا بنفي جميع الشِّرك؛** لقوله تعالىٰ: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾، فمَن آمَن بالله، ولم يَكفُرْ بالطاغوت، فليس بمؤمن.

- **أنَّه لا نَجاةَ إلَّا بالكُفرِ بالطَّاغوت والإيمانِ بالله؛** لقوله تعالىٰ: ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ .

- **أنَّ الأعمالَ تتفاضَل؛** يؤخَذ ذلك مِن اسم التَّفضيل: ﴿ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ ؛ لأنَّ التَّفضيل يقتضي مُفضَّلًا، ومُفضَّلًا عليه؛ ولا شكَّ أنَّ الأعمال تتفاضل بنصِّ القرآن والسُّنة.

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥٧﴾

◈ غرض الآية:

ختم الحديث عن الإيمان والكفر ببيان أثرهما في الولاية والعاقبة.

البصائر والحكم

- **وجه افتتاح الآية باسم الجلالة:** أنه لما افتتح آية الكرسي باسم الجلالة تعظيماً له وإظهاراً لشأنه تعالىٰ، افتتح هذه الآية به كذلك إظهاراً لأثر الإيمان به وهو كمال قدرته وملكه وعلمه في ولاية المؤمنين.

- **وجه مخالفة الجملتين في التعبير بتصدير الولي في الأولىٰ، وتأخيره في الثانية:** أن في الأولىٰ بياناً بأن الولي وحده تعالىٰ، وإثباتاً لولايته وتحقيقاً لها، وفي الثانية بيان بعدم حصول ولاية الطاغوت حقيقة، وأن تصدير الولي في الجملة الأولىٰ زيادة في كمال الرعاية والتأنيس والوعد للمؤمنين، وفي ذلك حضٌّ علىٰ الإيمان، وتأخيره في الجملة الثانية زيادة في تحقيره من أن يكون مقابلاً لله تعالىٰ.

- **المراد بقوله تعالىٰ:** ﴿يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾: أي: ظلمات الكفر والجهل واتباع الهوىٰ، ونور الفطرة والبينات والإيمان بدرجاته، والتعبير بالإخراج للإغراء في الأولىٰ، والتحذير في الثانية، وعبر بالظلمات؛ لمناسبتها لإعراضهم عن دلائل التوحيد، وعبر بالنور؛ للإشعار بنور التوحيد ودلائله.

- **وجه جمع الظلمات وإفراد النور:** توحيد النور لأن سبيله واحد، وجمع الظلمات لأن سبلها متفرقة.

- **وجه بيان جزاء الكافرين بقوله تعالىٰ:** ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ **دون بيان جزاء المؤمنين:** أن في بيان جزاء الكافرين وعيداً وتخويفاً، وأن افتتاح الآية بذكر ولاية الله لهم وتصدير اسمه وتوليه تعالىٰ ولايتهم بنفسه كاف في الإكرام وحصول الابتهاج في نفوس المؤمنين.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ
رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي
بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾

◈ غرض الآية:

تقرير دلائل التوحيد لله تعالىٰ وانفراده بالقدرة والخلق والتصرف بشواهد واقعة، وتأكيد تأييد الله تعالىٰ لأوليائه بصور وشواهد واقعية.

البصائر والحكم

- وجه افتتاح الآية بقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: أن فيه تعظيماً للأمر وتعجيباً وتفظيعاً، وأن فيه شداً للانتباه، وتأكيداً عليه، ودعوة للتبصر والتفكر في القصة لترسيخ الإيمان واليقين بالله تعالىٰ وقدرته الكاملة.

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾: الدلالة علىٰ أن الذي حمله علىٰ هذه المحاجة هو إيتاء الله الملك له، فكان منشأ إسرافه وغروره.

- وجه قول إبراهيم: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ وقول النمرود ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾، ووجه إحيائه وإماتته: الجملة الأولىٰ المقصود بها الدلالة علىٰ كمال القدرة وتفرده تعالىٰ بالإحياء والإماتة من جهة أنها دالة علىٰ الاختصاص، ويؤيده الاسم الموصول، والإتيان بالمضارع، وأما الجملة الثانية فالمقصود بها ادعاء المشاركة في ذلك وعدم اختصاص الرب تعالىٰ به، وأما زعمه الإحياء والإماتة فهو تلبيس وتمويه.

- وجه انتقال إبراهيم من الاستدلال بالحياة والموت إلىٰ الاستدلال بطلوع الشمس: للانتقال إلىٰ دليل آخر لا تمويه فيه ولا مراوغة، وتأكيد التوحيد والقدرة بدليل آخر، فكان المقصود الانتقال والاستدلال بدليل آخر علىٰ القدرة.

- المراد بقوله تعالىٰ: ﴿بُهِتَ﴾: أي انقطع وسكت وتحير، وفي ذلك إكرام من الله لنبيه إبراهيم، وإظهارلدينه[١].

- وجه ختام الآية بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: إظهار لقوة الله تعالىٰ وكمال ولايته للمؤمنين بدحض حجة الكافرين.

- في قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ﴾ دلالةٌ علىٰ أنَّ النِّعم قد تكون سببًا للطُّغيان؛ لأنَّ هذا الرجُل ما طغىٰ وأنكَر الخالقَ؛ إلَّا لأنَّ الله آتاه الملْك؛ ولهذا أحيانًا تكون الأمراضُ نعمةً من الله علىٰ العبد؛ والفقر والمصائب تكون نعمةً علىٰ العبد؛ لأنَّ الإنسان إذا دام في نعمة، وفي رَغَدٍ، وفي عيشٍ هَنِيء، فإنَّه ربَّما يَطغىٰ، وينسىٰ الله عزَّ وجلَّ.

- أنَّ المحاجَّة لإبطال الباطل، ولإحقاق الحقِّ من مقامات الرُّسل؛ لقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾.

- في قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ﴾، إشارةٌ إلىٰ أنَّه يَنبغي للإنسان أن يتعلَّم طُرُقَ المناظَرة، والمحاجَّة؛ لأنَّها سُلَّم، ووسيلة لإحقاق الحقِّ، وإبطال البَاطل.

- أنَّ مُلْك الإنسان ليس مُلْكًا ذاتيًّا من عند نفسه؛ ولكنَّه مُعطًىٰ إيَّاه؛ لقوله تعالىٰ: ﴿أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ﴾؛ وهذه الآية كقوله تعالىٰ: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾.

(١) «البحر المحيط» (٢/ ٦٣٠).

- إثبات الأفعالِ الاختياريَّة لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ .

- أنَّ الإنسانَ المُجادِل قد يُكابِر فيدَّعي ما يعلم يقينًا أنَّه لا يَملِكه؛ لقول الرجل الطاغية: ﴿قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُ﴾؛ ومعلوم أنَّ هذا إنَّما قاله في مضايقة المحاجَّة؛ والإنسان في مضايقة المحاجَّة ربَّما يَلتزِم أشياء هو نَفْسه لو رجَع إلىٰ نفسه لعَلِم أنَّها غير صحيحة، لكن ضَيق المُناظَرة أوجَب له أنْ يقول هذا؛ إنكارًا أو إثباتًا .

- أنَّ الحقَّ لا تمكن المُجادَلة فيه؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ﴾ .

- الردُّ علىٰ القَدَريَّة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ لأنَّهم يقولون: إنَّ الإنسانَ حرٌّ: يَهتدي بنفسه، ويَضِلُّ بنفسه؛ وهذه الآيةُ واضحة في أنَّ الهداية بيد الله .

- أنَّ اللهَ لا يمنع فضلَه عن أحدٍ إلَّا إذا كان هذا الممنوع هو السَّببَ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ فلظُلْمهم لم يَهدِهم اللهُ، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ الصف: ٥.

- التَّحذير من الظُّلم؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ ومن الظُّلم أنْ يَتبيَّن لكَ الحقُّ فتُجادِل لنُصْرة قولِكَ؛ لأنَّ العدل أنْ تَنصاعَ للحقِّ، وألَّا تُكابِر عند وضوحه؛ ولهذا ضَلَّ مَن ضلَّ مِنْ أهل الكلام؛ لأنَّه تَبيَّن لهم الحقُّ، ولكنْ جادَلوا؛ فبَقُوا علىٰ ما هم عليه من ضَلالٍ .

- في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: دلالةٌ علىٰ أنَّه كلَّما كان الإنسانُ أظلمَ كان عن الهداية أبعدَ؛ لأنَّ الله عزَّ وجلَّ علَّق نَفْي الهدايةِ بالظُّلم؛ وتعليق الحُكْم بالظُّلم يدلُّ علىٰ عِلِّيَّته؛ وكلما قويتِ العِلَّةُ قوي الحُكْم المُعلَّق عليها .

- أنَّ مَن أخذ بالعدل كان حَريًّا بالهِداية؛ لمفهوم المُخالفة في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٥٩﴾

◈ غرض الآية:

الاستدلال علىٰ إظهار كمال الله وقدرته، وما تبع ذلك من تقرير ولاية الله للمؤمنين، بشواهد واقعة، تأكيداً وتثبيتاً وتأييداً للمؤمنين.

◈ معاني الآية:

- سبب قول صاحب القرية ﴿أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾: أنه شك واستبعاد لقدرة الله، ولا ينافي ذلك الإيمان؛ لأنه ليس استنكاراً منه لذلك؛ لأن غرض الآية التعجيب من حاله، وإظهار قدرة الله تعالىٰ علىٰ إحياء الموتىٰ، ولو كان سؤالهم معتبراً لما أماته الله ثم أحياه، وأراه قدرته علىٰ الإحياء بعد الموت.

- المراد بقوله تعالىٰ: ﴿لَمۡ يَتَسَنَّهۡ﴾: لم يفسد، ولم تغيره السنون؛ لأنه أكمل في إظهار القدرة.

- المراد بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾: أي: انظر إليه ميتا؛ لأن الغرض إظهار قدرة الله في الإحياء، فكونه يراه ميتاً رميماً ثم يرىٰ إحياءه أولىٰ[1].

(١) «أنوار التنزيل» (١/ ١٣٧).

- المراد بالعظام في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا﴾: عظام حماره؛ لأن الغرض إظهار القدرة له، فكان في إظهار القدرة في إحياء حماره كفاية له علىٰ ظهور القدرة علىٰ الإحياء بعد الإماتة.

البصائر والحكم

- وجه إبهام المار علىٰ القرية واسم القرية: أنه لا فائدة من ذكره في الغرض المقصود؛ إذ الغرض هو التعجيب من حاله واستبعاده إحياء القرية، وإظهار قدرة الله تعالىٰ.

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡ﴾ علىٰ بيان القدرة: لغرض إثبات طول مدة موته، لتمكين الحجة في نفسه علىٰ كمال القدرة علىٰ الإحياء بعد الموت.

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ﴾ وفائدة الواو، ووجه كونه آية، ووجه مجيء الجملة قبل قوله تعالىٰ: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ﴾: الجملة واردة بغرض إظهار أمره، وهو أن يكون شأنه آية للناس في إظهار قدرة الله تعالىٰ؛ ولهذا أتىٰ بالواو ولم يقل ﴿لنجعلك﴾، وقال ﴿لِّلنَّاسِ﴾، وفيه إشعار بتوجه الخطاب للمخاطبين ليتأملوا في كيفية إحيائه فيزيدهم ذلك يقينًا، ومجيء الجملة قبل قوله تعالىٰ: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ﴾ فلأن هذه الجملة هي بمثابة التمهيد لما بعدها، بغرض تحريك نظر السامعين، وتفكرهم، ليكون ذلك باعثًا علىٰ كمال العلم واليقين بقدرة الله الذي هو غرض الآية.

- جاءت القراءة في قوله تعالىٰ: ﴿نُنشِزُهَا﴾ بضم النون مع الزاي، وبضمها مع الراء [1]، فقراءة الزاي تدل علىٰ رفع العظام وجمعها لأن النشز هو الرفع

(١) انظر: «جامع البيان» (٣/ ٤٥)، «السبعة» (ص١٨٩).

والجمع. كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا﴾ [المجادلة١١]. وقراءة الراء دالة علىٰ نفخ الروح؛ لأن النشر هو البعث والإحياء، كما قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ [عبس ٢٢].

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: الجملة واردة في سياق إقراره بعد شكه واستبعاده، وهي متضمنة كمال الإقرار بالقدرة.

- القراءات في ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: ورود قراءتين في قوله تعالىٰ: ﴿أَعْلَمُ﴾ علىٰ معنىٰ أنه إقرار منه، والثانية ﴿اعلم﴾ علىٰ معنىٰ الأمر[1] فالأولىٰ فيها ظهور القدرة من إقراره، والثاني فيها ظهور القدرة من أمره بعد إطلاعه تأكيداً وإلزاماً.

- الإشارة إلىٰ أنَّه لا يَنبغي أنْ يَهتمَّ الإنسانُ بأعيان أصحاب القِصَّة؛ إذ لو كان هذا من الأمور المهمَّة، لكان الله يُبيِّن ذلك: يقول: فلان، ويُبيِّن القرية، فالعِبْرة بالمعاني والمقاصِد دون الأشخاص .

- إطلاق القرية علىٰ المساكن؛ لقوله تعالىٰ: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾، مع أنَّه يَحتمِل أنْ يُراد بهذه الآية المساكنُ والسَّاكن؛ لأنَّ كونها خاويةً علىٰ عروشها يَدلُّ علىٰ أنَّ أهلها أيضًا مفقودون، وأنَّهم هالِكون .

- أنَّ الإنسانَ إذا استبَعَد وقوعَ الشَّيء- ولكنَّه لم يَشُكَّ في قدرة الله علىٰ هذا الذي استبعده- لا يَكفُر بهذا؛ لقول الرجل الذي مرَّ علىٰ القرية﴾: أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ .

- في قوله: ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ﴾ ثُبُوتُ كَراماتِ الأولياء؛ وهي كلُّ أَمْرٍ

(١) انظر: «جامع البيان» (٣/ ٤٧)، «السبعة» (ص١٨٩)، «التبصرة» (ص٤٤٥).

خارِقٍ للعادة يُجريه الله عزَّ وجلَّ علىٰ يدِ أحدِ أوليائه؛ تكريمًا له، وشهادةً بصِدْق الشَّريعة التي كان عليها؛ ولهذا قيل: كل كرامة لِولِيٍّ، فهي آية للنبيِّ الذي اتَّبعه.

- الردُّ علىٰ مُنكِري قيام الأفعال الاختياريَّة بالله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ .... ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾، وهذه أفعال مُتعلِّقة بمشيئته، واختياره: متىٰ شاء فعَل، ومتىٰ شاء لم يفعلْ.

- أنَّ كلام الله عزَّ وجلَّ بحروف، وأصوات مسموعة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿كَمۡ لَبِثۡتَ﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ﴾؛ فإنَّ مَقولَ القول حروف بصوت سَمِعه المُخاطَب، وأجاب عليه بقوله﴿: لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ﴾؛ ولكنَّ الصَّوتَ المسموع من كلام الله عزَّ وجلَّ ليس كصوتِ المخلوقين؛ الحروف هي الحروفُ التي يُعبِّر بها النَّاسُ؛ لكن الصَّوتَ لا؛ لأنَّ الصَّوتَ صِفةُ الربِّ عزَّ وجلَّ؛ والله سبحانه وتعالىٰ يقول﴿: لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ .

- جوازُ امتِحان العبدِ في معلوماته؛ لقوله تعالىٰ: ﴿كَمۡ لَبِثۡتَ﴾ .

- جواز إخبار الإنسان بما يَغلِب علىٰ ظنِّه؛ لقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ﴾ مع أنَّه لَبِث مئةَ عام .

- أنَّه ينبغي التَّفكُّر فيما خلَقه الله عزَّ وجلَّ، وأحدَثه في الكون؛ لأنَّ ذلك يَزيد الإيمانَ، حيث إنَّ هذا الشيء آيةٌ مِن آياتِ الله؛ كما في قوله: ﴿فَٱنظُرۡ﴾ .

- أنَّ الله قد يَمُنُّ علىٰ عبده بأنْ يُريه مِن آياتِه ما يَزداد به يقينُه؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ...﴾ إلخ .

- أنَّه ينبغي النَّظر إلىٰ الآيات علىٰ وَجْه الإجمالِ والتَّفصيل؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾: مُطلَق، ثم قال تعالىٰ: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا...﴾ إلخ؛ فيقتضي أنْ نتأمَّل أوَّلًا في الكون من حيث العموم، ثُمَّ من حيث التفصيل؛ فإنَّ ذلك أيضًا يَزيدنا في الإيمان .

- **أنَّ قُدرةَ الله فوق ما هو مُعتاد من طبيعة الأمور**، حيث بقي هذا الطَّعام والشَّراب مئة سَنةٍ لم يتغيَّر .

- **أنَّ الله يُحدِث للعبدِ ما يكون عِبْرةً لغيره**؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ﴾، ومِثْل ذلك قوله تعالىٰ عن مريمَ وابنها عيسىٰ عليهما السَّلام: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ .

- **أنَّ الله عزَّ وجلَّ جعَل اللَّحمَ علىٰ العِظام كالكُسْوة**؛ بل هو كُسْوة في الواقع؛ لقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾؛ ولهذا تَجِد اللَّحمَ يَقي العِظام من الكَسْر والضَّرر؛ لأنَّ الضَّرر في العِظام أشدُّ من الضَّرر في اللَّحم .

-**أنَّ الإنسان بالتَّدبُّر والتَّأمُّل والنَّظر يَتبيَّن له مِن آياتِ الله**، ما لا يَتبيَّن لو غَفَل؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ﴾ إلخ .

- **أنَّه يلزَم من النَّظر في الآيات العلمُ واليقينُ**؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ .

﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٦٠﴾

◈ غرض الآية:

الاستدلال علىٰ كمال قدرة الله تعالىٰ، وكمال ولايته للمؤمنين لتثبيت اليقين واطمئنان النفس بالإيمان.

◈ معاني الآية:

- وجه مسألة إبراهيم ربه أن يريه إحياء الموتىٰ: أن سؤاله لم يكن بسبب ورود شك في قلبه وإنما ليزداد يقيناً بعد الإيمان والعلم، وليترقىٰ من علم اليقين إلىٰ عين اليقين؛ لأن الغرض من الآية هو تثبيت اليقين وطمأنينة نفوس المؤمنين.

- المراد بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾: الطمأنينة: هي سكون القلب بالإيمان والتصديق، وسكون الفكر في الجولان في معرفة حقيقة الأمر.

- المراد بقوله تعالىٰ: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾: اللفظ جامع لمعنىٰ الجمع والتقطيع؛ لأن الغرض هو زيادة اليقين وتثبيته، واللفظان يؤيدهما الغرض من جهة أن ضمهن وجمعهن باعث علىٰ التأمل في أشكالهن وهيئاتهن، لئلا يتوهم اختلافهن بعد الإحياء، والتقطيع باعث علىٰ اليقين بموتهن وتفرق أجزائهن.

- المراد بقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾: اجعل علىٰ أربعة أجبل علىٰ كل جبل من ذلك المجموع المقطع؛ لأن الغرض منه التفريق.

- المراد بالسعي في قوله تعالىٰ: ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾: الإسراع في المشي؛ لأن الغرض إظهار القدرة له وتثبيت يقينه وتكريمه وولايته، ولا شك أن مجيئها سعياً مسرعة بدعوته لهن أظهر في إظهار تثبيت يقينه في القدرة والولاية.

البصائر والحكم

- وجه التصريح باسم إبراهيم دون التصريح باسم المار علىٰ القرية: أن غرض الآية تثبيت اليقين في نفوس المؤمنين، وإبراهيم عليه السلام كان أكمل الناس يقيناً، وبقصد التأسي به في الأخذ بالأسباب المشروعة في تثبيت اليقين والترقي فيه، وأيضًا غرض سؤال إبراهيم، وأنه ليس لشك أو أمر يذم عليه - وإلا لما صرح الله باسمه وهو خليله - وإنما سأل ربه لزيادة اليقين وتثبيته.

- **وجه قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾:** أن فيها استظهاراً للغرض من السؤال الوارد في نفس إبراهيم، وهو طمأنية قلبه وثبات يقينه، وأن فيها تعريضـًا وإرشاداً للمؤمنين بترسيخ الإيمان في قلوبهم، وألا يرد في نفوسهم الشك في قدرة الله تعالىٰ.

- **وجه التعبير بالطمأنية ودلالة ذلك علىٰ الغرض:** تقوية يقين المؤمنين وتطمين قلوبهم، تهيئة لهم لحمل أمانة الدين.

- **وجه الأمر بأخذ الطير بنفسه، ووجه تعددها، وتخصيص الطير والأربعة منها في قوله تعالىٰ: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ﴾:** أمره بالأخذ للطيور وإمساكها بيده ليكون أثبت في المعرفة بكيفية الإحياء؛ لأنه يجتمع عليه حاسة الرؤية واللمس [1]، والتعدد والاختلاف زيادة في التحقق من القدرة، وتخصيص الأربعة لاعتبار الجهات الأربعة، وتخصيص الطير فلأنه أجمع لخواص الحيوان [2]؛ ولأن القدرة في إحيائها أظهر من جهة تكوينها وقدرتها علىٰ الطيران في الجو.

- **وجه الدلالة علىٰ فضل إبراهيم:** أن الله تعالىٰ جعله مثلاً للمؤمنين في تحقيق اليقين وتثبيته، واستجاب طلبه، وأكرمه بآية هي من آيات الآخرة وهي البعث، وأن الله تعالىٰ حقق له بهذه الآية عين اليقين، وطمأنينة القلب بالإيمان.

- **وجه ختام الآية بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾:** أن وصف العزيز دال علىٰ الغلبة والقدرة علىٰ الإحياء والبعث، ووصف الحكيم دال علىٰ كمال خلقه وتكوينه للمخلوقات، وكمال علمه وحكمته في إحيائها وبعثها.

- **أنَّ التَّوسُّل إلىٰ الله برُبوبيَّته من آداب الدُّعاء التي يَتوسَّل بها الرُّسُلُ؛** لقوله تعالىٰ: ﴿رَبِّ﴾؛ لأنَّ إجابةَ الدعاء من مُقتضيات الرُّبوبيَّة .

---

(١) انظر: «البحر المحيط» (٢/ ٦٤٦).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (١/ ١٣٧).

- **أنَّه لا حَرَج علىٰ الإنسان أنْ يَطلُب ما يزداد به يقينُه،** لقوله تعالىٰ: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؛ لأنَّه إذا رأىٰ بعينه ازداد يقينُه .

- **إثبات الكلام لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالىٰ:** ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾، **وقوله تعالىٰ:** ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً ...﴾؛ والله سبحانه وتعالىٰ يتكلَّم بما شاء، متىٰ شاء، كيف شاء، بما شاء: مِن القولِ، متىٰ شاء: في الزَّمن، كيف شاء: في الكيفيَّة .

- **جوازُ الاقتِصار في الجواب علىٰ الحرف الدَّالِّ عليه؛** لقوله تعالىٰ: بَلَىٰ؛ وعليه فلو قيل للرجل: أَلَمْ تُطلِّق زوجتَك؟ فقال: ﴿بَلَىٰ﴾، طلقتْ، ولو قيل للرجل عند عَقْد النِّكاح: أَقبِلتَ النِّكاحَ، وقال: ﴿نعم﴾، انعقَد النِّكاحُ؛ لأنَّ حرف الجوابِ يُغني عن ذِكْر الجُمْلة .

- **امتِنان الله علىٰ العبدِ بما يَزداد به إيمانُه؛** لقوله تعالىٰ: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ....﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ
فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ
يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًىۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ
عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ
خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ
صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ
ٱلْأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًاۖ لَّا
يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ
ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ
جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ
فَطَلٌّۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن
نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ
ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ
ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾ (البقرة: ٢٦١ – ٢٦٦)

سياق الآيات عن أحكام الأموال وأصناف الناس وأحوالهم فيها.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ
فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾

◈ غرض الآية:

بيان شرف النفقة ومضاعفة أجرها، تحريضاً على الإنفاق في سبيل الله.

◈ معاني الآية:

- **المراد بسبيل الله في الآية:** النفقة في الجهاد؛ لأن غرض الآيات كلها في إعداد المؤمنين وتهيئتهم لحمل أمانة الدين، وتحريضهم علىٰ القتال.

- **المراد بقوله تعالىٰ:** ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾: أي: أن الله يضاعف لمن يشاء فوق السبعمائة ضعف؛ لأن الغرض هنا الحض والترغيب في النفقة وبيان عظم أجرها ومضاعفة الله لها، وكون المضاعفة المقيدة بمشيئة الله فوق السبعمائة ضعف أعظم في الترغيب والحض.

البصائر والحكم

- **وجه افتتاح آيات النفقة ببيان مثل المنفق:** لكونه سبق الأمر بالنفقة قبل ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم﴾ فكأنه أراد أن يصل الحديث عن النفقة، بعد دمجه بالحديث عن دلائل التوحيد، وأن في ذلك شداً للانتباه في فضل الصدقة وأجرها، ومبالغة في الحض والتهييج عليها.

- **وجه بيان المضاعفة بالتمثيل لا الحقيقة:** أن ذلك أبلغ في استحضار أجر النفقة ومضاعفتها، وأن فيه تقوية في تصوير الفضل بشاهد واقعي تدركه النفس، مع الشاهد الإيماني، وأنه لما كانت هذه الآية هي مفتتح آيات النفقة، ضمنها التمثيل بالحبة التي هي مبتدأ الزرع.

- **مناسبة التعبير في المثل للغرض:** جاء المثل علىٰ أبلغ صورة دالة علىٰ الغرض، وذلك أنه تضمن أربعة أمور: منفق، ونفقة، وباذر، وبذر، فذكر الله تعالىٰ من كل شق أهم قسميه، ذكر المنفق في: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾، والبذر في: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾.

- وجه ختم الآية بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾: من جهة ذكر المضاعفة، وتعليق الزيادة عليها بمشيئة الله الدال علىٰ واسع فضله، وعلمه بمن يستحق الزيادة، وفيها من الإغراء والحض علىٰ النفقة ما لا يخفىٰ.

- الحثُّ والتَّرغيب في الإنفاق في سبيل الله؛ لقوله تعالىٰ: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ....﴾.

- ضَرْب الأمثال؛ لأنَّ ذلك أقربُ إلىٰ الفَهْم كما في قوله: مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ...، وقوله تعالىٰ: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ ...﴾.

- الإشارة إلىٰ ضرورة الإخلاص لله في العمل؛ لقوله تعالىٰ: فِي سَبِيلِ اللهِ، وأن يَقصِدوا بعمَلهم وجهَ الله عزَّ وجلَّ .

- الإشارةُ إلىٰ اشتراط مُوافَقة العمل للشَّرع؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ فِي للظَّرفيَّة، والسبيل: بمعنىٰ الطريق، وطريق الله: شَرْعه؛ والمعنىٰ: أنَّ هذا الإنفاق لا يَخرُج عن شريعةِ الله؛ والإنفاق الذي يكون مُوافِقًا للشَّرع هو ما ذَكَره بقوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ الفرقان: ٦٧.

- إثبات المِلكيَّة للإنسان؛ لقوله تعالىٰ: أَمْوَالَهُمْ؛ فإنَّ الإضافة هنا تُفيد المَلكيَّة .

- إثبات الصِّفات الفعليَّة- التي تتعلَّق بمشيئة الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿يُضَٰعِفُ﴾؛ و﴿المُضَاعَفَةُ﴾ فِعْل .

- أنَّ الله له السُّلطانُ المطلَق في خَلْقه؛ ولا أحد يَعترِض عليه؛ لقوله تعالىٰ: ﴿يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾.

- أنَّ ثوابَ الله، وفضْلَه أكثرُ من عَمَلِ العاملِ؛ لأنَّه لو عُومِل العاملُ بالعدل لكانت الحسنة بمِثْلها، لكنَّ الله يُعامِله بالفضل والزِّيادة، فتكون الحبَّة الواحدة

سبعمئة حبَّة، بل أزيدَ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ، ممَّا يَزيد رجاءَ العبدِ في ربِّه.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾

◈ غرض الآية:

بيان صفة النفقة المضاعفة، والتحذير من مبطلاتها.

◈ معاني الآية:

- المراد بنفي الخوف والحزن: المراد نفي الخوف عنهم والحزن في الدارين لما تفيده النكرة الواقعة في سياق النفي من الشمول[1].

البصائر والحكم

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى﴾: توجيه لدوام السلامة من المن والأذىٰ بعد الإنفاق، تحذيراً من إبطال أجرها بعد إخراجها.
- وجه تخصيص المن والأذىٰ دون غيره: أن المن والأذىٰ مشعر بأن المعطي هو رب الفضل، والإنعام، وأنه ولي النعمة،ومسديها، وليس ذلك في الحقيقة إلا لله تعالىٰ[2]، وأن اتباع النفقة بالمن والأذىٰ يحيل الصدقة من جبر خاطر الفقير والمحتاج إلىٰ أذيته وكسر نفسه وإثارة الحقد والانتقام.
- وجه العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ في الآية: أنه دال علىٰ لزوم الاستمرار علىٰ الفعل،

(١) انظر: «فتح القدير» (١/ ٣٨٥).
(٢) انظر: «طريق الهجرتين» (٥٤٣).

وأن فيه مايفيد أن المن والأذىٰ مؤثر منقص للأجر، والمضاعفة أو مبطلها ولو تراخىٰ زمنه.

- المراد بالمن والأذىٰ ووجه تقديم المن: المن: هو عدُّ الإنعام علىٰ المنعَمِ عليه، أو أن يرىٰ له حقاً عليه واجباً وفضلاً لازماً بالنفقة، والأذىٰ: هو أن يتطاول عليه بالإساءة في القول أو الفعل بسبب ما أنفق عليه، وقدم المن لأنه مشتمل علىٰ صفة المنة التي لا تكون إلا لله تعالىٰ، فهو أعظم من هذه الجهة، ولذا قدمه.

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾، ووجه قوله: ﴿لَّهُمۡ﴾ دون العطف بالفاء: الجملة بيان لتحقق كمال الأثر في النفقة حال سلامتها من المبطلات، ترغيباً وحظّاً علىٰ النفقة الخالصة، وترك العطف بالفاء، وذلك للدلالة علىٰ أن ارتباط الأجر بذات المنفق، فالأمر هنا لا يتعلق بالأجر مباشرة وإنما يتعلق بالمنفق نفسه، ولهذا أتىٰ بالفاء في الآية الأخيرة التي فيها بيان كمال الجزاء لتعلق الأمر هناك بالأجر.

- وجه نفي الخوف والحزن في الآية: أن فيه بيان أثر النفقة الخالصة في حصول الأمن وذهاب الخوف والحزن، وأنه لما كانت النفقة خالصة لم تكدر بالمن والأذىٰ الذي ينغص علىٰ المعطىٰ، كان جزاؤها من جنسها، وهو أن المنفقين لا تتكدر حياتهم في الدارين بخوف ولا حزن، ولليس له أن يخاف من فقر مستقبلا، وأن لا يحزن علىٰ ما فات.

- أنَّ مَن أَتْبَع نفقتَه منًّا أو أذًىٰ، فإنَّه لا أجْرَ له؛ لقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾؛ فإذا أَتْبَع منًّا، أو أذىٰ بطَل أجرُه، كما هو صريحُ قولِه تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾ .

- لقَبُول الصَّدقة شروطٌ سابقة، ومُبطِلاتٌ لاحِقة؛ أمَّا الشُّروط السابقة: فالإخلاص لله تعالىٰ، والمتابَعة، وأمَّا المبطِلات اللَّاحقة: فالمنُّ، والأذىٰ.

﴿ ۞ قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٞ ٢٦٣ ﴾

◈ غرض الآية:

بيان ما يجب مراعاته مع المنفق عليه بعد بيان ما يجب مراعاته مع النفقة.

◈ معاني الآية:

- المراد بقوله تعالىٰ: ﴿قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ﴾ وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَغۡفِرَةٌ﴾: المعروف: هو رد السائل بأحسن الطرق، والمغفرة: هي: العفو عن إساءة الفقير بسبب رده؛ لأن السياق في بيان ما يجب مراعاته مع المنفق عليه.

البصائر والحكم

- وجه الأمر بالقول المعروف والمغفرة في سياق الأمر بالنفقة والنهي عن المن والأذىٰ: أن فيه مراعاة لحال الفقير السائل، جبراً لخاطره، وإيناساً له، وتقوية للأخوّة بين المؤمنين غنيهم وفقيرهم، وأن فيه مبالغة في الأمر بتطهير العمل وحمايته من أدنىٰ درجات الأذىٰ والمن، وفي هذه الآية دليل علىٰ أن درء المفسدة مقدم علىٰ جلب المصلحة؛ وذلك أنه بيّن أن القول المعروف مع المغفرة مقدم في الفضل علىٰ الصدقة المقترنة بالمن والأذىٰ.

- هل المقصود بالآية حال الإعطاء أو حال المنع: الآية محتملة الأمر بالقول بالمعروف والمغفرة حال الإعطاء وحال المنع؛ لأن الآية عامة، ولذا لم يخصص عدم المنع في الآية فلم يقل ﴿رد بمعروف﴾.

- الآية علىٰ مراتب:

المرتبة الأولىٰ: الصدقة المقرونة بالمعروف والمغفرة، خير من الصدقة التي يتبعها أذىٰ.

المرتبة الثانية: الصدقة التي لا يتبعها أذىً خير من القول بالمعروف والمغفرة دون الصدقة، وهذه المرتبة مأخوذة من مفهوم الآية[1].

المرتبة الثالثة: الرد المقرون بالقول المعروف والمغفرة خير من صدقة يتبعها أذىً؛ لأن القول المعروف والمغفرة فيه مراعاة لنفس السائل.

المرتبة الرابعة: الصدقة المقرونة بالأذىٰ؛ فيها خير من جهة نفعها للفقير، وهي أقل مرتبة لكونها أنقصت الأجر، وآذت الفقير.

- وجه تخصيص الأذىٰ دون المن في الآية: أن الآية هنا فيما يجب مراعاته مع المنفق عليه، فالأذىٰ هو المقصود هنا، فكان ذكره كافياً عن المن، أما ذكر المن في الآية الأولىٰ فلأنه متعلق بقبول النفقة وأجرها.

- وجه التعبير بالصدقة دون الإنفاق: أنها دالة علىٰ نوع آخر في الإنفاق وهو الإنفاق علىٰ المحاويج والفقراء؛ ولهذا عبر بالصدقة دون الإنفاق؛ لأنها متعلق بعطاء إنسان لآخر، بخلاف النفقة فهي عامة في كل وجه من وجوه الإنفاق.

- وجه ختم الآية بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾: أن فيهما حضاً علىٰ الإنفاق المقرون بالقول المعروف والمغفرة، وذلك أن وصف الغنىٰ باعث علىٰ الإنفاق بسخاء نفس وطيب قول طمعاً في الخلف، ووصف الحليم باعث علىٰ العفو والصفح عن إساءة بعض السائلين ورعونتهم، فذكر الوصفين تذكير للمؤمنين وإرشاد بالتخلق بهما[2]، وأن هذا إخبار منه تعالىٰ بغناه عن صدقة من يتبع صدقته الأذىٰ، وحلمه عمن يفعل ذلك وإمهاله له[3].

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ١١٣).

(٢) «التحرير والتنوير» (٣/ ٤٧).

(٣) انظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٣٥٧).

- في قوله تعالىٰ: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ﴾، حثٌّ علىٰ المغفرة لمَن أساء إليكَ؛ إلا إذا كانت المغفرة تؤدي إلىٰ مفسدةٍ معتبَرة أو كانت راجحةً علىٰ مصلحة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾ الشورىٰ: ٤٠.

- أنَّ الأعمال الصَّالحة تَتفاضَل، ويَلزَم مِن تَفاضُلها تفاضُلُ العاملِ، وزيادة الإيمان، أو نُقْصانه؛ كما في قوله: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ...﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤﴾

◈ غرض الآية:

بيان الأمور المبطلة للنفقة وأثرها، تنبيهـًا وتحذيراً للمؤمنين المنفقين في سبيل الله، وإشعاراً بإنفاق الكافرين والمنافقين رياء تحذيراً من مشابهتهم.

◈ معاني الآية:

- المراد بقوله تعالىٰ: ﴿لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم﴾: المقصود بطلان الأجر، والمقصود بالبطلان؛ البطلان الكامل بحسب كمال المن والأذىٰ؛ لأن الغرض بيان الأمور المبطلة للنفقة وأثرها.

- المقصود بالمثل في قوله تعالىٰ: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ﴾، ووجه الشبه فيه: المقصود بالمثل تمثيل نفقة الذي بطل ثوابه بأحد مبطلات النفقة؛ من رياء ومنٍّ وأذىٰ؛ لأن الغرض بيان الأعمال المبطلة للصدقة، وهي المن والأذىٰ والرياء. فالتمثيل شامل لها جميعـًا.

وجه الشبه فيه هو أنه تعالىٰ شبه المانّ المؤذي والمرائي في عمله الباطل بعدم إخلاصه، وكون هذا العمل نافعاً في الظاهر للناس، فإذا ما جاء يوم القيامة اضمحل وبطل ولم يقدروا علىٰ شيء منه لأنه غير ثابت لله، شبه ذلك بالصفوان عليه تراب ظاهره النفع فإذا ما جاء المطر زال واضمحل لأنه غير ثابت مستقر[1].

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ﴾: راجعة إلىٰ أصحاب الأعمال الباطلة؛ ومنهم المرائي والمنان والمؤذي؛ لأن الغرض كما تبين بيان بطلان الصدقة بالمن والأذىٰ والرياء وأنهم لن يجدوا شيئاً من أجرهم في الآخرة.

البصائر والحكم

- وجه بطلان أجر النفقة بالمن والأذىٰ، ووجه المبالغة في التشديد فيهما:

أن في المنة والإيذاء منازعة لله تعالىٰ في ربوبيته وإلهيته، حيث إن المؤذي والمنان لم يشكر الله تعالىٰ علىٰ إنعامه عليه وتوفيقه له بالبذل، وأن فيه كسراً لقلب الفقير وإيغالاً لصدره، وإثارة للضغينة في قلبه، وتكديراً لخاطره بما قد يذهب بأثر الصدقة عليه.

- وجه ختام الآية بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾: أنه لما كان غرض الآية المبالغة في التحذير والتنفير من الأمور المبطلة للأجور، ختم الآية بما فيه مزيد تنفير، مبالغة في التحذير، وفيه دلالة علىٰ أن هذه الأعمال من أعمال الكفار، وأنه لما كان المرائي غير قاصد لوجه الله ولا مريداً لثوابه في الآخرة كان كافراً بالله واليوم الآخر.

---

(١) «إعلام الموقعين» (١/ ٢٣٨).

- **أنَّ المنَّ والأذىٰ بالصَّدقة مُنافٍ لكمال الإيمان؛** لقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾، كأنَّه يقول: «إنَّ مقتضىٰ إيمانِكم ألَّا تفعلوا ذلك؛ وإذا فعلتُموه صار مُنافيًا لهذا الوَصْف، ومنافيًا لكماله».

- **قوله:** ﴿لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم﴾: خصَّ الصَّدقةَ بالنَّهي إذ كان المنُّ فيها أعظمَ وأشنعَ.

- **إثباتُ كون القياس دليلًا صحيحًا؛** وَجْه ذلك: التمثيل، والتَّشْبيه؛ فكل تمثيل في القرآن فإنَّه دليل علىٰ القياس؛ لأنَّ المقصود به نَقْل حُكْم هذا المُشبَّه به إلىٰ المُشبَّه، وهذه قاعدة.

- **أنَّ مَن راءىٰ النَّاس بإنفاقه،** ففي إيمانه بالله وباليوم الآخر نَقْص؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾.

- **الإشارة إلىٰ تَحسُّر الذين يُنفِقون أموالَهم رياءً عند احتياجهم إلىٰ العمل،** وعَجْزهم عنه؛ لقوله تعالىٰ: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾؛ وعجز الإنسانِ عن الشيء بعد محاولة القُدْرة عليه- أشدُّ حسرةً من عَدَمه بالكليَّة.

- **أنَّ المنافق كافِر؛** لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٦٥﴾

◈ غرض الآية:

بيان مثل المنفق المخلص الصادق، في أثر نفقته وعظم أجرها، ترغيبًا في الإكثار من الإنفاق في سبيل الله وتحقيق الإخلاص فيه.

◈ معاني الآية:

- المراد بقوله تعالىٰ: ﴿وَتَثۡبِيتٗا﴾: صدق النفس في الإنفاق وطيبها وسخاؤها به بسبب التصديق واليقين بالجزاء؛ لأن الغرض بيان حال المنفق المخلص الصادق في مقابل حال المنفق المرائي.

- معنىٰ الوابل والطل: عبارة عن كثرة البذل، والطل عبارة عن قلة البذل؛ لأن الوابل إذا التقىٰ بالأرض الصالحة أثمرت به، وكذلك البذل إذا اقترن بالنية الصالحة أثمر به أجراً عظيماً.

البصائر والحكم

- وجه التعبير بالتثبيت في الآية: أن فيه دلالة علىٰ صدور إنفاقهم بإخلاص ورغبة ورسوخ إيمان ويقين مع ترويض للنفس علىٰ ذلك، وأن فيه دليلاً علىٰ أن مجاهدة النفس بالإنفاق وتثبيتها عليه باعث علىٰ رسوخ الإيمان والخصال الحميدة في النفس.

- وجه الشبه في المثل الوارد في الآية: تشبيه نفقة المؤمن في إخلاصه وسخاء نفسه بالنفقة؛ كالجنة الطيبة المضاعف ثمرها، وتشبيه كثرة الإنفاق وقلته، بالوابل والطل، وتشبيه ثمار النفقة في مضاعفة الأجر، بثمار الجنة في مضاعفة الأُكُل[(١)].

- وجه مجي الترغيب بالإنفاق علىٰ صورة مَثَل دون الإتيان بالمعنىٰ الصريح: أن فيه شداً للنفوس في تخيل المعنىٰ المقصود وذلك لأنه خلاف المعهود من الكلام، وفيه ما يحرك التأمل، ويجذب الفكر، ويزيد من الترغيب والحض علىٰ الامتثال.

---

(١) «إعلام الموقعين» (١/ ١٨٤).

- **وجه ختام الآية بقوله تعالىٰ:** ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: أن فيها تأكيداً علىٰ ما أمر به من الإخلاص واجتناب مبطلات الصدقات من الرياء والمن والأذىٰ، وتحذيراً من اقترافها.

- **أنَّه لا إنفاقَ نافع إلَّا ما كان مملوكًا للإنسان؛** لقوله تعالىٰ: ﴿أَمۡوَٰلَهُمُ﴾؛ فلو أَنْفَق مالَ غيره لم يُقبَل منه إلا أن يكون بإذن من الشَّارع، أو المالك.

- **أنَّ الإنفاق لا يُفيد إلَّا إذا كان علىٰ وَفْق الشَّريعة؛** لقوله تعالىٰ: ﴿ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ﴾.

- **بيان ما للنيَّة من تأثير في قَبُول الأعمال واشتراط الإخلاص؛** لقوله تعالىٰ: ﴿ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾.

- **بيان أنَّ تثبيتَ الإنسان لنفسه عند الصدقة ولعَمَلِه، واطمئنانه به من أسباب قَبُوله؛** لقوله تعالىٰ: ﴿وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾؛ لأنَّ الإنسان الذي لا يعمل إلَّا كارهًا فيه خَصْلة من خِصال المنافقين لقوله: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾ التوبة: ٥٤.

- **فضلُ الإنفاق علىٰ وجه التثبيت من النَّفْس؛** لأنَّه يَندفِع بدافع نفسي؛ لا بتوصية من غيره، أو نصيحة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾.

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ٢٦٦﴾

◈ غرض الآية:

تصوير سوء عاقبة العمل، ومنه النفقة؛ إذا دخلها ما يبطلها من الرياء أو المن والأذىٰ أو غيره أصلاً أو تبعاً، في حبوط أجره، والحسرة والندامة عليه يوم القيامة.

◈ معاني الآية:

- المراد بالآية: ظاهرها العموم، وسياقها في خصوص النفقة؛ لأن غرض الآيات في الحث على الإنفاق والنهي عن مبطلاته، فكون تأويل الآية في النفقة أولىٰ مع تضمنها للعموم في غير هذا السياق.

البصائر والحكم

- وجه الشبه في الآية، وتضمنها للغرض: وجه الشبه في الآية ظاهر من جهة أنه شبه النفقة بالجنَّة، والانقطاع عن العمل والاكتساب مع شدة حاجته إليه بالكبر والذرية الضعيفة، والعمل المبطل من رياء أو غيره بالإعصار، والاحتراق بالإبطال [1]، والمثل متضمن للغرض وهو التحذير والتنفير من إبطال العمل بالرياء والمن والأذىٰ في أبلغ صورة وأدق تصوير.

- صور الجنة بأكمل ما تكون عليه، وهذا يقابل الأعمال وحسنها في الدنيا فظاهرها الصلاح والخير.

- صور حال صاحبها من شدة حاجته إلىٰ جنته لكبره الذي يمنعه من العمل، ولحال ذريته الضعفاء الذين لا ينفعونه ولا ينفعون أنفسهم، وهذا يبين حالة صاحب العمل يوم القيامة وشدة حاجته للعمل مع عدم قدرته عليه.

- صور ما أصاب الجنة من الإعصار الذي هو الريح الشديدة العاصف التي فيها إحراق لكل ما مرت عليه، وهذا يقابل عظم أثر الرياء والمن والأذىٰ في إبطال العمل ومحقه كاملاً.

- وجه ختام الآية بقوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾: تأكيداً علىٰ التفكر في هذا المثل، وإدراكه، وأخذ العبرة منه

(١) انظر: «جامع البيان» (٣/ ٧٧)، «تفسير القرآن العظيم لابن كثير» (٢/ ٦٩٦).

والحذر من الوقوع في مثل هذا الحال.

- بيانُ تثبيت المعاني المعقولة بالأمور المحسوسة؛ لأنَّه أقْرب إلىٰ الفَهْم؛ وَجْه ذلك أنَّ الله سبحانه ضرَب مَثَلًا للمانِّ بالصَّدقة بصاحب الجَنَّة، كما قال تعالىٰ: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ﴾.

- الحثُّ علىٰ التفكُّر فيما يُمكِن الوصول إليه بالتَّفكُّر فيه، كما في قوله تعالىٰ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾

◈ غرض الآية:

بيان وصف المنفَق بعد الحث علىٰ الإنفاق والإخلاص فيه والتحذير من مبطلاته.

◈ معاني الآية:

- المراد بالإنفاق في الآية: العموم، لكن ذلك يختلف في الوجوب وعدمه بحسب نوع الإنفاق؛ لأن غرض الآية في بيان وصف المنفق في كونه من الطيبات، وهذا شامل لعموم الإنفاق الواجب والمندوب.

- المراد بالطيب، والخبيث في الآية: الطيب الجيد الأنفس، والخبيث هو الرديء؛ لأن الآية واردة في سياق الأمر بالنفقة لا الأكل، ولا يحتمل في الأمر بالإنفاق من الطيبات إلا الجيد النفيس، لمظنة إنفاق الرديء.

- **المراد بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ﴾:** عموم الأخذ بأي طريق؛ لأن الغرض في الجملة التقريع علىٰ فعلهم، فعموم المعنىٰ أشد مبالغة في التقريع.

- **المراد بالإغماض في قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِ﴾:** الكراهة وعدم الرغبة في أخذه؛ لأن اللفظ راجع إلىٰ إغماض العين في حال الكراهة للشيء.

البصائر والحكم

- **المراد بالكسب وما أخرج من الأرض، ووجه تخصيصهما:** الكسب: هو كل ما حصل بتحصيل من الإنسان في سعيه وجهده، وما أخرج من الأرض هو أنواع الحبوب والثمار، والمعادن والركاز [1]، ووجه التخصيص فلأنهما أهم ما يحتاجون إلىٰ بيانه لكونهما أهم تجاراتهم المعروفة، وأنهما أصول الأموال، فكل الأموال ترجع إليهما.

- **وجه تقديم ما كسبوه، ونسبته إليهم دون الإخراج:** نسبة الكسب إليهم دون الإخراج فلأنه فعلهم وجهدهم القائم بهم، وإن كان الله هو الخالق لأفعالهم، وأما الإخراج فإنه بفعل الله تعالىٰ، وتقديم الكسب مع أنه فعلهم، فلأنه أكثر المال؛ إذ يدخل فيه التجارات كلها علىٰ اختلاف أصنافها وأنواعها.

- **وجه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ﴾:** النهي عن قصد إخراج الخبيث في الصدقة.

- **المراد بالتيمم والخبيث ووجه التعبير بهما:** التيمم هو القصد [2]، والتعبير به دال علىٰ أن المقصود بالنهي تعمد الخبيث في الإنفاق، وهو تعذير لمن يخرجه لقلة مال، وعدم قدرة علىٰ غيره، وأما الخبيث فهو الردئ، وعبر به فلأنه متضمن

---

(١) انظر: «البحر المحيط» (٢/ ٦٧٧).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٣/ ٨٢).

معنىٰ عدم المنفعة وكراهة النفس له، وأن فيه مبالغة في التنفير.

- وجه النهي عن الخبيث: أنه مناف للأدب مع الله تعالىٰ، وهو سبحانه طيب لا يقبل إلا الطيب، وأنه مناف لكمال الصفات التي ينبغي أن يكون عليها المؤمن، ومنها الطيب، ومناف لطلب كمال الأجر، وأن قصد الخبيث دال علىٰ تقديم حق النفس علىٰ حق الله تعالىٰ، وأن فيه كسرا للفقير.

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ﴾: التعليل للحكم وتقريع النفوس علىٰ المخالفة، وتقديم حق أنفسهم علىٰ حق الله تعالىٰ.

- وجه ختام الآية بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾، وتقديم الجملة بقوله ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ﴾: أن وصف الحميد مناسب للأمر بالإنفاق من الطيب فهو تعالىٰ يحمد المنفق ويجازيه أحسن الجزاء. وأما وصف الغني فهو مناسب للتحذير من تيمم الخبيث، فهو تعالىٰ غني عمن ينفق الخبيث من ماله لأنه تعالىٰ طيب لا يقبل إلا طيبًا. وقدم الغني زيادة في التحذير[1]، وقدم ﴿اعلموا﴾ زيادة في التوبيخ لهم علىٰ ما يصنعونه من إعطاء الخبيث.

- أنَّ مِن مُقتضىٰ الإيمان امتثالَ أمر الله، واجتنابَ نهيه؛ ووجْهه أنَّ الله تعالىٰ قال﴿: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا﴾؛ فلولا أنَّ للإيمان تأثيرًا، لكان تصدير الأمر بهذا الوصف لغوًا لا فائدة منه.

- يُستفادُ من قوله: ﴿أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ أنَّ المال الحرام لا يُؤمَر بالإنفاق منه؛ لأنَّه خبيث؛ والله تعالىٰ طَيِّب لا يَقْبَل إلَّا طيِّبًا .

- الردُّ علىٰ الجَبْريَّة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾؛ ووَجْه الدَّلالة: أنَّه لو كان الإنسان مُجبرًا علىٰ عملِه لم يَصِحَّ أنْ يُوجَّه إليه الأمر بالإنفاق؛

(١) انظر: «مفاتيح الغيب» (٧/ ٥٦).

لأنَّه لا يَقدِر علىٰ زعْم هؤلاء الجبرية؛ ولأنَّ الله أضاف الكسبَ إلىٰ المخاطَب في قوله تعالىٰ: مَا كَسْبْتُمْ؛ ولو كان مُجبرًا عليه لم يَصِح أن يكون مَن كَسْبه.

- **وجوب الزكاة في عُروض التِّجارة؛** لقوله تعالىٰ: ﴿مَا كَسَبْتُمْ﴾؛ ولا شكَّ أن عُروض التِّجارة كَسْب؛ فإنَّها كَسْب بالمعاملة .

- **وجوب الزَّكاة في الخارج من الأرض؛** لقوله تعالىٰ: ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ .

- **وجوب الزكاة في المعادن؛** لدخولها في عموم قوله تعالىٰ: ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ .

- **إثبات القياس؛** وذلك لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ﴾؛ يعني إذا كنتَ لا ترضاه لنَفْسك، فلا ترضاه لغيرك، أي: قِسْ هذا بهذا .

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾

◈ غرض الآية:

بيان دوافع الإنفاق وعدمه.

◈ معاني الآية:

- **المراد بالفحشاء في الآية:** المراد به عموم الشر؛ لأن غرض الآية في بيان دوافع الإنفاق وعدمه.

- **المراد بالمغفرة والفضل:** المغفرة: هي ستر الذنوب ومحوها والوقاية من الشر، والفضل: هو الخلف المعجل، وزيادة الرزق والتوسعة في الدنيا والآخرة[1].

(١) انظر: «البحر المحيط» (٢/ ٦٨٣).

البصائر والحكم

- وجه تقديم بيان حال الشيطان: لكونه ألصق بالآية التي قبلها التي تضمنت النهي عن تيمم الخبيث في الإنفاق.

- وجه التعبير بالفحشاء: المبالغة في التنفير فيما يدعو ويأمر به الشيطان، ودال علىٰ أن البخل والشح من أعظم الفحشاء، وأن فيه إشعاراً بوجوب اجتناب عموم ما يأمر به الشيطان من الشر والإثم.

- وجه ختام الآية بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾: أنه لما أخبر تعالىٰ بوعده بالمغفرة والفضل، أكد ذلك بهذين الوصفين الدالين علىٰ أنه تعالىٰ واسع المغفرة والفضل تطميعاً وترغيباً للمؤمنين، وأنه عليم بمن يستحق ذلك بعثاً للنفوس علىٰ الامتثال وتحقيق ذلك.

- إثبات إغواء الشَّياطين لبني آدم؛ لقوله تعالىٰ: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾، وأنَّ للشَّيطان تأثيرًا علىٰ بني آدم إقدامًا، أو إحجامًا؛ أمَّا الإقدام: فيأمره بالزِّنا مثلًا، ويُزيِّن له حتىٰ يُقدِم عليه، وأما الإحجام: فيأمره بالبُخل، ويَعِدُه الفقرَ لو أنْفق، وحينئذ يُحجِم عن الإنفاق .

- من مباحث اللَّفظ في الآية: استعمالُ الوعد في الخير والشَّر، وهو شائع لغة، ثم جرىٰ عُرْف النَّاس أن يَخُصُّوا الوعدَ بالخير، والإيعادَ بالشرِّ، فإذا ذكَروا الوعدَ مع الشرِّ أرادوا به التَّهكُّم، علىٰ أنَّ ما يَعِدُ به الشَّيطان من الفقر هو علىٰ تقدير الإنفاق، ويلزمه الوعد بالغنىٰ مع البخل الذي يأمر به؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ﴾.

- في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ بيانُ عَداوة الشَّيطان للإنسان؛ لأنَّه في الواقع عدوٌّ له في الخبر، وعدوٌّ له في الطَّلب؛ في الخبر: يَعِدُه الفقر؛ وفي الطلب: يأمُره بالفحشاء؛ فهو عدوٌّ مخبرًا وطالبًا، والعياذ بالله .

- **أنَّ مَن أَمَر شخصًا بالإمساك عن الإنفاق المشروع، فهو شبيهٌ بالشَّيطان،** وكذلك مَن أَمَر غيره بالإسراف، فالظَّاهر أنَّه شيطان؛ لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ الإسراء: ٢٧.

- **أنَّ هذه المغفرةَ التي يَعِدُنا الله بها مغفرةٌ عظيمة؛** لقوله تعالىٰ: ﴿مِنْهُ﴾؛ لأنَّ عِظَم العطاءِ مِن عِظَم المُعطي .

- **أنَّه ينبغي للمُنفِق أنْ يتفاءل بما وعَد الله؛** لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾؛ فإذا أَنْفَقَ الإنسانُ وهو يُحسِن الظنَّ بالله عزَّ وجلَّ أنَّ الله يَغْفِر له الذُّنوبَ، ويَزيده من فضله- كان هذا من خير ما تنطوي عليه السَّريرة.

﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾

◈ غرض الآية:

بيان الداعي لاختيار ما أمر الله به ووعد علىٰ ما وعد به الشيطان وأمر، وهو الحكمة وكمال العقل.

◈ معاني الآية:

- **المراد بالحكمة في الآية:** الإصابة في الأمور، أو الإتقان فيها؛ لأن الغرض من هذه الآية معرفة الحق الذي هو أمر الله ووعده، والعمل به.

البصائر والحكم

- **وجه قوله تعالىٰ:** ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾: إشادة بفضل من أوتي الحكمة الدالة علىٰ اتباع أمر الله تعالىٰ، إغراءاً وتحريضـاً علىٰ اتباع أمر الله تعالىٰ ومنه الإنفاق.

- وجه التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُؤْتَ﴾ دون ﴿ومن يؤتيه﴾: أنه لما كان الغرض الإغراء والتحريض علىٰ تحقيق الحكمة، عبر بهذا اللفظ الباعث علىٰ تحقيق ذلك بالسعي والاجتهاد مع توفيق الله تعالىٰ.

- وجه ختم الآية بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: تهييج النفوس علىٰ العمل بما أمر الله.

- وجه التعبير بأولي الألباب: للدلالة علىٰ أن هذا التذكر يحتاج إلىٰ تحرر العقل من الهوىٰ والشهوة ودواعي الشر، فلا بد أن يكون سليماً، حتىٰ يميز بين الحق والباطل [(١)].

- أنَّ ما في الإنسان من العِلْم والرُّشد فهو فَضْل من الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾؛ فإذا مَنَّ الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ العبد بعِلم، ورُشْد، وقوَّة، وقُدرة، وسَمْع، وبصر فلا يترفَّع؛ لأنَّ هذه الصفات من الله عزَّ وجلَّ؛ ولو شاء الله لحَرَمه إيَّاها، أو لَسَلبه إيَّاها بعد أن أعطاه إيَّاها؛ فقد يسلُب اللهُ العِلْمَ من الإنسان بعد أنْ أعطاه إيَّاه؛ وربما يَسلُب منه الحكمة؛ فتكون كلُّ تصرُّفاته طيشًا وضلالًا وهَدَرًا.

- إثبات الحكمة لله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ الحكمةَ كمالٌ؛ ومُعْطي الكمال أَوْلىٰ به؛ فيُؤخذ من الآية إثباتُ الحِكمة لله بهذا الطَّريق كما في قوله: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾.

- فضيلةُ العقل؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ لأنَّ التَّذكُّر -بلا شكٍّ- يُحمَد عليه الإنسان؛ فإذا كان لا يقع إلَّا مِن صاحب العقل دلَّ ذلك علىٰ فضيلة العقل .

- أنَّه لا يتَّعِظ بالمواعظ الكونيَّة أو الشَّرعيَّة إلَّا أصحابُ العقول، الذين

---

(١) انظر: «البحر المحيط» (٢/ ٦٨٦).

يتدبَّرون ما حصل من الآيات سابقًا ولاحقًا فيعتبِرون بها، وأمَّا الغافل فلا تَنْفعه؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾﴾

◈ غرض الآية:

بيان علم الله تعالىٰ وإحصائه لأنواع نفقاتهم مما هو في سبيله، وما هو في سبيل الشيطان، ومجازاتهم عليه.

◈ معاني الآية:

- **حكم النذر، ودلالة السياق عليه:** الكراهة؛ لأن الآيات اشتملت علىٰ أمر بالإنفاق ونهي عن ضده أو ما يبطله، وقد ذكر الله في هذه الآية النفقة وجعل مقابلها النذر فكان بديلاً للمحذور، فهذا مشعر بأنه مما لم يأمر الله تعالىٰ به.

- **المراد بقوله ﴿يَعْلَمُهُۥ﴾:** اللفظ شامل للإحصاء والجزاء؛ وذلك لأنه أبلغ في الدلالة علىٰ الغرض، وهو الحث علىٰ الإنفاق والإخلاص فيه.

البصائر والحكم

- **المراد بالنذر، ووجه تخصيصه في الآية:** المراد عموم النذر مما كان في طاعة الله أو في معصيته؛ لأن الغرض بيان علم الله وإحصائه لجميع وجوه الإنفاق، توجيهاً بصرفها في سبيله، وتحذيراً من تجاوز ذلك، وخصص لأنه مما كان معروفاً في الجاهلية، وكان معظم نذورهم في غير طاعة الله [1]، وللدلالة علىٰ

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٣٦٥). «البحر المحيط» (٢/ ٦٨٦).

مشروعيته في الإسلام، والأمر بصرفه لله، وأنه أشار بالنفقة إلىٰ ما هو مأمور به أصلاً، وأشار بالنذر إلىٰ ما هو من إيجاب الإنسان علىٰ نفسه، وأنه أشار بالنفقة إلىٰ ماهو علىٰ سبيل التطوع، وأشار بالنذر إلىٰ ما هو علىٰ سبيل الإلزام.

- **وجه قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥ﴾ ووجه التعبير بالعلم، ووجه إفراد الضمير:** كمال العلم وكمال المجازاة لقوله تعالىٰ: ﴿يَعۡلَمُهُۥ﴾، وعبر بالعلم للدلالة علىٰ دقة علمه تعالىٰ وإحصائه لجميع الأمور ومنها نفقاتهم، وتأكيد علىٰ الأمر بالإخلاص لله تعالىٰ في الإنفاق وطلب ثوابه، وفائدة التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿يَعۡلَمُهُۥ﴾ دون يعلمهما في السياق الذي هو في الوعد والوعيد، أنه أبلغ في الترهيب والوعيد.

- **وجه ختم الآية بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ﴾، والمراد بالظالمين:** وعيد وتهديد للمنفقين في غير طاعة الله تعالىٰ، والظالمون هم كل من تجاوز الحد الذي أمر الله به، فيدخل فيه من باب أولىٰ المنفقون بالمن والأذىٰ والرياء، والمتبعون لسبيل الشيطان في نفقاتهم؛ لأن الآية في النفقة[1].

- **أنَّه ينبغي للإنسان إذا أَنفَق نفقةً أن يَحتسِب الأجرَ علىٰ الله؛** لقوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥ﴾؛ لأنَّ مَن أنفق وهو يَشْعُر أنَّ الله يعلم هذا الإنفاقَ، فسوف يَحتسِب الأجرَ علىٰ الله.

- **في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ﴾:** أنَّ مَن دعا علىٰ أخيه وهو ظالم له، فإنَّ الله لا يُجيب دعاءه؛ لأنَّه لو أُجيب لكان نَصْرًا له، وقد قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.

(١) انظر: «البحر المحيط» (٢/ ٦٨٧).

﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٧١﴾

◈ غرض الآية:

بيان حكم إخراج الصدقات من حيث الإخفاء والإبداء، والأفضلية فيها.

◈ معاني الآية:

- **المراد بالصدقات في الآية:** العموم، ويؤكده غرض الآية في أنها في بيان حكم عام، كما يؤكد لفظ ﴿ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ العام في الفرض والتطوع.

- **أيهما أفضل إخفاء الصدقة أو إظهارها:** الأصل أفضلية الإخفاء، لصريح الآية؛ لكن الإظهار قد يكون أفضل حال حصول مصلحة أعظم.

البصائر والحكم

- **المراد بقوله تعالىٰ: ﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ والتعبير بالإبداء دون الإعلان:** المراد بالجملة بيان أن إبداء الصدقات وإظهارها مع الإخلاص محمود مشروع، وعبر بالإبداء الذي هو الإظهار[1] دون الإعلان؛ لأن الإعلان دال علىٰ القصد في الظهور.

- **وجه التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾:** الدلالة علىٰ مشروعية الإبداء إذا كان خالصاً، وأفضليته في الأحوال التي تكون مصلحته أعظم، إزالة الظن بعدم قبول الصدقة حال إبدائها لمشابهتها لصدقة الرياء من حيث الإظهار، فكأنه تعالىٰ أراد أن يزيل تخوفهم من ذلك.

---

(١) انظر: «معجم مقاييس اللغة» (١/ ١٧٢).

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾: بيان أفضلية إخفاء الصدقة وإسرارها، والحث عليها.

- وجه الإتيان بقوله تعالىٰ: ﴿وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ﴾: بيان أن النفقة التي تؤتىٰ الفقراء يشرع إخفاؤها، مراعاة للفقير وستراً له وعدم إظهار اليد العليا عليه والإبقاء علىٰ ماء وجهه، وفيه الحث علىٰ التعرض للفقراء المتعففين وتحريهم والفحص عن حال من يستحق منهم.

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾: أنها خير للمنفق بسلامته من الرياء المحبط للعمل، وأنها خير للمنفق عليه بسلامته من احتقار الناس له، وأنها أقرب إلىٰ المودة والألفة بين المؤمنين.

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾: الجملة دالة علىٰ جزاء الصدقة عند الله بالتكفير؛ إغراءً وتحريضاً علىٰ الصدقة وإخفائها.

- وجه الإتيان بـ ﴿من﴾ في قوله تعالىٰ: ﴿مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾: الدلالة علىٰ أن الصدقة تكفر بعض السيئات، وأن فيها تطميعاً وتعليقاً بالله تعالىٰ،وإشارة إلىٰ أن ذلك متعلق بقدر الإخلاص، وأنه لما ذكر أن الصدقة منها المظهر ومنها المخفي، ذكر التكفير بصيغة التبعيض، للدلالة علىٰ أن التكفير مختلف بحسب حال النفقة، من الإبداء والإخفاء.

- وجه ختام الآية بقول: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾: أنه لما تضمنت الآية بيان نوعي الصدقة من الإبداء والإخفاء، ختم الآية بهذه الجملة الدالة علىٰ علمه التام بذلك، وختم بصفة الخبير؛ لأنها تدل علىٰ العلم بما لطف من الأشياء وخفي[1].

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٣/ ٩٤)، «إرشاد العقل السليم» (١/ ٣٠٦).

- **أنَّ إخفاءَ الصَّدقة أفضلُ من إبدائها**؛ لأنَّه أقربُ إلىٰ الإخلاص، وأسْتر لِلمُتصدِّق عليه؛ لكن إذا كان في إبدائها مصلحةٌ تَرجُح علىٰ إخفائِها -مِثْل أن يكون إبداؤها سببًا لاقتِداء النَّاس بعضهم ببعض، أو يكون في إبدائها دَفْع ملامة عن المُتصدِّق، أو غير ذلك من المصالِح- فإبداؤها أفضل.

- **قوله: ﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ﴾**، أي: فنِعْم شيء هي، وهذا مدْح لها موصوفة بكونها ظاهرةً بادية، فلا يَتوهَّم مُبديها بُطلانَ أثرِه وثوابِه، فيمنعه ذلك من إخراجها، وينتظر بها الإخفاء، فتفوت أو تَعترضه الموانعُ، ويُحال بينه وبين قلبه، أو بينه وبين إخراجها، فلا يؤخِّر صدقتَه العلانيَّة بعد حضور وقتها إلىٰ وقت السرِّ، وهذه كانت حالَ الصحابة .

- **في قوله: ﴿وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ﴾ أَطلَق لفْظ ﴿ٱلۡفُقَرَآءَ﴾، ولم يَقُل: ﴿فقراءكم﴾**، فدلَّ ذلك علىٰ أنَّ الصَّدقة تُستَحَبُّ علىٰ كلِّ فقير -وإن كان كافرًا- فكما وسَعتْ رحمته الكافرَ فلم يَحرِمه لكُفْره من الرِّزق بسعيه، كذلك لم يُحرِّم عليه الصَّدقةَ عند عجزه عن الكسْب الذي يكفيه .

- **تَفاضُل الأعمال**، أي: إنَّ بعض الأعمال أفضلُ من بعض؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾.

- **تحذيرُ العبد من المخالَفة**؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾؛ فإنَّ إخبارَه إيَّانا بذلك يَستلزِم أن نخشَىٰ من خِبرته عزَّ وجلَّ؛ فلا يَفقِدنا حيث أمَرنا، ولا يرانا حيث نهانا.

﴿ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ ﴾

◈ غرض الآية:

بيان مشروعية النفقة لعموم الفقراء، ومنهم الكفار[1]، وبيان أن امتثالهم للأوامر وإتيان المحاسن، ومنها الصدقة والإنفاق، والكف عن النواهي والقبائح، ومنها الشح والبخل؛ هداية وتوفيق من الله.

البصائر والحكم

- وجه النهي عن منع الكفار من الصدقة: أن هذا لا يتوافق مع مقاصد الإسلام في تأليف قلوب الناس ودعوتهم لدخول الدين، وأن هذا موافق لما تضمنته السورة من بيان كمال الدين وتشريعه، فهو دليل علىٰ كمال الإسلام، وفضله.

- وجه توجيه الخطاب للنبي ﷺ ثم للمؤمنين: أنه مناسب لسبب النزول، وهو نهيه عن التصدق علىٰ الكفار؛ فلذلك توجه إليه الخطاب ابتداءً ثم تحول إلىٰ المؤمنين، وأنه لما تعلق الأمر بالدين، والإكراه عليه جاء الخطاب موجهًا للنبي ﷺ ليكون أقوىٰ في التشريع والتوجيه، وأدعىٰ للامتثال[2].

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾، والمراد بالخير في الآية، ووجه التعبير به: بيان أن مآل الصدقة للمنفق، حثًا علىٰ النفقة علىٰ الفقراء

---

(١) يؤيد هذا الغرض التعبير بقوله تعالىٰ: (هداهم) دون التصريح بالمذكورين الأصل أنه يرجع إلىٰ أقرب مذكور وهو الفقراء في قوله تعالىٰ: (وتؤتوها الفقراء) في الآيلا السابقة، وقد أطلق الفقراء هناك فدل علىٰ عمومهم، ثم عقبه بهذه الآية لرفع التحرج من الإنفاق علىٰ الفقر.

(٢) انظر: «إرشاد العقل السليم» (١/ ٣٠٦).

أيًّا كان حالهم، وعدم منعهم بسبب اختلاف دين ونحوه؛ لأن المال راجع إلىٰ صاحبه، والخير هو المال، وعبر به لاقترانه بالنفقة.

- **وجه قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾، ووجه مخالفة التعبير في الجملة عما قبلها وبعدها في الآية:** بيان أن المعتبر في النفقة الإخلاص، وأنه لا تأثير لحال المنفق عليه في قبولها وأجرها، وأما مجيء الجملة خبرية بخلاف الجملتين التي قبلها وبعدها من كونهما شرطيتين فلالإخبار بفضيلة المنفقين لوجه الله، وأنه دال علىٰ علة النهي في الآية من جهة أنه لما نهاهم عن منع الكفار من الصدقة، وجههم إلىٰ الإخبار بعلة الأمر بالإنفاق عليهم، وهي أنهم إنما شرع الإنفاق عليهم لأجل الله تعالىٰ، رجاء إسلامهم.

- **وجه قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾:** إزالة توهم نقصان الأجر في الصدقة علىٰ الكفار، ورفع العذر عنهم في ذلك.

- **وجه ختم الآية بقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾:** التأكيد علىٰ عدم نقصان ما وعدوا به بإنفاقهم، وهي دالة علىٰ ضدها، وهو أن النقصان ناتج عن ظلمهم بتقصيرهم ومنعهم، ففيها زيادة رفع العذر عنهم في منع الامتناع من الصدقة[١].

- **وجه تكرار فعل الإنفاق في الجمل الثلاث، ووجه التأكيد علىٰ ما تضمنت الآية من النهي عن منع الصدقة علىٰ الكفار:** أن فيه مزيد اهتمام بمدلوله، وهو الإنفاق علىٰ عموم الفقراء ومنهم الكفار[٢]، وأن فيه إجمالاً لما تضمنته الآيات كلها من حيث تضمنها للزوم الإخلاص أولاً، وجزاء الإنفاق في الدنيا والآخرة ثانيًا، ومضاعفته وتوفية أجره ثالثًا، وأنها فصلت بعضها عن بعض؛ لتكون

---

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (٣/ ٧٢).

(٢) انظر: «التحرير والتنوير» (٢/ ٧٢).

كالقواعد العامة، ليكثر تكرارها، ويسهل حفظها واستحضارها، فتكون دافعة للإنفاق علىٰ العموم.

- إنَّ شأن المؤمن أنه لا ينفق رياءً أو سمعةً؛ طلبًا للتعالي علىٰ الناس، أو إرضاءً لأحدٍ منهم، أو إرادةَ تكريمهم له، أو لنيل أيِّ غرضٍ دنيويٍّ آخر، وإنما ينفق ما ينفق خالصًا لله جلَّ وعلا، كما قال سبحانه: ﴿وَما تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ اللهِ﴾.

- في قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِ﴾ إثبات وجه الله عزَّ وجلَّ؛ وهو وجه حقيقي لا يُماثِل أوجهَ المخلوقين علىٰ ما يليق بجلاله وعظمته سبحانه؛ وهو من الصِّفات الذاتيَّة الخبريَّة؛ التي لم يزَل، ولا يزال مُتَّصِفًا بها .

﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ٢٧٣﴾

◈ غرض الآية:

بيان صفات الفقراء الذين هم أولىٰ الناس بالصدقات، إشادة بهم وحضًا علىٰ الإنفاق عليهم، وتقديمهم علىٰ عموم الفقراء.

◈ معاني الآية:

- متعلق اللام في قوله تعالىٰ: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ﴾ ووجه التصدير بهم: أنه متعلق بمحذوف، وكأنه سؤال مقدر في النفس: كأنه قيل: لمن هذه الصدقات المحثوث علىٰ فعلها؟ فقيل: للفقراء، ودلالة السياق عليه التصدير بلفظ الفقراء، وحذف الفعل.

- المراد بالفقراء في الآية: عموم فقراء المسلمين؛ لأن الآية عامة في الفقراء، وإن كان المراد بهم ابتداءً فقراء الصحابة من أهل الصفة من المهاجرين.

- المراد بقوله: ﴿أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: أنهم الذين أحصروا، وحبسوا عن التكسب بسبب خوف العدو، أو بسبب الجهاد؛ لأن الغرض الدلالة علىٰ وجه حاجتهم، وهي أولاً الفقر، وثانياً الإحصار والحبس عن التكسب بسبب خوف العدو، أو بسبب الجهاد ثانياً.

- المراد بالسيما في الآية: أثر العبادة عليهم، وأثر الفقر وشدة الحاجة بالتخشع والتواضع؛ لأن الآية متضمنة بيان شدة حاجتهم وفقرهم.

- المراد بقوله: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾: المراد أنهم في الأصل لا يسألون، وإن سألوا فلاضطرارهم، وبغير إلحاف بل بلطف وحياء وعفة؛ لأن غرض الجملة بيان أوجه التعرف عليهم بعد ذكر تعففهم، وهو أنهم يسألون تعففاً وحياء حال اضطرارهم.

البصائر والحكم

- الصفات المذكورة، ووجه تخصيصها: الأولىٰ: الفقر. الثانية والثالثة: إحصارهم عن الكسب بسبب الجهاد أو خوف العدو، أو حبسهم أنفسهم في سبيله وجهاد أعدائه. الرابعة: عجزهم عن الأسفار للتكسب، والضرب في الأرض. الخامسة والسادسة: جهل عامة الناس بحالهم، وشدة تعففهم. السابعة والثامنة: ظهور أثر العبادة عليهم، وظهور أثر شدة الحاجة والفقر عليهم. التاسعة: تركهم مسألة الناس، وإن سألوا اضطراراً سألوا حياء وعفة من غير إلحاح[1].

ووجه التخصيص: لأنها أدل الصفات علىٰ الفقراء المحتاجين، وأنها دالة

(١) انظر: «مفاتيح الغيب» (٧/ ٧٠).

علىٰ صفات محمودة مرغوبة فيها للفقراء.

- **وجه قوله تعالىٰ:** ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: الآية متضمنة وصفين من أوصاف الفقراء الذين هم أولىٰ بالإنفاق، وهما: الفقر، والإحصار في سبيل الله عن التكسب.

- **وجه تصدير الوصف دون تقديم فعل الإنفاق، ووجه تخصيص وصف الفقر والإحصار:** التصدير باسمهم دون تقديم الفعل لإبرازهم؛ وكأنهم هم المخصوصون بالإنفاق دون غيرهم، والمراد تخصيصهم بالتقديم والأهمية، وتخصيص وصف الفقر؛ فلأنه الوصف العام الذي يشمل كل محتاج، وتخصيص وصف الإحصار في سبيل الله؛ فلأن المجاهدين أولىٰ الناس بالنفقة.

- **المراد بقوله تعالىٰ:** ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ **ووجه تخصيصه:** كل من لا يستطيع التكسب بسبب مرض أو عجز أو كبر؛ لأن الغرض بيان شدة الحاجة[1]،وتخصيص هذا الوصف ظاهر المناسبة من جهة أن فيه انعدام سبب تحصيل المال وهو التكسب أو التجارة، فالإنفاق لسد هذا العجز.

- **المراد بقوله تعالىٰ:** ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾**، ووجه تخصيصه:** الجملة دالة علىٰ وصفين من صفات الفقراء، وهما: الجهل بأمرهم وحالهم، وتعففهم وتركهم للسؤال والتعرض لما في أيدي الناس صبراً علىٰ البأساء والضراء[2]، وتخصيص هذين الوصفين ظاهر من جهة أنهما دالان علىٰ سبب تقديمهم وتخصيصهم وهو عدم ظهور حالهم وغفلة الناس عنهم، وقلة المنفقين عليهم مع ظهور حاجتهم.

---

(١) «مفاتيح الغيب» (٧/ ٧١).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٣/ ٩٨).

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾: تعريف للمتعففين الذي وصفوا في قوله تعالىٰ: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾، وفيه دلالة علىٰ وصفين من صفات الفقراء: ظهور أثر العبادة والطاعة عليهم، وفظهور أثر شدة الحاجة من التخشع والتواضع.

- وجه التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿تَعْرِفُهُم﴾ موجه للنبي ﷺ أو للمنفق، دون قوله تعالىٰ: ﴿يُعرَفون﴾: أنه لما ذكر ظن الناس الجاهلين بحالهم أنهم أغنياء، خص العارف بعلامة فقرهم دلالة عليهم، وهي آثار الطاعة، وآثار الفقر وعلاماته التي لا تظهر لعموم الناس، وأن في توجيه الخطاب للمنفق، مع التعبير بفعل العرفان حثاً للمنفقين علىٰ التفحص في الفقراء وتحريهم والبحث عنهم بعلاماتهم.

- المراد بقوله تعالىٰ: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾: الجملة تفسير وبيان ثاني لقوله تعالىٰ: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ وزيادة في الوصف[1].

- التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿إِلْحَافًا﴾ دون ما يشير إلىٰ عدم سؤالهم البتة، أو سؤالهم بلطف: دال علىٰ مدحهم والثناء عليهم، بعدم اتصافهم بصفة الملحين من الشره والإصرار والتذلل في السؤال، وأن فيه إشعاراً بجواز السؤال للضرورة، وأن فيه أدباً للسؤال، وهو أن يكون بغير إلحاف، وأن فيه حثّاً علىٰ إعطاء السائل المتعفف وغير الملح، وحثا علىٰ إعطاء السائل المتعفف قبل سؤاله.

- وجه ختام الآية بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾: فيه زيادة ترغيب في الإنفاق علىٰ المذكورين في الآية؛ لأن الإخبار بعلمه دال علىٰ أنه تعالىٰ محصيه كله لايخفىٰ عليه من شيء، وأنهم سيجازون عليه أتم الجزاء.

---

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (٣/ ٧٦).

- **الإشارة إلىٰ الفراسة، والفِطْنة**؛ لقوله تعالىٰ: ﴿تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ﴾؛ فإنَّ السِّيما هي العلامة التي لا يَطَّلِع عليها إلَّا ذوو الفراسةِ.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٤﴾

◈ غرض الآية:

بيان فضيلة المنفقين في عموم الأوقات والأحوال؛ حثاً علىٰ الاستمرار علىٰ النفقة بعد الأمر بها، وتنبيهاً علىٰ الأولىٰ منها.

البصائر والحكم

- **وجه ذكر الليل والنهار، والسر والعلانية، والترتيب بينها**: الدلالة علىٰ فضيلة التنويع في الصدقة، وإخراجها في الوقت المناسب لها من تلك الأحوال، والترتيب بينها بتقديم الليل علىٰ النهار والسر علىٰ العلانية، دال علىٰ فضيلة المقدم وهو صدقة الليل والسر، لكونها أخفىٰ، وذكر الليل والنهار قبل السر والعلانية، لكونهما سبباً لذلك؛ فكأنه إشعار بمحل نفقة السر والعلن،

- **وجه دخول الفاء في قوله تعالىٰ: ﴿فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ بخلاف الآية المتقدمة**: أن الجملة وردت لغرض بيان كمال جزائهم بعد بيان أحوال إنفاقهم، بخلاف الآية الأولىٰ الواردة في بيان كمال حالهم ووصفهم، وأنها دالة علىٰ ترتيب الأجر علىٰ الفعل كدلالة ترتب جواب الشرط علىٰ الشرط.

- **وجه تضمين آيات النفقة نفي الخوف والحزن، ووجه تكراره فيها**: أنه لما كان المنفق يقع في نفسه عادة خوف الفقر، أو الحزن علىٰ ماذهب من ماله بسبب وسوسة الشيطان له وتخويفه من الفقر، ناسب أن يضمن الآيات نفي الخوف

والحزن ضمانًا للمنفق بعدم حصول ذلك له في الدارين بعد الإنفاق.

- **وجه التفصيل في آيات النفقة:** أن المال شقيق الروح، فلا تنفك النفوس من تعلقها به وحبها له، فكان لابد أن تروض بهذا الوعظ الطويل، وأن النفقة ركن من أركان قيام الدين وتمكينه.

- **أنَّ الإنفاق يكون سببًا لشَرْح الصَّدر، وطرْد الهمِّ، والغمِّ؛** لقوله تعالىٰ: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يونس: ٦٢؛ وهذا أمر مُجرَّب مُشاهَد أنَّ الإنسان إذا أَنْفق يبتغي بها وجهَ الله انشرَح صدرُه، وسُرَّتْ نفْسُه، واطمأنَّ قلبه .

﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ
مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ
ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ
عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ
وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا
خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ
مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ
وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ
﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ
إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ
نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ (البقرة: ٢٧٥ – ٢٨١)

هذه الآيات واردة في سياق بناء النظام الاقتصادي للمجتمع المسلم ضمن الآيات التي سبقتها والآيات الواردة بعدها، وهي تمثل القسم الثاني من أقسام الأموال وهي الأموال الممنوعة المتمثلة بالربا بعد ذكر الأموال المندوبة وهي الإنفاق والصدقات.

هذه الآيات من آخر ما نزل من القرآن[(١)]، كما يدل عليه ما أخرجه البخاري

(١) انظر: «البرهان في علوم القرآن» (١/ ٢١٠) «الإتقان في علوم القرآن» (١/ ٨٢). قال السيوطي بعد أن ذكر الروايات الواردة في آخر الآيات نزولاً: «ولا منافاة عندي بين هذه الروايات في آية الربا واتقوا يوما وآية الدين؛ لأن الظاهر أنها نزلت دفعة واحدة كترتيبها في المصحف؛ ولأنها في قصة واحدة فأخبر كل عن بعض ما نزل بأنه آخر وذلك صحيح».

عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: «آخر آية نزلت على النبي ﷺ آية الربا»[(١)]، وما أخرجه أحمد عن عمر بن الخطاب قال: «من آخر مانزل آية الربا، وإن رسول الله ﷺ قبض قبل أن يفسرها لنا، فدعوا الربا والريبة»[(٢)].

﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧٥﴾

◈ غرض الآية:

بيان بشاعة حال آكلي الربا المستحلين له في الدنيا والآخرة، مبالغة في التنفير من الربا وتأكيداً لحرمته.

◈ معاني الآية:

- **المقصود بقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾:** المراد الذين يأكلون الربا مستحلين له مصرين عليه، وهم الكفار؛ لأن غرض الآية ابتداءً بيان شناعة آكلي الربا قبل بيان حكمه وحرمته.

- **المراد بالربا في الآية:** المراد به هنا في الأصل ربا الجاهلية الذي كانت العرب تفعله من قولها للغريم أتقضي أم تربي؟ ثم يعم كل ربا؛ لأن الآية كما ذكرت نازلة في الكفار المستحلين،وهم أهل الجاهلية، وغرضها هو إبطال ما كانوا عليه من ربا، والذي كانوا عليه هو التأخير مع الزيادة في الدين.

(١) أخرجه البخاري ٤/ ١٦٥٢ برقم ٤٢٧٠.

(٢) أخرجه أحمد في المسند١/ ٣٦ برقم ٢٤٦.

- المراد بقوله تعالىٰ: ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾: تصوير حالهم في الدنيا من التخبط في هيئة حركاتهم ومعاملاتهم بسبب الربا فهو كالتسفيه لهم، ويمكن تصويره ببيان حالهم في الآخرة وهو أبلغ؛ لأنه عقوبة لهم؛ لأن الغرض بيان شناعة حالهم.

- المراد بالضمير في قوله ﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾: الضمير راجع إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ﴾ أي المنتهي، علىٰ معنىٰ أن أمر جزائه علىٰ الانتهاء موكول إلىٰ الله في العفو والعقوبة؛ لأن الآية في المستحلين للربا، فيكون المقصود هنا المنتهين عن الاستحلال.

البصائر والحكم

- وجه افتتاح آيات الربا بتصوير عاقبة أهله: أنه لما كان الربا متأصلاً في الجاهلية وعند اليهود، وهو من أسوأ ما كانوا عليه بعد الكفر، ابتدأ بتصوير أهله بأبشع صورة ليكون هذا التصوير أول ما تتلقاه النفوس في أمر الربا، فيقع نفورها ورهبتها منه وإدراكها لبشاعته، وأنه لما كان أمر الربا عظيماً وأثره خطيراً، ابتدأ ببيان عاقبته وأثره يوم القيامة، ليكون الترهيب منه أوقع في النفوس وأشد تأثيراً.

- وجه تخصيص الأكل دون غيره: أنه لما كان الغرض التغليظ وبيان بشاعة الربا، خص الأكل؛ لأنه أعظم المقاصد في الربا، وأغلظه، وأشده مقارفة، وأن التعبير بالأكل دال علىٰ الجشع والطمع والأثرة التي تكون في نفس المرابي.

- وجه قوله: ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾: لتشبيه حال آكلي الربا بالممسوس الذي يتخبطه الشيطان من المس، بجامع الاضطراب والتخبط، مبالغة في تشنيع حال آكلي الربا.

- **المراد بالتخبط ووجه التعبير به، ووجه التشبيه بمن يتخبطه الشيطان:** التخبط من الخبط وهو الضرب الشديد من غير انتظام[1]، والتعبير به دال علىٰ شناعة حال آكل الربا، وأما وجه التشبيه فلأن هذا مناسب لحال المرابين في الدنيا من جهة أنه مُثِّل حال تخبط الربا به بتخبط الشيطان بالإنسان، فشبه الشيطان بالربا تشنيعاً له، ودلالة علىٰ أن كل تصرفاته مما يأمر بها الشيطان من الشر والفحشاء والظلم والطمع والشح، ولأن هذا مناسب لحالهم في الآخرة، من جهة أنه مثل أكلهم للربا وامتلاء بطونهم وكبرها يوم القيامة كما جاء في الأثر[2]، وتخبطها بهم بتخبط الشيطان بالإنسان.

- **وجه قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾:** الجملة بيان لعلة عقابهم، وهو استحلالهم للربا كاستحلال البيع [3].

- **وجه تشبيههم البيع بالربا مع أن الأصل العكس:** المبالغة في استحلالهم للربا، وفيه مناسبة لحالتهم من التخبط الذي يعني عكس الأمور والاضطراب في الآراء بحيث يجعلون الأمر بخلاف ماهو عليه، وأنه لما كان قصدهم الاعتراض علىٰ تحريمه، قاسوا البيع عليه؛ لرد الاعتراض.

- **وجه قوله تعالىٰ: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾:** الرد علىٰ المستحلين للربا وقولهم: ﴿إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾، وإعلام وتشريع من الله للمؤمنين.

- **وجه تحريم الربا:** أن البيع فيه عوض، بخلاف الربا فليس فيه عوض ولا

---

(١) انظر: «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٢٧٤).

(٢) ومن ذلك ماأخرجه الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «أتيت ليلة أسري بي علىٰ قوم بطونهم كالبيوت، فيها الحياة ترىٰ من خارج بطونهم، فقلت: من هؤلاء ياجبريل؟ قال: هؤلاء أكلة الربا» والحديث ضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم ١٣٣

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (١/ ١٤٢).

سلعة، وإنما القصد فيه زيادة المال بلا عوض(١)، والربا سبب لتعطل مصالح المسلمين في البيع، والربا فهو خال من التوازن والتداول؛ بل فيه كسب بدون مقابل ومصلحة لطرف دون الآخر، والربا يقطع باب التراحم والتعاطف والتعاون والتكافل الذي بني عليه دين الإسلام، والربا داع للشح والطمع، والتعلق بالمال، وأن في الربا استغلالاً للضعفاء، وزيادة في فقرهم وحاجتهم، وضيق معيشتهم.

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾: الجملة متضمنة العفو عما سلف من الربا قبل العلم بالتحريم، وهو حث علىٰ الانتهاء عن استحلال الربا وأكله بعد بيان حرمته؛ ولهذا عبر بالموعظة، وجاء بقوله تعالىٰ: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ زيادة في الترغيب، كأنه جعل الموعظة تربية من الله تعالىٰ(٢).

- وجه التعبير بقوله ﴿وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾: أنه لما أباح له ما سلف من الربا، وهو ما ينبغي التنزه عنه أصلاً، أبهم الجزاء ورده إلىٰ الله إشعاراً بأن الأولىٰ رده إلىٰ أربابه، ولأن النفس أمرة بالسوء، خاصة وأنها متعلقة بالمال والتكثر منه، فربما أغرته نفسه بالعودة طمعاً في الدنيا فكان إيهام الجزاء مناسباً ليكون علىٰ وجل دائم وتعلق بالعفو(٣)؛ ولهذا أعقبه بالوعيد الشديد.

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾: الجملة وعيد وتهديد علىٰ العودة بعد التحريم، توثيقاً للنفوس ومنعاً لها عن العودة للربا.

---

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (٣/ ٨٤).

(٢) وفي هذا دليل علىٰ أن من أصول التربية الموعظة من الشر والحمية منه، قال البقاعي: (قال الحرالي: في إشعاره أن من أصل التربية الحمية من هذا الربا) انظر: «نظم الدرر» (٤/ ١٣٢).

(٣) وهو منهج قرآني عظيم في التربية. فإن تعليق الجزاء وإيهامه، يبعث في النفس تخوفاً وقلقاً مستمراً يمنع من العودة.

- أنَّ مَن تَعامَل بالرِّبا فإنه يُصاب بالنَّهْمة العظيمة في طلَبِه كما في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾.

- قوله: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾: التَّعبير عنه بالأكل؛ لأنَّه مُعظَم ما قُصِد به، ولشيوعه في المطعومات، مع ما فيه من زيادة تَشنيعٍ لهم، وهو الزِّيادة في المقدار.

- أنَّ الشَّيطان يتخبَّط بني آدم فيَصرَعه؛ ولا عِبْرة بقول مَن أَنكَر ذلك كما في قوله: ﴿يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾.

- مُبالَغة أهل الباطل في ترويج باطلِهم؛ لأنَّهم جعَلوا المقيسَ هو المقيس عليه؛ لقولهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾؛ وكان مقتضىٰ الحالِ أن يقولوا: إنَّما الرِّبا مِثْل البيع.

- أنَّ الحُكْم لله -تبارك وتعالىٰ- وحده؛ فما أحلَّه فهو حلال؛ وما حرَّمه فهو حرام، سواء علِمْنا الحِكمةَ في ذلك، أم لم نعلم؛ لأنَّه تعالىٰ ردَّ قولهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ بقوله تعالىٰ: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾؛ فكأنَّه قال: ليس الأمرُ إليكم؛ وإنَّما هو إلىٰ الله.

- أنَّ بين الرِّبا والبيعِ فرقًا أوجب اختلافَهما في الحُكْم؛ فإنَّا نعلم أنَّ الله تعالىٰ لا يُفرِّق بين شيئين في الحُكْم إلَّا وبينهما فرقٌ في العِلَّة، والسبب المقتضي لاختلافهما؛ لقوله تعالىٰ: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ التين: ٨، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ المائدة: ٥٠.

- أنَّ ما أخذه الإنسانُ من الرِّبا قبل العلم فهو حلالٌ له بشَرْط أنْ يتوب، وينتهي؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾.

- أنَّه لو تاب من الرِّبا قبل أن يَقبِضه، فإنَّه يجب إسقاطُه؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَٱنتَهَىٰ﴾؛ ومَن أخذه بعد العِلم، فإنَّه لم يَنتهِ.

- التَّخويف من التَّفاؤل البعيد لمَن تاب من الرِّبا؛ لأنَّه تعالىٰ قال: ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ يعني أنَّ الإنسانَ يتفاءل، ويُؤمِّل؛ لأنَّ الأمر قد لا يكون علىٰ حَسَب تفاؤله .

- رأفة الله تعالىٰ بمَن شاء مِن عباده؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ﴾؛ وهذه رِبوبيَّة خاصَّة تَستلزِم توفيق العبدِ للتَّوبة، حتىٰ ينتهي عمَّا حرَّم الله عليه .

- ولَمَّا كان التَّخويفُ من المُحسِن أردعَ؛ لأنَّ النَّفْس منه أَقْبَلُ قال: مِنْ رَبِّهِ: أي: المُربِّي له، المُحسِن إليه بكلٍّ ما هو فيه من الخير .

﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ٢٧٦﴾

غرض الآية:

بيان مآل الربا والصدقة حقيقة، إبطالاً لفساد الاعتقاد بضد ذلك، وهو متضمن التنفير من الربا والترغيب في الصدقات.

البصائر والحكم

- المراد بقوله تعالىٰ: ﴿يَمۡحَقُ﴾ و ﴿وَيُرۡبِي﴾ ووجه التعبير بهما: المحق هو النقص والذهاب، ومنه محق القمر وهو انتقاصه[(١)]، والتعبير به مناسب لأنه بعكس ما يظنه المرابي فيه من الزيادة، وقوله تعالىٰ: ﴿يربي﴾ أي ينميها حقيقة في الدنيا بالبركة وكثرة الأرباح في المال الذي خرجت منه، وفي الآخرة بمضاعفة الحسنات والأجور الحاصلة بالصدقة[(٢)].

(١) انظر: «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٧٦٠).
(٢) انظر: «البحر المحيط» (٢/ ٧١٠).

- **وجه ختام الآية بقوله تعالىٰ:** ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾: لبيان حكم المكذبين والمخالفين لأمر الله في الصدقات والربا، وهم المصرون علىٰ الربا، والمتمادون علىٰ الإثم فيه[1].

- **وجه التعبير بالكفّار والأثيم:** التعبير بالكفّار للدلالة علىٰ الإصرار علىٰ الكفر والتكذيب، والتعبير بالأثيم للدلالة علىٰ التمادي في الإثم، وهذان الوصفان لا يليقان إلا بمن ينكر تحريم الربا فيكون جاحداً[2].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾

◈ غرض الآية:

الثناء علىٰ المؤمنين المصدقين بذكر أشرف صفاتهم، في مقابل ذم الكفار المكذبين بذكر أقبح صفاتهم، وهذا من عادة القرآن في إتباع الوعيد بالوعد، تحذيراً وترغيباً[3].

البصائر والحكم

- **وجه تخصيص الصلاة والزكاة:** تخصيص الصلاة والزكاة تشريفٌ لهما، وتنبيهٌ علىٰ قدرهما؛ إذ هما رأس الأعمال[4].

---

(١) «جامع البيان» (٣/ ١٠٦).

(٢) «مفاتيح الغيب» (٧/ ٨٤).

(٣) انظر: «مفاتيح الغيب» (٧/ ٨٤).

(٤) انظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٣٧٣).

- وجه ختم الآية بقوله تعالىٰ: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ووجه تكرارها: تطمين للمؤمنين المصدقين وتبشير لهم بالأمن وزوال الخوف والحزن عنهم، وتعريض بالمكذبين الآكلين للربا، وتوعد بحصول الخوف والحزن وكمال الإثم لهم، وفي تكرار هذا الجزاء للمؤمنين تذّكير لهم بالوعد الذي كرره في آيات الإنفاق، وفي ذلك من تهييج النفوس علىٰ الامتثال مالا يخفىٰ، كما أن فيه ربطـًا بين الأمر بالإنفاق والنهي عن الربا.

- في قوله تعالىٰ: ﴿ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: دلالةٌ علىٰ أنَّه لابد مع الإيمان من العمل الصالح، وأنَّ العمل لا يُفيد حتىٰ يكون صالحًا؛ والصَّلاح أن ينبني العملُ علىٰ أمرين: الإخلاص لله عزَّ وجلَّ، وضده الشِّرك. والمتابعة، وضدها البِدْعة.

- في قوله تعالىٰ: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ الإشارةُ إلىٰ عظمةِ هذا الثَّواب؛ لأنَّه أضافه إلىٰ نَفْسه- تبارك وتعالىٰ- والمضاف إلىٰ العظيم يكون عظيمًا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَوٰا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾

غرض الآية:

الأمر بترك ما بقي من الربا مما عقد عليه، أو لم يعقد.

البصائر والحكم

- وجه افتتاح الآية بنداء الإيمان والأمر بالتقوىٰ: تهيئة نفوس المؤمنين لتلقي الأمر؛ ولذا افتتح الله تعالىٰ هذه الآية بنداء الإيمان تحريضـًا علىٰ قبول الأمر، وبدأ بأمرهم بالتقوىٰ لأنها الأصل الباعث علىٰ الامتثال والاجتناب؛ ولأن ترك الربا من جملتها[1].

---

(١) «البحر المحيط» (٢/ ٧١٢).

- **وجه ختام الآية بقوله تعالىٰ: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ مع أنه وصفهم بالإيمان في أول الآية**: أنه لما أمرهم بترك ما بقي من الربا بيّن أن ذلك مستلزم لإيمانهم؛ أي: إن كنتم مؤمنين حقًا، وهذا لا ينافي قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إذ معناه يا أيها الذين دخلوا في الإيمان ذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين حقًا[1].

- **أنَّه إذا كان الشيءُ مهمًّا،** فإنَّه ينبغي أن يُصدَّر بما يُفيد التَّنبيه من نداء، أو غيره كما في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ....﴾.

- **قوله:** ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾: فيه مناسبةٌ حسنة، حيث أُمرِوا بتقوىٰ الله قبل الأمر بترْك الرِّبا؛ لأنَّ تقوىٰ الله هي أصلُ الامتثال والاجتناب؛ ولأنَّ تَرْك الرِّبا من جُمْلتها .

- **رحمة الله سبحانه وتعالىٰ بعباده، حيث حرَّم عليهم ما يتضمَّن الظلم؛** وأكَّد هذا التَّحريم، وأنزل القرآن فيه بلفظ يَحمِل علىٰ تَرْك هذا المُحرَّم؛ لقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ والحُكْم: ﴿وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾.

- **وجوب ترْك الرِّبا** «سواء سمِّي بهذا الاسم الصَّريح، أو سمِّي بغيره كـ«الفائدة»- وإن كان قد تَمَّ العَقْد عليه؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾؛ وهذا في عَقْدٍ استُوفي بعضه، وبقِي بعضه .

- **أنه لا يجوز إنفاذُ العقود المُحرَّمة في الإسلام**- وإن عُقِدت في حال الشِّرك؛ لعموم قوله تعالىٰ: ﴿وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾.

- **أنَّ أخذ الرِّبا يُنافي الإيمان؛** لقوله تعالىٰ: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

---

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (٣/ ٩٤).

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾

◈ غرض الآية:

التهديد علىٰ عدم ترك ما بقي من الربا بالحرب من الله ورسوله مبالغة في النهي، وبيان مالهم بعد ذلك.

◈ معاني الآية:

- **الخطاب في قوله تعالىٰ: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟﴾:** هو خطاب للمؤمنين المصرين علىٰ معاملة الربا، تهديداً لهم وتشديداً، وهو كذلك خطاب للمستحلين، تهديداً بالحرب والقتل؛ لأن الآيات في الأصل من أولها في المستحلين، ثم في المؤمنين فتكون شاملة لهم.

- **المراد بالحرب في الآية:** هو الحرب حقيقة، وفيه مبالغة في التهديد والوعيد كما جاء في الحديث: «من عادىٰ لي ولياً فقد آذنته بالحرب»[1].

البصائر والحكم

- **المراد بقوله تعالىٰ: ﴿فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾:** بيان عقوبة المصرين علىٰ الربا، وعدم فعل ما أمر الله به من ترك الربا.

- **القراءات في قوله تعالىٰ: ﴿فَأْذَنُوا۟﴾ ودلالاتها:** ورد فيها قراءتان:

القراءة الأولىٰ: ﴿فَأْذَنُوا۟﴾ بهمزة من غير مد، علىٰ معنىٰ فاعلموا.

القراءة الثانية: ﴿فآذِنوا﴾ بالمد، علىٰ معنىٰ أعلموا من لم ينته عن ذلك بحرب[2].

---

(١) أخرجه البخاري ٥/ ٢٣٨٤ برقم ٦١٣٧ وابن حبان ٢/ ٥٨ برقم ٣٤٧

(٢) انظر: «البحر المحيط» (٢/ ٧١٤).

والقراءتان دالتان علىٰ معنىٰ المبالغة في التهديد؛ لأن الأولىٰ دالة علىٰ العلم به، والثانية دالة علىٰ الإعلام بذلك ونشره، ودالة أيضاً علىٰ معنىٰ تثبيت الأمر في النفس بعد النظر فيه.

- **وجه التشديد في الوعيد والتهديد بالحرب علىٰ آكل الربا:** المصر علىٰ أكل الربا معاند لله تعالىٰ، مناقض لحكمه وأمره فكان كالمحارب لله تعالىٰ، فناسب تهديده بذلك، وأن الربا إفساد وقطع لمصالح الناس، وتسلط عليهم، فهو كالإفساد في الأرض يحتاج إلىٰ قوة تقهره وتمنعه من ظالمه وإفساده، قال الدوسري: «وإنما شدد الله عليهم في وعيده؛ لأن المنتظر حلول دينه مدة طويلة يظن أن الزيادة الربوية أصبحت حقاً.. فيحتاج في منعه عنها وردعه إلىٰ تشديد عظيم في الوعيد»[(١)].

- **المراد بقوله تعالىٰ:** ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾: بيان ما لَهم من أموالهم في معاملاتهم بالربا بعد التوبة، تأكيداً لاستحقاقهم رأس المال وإبطال الزائد منه.

- **وجه قوله:** ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾: إشارة إلىٰ الحكمة من تحريم الربا، وهي الظلم، وإنما قال: ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ إظهار العدل معهم برد رأس المال لهم، تحفيزاً علىٰ الامتثال، وفيه إلزام للغريم برد رأس المال؛ ولذا أتبعها بحاله إن كان معسراً، وفي الجملة دليل علىٰ أن آكل الربا ظالم، وظلمه في الربا ظاهر بظلم الغريم بطلب زيادة علىٰ رأس المال بلا عوض[(٢)].

- **الردُّ علىٰ الجبريَّة؛** لقوله تعالىٰ: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟﴾؛ لأنَّ الجبريَّة يقولون: إنَّ الإنسان لا يستطيع الفِعلَ، ولا الترك؛ لأنه مُجبَر، وحقيقة قولهم تعطيل الأمر

(١) «صفوة الآثار والمفاهيم» (٣/ ٥٤٠).

(٢) انظر: «البحر المحيط» (٢/ ٧١٦).

والنَّهي؛ لأنَّ الإنسان لا يستطيع أن يفعلَ ما أُمِر به، ولا تَرْك ما نُهِي عنه .

- أنَّ المرابي إذا كان مُعلِنًا الحرب علىٰ الله ورسوله، فهو مُعلِن الحرب علىٰ أولياء الله ورسوله، وهم المؤمنون؛ وذلك بدَلالة الالتزام؛ لأنَّ كلَّ مؤمن يجب أن يَنتصِر لله، ورسوله؛ فالمؤمنون هم حِزب الله عزَّ وجلَّ ورسوله .

- في قوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ رحمةُ الله سبحانه وتعالىٰ بالعبادِ؛ حيث أَرسَل إليهم الرُّسلَ؛ لأنَّ العقول لا يُمكِن أن تَستقِلَّ بمعرفة ما يَنفعها ويَضُرُّها علىٰ وجه التَّفصيل؛ لقُصُورها، إنَّما تَعرِفه علىٰ سبيل الجُمْلة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ الإسراء: ٨٥؛ فمِن أَجْلِ ذلك أَرسَل اللهُ الرُّسلَ؛ فكان في هذا رحمةٌ عظيمة للخَلْق .

- مُراعاة العدلِ في معاملة النَّاس بعضهم مع بعض؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ .

- أنَّه لا يجوزُ أخذ ما زاد علىٰ رأس المال من الرِّبا لأيِّ غرضٍ كان؛ سواء أخذه ليتصدَّق به، أو ليَصرِفه في وجوه البِرِّ تَخلُّصًا منه، أو لغير ذلك؛ لأنَّ الله أمر بتَرْكه؛ ولو كان هنا طريقٌ يُمكِن صَرْفه فيه لبيَّنه الله عزَّ وجلَّ .

- الإشارة إلىٰ الحِكمةِ من تحريم الرِّبا، وهي ما فيه من الظُّلم؛ لقوله تعالىٰ: ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ .

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ٢٨٠﴾

◈ غرض الآية:

الأمر بالنظرة حال العسرة وعدم المال.

◈ معاني الآية:

- **المقصود بالحكم في الآية:** الآية في إنظار المعسر في الربا، وهي متضمنة غيره بالقياس؛ لأن الإعسار هو الأصل في وقوع الربا؛ لأن المرابي لا يزيد في الربا إلا حال عجز الغريم عن السداد فيقول «إما أن تقضي أو ترابي».

- **حكم إنظار المعسر:** إنظار المدين في الربا واجب منعًا من مطالبته بالقضاء أو الزيادة، وأما إنظار المدين في غير الربا فإن كان العسر من العدم فهو واجب، وإن كان العسر ما دون العُدم، فالأظهر فيه الاستجباب والندب.

- **المراد بالتصدق في الآية:** المراد بالتصدق إسقاط الدين أو بعضه؛ لأن الغرض النظرة حال العسرة وعدم المال.

البصائر والحكم

- **وجه قوله تعالىٰ: ﴿وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾:** الترغيب بالتصدق علىٰ المعسر بإسقاط الدين عنه بعد الأمر بإنظاره.

- **القراءات في قوله تعالىٰ: ﴿تَصَدَّقُواْ﴾ ومناسبتها، والمراد بالتصدق:** ورد في قوله تعالىٰ: ﴿تَصَدَّقُواْ﴾ قراءتان بالتخفيف والتشديد[1]، وهما دالان علىٰ التصدق ببعض الدين أو كله، فالتخفيف فيه حث دال علىٰ التصدق ببعضه، والتشديد مبالغة في الحث، فهو دال علىٰ التصدق بجميعه.

- **وجه التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ والمراد بالخير:** للدلالة علىٰ عموم الخير في التصدق، وهو إغراء لهم، والمراد به عموم خيري الدنيا والآخرة.

---

(١) انظر: «البحر المحيط» (٢/ ٧١٩).«التيسير» (ص٨٥)، «النشر» (٢/ ٢٣٦).

- وجه ختم الآية بقوله تعالىٰ: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: أن فيه دعوة للتفكر في ذلك والعلم به مما يبعث علىٰ العمل والامتثال، ولا شك أن الإنسان إذا كان عالمـًا بالخيرية له والفضل دعاه ذلك إلىٰ التصدق، وإلا فلا.

- وجه ختام آيات الربا بهذه الآية: أنه ابتدأ بالتغليظ علىٰ آكلي الربا والتشنيع عليهم، ثم تدرج في خطاب المؤمنين بترك ما بقي من الربا وما لهم فيه، ثم ختم ذلك بالأمر بالصدقة والعفو الذي هو مضاد لقصد الربا؛ فكأنه رد الخطاب إلىٰ آيات الصدقة، بغرض تحويل القلوب من الغيظ والقسوة والعداوة بالربا، إلىٰ توثيق جانب الرحمة والألفة والتعاون.

- حِكمة الله عزَّ وجلَّ بانقسام الناس إلىٰ مُوسِر، ومُعسِر؛ المُوسِر في الآية: الدائن؛ والمُعسِر: المَدين؛ وحِكمة الله عزَّ وجلَّ هذه لا يُمكِن أن تستقيم أمورُ العباد إلَّا بها .

- أنَّ الحُكمَ يدور مع عِلَّته وجودًا وعَدَمًا؛ لأنَّه لَمَّا كان وجوب الإنظار مُعلَّلًا بالإعسار، صار مستمرًّا إلىٰ أن تزول العِلَّة- وهي العُسْرة- حتىٰ تجوز مطالبته .

- تَفاضُل الأعمال؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، وتَفاضُل الأعمال يَستلزِم تَفاضُلَ العامل، وأنَّ العاملين بعضهم أفضل من بعض، وهذا أمرٌ معلوم بالضرورة الشَّرعيَّة والعقليَّة؛ أنَّ العمال يَختلِفون.

- فضيلة الإبراء من الدَّين، وأنَّه صَدقة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ والإبْراءُ سُنَّة، والإنظار واجب، وهنا السُّنَّة أفضلُ من الواجب بنصِّ القرآن؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ .

-فضيلة العِلم، وأنَّ العِلم يَهدي صاحبَه إلىٰ الخير؛ لقوله تعالىٰ: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١﴾

◈ غرض الآية:

الأمر بتذكر يوم الحساب والجزاء.

البصائر والحكم

- هذه الآية آخر آية نزلت في كتاب الله تعالىٰ، كما دل علىٰ ذلك ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس قال: «آخر آية نزلت علىٰ النبي ﷺ ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾».

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾: موعظة لأهل الأموال والأمر بتذكر يوم الحساب.

- التعبير بقوله: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ﴾: هنا خص كل نفس بعد التعميم، ولم يقل ﴿ثم توفون﴾، ولا شك أن ذلك مناسب لتوجيه الخطاب لصاحب المال، وخاصة آكل الربا، للدلالة علىٰ أنه مخصوص بهذا الخطاب، وأنه لا بد له من الحساب.

- التعبير بالكسب دون العمل، ليناسب حالهم في كسب أموالهم في الدنيا، وأن هذا الكسب الذي أخذوه سيحاسبون عنه، كما سيحاسبون عن كل كسب وعمل.

- التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ إشارة إلىٰ العدل الإلهي في المحاسبة والجزاء، وأنهم وإن ظلموا وتجاوزوا في أعمالهم ومنها أكل الربا فإن

الله تعالىٰ لن يظلمهم، وإنما سيجازيهم بقدر ظلمهم.

- الردُّ علىٰ الجبريَّة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوۡمًا﴾؛ لأنَّ توجيه الأمْر إلىٰ العبد- إذا كان مجبراً- من تكليفِ ما لا يُطاق.

- في قوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوۡمًا﴾؛ أنَّ التَّقوىٰ قد تُضاف لغير الله- لكن إذا لم تَكُن علىٰ وجه العبادة؛ فيُقال: اتَّقِ فلانًا، أو: اتَّقِ كذا؛ وهذا في القرآن والسُّنَّة كثير . حيث المراد بها المعنىٰ اللُّغوي.

- أنَّ الصَّغير يُكتَب له الثَّواب؛ وذلك لعموم قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٍ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ
وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ
ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ
مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن
يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن
لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ
إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا
تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ
وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا
بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا
يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ
وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٨٢﴾ ۞ وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ
وَلَمۡ تَجِدُواْ كَاتِبٗا فَرِهَٰنٞ مَّقۡبُوضَةٞۖ فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ
أَمَٰنَتَهُۥ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ
قَلۡبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٢٨٣﴾﴾ (البقرة: ٢٨٢ – ٢٨٣)

هاتان الآيتان واردتان في سياق حفظ الأموال والحقوق وبيان وجوه توثيقها، وهما تمثلان نظاماً مالياً عظيماً في حفظ مال الأمة وحسن تدبيره وتنميته لإنفاقه على الوجه المطلوب بما يحقق بناء نظام الدولة المسلمة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُ.... ﴾ ﴿٢٨٢﴾

◈ غرض الآية:

بيان أصول أحكام المداينات والمعاملات المالية وضبطها بالكتابة والإشهاد، ولذلك سميت بآية الدين.

البصائر والحكم

- **وجه كون آية الدين أطول آية في كتاب الله:** للتأكيد والتفصيل بما يدل علىٰ كمال عنايته تعالىٰ بحفظ الحقوق المالية الدنيوية، وأنه لما كان أعظم ما تضمنه القرآن وأكد عليه حفظ الحقوق، ومنع الظلم وإقامة العدل، جاءت هذه الآية المتعلقة بحفظ حقوق الناس في أموالهم أطول آية في كتاب الله تعالىٰ دليلاً وتأكيداً لهذه العناية الإلهية من رب العالمين مباشرة، ولم يعهدها لنبيه؛ لأنه تعالىٰ هو ربهم القائم بمصالحهم.

- **وجه كونها من آخر ما نزل:** للتأكيد علىٰ لزوم حفظ الحقوق، وأن الله تعالىٰ جعل هذه الآية مع قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ آخر ما نزل من كتابه، وضمنها التأكيدات والمبالغات بالتوثيق والكتابة والإشهاد لتكون آخر وصية من الله تعالىٰ يبلغها رسول الله ﷺ لأمته؛ فكأنها وصية رسول الله ﷺ كتبها للناس قبل موته.

- **وجه كونها آية واحدة لم تفصل:** للدلالة والتأكيد علىٰ استقرار حكمها وثباتها، وأنه لم يرد عليه نسخ أو تغيير، فهو من باب توثيق الحكم، وأن ذلك مشعر بأنها كالوصية الواحدة ذات الغرض الواحد، وأن ذلك دال علىٰ وجه من وجوه الإعجاز؛ ولذلك جاءت الآية بأسلوب مختلف عن غيرها متضمن تأكيدات، وتكرار للفظ الكتابة، وتفنن في العبارات.

- **وجه التأكيد والمبالغة والتكرار في أمر الكتابة:** أرشد تعالىٰ إلىٰ هذا النظام العظيم وهو أهمية التدوين في البيوع والمداينات والأموال؛ لأنه سبب حفظها وتنميتها وحسن تدبيرها، وأن الآية ابتداءً نازلة علىٰ قوم أميين لا يعرفون الكتابة، فكأن في هذه التأكيدات تأكيداً علىٰ تعلمها وحثاً عليها وتوثيقاً لأهميتها في النفوس، ولكون الآية من آخر ما نزل من القرآن، فكأنها وصية للأمة بالكتابة، وليكون تعلمهم لها واعتيادهم علىٰ كتابة حقوقهم، سبباً لتدوين الشريعة والوحي بعد انقطاعه.

﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ .... ﴿٢٨٢﴾﴾

◈ غرض المقطع:

بيان الطريق الأول من طرق التوثيق وهو الكتابة، والتأكيد عليه، وبيان ضوابطه.

◈ معاني المقطع:

- **المراد بالتداين في قوله تعالىٰ: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم﴾:** أنه عام في كل بيع فيه دين إلىٰ أجل من قرض أو من بيع أو غير ذلك، ويدخل في ذلك السلم؛ لأن غرض الآية كما تبين في أحكام المداينات وضبطها بالكتابة والإشهاد، وهذا لا يمكن القول بتخصيصه في السلم.

- **حكم التداين:** التداين جائز بنص الآية لقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾ وهذا إقرار له، لكن سياق الآية دال علىٰ عدم الأمر به مما

يشعر بكراهته؛ لأن الآية ليس فيها تصريح في الأمر به، وإنما الأمر بلزوم الكتابة والإشهاد فيه، ولعل هذا هو سر عدم الأمر به، وهو كونه بيعاً.

- حكم الأمر في قوله تعالىٰ: ﴿فَٱكْتُبُوهُ﴾: أن الأصل: الندب والتأكيد والمبالغة علىٰ التوثيق، لا للإلزام والإيجاب، ولكن يجب توثيق الديون حال الخوف، ومظنة ضياع الحقوق؛ لأن الغرض التأكيد علىٰ حفظ الأموال والحقوق وتوثيقها.

- المراد بالأمر في قوله ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾: أن الأصل الندب، ولكن يجب إذا تعين ولم يكن غيره؛ لأن غرض هذه الجملة التأكيد علىٰ الكاتب بالكتابة، فإذا توقف الأمر عليه لزمه.

- المخاطب في قوله: ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ وقوله: ﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾: يشمل الكاتب والمملي؛ لأن الغرض هو ضبط الحق وتوثيقه، والبخس ينافي ذلك.

البصائر والحكم

- وجه قوله ﴿بِدَيْنٍ﴾ مع دلالة قوله تعالىٰ: ﴿تَدَايَنتُم﴾ عليه: إظهار للمقصود، وتصريح به، وتأكيد عليه، وأن التصريح به، تأكيد علىٰ دخول أي دين، صغيراً كان أو كبيراً، علىٰ أي وجه كان، وأي نوع كان، وأنه لو اقتصر علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿تَدَايَنتُم﴾ لاحتمل دخول بيع الدين بالدين، وهو محرم، فاحترز بالتصريح[1].

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: بيان وجوب تعيين آجال الديون وتحديدها بأجل مسمىٰ، منعاً للتنازع والاختلاف، والجملة دليل علىٰ أن الدين

(١) انظر: «مفاتيح الغيب» (٧/ ٩٥).

المجهول الأجل لا يجوز، لقوله تعالىٰ: ﴿مُّسَمًّى﴾[1].

- قوله تعالىٰ: ﴿مُّسَمًّى﴾ يفيد لزوم تحديده بزمن معلوم وهو المؤقت بالسنة واليوم.

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾، ووجه تخصيص العدالة: بيان لكيفية الكتابة المأمور بها، وتعيين من يتولاها إثر الأمر بها إجمالاً[2]، والتعبير بقوله تعالىٰ: ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾ دون أن يقول: ﴿عادلاً﴾ لأن المقصود هو العدالة في الكتابة لا في الكاتب، والآية دالة علىٰ الأمر بلزوم اختيار الوالي كتاباً للناس عدولاً مرضيين[3].

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ﴾: الجملة واردة فيما يلزم الكاتب، وهو وجوب كتابته إذا تعيَّن، ولم يكن كاتب غيره أو عُيّن للكتابة من قبل الوالي؛ لأن الغرض ضبط الحقوق، وأيضا الحث علىٰ العلم المؤدي إلىٰ ضبط الحقوق، ومنها علم الكتابة، والعلم الشرعي وخاصة علم المعاملات.

- فائدة قوله تعالىٰ: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾: الجملة متضمنة فضيلة كتابة العلم ونشره؛ لأنه مما علمه الله للإنسان، وكل ذلك يؤكده التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾.

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾، والمراد بالإملاء ووجه الأمر به، ووجه التشديد في الآية: الجملة واردة في بيان ما يلزم الذي عليه الحق والكاتب، منعاً للحيف والظلم، وتوثيقاً للحق،

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٣٧٨).

(٢) «روح المعاني» (٢/ ٥٤).

(٣) انظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٣٧٩).

والمراد بالإملاء هنا إملاؤه للحق إقراراً به، ولا يلزم أن يكون هو الذي يملل للكتابة؛ إذ الإملاء هو إلقاء الكلام ليكتب عنه أو ليروىٰ أو ليحفظ[1]، والتشديد علىٰ المملي والكاتب في الآية، بالجمع بين الأمر بالاتقاء والنهي عن البخس لأن الغرض ضبط الحق وتوثيقه، منعـاً للظلم، وقطعـاً للتنازع؛ ولأنهما مظنة البخس والتغيير.

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾: بيان الأحوال التي ينوب فيها الوكيل في الإقرار عن الذي عليه الحق إذا تعذر إقراره بنفسه، توسيعـاً عليهم في باب الإقرار والإملاء.

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِ﴾: بيان ما يلزم الولي النائب عن الذي عليه الحق، وهو إملاله بالعدل حفظـاً لحق الطرفين، والولي هنا يشمل القيِّم والوكيل والمترجم، وإنما عبّر بالولي لأنه الغالب، والجملة دليل علىٰ جواز النيابة في الإقرار إذا ظهر سببه[2].

- أنَّ التزامَ هذه الأحكام الواردة في آية الدَّين من مقتضىٰ الإيمان؛ لأنَّه لا يوجَّه الخطابُ بوصْف إلَّا لِمَن كان هذا الوصف سببًا لقَبُوله ذلك الحُكْم؛ لقوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم ...﴾.

- أنَّ مُخالَفة هذه الأحكام نَقْصٌ في الإيمان كأنَّه قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ لإيمانكم افْعَلوا كذا؛ فإنْ لم تفعلوا فإيمانكم ناقِصٌ؛ لأنَّ كلَّ مَن يدَّعي الإيمان، ثم يُخالِف ما يَقتضيه هذا الإيمانُ، فإنَّ دعواه ناقصةٌ؛ إمَّا نقصًا كليًّا، أو نقصًا جزئيًّا .

- العِناية بما ذُكِر من الأحكام في آية الدَّين؛ وذلك لتصدير الحُكْم بالنِّداء، ثم

(١) انظر: «البحر المحيط» (٢/ ٧٢١)، «التحرير والتنوير» (٣/ ١٠٣).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (١/ ١٤٤)، «تفسير القرآن الكريم لابن عثيمين» (٣/ ٤١٥)..

توجيه النِّداء إلىٰ المؤمنين؛ لأنَّ هذا يدلُّ علىٰ العناية بهذه الأحكام، وأنَّها جديرة بالاهتمام بها .

- بيان أنَّ الدِّينَ الإسلاميَّ كما يَعتني بالعبادات- التي هي معاملة الخالق- فإنَّه يَعتني بالمعاملات الدَّائرة بين المخلوقين، والردُّ علىٰ الذين يقولون: إنَّ الإسلام ما هو إلَّا أعمال خاصَّة بعبادة الله عزَّ وجلَّ، وبالأحوال الشَّخصية، كالمواريث، وما أَشْبهها.

- أنَّه تَجوزُ جميعُ أنواع المُداينات من سَلَم وغيره؛ لأنَّ الله أخبر عن المُداينة التي عليها المؤمنون إخبارًا مقرِّرًا لها، ذاكرًا أحكامها، وذلك يدلُّ علىٰ الجواز.

- وجوب كتابة الدَّين المؤجَّل؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَٱكۡتُبُوهُ﴾.

- حضور كلٍّ من الدائن والمَدين عند كتابة الدَّين؛ لقوله تعالىٰ: ﴿بَّيۡنَكُمۡ﴾؛ ولا تتحقَّق البينيَّةُ إلا بحضورهما .

- يُشترط أن يكونَ الكاتب عارفًا بكتابة الوثائق وما يَلزَم فيها كلَّ واحد منهما، وما يَحصُل به التَّوثُّق؛ لأنَّه لا سبيلَ إلىٰ العدل إلَّا بذلك، وهذا مأخوذٌ من قوله: ﴿وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِ﴾.

- أنَّه يجب علىٰ الكاتب أنْ يكتُبَ بالعدل، بحيث لا يُجحِف مع الدائن، ولا مع المدين؛ و﴿العدل﴾ هو ما طَابَق الشَّرعَ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗا﴾ الأنعام: ١١٥.

- أنَّه لا يُشترَط تعيينُ كاتب للنَّاس بشخصِه، وأنَّ أيَّ كاتب يتَّصِف بإحسان الكتابة والعدل، فكتابتُه ماضيةٌ نافذة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِ﴾؛ وهي نكرة لا تُفيدُ التعيينَ.

- في قوله تعالىٰ: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبُۢ بِٱلْعَدْلِ﴾ دلالةٌ علىٰ العمل بالكتابة، واعتمادها حُجَّة شرعيَّة إذا كانت من ثِقةٍ معروفٍ خطُّه .

- قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبُۢ بِٱلْعَدْلِ...﴾ الآية، فيه مشروعيَّة تعلُّم الأمور التي يتوثَّق بها المتداينون، كلُّ واحد من صاحبه؛ لأنَّ المقصودَ من ذلك هو التوثُّق والعدل، وما لا يتمُّ المشروع إلا به فهو مشروع .

- أنَّ تَعلُّم الكتابةِ مشروع، بل هو فَرْض كفاية؛ لأنَّ الله أَمَر بكتابة الدُّيون وغيرها، ولا يَحصُل ذلك إلَّا بالتعلُّم .

- تذكير الكَتَبَة بنِعمة الله، وأنَّ مِن شُكْر نِعمة الله عليهم أن يكتُبوا؛ لقوله تعالىٰ: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾ .

- أنَّ الإنسان لا يَستقِلُّ بالعِلم؛ لقوله تعالىٰ: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾؛ حتىٰ في الأمور الحِسيَّة التي تُدرَك عن طريق النَّظر، أو السَّمع، أو الشَّمِّ، لا يَستطيع الإنسان أن يَعلَمها إلَّا بتعليم الله عزَّ وجلَّ .

- أنَّ الرُّجوع في مقدار الدَّين، أو نوعه، أو كيفيَّته؛ بل في كلِّ ما يتعلَّق به إلىٰ المدَين الذي عليه الحقُّ - لا إلىٰ الدَّائن؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾؛ لأنَّه لو أملىٰ الذي له الحقُّ فربما يَزيد.

- في قوله تعالىٰ: ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾ دلالةٌ علىٰ أنَّ إقرارَ الإنسان علىٰ نَفْسه مقبول؛ لأنَّ الله أَمرَ مَن عليه الحقُّ أن يُمْلي علىٰ الكاتب، فإذا كتب إقرارَه بذلك، ثبَت مُوجبه ومضمونه، وهو ما أقرَّ به علىٰ نفْسِه، ولو ادَّعىٰ بعد ذلك غَلَطًا أو سهوًا .

- وجوب تقوىٰ الله عزَّ وجلَّ علىٰ مَن عليه الحقُّ، وأن يتحرَّىٰ العدل؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾.

- أنَّه ينبغي في مقام التَّحذير أن يُذكَر كلُّ ما يكون به التَّحذير؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗا﴾؛ ففي مقام الألوهيَّة يتَّخِذ التَّقوىٰ عبادة؛ لأنَّ الألوهيَّة هي توحيد العبادة؛ وفي مقام الخوف من الانتقام يكون مشهدُه الرُّبوبيَّة؛ لأنَّ الربَّ عزَّ وجلَّ خالقٌ مالِك مُدبِّر.

- أنَّ أسباب القصور ثلاثة: السَّفَه؛ والضَّعف؛ وعدم الاستطاعة؛ فالسَّفَه: ألَّا يُحسِن التَّصرُّف، والضَّعيف: يَشمَل الصَّغير والمجنون؛ ومَن لا يستطيع: يشمل مَن لا يَقدِر علىٰ الإملال لخَرَس، أو عِيٍّ، أو نحو ذلك كما في قوله: ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾.

- قَبُول قولِ الوليِّ فيما يُقِرُّ به علىٰ مولاه؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ﴾.

- ثُبوتُ الوَلاية في الأموال؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ﴾.

- أنَّ الحقَّ يكون علىٰ الصَّغير والسَّفيه، والمجنون والضَّعيف، لا علىٰ وَلِيِّهم، كما قال سبحانه: ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾.

- أنَّ إقرار الصَّغير والسَّفيه، والمجنون والمعتوه ونحوهم، وتصرُّفهم غير صحيح؛ لأنَّ الله جعَل الإملاءَ لوَلِيِّهم، ولم يجعلْ لهم منه شيئًا؛ لطفًا بهم ورحمة؛ خوفًا مِن إتْلافِ أموالهم، كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾.

﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ .... ﴿٢٨٢﴾﴾

◈ غرض المقطع:

بيان الطريق الثاني للتوثيق وهو الشهادة؛ ولذلك شرع في بيان ضوابطها.

◈ معاني المقطع:

- **حكم الإشهاد**: أن الأمر هنا أمر إرشاد، تأكيداً علىٰ التوثيق[1]؛ لأن الغرض هنا المبالغة والتأكيد علىٰ توثيق حقوقهم، دون الإلزام.

- **المراد بالضلال في قوله ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾**: يشمل ضلالها بعدم ضبطها للشهادة بنسيان أو جهل أو غفلة، وضلالها بحيفها في الشهادة وعدم صدقها، لضعف دينها وأمانتها؛ لأن غرض الآية بيان أكمل وجوه التوثيق للشهادة.

- **المراد بقوله ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟﴾ وحكم النهي فيها**: يشمل تحملهم للشهادة ابتداءً؛ أي لا يأبوا إذا دعوا لتحمل الشهادة، وكذلك أداؤهم للشهادة بعد تحملهم؛ إذا دعوا إليها لأدائها؛ لأن الغرض التأكيد والتشديد علىٰ تحمل الشهادة وأدائها حال الدعوة إليها.

---

(١) انظر: «أحكام القرآن لابن العربي» (١/ ٢٥١).

البصائر والحكم

- وجه عطف الجملة علىٰ ماسبق: دليل علىٰ أن الأمر بالكتابة ليست للوجوب، بدليل أنه لا يلزم في التوثيق الجمع بينهما، فكان المقصود بيان الأكمل وتفصيله.

- وجه التعبير بـ﴿شَهِيدَيْنِ﴾ دون ﴿شاهدين﴾: للدلالة علىٰ طلب الوصف الأكمل في الشاهد [(١)]، وهو أن يكون معروفاً بالديانة والأمانة والعدالة.

- اشترط اثنان، ولم يكتف بشهادة عدل واحد؛ لأن الشهادة لما تعلقت بحق معين لشخص علىٰ آخر، فقد يكون الشاهد الواحد غير ملم بالواقعة، أو يكون متواطأ مع أحدهما، أو مائلا لأحدهما، فاحتيج إلىٰ حيطة تدفع التهمة[(٢)].

- دلالة قوله تعالىٰ: ﴿مِن رِّجَالِكُمْ﴾: كونه رجلاً، وهو دال علىٰ عدم قبول شهادة الصبي[(٣)] والمرأة إلا ما دل الدليل عليه بعد ذلك، وفي شهادة العبد خلاف؛ لكن السياق دال عليه بالتعبير بلفظ الرجولة ولا شك أنه من رجال المسلمين[(٤)]، وأن يكون مسلماً؛ لأن الخطاب للمؤمنين، وفيه دلالة علىٰ أنه لا يستشهد الكافر[(٥)].

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾: بيان وصف آخر للشهداء، وهو أن يكون رجل وامرأتان توسيعاً وتيسيراً عليهم في باب

(١) انظر: «البحر المحيط» (٢/ ٧٢٧).

(٢) انظر: «التحرير والتنوير» (٣/ ١٠٨).

(٣) اختلف في جواز شهادة بعضهم لبعض، وجواز شهادتهم في الجروح، انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٢/ ٣/ ٣٩١).

(٤) «الطرق الحكمية» (١/ ٢٤٤).

(٥) انظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٣٨١).

الشهادة، وهو دليل علىٰ جواز شهادة المرأة في المعاملات والتوثيق في الأموال دون الأحكام[1].

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾: بيان ضابط من ضوابط الشهادة، وهو الرضا بالشهداء، وهو معنىٰ العدالة، وهذا وصف زائد علىٰ الإسلام، بدليل قوله في الآية الأخرىٰ ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق ٢] أي ذوي عدل من المسلمين[2].

- صرح بالرضا عنهم دون العدالة؛ لأنه لما تعلق الأمر بالأموال وحفظها، جاء بالغرض، وهو الرضا بهم الذي هو سبب للائتمان والاطمئنان والوثوق، وهذا هو المقصود.

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾: بيان علة جعل المرأتين بمنزلة الرجل في الشهادة، وهي احتمال ضلالها بسبب نقصان دينها وعقلها.

- وجه التعبير بالضلال دون النسيان: أن التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿تَضِلَّ﴾ دال علىٰ أن المقصود عدم ضبطها للشهادة بنسيان أو خطأ أو قصور تعبير وفهم أو غير ذلك، وليس المقصود النسيان فقط، وأن اللفظ دال علىٰ أن المقصود عدم ضبطها لجزء من الشهادة، لا نسيانها جميع الشهادة.

- سبب ضلالهما: ضعف عقلها وذاكرتها مما يؤدي إلىٰ عدم رسوخ المعلومات عندها، وأن المرأة ليس من شأنها عادة وخلقة الاشتغال بالمعاملات المالية والشهادة فيها، فلذلك تكون ذاكرتها فيها ضعيفة.

- وجه إعادة لفظ ﴿إِحْدَاهُمَا﴾: الدلالة علىٰ أن كل واحدة محل للشهادة

---

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٢/ ٣/ ٣٩٢)، «إعلام الموقعين» (١/ ٩١).

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٢/ ٣/ ٣٩٥).

والتذكير، ولو قال (فتذكرها الأخرىٰ) لأوهم أن تكون الأخرىٰ مذكرة لا شاهدة أصلاً[1].

- وجه تقديم الجملة الأولىٰ مع أن حقها التأخير لأن الأصل **(لتذكر إحداهما الأخرىٰ إذا ضلت)**: بيان علة اشتراط المرأتين، وهو نقص عقل المرأة أصلاً، ثم بيان وجه إكمالها، وهو كونها تكمل بشهادة امرأة ثانية، وهذا دال علىٰ فضل الرجل علىٰ المرأة في العقل.

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟﴾ ووجه الإتيان بصيغة النهي دون الأمر: الجملة تأكيد علىٰ أداء الشهادة حال الدعوة لها؛ إتماماً للشهادة، وتوثيقاً للحق، والإتيان بصيغة النهي لأن الغالب في الشهداء الامتناع خوفاً من الضرر.

- أنَّ شهادة العبد البالِغ مقبولةٌ كشهادة الحُرِّ؛ لعموم قوله: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾، والعبد البالِغُ من رِجالنا .

- أنَّ شهادة الكُفَّار -ذُكورًا كانوا أو إناثًا- غير مقبولة؛ لأنَّهم ليسوا منَّا، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾، ولأنَّ مَبنىٰ الشَّهادة علىٰ العَدالة، والكفَّار غير عُدول .

- أنَّ شهادةَ الصِّبيان غير مقبولة؛ لمفهوم لَفْظ الرَّجُل في قوله: ﴿فَرَجُلٌ﴾

- في قوله ﴿وَٱمْرَأَتَانِ﴾ فضيلة الرجُل علىٰ المرأة، وأنَّ الواحد في مقابلة المرأتين؛ لقوة حِفْظه، ونَقْص حِفْظها، لكن قِصَر حِفْظ المرأة وإدراكها عن حِفْظ الرَّجل، وهذا باعتبار الجنس؛ فلا يُرَدُّ علىٰ ذلك بنبوغ بعض النساء، وغفلة بعض الرِّجال .

- جوازُ شهادة الإنسان فيما نَسِيه إذا ذُكِّر به فذكَر؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾؛ فإن ذُكِّر ولم يَذكُر، لم يَشهَد .

---

(١) وأصل هذا الجواب لشهاب الدين الغزنوي. انظر: «التحرير والتنوير» (٣/ ١١١).

- تسمية المدعوين شُهداءَ باعتبار الأوَّل القريب، وهو المُشارَفة، وكأنَّ في ذلك نُكْتةً عظيمة: وهي الإيماءُ إلىٰ أنَّهم بمجرَّد دعوتهم إلىٰ الإشهاد، قد تعيَّنت عليهم الإجابةُ، فصاروا شهداءَ .

﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ .... ﴿٢٨٢﴾

◈ غرض المقطع:

التأكيد علىٰ الكتابة والإشهاد في البيع عموماً مع استثناء حالة التجارة الحاضرة، وبيان حِكم ذلك ترغيباً وتأكيداً.

◈ معاني المقطع:

- المراد بالاستثناء في قوله ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً﴾: يشمل أن يكون متصلا، والمعنىٰ: إلا أن تكون المداينة، ويشمل أن يكون منقطعا، والمعنىٰ: إلا أن تكون المبايعة بينكم تجارة حاضرة أو إلا أن تكون التجارة بينكم تجارة[1]؛ لأن الغرض التأكيد علىٰ الكتابة والإشهاد في البيع عموماً مع استثناء حالة التجارة الحاضرة.

- المراد بالتجارة الحاضرة: ما يحوزه المشتري من العروض المنقولة،

(١) انظر: «البحر المحيط» (٢/ ٧٣٩).

بخلاف الأملاك[١]؛ لأن دلالة السياق عليه ظاهرة من قوله بعد ذلك ﴿تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾.

- المراد بقوله ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾: أي: عموم المضارة؛ لأن الغرض هو المنع من المضارة، وهذا يحتمل المعاني كلها.

البصائر والحكم

- وجه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾: التأكيد علىٰ كتابة جميع الحقوق، ما كان منها صغيراً أو كبيراً.

- وجه التعبير بالسآمة، وتخصيص الصغير والكبير: التأكيد علىٰ الكتابة لكل شيء بعد الأمر العام بالكتابة، ضبطاً لأموال الناس، ومنعاً من النزاع؛ ولذلك علل الحكم في الجملة بعدها تأكيداً وتحفيزاً للنفوس عليه[٢]، وأنه لما كان النهي مشتملاً علىٰ كتابة كل شيء، ومنه الصغير، وكان ذلك مظنة السآمة من كتابته، وعدم الاهتمام به لصغره، ناسب النهي عن السآمة، وذكر الصغير وتقديمه اهتمامٌ به؛ لأنه الأكثر في تعاملاتهم، ودفعٌ لما يطرأ من التوهمات في قلة الاعتناء به واحتقاره؛ ولذلك عبّر بعدم السآمة[٣].

- وجه قوله: ﴿إلىٰ أجله﴾: دلالة علىٰ الأمر بكتابة الأجل وتحديده في كتابة الدين[٤]؛ لئلا يختلف عليه المتعاقدان.

(١) انظر: «البحر المحيط» (٢/ ٧٣٩).

(٢) انظر: «مفاتيح الغيب» (٧/ ١٠١)، «البحر المحيط» (٢/ ٧٣٦).

(٣) انظر: «التحرير والتنوير» (٣/ ١١٤).

(٤) انظر: «البحر المحيط» (٧٣٦).

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ﴾: بيان المقصد الشرعي من الأحكام المأمور بها، وهي الكتابة والشهادة، تأكيداً عليها[1]؛ ولذلك عبّر بأداة البعد والجمع في ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ للدلالة علىٰ عظم جدواها لهم في دينهم ودنياهم[2].

- قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي أعدل، وإنما كان أعدل؛ لأن المكتوب والمشهود عليه أقرب إلىٰ الحق والصواب والعدل بينهم.

- قوله تعالىٰ: ﴿وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: أن الكتابة أثبت لشهادة الكاتب والمتعاقدين والشاهدين بما أقروا به.

- قوله تعالىٰ: ﴿وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ﴾ أي أقرب إلىٰ زوال الشك والارتياب عن قلوبكم جميعاً، من حيث أن عدم الكتابة قد يؤدي إلىٰ الشك في وقوعه، أو اتهام الآخر بالكذب.

- عبر بـ﴿أدنىٰ﴾ دون أقرب، مبالغة في الدلالة علىٰ أثر الكتابة في منع الريبة؛ ولذا عبر بالريبة دون الشك، والريبة أدق من الشك؛ لأن الريبة قد تقع بلا قرائن؛ وإنما هي خوف في النفس من وقوع شيء محتمل، أما الشك فإنما هو مقترن بقرائن تبعث عليه.

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَا﴾: رفع الحرج عن التجارة الحاضرة في الكتابة. تيسيراً عليهم، ولأمن الجحود والنسيان المؤدي للاختلاف والنزاع[3].

---

(١) انظر: «تفسير المنار» (٣/ ١٢٦)، «التحرير والتنوير» (٣/ ١١٤).

(٢) انظر: «نظم الدرر» (٤/ ١٥٦).

(٣) انظر: «إغاثة اللهفان» (٢/ ١٠٤).

- التعبير برفع الجناح: أنه لما كان الأصل دخول هذه الحالة في الأمر بالكتابة، بيّن رفع الحرج فيها للدلالة علىٰ علتها، وهي المشقة، وعدم الضرر.

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾، والمراد بالأمر هنا: بيان مشروعية الإشهاد في البيع مطلقًا، والمراد بالأمر هنا للإرشاد والندب؛ بدلالة أن الآيات واردة للتأكيد والمبالغة في التوثيق.

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾: النهي عن المضارة من المكاتبة والشهادة مطلقًا، منعًا للإضرار بالكاتب والشاهد من قبل أصحاب الحق، والإضرار بأصحاب الحق من قبلهما.

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمْ﴾: تأكيد النهي عن الإضرار، والتأكيد علىٰ ما تضمنته الآية من الأحكام، توثيقًا لها، وتحريضًا عليها، والمراد بالفسوق: المعصية.

- التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمْ﴾ دال علىٰ أن المقصود المبالغة في التحذير؛ إذ المعنىٰ: فإنه أي الضرار فسوق بكم، أي فإنه خروج بكم عن الشرع الذي نهجه الله لكم.

- أنَّ ما ذُكِر من التوجيهات الإلهيَّة في آية الدَّين فيه ثلاثة فوائد: الأولىٰ: أنَّه أَقْسَط عند الله، أي: أعدل عنده؛ لِمَا فيه من حِفْظ الحقِّ لمن هو له، أو عليه. الثانية: أنَّه أقومُ للشَّهادة؛ لأنَّه إذا كُتِب لم يَحصُل النِّسيان. الثالثة: أنَّه أقْربُ لعدم الارتياب .

- أنَّ الشَّهاداتِ تتفاوت؛ فمنها الأقوم، ومنها القيِّم، ومنها ما ليس بقيِّم؛ فالذي ليس بقيِّم هو الذي لم تَتِمَّ فيه شروط القَبول؛ والقيِّم هو الذي صار فيه أدنىٰ الواجب؛ والأقوم ما كان أكملَ من ذلك؛ بدليل قوله تعالىٰ: ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾.

- أنَّه ينبغي للإنسان أن يتجنَّب كلَّ ما يكون له فيه ارتيابٌ وشَكٌّ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾.

- أنَّ الأصل في التِّجارة الدَّوران؛ لقوله تعالىٰ: ﴿تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾.

- أنَّ الإشهاد ينبغي أن يكون حين التَّبايُع؛ بمعنىٰ أنه لا يتقدَّم، ولا يتأخَّر؛ لقوله تعالىٰ: ﴿إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾؛ لأنَّ العَقدَ لم يتمَّ إذا كان الإشهاد قَبْله؛ وإذا كان بعده فربَّما يكون المبيعُ قد تغيَّر .

- في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمْ﴾ دلالةٌ علىٰ أنَّ المضارَّة- سواء وقعتْ من الكاتب، أو الشَّاهد، أو عليهما- فُسُوقٌ؛ والفِسْق يترتَّب عليه زوالُ الولايات العامَّة والخاصَّة إلَّا ما استُثْنِي؛ والفاسق يُهجَر؛ إمَّا جوازًا، أو استحبابًا، أو وجوبًا- علىٰ حسَب الحال- إنْ كان في الهجرِ إصلاحٌ له .

﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ٢٨٢﴾

◈ غرض المقطع:

ختم الآية بما يهيج النفوس ويرغبها ويبعثها علىٰ المبادرة وسرعة الامتثال، فهي كالجائزة والجزاء المترتب علىٰ الأمر.

البصائر والحكم

- وجه ختام الجملة بقوله تعالىٰ: ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: لتأكيد عظمة التوجيهات والأحكام التي تضمنتها الآية بأن تحقيق التقوىٰ فيها بامتثال الأوامر التي تضمنتها كما أمر الله،والانتهاء عما

نهىٰ عنه فيها سبب وطريق لتعليم الله تعالىٰ وتوفيقه للعبد.

- **وجه إظهار اسم الجلالة في الجملتين:** لأنه أدخل في التعظيم، ولاستقلال كل جملة بغرض، حتىٰ إذا ما قرأها القارئ حصل له علم مستقل، وفائدة في كل جملة باعثة علىٰ العمل بما علم.

- **وجه الجمع بين التقوىٰ والعلم:** للتأكيد عليهم وتحريضهم علىٰ تعلم الكتابة، فأمرهم بالتقوىٰ، وهي الحرص وبذل الجهد في تحقيق ما أمرهم الله تعالىٰ به، مع الحرص علىٰ تعلم الكتابة، ووعدهم بأن الله تعالىٰ سيوفقهم ويهديهم، وأن الجمع بين التقوىٰ وتعليم الله دال علىٰ تلازمهما.

- **مناسبة ذكر التعليم للآية، وختم الآية به:** الحث علىٰ تعلم العلم الشرعي، ويؤكده ورودها بعد أحكام المداينات، وهي من أحكام الشريعة، والحث والتحريض علىٰ حفظ علوم الشريعة وتدوينها.

- **أنَّ الأصل في الإنسان الجهل؛ والعلم طارئ عليه؛** لقوله تعالىٰ: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُم مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ النحل: ٧٨.

﴿۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَـٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾

◈ غرض الآية:

بيان طريقين من طرق التوثيق وهي الرهن والائتمان؛ تيسيراً وتخفيفاً واستثناءً من الأمر بالكتابة والتأكيد عليها.

البصائر والحكم

- **وجه تخصيص عذر السفر من الأعذار الأخرىٰ:** أنه حالة ظاهرة في وقوع التداين، بسبب حالة السفر المحتملة لنفاد المال والحاجة له للتجارة وغيرها، وقد كانت أسفارهم غالباً في الغزو والتجارة، وأن فيه تأكيداً عليه؛ لكونه مظنة للهلاك.

- **وجه قوله تعالىٰ: ﴿فَرِهَٰنٌ مَّقۡبُوضَةٌ﴾، والمراد بالرهن، ووجه التعبير بالرهان:** بيان طريق من طرق التوثيق وهو الرهن، والرهن هو ما يوضع وثيقة للدين ليستوفيه من ثمنها أو من ثمن منافعها عند تعذر أخذه من الغريم[1]، وعبر بالرهان لأنه دال علىٰ حالة السفر، من حيث أن الرهان مرتبطة بالخيل التي هي في الجهاد والأسفار، وأنها دالة علىٰ الغرض، وهو التأكيد علىٰ التوثيق من جهة كونها جمع رهن، أو جمع الجمع[2]، ويؤيده ورود قراءة أخرىٰ عن ابن كثير وأبي عمرو بلفظ: ﴿فَرُهُنٌ﴾[3].

- **قوله تعالىٰ: ﴿مَّقۡبُوضَةٌ﴾:** للدلالة علىٰ الغرض، وهو التوثقة في الدين، وفيها دليل علىٰ أن الرهن لا يحكم له في الوثيقة إلا بعد القبض[4].

- **وجه تقييد الرهن بالسفر، وترتبه علىٰ عدم وجود الكاتب:** أن السفر ليس محلاً للكتابة في الغالب؛ إذ قد لا تتوفر وسائله فيه.

- **وجه قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾:** بيان

---

(١) انظر: «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٣٦٧)، «شرح منتهىٰ الإرادات» (٢/ ١٠٣)

(٢) انظر: «جامع البيان» (٣/ ١٤٠).

(٣) انظر: «جامع البيان» (٣/ ١٤٠).

(٤) انظر: «أحكام القرآن لابن العربي» (١/ ٢٦٠).

لحالة من حالات التوثيق، وهي الاستئمان والثقة بين المتعاقدين، وتوثيق للمدين برد الدين، والأمر هنا للوجوب، بقرينة التعبير بالأمانة، التي يجب ردها لأهلها؛ ولقوله بعده ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾.

- أطلق هنا اسم الأمانة علىٰ الدَّين في الذمة لتعظيمها إذ أن اسم الأمانات لها مهابة في النفوس، وأنها من باب المقابلة لاستئمان الدائن، فلزم المدين الأمانة في رد حقه، ولهذا عبر بالأمن والأمانة.

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾: تأكيد وتحذير بعد الأمر بأداء الأمانة لصاحبها.

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾: الجملة ختم لأحكام الآيتين بالوصية بالشهادة في جميع الأحوال، توثيقًا وتأكيداً عليها؛ ولذلك تضمنت الوعيد والتخويف.

- خص القلب في قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ مبالغة في التحذير؛ لأن القلب هو محل الكتمان، وهو ملك الأعضاء.

- وجه ختام الآية بقوله تعالىٰ: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾: مبالغة في التهديد والتحذير، وهو توعد بالحساب والعقاب حال الكتمان، ولاشك أن ذلك باعث علىٰ الخوف والحذر من المخالفة (١)، وهي دالة علىٰ اطلاع الله تعالىٰ عليهم وعلمه بما يعملون، ومن ذلك عملهم في هذه الأمانات والحقوق.

- عِناية الله عزَّ وجلَّ بحِفْظ أموال عباده؛ يعني أنَّه سبحانه وتعالىٰ ذكَر حتىٰ هذه الصُّورة: أنَّ الإنسان إذا دَاينَ غيرَه، ولم يجد كاتبًا، فإنَّه يَرتَهِن رَهْنًا؛ حِفْظًا لماله، وخوفًا من النِّزاع والشِّقاق في المستقبل.

(١) انظر: «مفاتح الغيب» (٧/ ١٠٧).

- أنَّ بعض العلماء استدلَّ بهذه الآية ﴿فَرِهَٰنٌ مَّقۡبُوضَةٌ﴾ علىٰ لُزومِ القَبْض في الرَّهن.

- أنَّه إذا حصَل الائتمانُ من بعضنا لبعضٍ لم يجب رَهْنٌ، ولا إشهاد، ولا كتابة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾.

- أنَّه لو تلِفتِ العينُ بيَدِ الأمين، فإنَّه لا ضَمانَ عليه ما لم يتعدَّ، أو يُفرِّط؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾.

- الردُّ علىٰ غُلاة القَدَريَّة الذين يقولون: إنَّ الله لا يعلم بأفعال العباد إلَّا إذا وقعت؛ فإنَّ قوله تعالىٰ: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ يتضمَّن ما قد عمِلْناه بالفعل، وما سنَعمَله.

﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ
يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ
شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٢٨٤ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ
بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ
سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا
إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ
أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا
وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا
فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٨٦﴾ (البقرة: ٢٨٤ – ٢٨٦)

هذه الآيات الثلاث هي ختام السورة العظيمة التي تضمنت أعظم أصول الإيمان والأحكام، واشتملت على تكليف الأمة بتشريعات مفصلة في جميع شؤون الحياة، فكانت بحق سورة عظيمة محملة بحمل ثقيل، تحتاج إلى إيمان راسخ وقوة راسية؛ ولهذا جاء هذا الختام الموثق والمحفز والمخفف للمؤمنين حتى يحملوا هذه الشريعة العظيمة بأمانة وإيمان وعمل وتطبيق تامّ.

﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ
يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ
قَدِيرٌ ٢٨٤﴾

◈ غرض الآية:

إظهار كمال ملك الله تعالىٰ لما في السموات والأرض الدال علىٰ كمال علمه وقدرته، توثيقاً للإيمان في نفوس المؤمنين.

◈ معاني الآية:

- المراد بقوله ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ ووقوع النسخ في الآية: الآية عامة محكمة غير منسوخة، وأنها ليست في المؤاخذة والعقاب؛ وإنما هي في الإحصاء والمحاسبة والعرض لكل ما عمله الإنسان، ومنه الخواطر؛ لأن الغرض إظهار إحصاء الله تعالىٰ لجميع أعمالهم، دون المؤاخذة والعقاب، وإنما العقاب بحسب الكسب والقصد، وهو معلق بالمشيئة.

البصائر والحكم

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾: بيان محاسبة الله لجميع أعمال المكلفين، تأكيداً وتوثيقاً للقيام بما شرعه لهم، وتحذيراً وترهيباً من المخالفة والكتمان؛ ولهذا عبر بالمحاسبة دون العلم.

- وجه تقديم الإبداء على الإخفاء: لأن المقام مقام محاسبة؛ إذ العفو والصفح فيه أرجىٰ من العقوبة؛ ولهذا قدم قوله تعالىٰ: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾، بخلاف مقام العلم؛ فإنه قدم فيه الإخفاء للدلالة علىٰ كمال العلم كما في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ﴾[آل عمران ٢٩].

- وجه ختام الآية بقوله تعالىٰ: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: لأنها تضمنت إظهار كمال قدرة الله والباعث علىٰ كمال الانقياد له والعمل بما أمر.

-في قوله تعالىٰ: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، إثبات صفاتِ الكَمال لله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّنا إذا تأمَّلنا في هذا المُلْك الواسع العظيم، وأنه يُدبَّر بانتظام لا مثيلَ له، عِلِمنا بأنَّ الذي يدبِّره كاملُ الصِّفات؛ فيُؤخَذ منه كل صِفة كمال لله، كالعِلم، والقُدرة، والسَّمع، والبصر، والكلام، والعزَّة، والحِكمة، وغير ذلك من صِفاته

عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه لا يُمكِن أن يقومَ بمُلْك هذه الأشياء العظيمة إلَّا من هو مُتَّصِفٌ بصفات الكمال .

- **عمومُ عِلْم الله وسَعَته؛** لقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾؛ ولا مُحاسبة إلَّا مِن بعد علم .

- **في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾،** تحذيرٌ للعبد مَن أنْ يُخفي في قلبه ما لا يَرضاه الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ الإنسانَ إذا علِم بأنَّ الله عالمٌ بما يُبدي وبما يُخفي، فسوف يُراقِب اللهَ سبحانه وتعالىٰ؛ خوفًا مِن أنْ يُحاسَب علىٰ ما أخفاه كما يُحاسَب علىٰ ما أبداه.

- **أنَّ الله سبحانه وتعالىٰ لم يُصرِّح بالمعاقبة؛** ولا يَلزَم من المحاسبة المؤاخذةُ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾.

- **إثبات المشيئة لله عزَّ وجلَّ؛** لقوله تعالىٰ: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾؛ ومشيئته تعالىٰ مقرونةٌ بالحِكمة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ الإنسان: ٣٠، وكلُّ شيء أضافه الله إلىٰ مشيئته فهو مقرونٌ بحِكمة؛ لا يَشاءُ شيئًا إلَّا لحِكْمة، أيًّا كان هذا الشَّيء .

- **أنَّه بَعدَ المحاسبة إمَّا أنْ يَغفِر الله تعالىٰ للإنسان، وإمَّا أن يُعذِّبه؛** لقوله تعالىٰ: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾، فإن كان كافرًا عُذِّب؛ وإنْ كان مُسلِمًا كان تحت المشيئة؛ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾

البصائر والحكم

- فضل الآيتين:

هاتان الآيتان هما خواتيم سورة البقرة، وقد جاءتا كالنتيجة لما ورد في السورة من الأحكام والتشريع، والدليل علىٰ تحقق الغرض الذي سيقت السورة لأجله؛ ولهذا جاءت الآثار بفضلهما، ومن ذلك ما ورد أن النبي ﷺ أعطيهما ليلة الإسراء والمعراج[1]، وأنهما أنزلتا من كنز تحت العرش، وأنه لم يعطهما نبي قبله[2]، وأن النبي ﷺ بشر بهما ووعد بإجابة الدعاء فيهما، وأن من قرأهما في ليلة كفتاه[3].

(١) كما يدل عليه ما أخرجه مسلم (١/ ١٥٧) رقم (١٧٣) عن عبد الله، قال: (لما أُسْرِيَ برسول الله ﷺ انْتُهِيَ به إلىٰ سدرة المنتهىٰ، وهي في السماء السادسة إليها ينتهي ما يُعْرَج به من الأرض فَيُقْبَض منها، وإليها ينتهي ما يُهْبَطُ به من فوقها فيُقْبَض منها. قال: وأعطي رسول الله ﷺ ثلاثًا: أعْطِيَ الصلوات الخمس، وأعْطِيَ خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئًا المُقْحَمات).

(٢) كما يدل عليه ماأخرجه الإمام أحمد عن أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: (أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش، لم يعطهن نبي قبلي) وصححه الأرنؤوط في تعليقه علىٰ المسند.

(٣) كما دل عليه ما أخرجه البخاري(٤/ ٤٧٢) رقم (٣٧٨٦) ومسلم (١/ ٥٥٤) رقم (٨٠٧). =

- مجمل ماتضمنته الآيتان من المعاني:

١- بيان أصول الإيمان.

٢- بيان ركني الإيمان الصحيح الكامل، وهما السمع والطاعة.

٣- بيان القاعدة المتضمنة رفع الحرج عن الأمة في التشريع، وهي قوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ .

٤- كمال العفو والمغفرة والرحمة، وهذا من كمال الرحمة بالأمة.

- وجه مناسبة خواتيم السورة لفاتحة الكتاب:

ورد أن النبي ﷺ بشر بالفاتحة وخواتيم سورة البقرة، وأنهما لم يُؤتَيهما نبي قبله، وأن النبي ﷺ أعطي ما فيهما من الدعاء؛ وذلك لأن الله تعالىٰ افتتح الفاتحة بثناء المؤمنين عليه ومدحه، وبيان وجوه كمال حمده، وافتتح الآيتين في آخر سورة البقرة بثنائه علىٰ المؤمنين ومدحهم بالإيمان وبيان وجوه كمال إيمانهم، ولأن الله تعالىٰ ضمنهما دعاء، وأن الدعاء فيهما وارد بصيغة الجمع علىٰ لسان المؤمنين جميعًا، أنه ختم سورة الفاتحة بدعائهم بأن يجنبهم صراط المغضوب عليهم والضالين، وختم آخر البقرة بدعائهم أن ينصرهم عليهم.

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾

◈ غرض الآية: بيان أصول الإيمان، وبيان ركني الإيمان: السمع والطاعة.

= عن أبي مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه».

البصائر والحكم

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾: كمال إيمانهم بعد تكليفهم، ولذا ابتدأها بالإخبار عنهم بلفظ ﴿ءَامَنَ﴾ وهو متضمن الثناء والمدح.

- وجه تخصيص ذكر الرسول ﷺ: أن في التنصيص عليه ﷺ دلالة علىٰ الشهادة له بكمال تبليغه للرسالة، وأن في ذكره تشريفاً للأمة ودلالة علىٰ كمال إيمانهم بالله وكمال اتباعهم لنبيهم ﷺ.

- وجه تخصيص جملة ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ وتقديمها: لأن الغرض المقصود بالآية أصلاً إظهار إيمانهم بالكتاب وبما أنزل عليهم من الأحكام والتشريع، وهو ما دلت عليه هذه الجملة صريحاً؛ فلذلك خصه وقدمه ثم عقبه بما يؤكده من مراتب الإيمان الأربعة.

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾: الجملة دالة علىٰ كمال إيمانهم بأصول الإيمان المتعلقة بالوحي والتشريع الدالة علىٰ كمال إيمانهم وامتثالهم.

- وجه عدم ذكر الإيمان باليوم الآخر: لأن الغرض هنا بيان إيمانهم بما أنزل عليهم من التشريع، وحملهم لأمانة الدين، فاقتصر علىٰ ذكر الإيمان بالمراتب الأربعة، لتعلقها بذلك، وأن في تخصيص هذه المراتب الأربعة مزيد تشريف للمؤمنين، وتعريضاً بأهل الكتاب الذين أخلوا بالإيمان بها كما فصّلته السورة في آياتها المتقدمة.

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ بعد ذكر الإيمان الرسل: الجملة بيان لتحقيق إيمانهم برسل الله جميعاً، وعدم التفريق بينهم في الإيمان

والتصديق بالنبوة إشعاراً بكمال إيمان المؤمنين وفضلهم؛ ولهذا جاء الخطاب بلسانهم صريحـًا، وخص ذكر الرسل دون غيرهم ممن ذكر في الآية.

- وجه تغيير الخطاب ومجيء اللفظ علىٰ لسان المؤمنين: حتىٰ يتلقونه علىٰ سبيل الاعتقاد مباشرة، فيكون منهجا ثابتـًا لهم؛ فكأنه تلقين من الله لهم، وهو دال علىٰ كمال عنايته تعالىٰ بهذه الأمة، ورحمته بها؛ إذ تولىٰ رعايتها وحفظها.

- وجه قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ والمراد بالسمع والطاعة: الجملة بيان لإقرارهم الكامل المتضمن الإيمان والانقياد والطاعة، ومخالفتهم لحال بني إسرائيل الذين قالوا: سمعنا وعصينا، والمراد بالسمع القبول للأمر، والطاعة الانقياد والامتثال له، وهما يجمعان كمال الإيمان علمـًا وعملاً[1].

- وجه الإتيان بالقول من قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾: لأجل نزول الآية؛ إذ أن النبي ﷺ قال لهم: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا؟ بل قولوا سمعنا وأطعنا» فقالوها، فنزلت الآية؛ ولهذا أتت الجملة بالقول ﴿قالوا﴾ بخلاف ما قبلها.

- وجه ختم الآية بقوله تعالىٰ: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾: الجملة واردة في إقرارهم بعدم وفائهم بحق ربهم، وطلبهم المغفرة منه بعد قبولهم وانقيادهم.

- أنَّ المؤمنين تَبعٌ للرَّسول ﷺ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾؛ وَجْه التَّبعيَّة أنه ذكَر ما آمَن به قبل أن يَذكُر التابعَ- يعني لم يقُل: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾، وهذا يدلُّ علىٰ أنَّهم أتباعٌ للرَّسول ﷺ، لا يَستقِلُّون بشريعةٍ دونه .

---

(١) انظر: «مفاتيح الغيب» (٧/ ١١٩).

- **أنَّه كلَّما كان الإنسان أقوىٰ إيمانًا بالرسول ﷺ كان أشدَّ اتِّباعًا له؛** وَجْهه: أنَّه تعالىٰ قال: ﴿أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ يعني: والمؤمنون آمَنوا بما أُنزِل علىٰ محمَّد ﷺ من ربِّه؛ وعليه فكلُّ من كان أقوىٰ إيمانًا كان أشدَّ اتِّباعًا.

- **في قوله:** ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ **ترتيبٌ في غاية الفصاحة؛** لأنَّ الإيمان بالله هو المرتبة الأولىٰ، والإيمان بملائكته هي المرتبة الثانية؛ لأنَّهم كالوسائط بين الله وعباده، والإيمان بالكتُب- الذي هو الوحي الذي يتلقَّنه المَلَك من الله، يُوصِّله إلىٰ البشر- هي المرتبة الثالثة، والإيمان بالرُّسُل الذين يَقتبِسون أنوارَ الوحي؛ فهم متأخِّرون في الدَّرجة عن الكُتُب، وهي المرتبة الرابعة.

- **قوله:** ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾: فيه مناسبةٌ حسنةٌ بتقديم ذكرِ السَّمعِ والطاعةِ علىٰ طَلَب الغُفران؛ لأنَّ تقديمَ الوسيلةِ علىٰ المسؤول أدْعىٰ إلىٰ الإجابة والقَبُول، والتَّعرُّض لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ مع الإضافة إليهم ﴿رَبَّنَا﴾؛ للمُبالغةِ في التضرُّع والجُؤار.

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾

◈ غرض الآية:

بيان رفع الحرج والتكليف في التشريع تخفيفًا من الله علىٰ المؤمنين وتكريمًا لهم، بعد إيمانهم وكمال قبولهم وامتثالهم.

◈ معاني الآية:

- **المراد بقوله ﴿كُلٌّ ءَامَنَ﴾:** الرسول والمؤمنون؛ لأن الغرض الغرض هو بيان كمال إيمان الرسول والمؤمنين بما أنزل إليهم في الكتاب وما تضمنته هذه السورة من الأحكام.

- **القائل لقوله تعالىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾:** هو من كلام الله تعالىٰ، تكريماً للمؤمنين بعد كمال إيمانهم وإجابة لدعائهم، وتقديماً لإجابة دعائهم؛ لأن الغرض بيان عدم التكليف فوق الطاقة في التشريع تخفيفاً من الله تعالىٰ، وهذا يستلزم أن يكون الكلام من الله تعالىٰ إخباراً للمؤمنين.

- **المراد بالنسيان والخطأ في الآية:** هو الذي يكون بغير قصد؛ لأن الجملة دالة علىٰ ما تضمنته الشريعة من رفع الحرج وعدم التكليف بما لا طاقة للإنسان به، ولا يكون ذلك إلا في الخطأ والنسيان غير المقصود.

- **المراد بقوله ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾:** الجملة الأولىٰ متضمنة طلب عدم تحميلهم التكاليف الشديدة التي كانت محملة علىٰ بني إسرائيل، والمراد بالجملة الثانية ما هو أعم من ذلك وأشد مما لا يطيقونه مبالغة في الطلب؛ لأن الآية واردة في سياق بيان وجوه التخفيف.

البصائر والحكم

- **وجه قوله تعالىٰ: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾:** الترغيب في العمل والتأكيد عليه، والتحذير من التقصير والتفريط فيه بعد التخفيف والتيسير، ولهذا أتىٰ بهذه الجملة بعد قوله تعالىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

- **وجه التعبير بالكسب في الخير، والاكتساب في الشر:** أن الخير عمل طبيعي غير متكلف؛ لأنه موافق للفطرة فعبر فيه بالكسب، بخلاف الشر، فهو عمل مصادم للفطرة، ففيه ميل وانحراف عن الجادة الصحيحة المستقيمة، ولهذا عبر عنه بالاكتساب، ولأن التعبير عن الخير بالكسب؛ لأنه عمل لأجل الثواب والجزاء الحسن فهو كسب حقيقة، ولهذا قال: ﴿لَهَا﴾. بخلاف الشر؛ فإنه عمل بجهد وتعب لا ثمرة له؛ بل يتحمل الإنسان وزره ويعاقب عليه، فهو اكتساب وتحمل؛ ولهذا قال ﴿عليها﴾.

- **وجه قوله تعالىٰ:** ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾: تفصيل لما تضمنه التخفيف بقوله تعالىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ من باب إظهار كمال نعمته عليهم بالتيسير والتخفيف، وعدم التكليف ورفع الحرج.

- **وجه طلب دعائهم بـ ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ مع أنهما مرفوعان عن الأمة أصلاً:** إظهاراً للامتنان، وبياناً لكمال الشرع، ولذلك جاء الدعاء علىٰ لسان المؤمنين، ليكون وارداً علىٰ وجه الإجابة لدعائهم، وأن الآية شاملة لطلبهم عدم مؤاخذتهم لما يقع منهم بعد ذلك من خطأ أو نسيان؛ ولهذا وردت بصيغة الدعاء منهم، وأن الدعاء صادر علىٰ لسان كاملي الإيمان شفقة من التقصير في حق الله بسبب النسيان والخطأ الذي يقع منهم وهو خارج عن إرادتهم.

- **وجه قوله تعالىٰ:** ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾: بيان رفع الله التشديد علىٰ الأمة في التشريع والعقوبة، مما كان محمّلاً علىٰ الذين من قبلهم من بني إسرائيل.

- **المراد بالإصر، ووجه طلب المؤمنين ذلك:** الإصر: جميع ما حمّل علىٰ بني إسرائيل من التشديد في التكليف، بسبب تشددهم وإصرارهم علىٰ العناد، ويشهد لذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[الأعراف ١٥٧]،

ووجه طلبهم ذلك فلأن طلبهم ذلك بغرض عدم تكليفهم ما يثقلهم، ويصعب عليهم حمله في سبيل قيامهم بالدين وحملهم لأمانته، وأن طلبهم ذلك بسبب أن التشديد عليهم مظنة لتقصيرهم، والتقصير سبب للعقوبة[1].

- **وجه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾:** رفع أشد التكاليف والعقوبات علىٰ الأمة مما لا طاقة لهم به، بعد رفع ما يشق عليهم من الإصر فيها، فهو تعميم بعد تخصيص.

- **وجه اقتران الدعاء في الجمل الثلاث بلفظ ﴿رَبَّنَا﴾ وتكراره، دون ذكره في الدعاء بعده:** أن في ذلك مزيد التضرع واللجوء إلىٰ الله تعالىٰ، وأن فيه دلالة علىٰ أن كل جملة متضمنة معنىٰ خاصاً، مع اشتراكها مع غيرها في الغرض، وأن فيه قرن طلب التخفيف بعلته، وهو كونه ربهم ومصلحهم، فهو أعلم بحالهم وعدم قدرتهم علىٰ مالا طاقة لهم به واستحقاقهم للتخفيف والتيسير.

- **وجه قوله تعالىٰ: ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ﴾:** طلب التجاوز عنهم عما وقع منهم من التقصير والزلل، بعد طلب التخفيف في التشريع.

- **وجه قوله تعالىٰ: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾:** كمال اعترافهم بالله واعتمادهم عليه، وتحملهم أمانة الدين والقيام بها والسعي لتبليغها، شكراً لله علىٰ ما أولاهم من نعمة هذا الدين العظيم.

- **وجه تقديم طلب النصرة بقولهم ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾:** فيه دلالة علىٰ ما سيواجهه المؤمنون من أعدائهم الكافرين، بعد تحملهم أمانة الدين وشهادة الله لهم بذلك، وفي ذلك تهيئة وإعداد نفسي لهم وبعث علىٰ الجهاد.

- **وجه ختام السورة بقوله تعالىٰ: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾:** فيه دلالة علىٰ أن غاية التشريع ومقصده الأعظم هو تبليغه

---

(١) انظر: «مفاتيح الغيب» (٧/ ١٢٧).

ونشره في الأرض وإعلاء كلمته بالجهاد، فيه إشارة ووصية من الله تعالىٰ للمؤمنين بالقيام بنشر الدين والجهاد في سبيل ذلك، بعد إكمال الدين لهم، ولأن حمل راية هذا الدين وتبليغه ونشره في الأرض وإعلاء كلمته بالجهاد من أعظم مطالبهم، وهذا من كمال الامتثال.

- وجه ختام السورة بالدعاء: فيه إشارة إلىٰ انتهاء السورة، وفيه دلالة ووعداً بظهور هذا الدين؛ إذ أن دعاء المؤمنين متضمن طلب التيسير والتخفيف الدائم، كما يدل عليه الإتيان فيه بصيغة المضارع، ويؤكده ختمه بطلب النصر علىٰ الأعداء.

- أنَّ للإنسان طاقةً محدودة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا وُسْعَهَا﴾؛ فالإنسان له طاقة محدودة في كل شيء: في العِلم، والفَهْم، والحِفْظ؛ فيُكلَّف بحسَب طاقته .

- في قوله ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾: أنَّ للإنسان ما كسَب دون أن يَنقُص منه شيء، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾.

- أنَّ الأعمال الصالحة كَسْب؛ وأنَّ الأعمال السيِّئة غُرْم؛ وذلك مأخوذ من قوله تعالىٰ: ﴿لَهَا﴾، ومن قوله تعالىٰ: ﴿عَلَيْهَا﴾؛ فإنَّ ﴿علىٰ﴾ ظاهرة في أنها غُرْم؛ واللام ظاهرة في أنَّها كَسْب .

- وفي الإتيان بكَسَبَ في الخير الدَّال علىٰ أنَّ عمل الخير يَحصُل للإنسان بأدنىٰ سعي منه، بل بمُجرَّد نيَّة القلب، وأتىٰ باكْتَسَبَ في عملِ الشرِّ؛ للدَّلالة علىٰ أنَّ عمل الشرِّ لا يُكتَب علىٰ الإنسان حتىٰ يعملَه، ويَحصُل سعيُه .

- رحمة الله سبحانه وتعالىٰ بالخَلْق، حيث علَّمهم دعاءً يدعونه به، واستجاب لهم إيَّاه في قوله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.

- أنَّه ينبغي للإنسان أن يتوسَّل في الدُّعاء بالوصف المناسِب، مِثْل الرُّبوبيَّة- التي بها الخَلْق، والتدبير؛ ولهذا كان أكثرُ الأدعية في القرآن مصدَّرةً بوصف

الرُّبوبيَّة، مِثْل: رَبَّنَا، ومِثْل: رَبِّ .

- أنَّ من كان قَبْلنا كانوا مُكلَّفين بأعظمَ ممَّا كُلِّفنا به؛ لقوله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَا﴾ .

- في قوله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، دلالةٌ علىٰ أنَّه ينبغي للإنسان أنْ يسأل اللهَ سبحانه وتعالىٰ العافيةَ، فلا يُحمِّله ما لا طاقةَ له به؛ ففيه ردٌّ علىٰ الصُّوفية الذين قالوا: نحن لا نسأل الله تعالىٰ أن يَقِيَنا ما يَشُقُّ علينا؛ لأنَّنا عبيدُه، وإذا حصل لنا ما يَشُقُّ، فإنَّنا نَصبِر عليه؛ لنكسِب أجرًا .

- أنَّه ينبغي للإنسان سؤالُ الله العفوَ؛ لأنَّ الإنسان لا يخلو من تقصيرٍ في المأمورات، فيسأل الله العفوَ عن تقصيره؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱعۡفُ عَنَّا﴾، وسؤالُ الله المغفرةَ من ذنوبه التي فعَلها؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾؛ لأنَّ الإنسانَ إن لم يُغفَر له تراكمتْ عليه الذُّنوبُ، ورانت علىٰ قلبه، وربَّما تُوبِقه، وتُهلِكه .

- التوسُّل إلىٰ الله تعالىٰ في الدُّعاء بما يَقتضي الإجابةَ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿أَنتَ مَوۡلَىٰنَا﴾ بعد أنْ ذكَر الدُّعاءَ في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآ﴾.

- ﴿أَنتَ مَوۡلَىٰنَا﴾، هذه الكلمة تَدلُّ علىٰ نهاية الخضوع والتذلُّل، والاعتراف بأنَّه سبحانه هو المتولِّي لكلِّ نِعْمة يَصِلون إليها، وهو المعطِي لكلِّ مَكرُمة يفوزون بها، فلا جَرَمَ أَظهروا عند الدعاءِ أنَّهم في كونهم مُتكلِّمين علىٰ فضْله وإحسانه بمنزلة الطِّفل الذي لا تَتِمُّ مصلحته إلَّا بتدبير قَيِّمِه، والعبد الذي لا يَنتظِم شَمْلُ مهمَّاته إلَّا بإصلاح مولاه، فهو سبحانه قَيُّوم السَّموات والأرض، والقائم بإصلاح مهمَّات الكل، وهو المتولِّي في الحقيقة للكلِّ.